بيزنطة والعالم الخارجى

الجزء الأول

البيزنطيون والعالم الإسلامى

بيزنطة والعالم الخارجى

الجزء الأول

البيزنطيون والعالم الإسلامى

د. طارق منصور

كلية الآداب - جامعة عين شمس

القاهرة ٢٠٠٣

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

الناشر

مصر العربية للنشر والتوزيع

١٩(١٣أ سابقاً) ش إسلام – حمامات القبة

ص. ب. ٥٧٤٠ هليوبوليس

القاهرة – مصر



تلفاكس ٢٥٦٢٢٦٨

الطبعة الأولى ٢٠٠٣م

البيانات الببلوجرافية لدار الكتب المصرية

المؤلف:د. طارق منصور محمد

العنوان: بيزنطة والعالم الخارجى، ج١، البيزنطيون والعالم الإسلامى

I- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية- الحضارة البيزنطية

١- طارق منصور محمد ٢- العنوان

949'5-dc21

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٨٥٦٣

رقم الإيداع الدولى:

طبع فى جمهورية مصر العربية

لوحة الغلاف تمثل سفينة بيزنطية تهاجم مركبا حربيا إسلاميا بالنار الإغريقية. منمنة من مخطوط يوحنا سكيلتزس، من القرن الحادى عشر الميلادى.

إهداء

إلى كل مدافع مات شهيدا من أجل الحق

إلى شهداء اكتوبر ١٩٧٣

الفهرس



مقدمة

علــي مدي أحد عشر قرناً، هي عمر الإمبراطورية البيزنطية، أو دولة الروم كمــا كــان يســميها العــرب، لم تر الأخيرة قوة مثل قوة المسلمين؛ الذين اثخنوا القســطنطينية بالجــراح مــراراً، حتى سال دم الروم في نهاية المطاف علي أيدي السلطان العثماني محمد الفاتح عام ١٤٥٣م عندما دكت المدفعية التركية أسوارها، لتهوي الشخصية البيزنطية إلي الثري، بعد أن عاشت في عليين ما لا يقل عن ألف عام أو يزيد قليلاً.

لقــد أسس الإمبراطور قسطنطين الأول عاصمته القسطنطينية في عام ٣٣٠م لتكون "روما الجديدة"، وأحاطها بالأسوار والأبراج الشاهقة، التي كفلت لها الصمود فــي وجه الغزاة، الذين جاؤها من كل حدب وصوب، وعادوا جميعاً بخفي حنين؛ ولــم تفــتح أبوابهــا إلا علي أيدي الصليبيين عام ١٢٠٤م عنوة. وبرغم الحصانة الطبيعية والصناعية لتلك المدينة، وشهرتها الواسعة في عالم العصور الوسطي، إلا أن المسلمين وجهوا جيوشهم شطر العاصمة البيزنطية، القسطنطينية، في محاولات ثــلاث لإســقاط هذه العاصمة، زمن الخلافة الأموية، إلا أن هذه الحملات فشلت جمــيعاً. ومــنذ تلك اللحظة بدأ البيزنطيون يدركون أن المسلمين قد تخطوا مرحلة تهديد الأطراف البيزنطية، لاسيما بعد أن استولوا علي بلاد الشام وفلسطين ومصر وإفريقــية، وبــدءوا فــي السير نحو إسقاط القلب أو العاصمة البيزنطية ذاتها في محاولــة منهم لفتح بيزنطة كما سبق وفتحوا فارس من قبل. وقد قوى هذا الشعور لدي البيزنطيين، إنشاء المسلمين لأساطيل إسلامية في ترسانات بلاد الشام ومصر، استطاعوا بفضلها انتزاع السيادة البيزنطية علي حوض البحر المتوسط، الأمر الذي دفــع البيزنطييــن إلي القيام بمحاولات يائسة لاسترداد السيادة الضائعة علي البر والــبحر، فقاموا بشن هجمات عدة علي سواحل مصر وبلاد الشام، إلا أن معظمها بــاء بالفشــل، ولم تفت في عضد المسلمين، بل علي العكس زادتهم حماسة وقوة لاستكمال حركة الفتح والجهاد ضد البيزنطيين.

وفـــي هـــذا العمـــل العلمـــي المتواضع، الذي نقدمه للقاريء العام والمثقفين والباحثيـــن، نحـــاول رصد العلاقة بين القوتين العظمتين في العصور الوسطي قوة الدولـــة الإسلامية وقوة الدولة البيزنطية، منذ عهد الأسرة الهرقلية حتى نهاية عهد الأســـرة المقدونية، الذى يمثل عصر التحدى والاستجابة فى التاريخ البيزنطى. وقد أثـــرنا عـــدم حشـــو صفحات العمل بكامل الهوامش الأكاديمية التي قد تثقل علي القاريء العام، وحاولنا قدر الإمكان تبسيط المعلومة التاريخية حتي يسهل علي كل فـــئات القـــراء تصـــفح الكتاب في سهولة ويسر، دون الإخلال بالمعني أو الحقيقة التاريخية.

لقـــد حاول المؤلف بقدر الإمكان أن يقدم عرضاً مبسطاً لتاريخ العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين، في الفترة من الاسرة الهرقلية إلى الاسرة المقدونية ، او منذ ظهـــور الإســـلام وحتي انهيار الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، الذي ســـادت فيه روح الاستقلال في الولايات التابعة لبغداد، ثم تلتها بقيام خلافة أخرى شيعية بمصر وإفريقية، هي الخلافة الفاطمية؛ ويمكن القول أنه في تلك الفترة لعب الحمدانـــيون الدور الرئيسي في صد المد البيزنطي تجاه العالم الإسلامي، ولولاهم لتمكـــن البيزنطـــيون من استعادة بلاد الشام وفلسطين ثانية من أيدي المسلمين، في فـــترة تولـــي حكم بيزنطة فيها أباطرة أكفاء عرف عنهم البطولة والشجاعة أمثال نقفور فوقاس، ويوحنا تزيمسكس، وباسيل الثاني.

وفـــي الختام تبقي كلمة شكر إلى أستاذى المرحوم ا.د. رأفت عبد الحميد لثقته الغالية فى واحد من أبنائه الباحثين وما غرسه في على مدى سنوات عشر أمل أن يـــثمر خيرا، فله من خالص الشكر والتقدير. كما أتقدم بخالص الشكر إلي كل من ساهم في دعم وتنقيح وتهذيب هذا الكتاب. وفى الخاتمة أسأل الله أن يفيد منه القراء والمثقفين والباحثين من أبناء أمتنا العربية.

المؤلف

د. طارق منصور

مدينة نصر – القاهرة

الفصل الأول

البيزنطيون والعرب قبيل ظهور الإسلام

الفصل الأول

البيزنطيون والعرب قبيل ظهور الإسلام

كانــت الإمــبراطورية البيزنطية بالنسبة للعرب أياً كانت أجناسهم ومنذ قديم الأزل الحصــن المنـيع الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه لذا كان الجميع ينظرون إليها برهبة خاصة ، وأمل فى الدخول إلى أراضيها فاتحين منتصرين.

لقــد كانت الإمبراطورية البيزنطية منهكة القوى وئيدة الحركة خاوية الوفاض قــرابة نهاية القرن السادس الميلادى وصاحب هذا اعتلاء هرقل Heraclius عرشها الإمــبراطور ي سنة ٦١٠م، ويرجع هذا لعدة أسباب منها القريب ومنها البعيد. أما عن السبب القريب فيتمثل فى الثورة من أجل الحكم الإمبراطور ى وما صاحبه من فوضى فقد كان يحلو للبعض أن يخطط ويدبر ويتحين الفرصة ليقوم بانقلاب على الحكم يسانده فــيه بعض أعوانه ورفاقه ثم سرعان ما يستأثر بالسلطة لنفسه بعد ذلك ويعمل من أجل مصالحه الشخصية وخير مثال لنا فوقاس Phocas ٦٠٢-٦١٠م الذى نادى به الجيش إمــبراطوراً عــام ٦٠٢م بعــد أن اســتاء الجــنود مــن بعض التغييرات التى أدخلها الإمــبراطور موريس Maurice ٥٨٢-٦٠٢م على النظام المالى فى الجيش فما كان مــنهم إلا أن هــبوا ثائرين على الإمبراطور موريس وانتهى الأمر باغتياله وتلى هذا تــتويج ضــابط شــاب من بينهم يدعى فوقاس Phocas ، الذى استبد بالإمبراطورية وراعــى مصالحه الشخصية قبل مصالح شعبه.[1] وزاد الطين بلة الكوارث التى حلت

---

[1] عن نهاية الامبراطور موريس الأليمة وتولى فوقاس الحكم انظر،

Theophanes, *The Chronicle of Theophanes Confessor*, ed. and Eng. trans. R. Scott and C. Mango, Oxford, 1997,pp. 411-419;*Chronicon Paschale 284-628 AD.*, Eng. trans. M. and M. Whitby, *Translated Texts for Historians*, Vol. 7, Liverpool,1989, pp.142-143; Cf. also Shlosser, F., *The Reign of the Emperor Maurikios*, Athens, 1994, pp.70-78.

ليلى عبد الجواد اسماعيل، الامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهــرة، ١٩٨٥، ص ٤٠؛ وســام عــبد العزيز فرج، دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية، ج١، الاسكندرية، ١٩٨٥، ص ١٠٧-١١٠.

بالإمـــبراطورية فـــى عهده ، والتى كان من المفروض أن يتخلص منها ويجد مخرجاً للإمـــبراطورية مـــنها .[1] لقـــد بلغ الإمبراطور فوقاس ٦٠٢ - ٦١٠م درجة من سؤ الأخـــلاق ، جعلت المؤرخون البيزنطيون يطلقون عليه صفة الطاغية ، فقد سخر البلاد لصـــالحه ، واغتصـــب النســـاء والفتـــيات العذارى دون رحمة ، حتى لم يعد الشعب البـــيزنطى قادراً على تحمله . أما على الصعيد الخارجى فقد بدأ الفرس يطالبون بالثأر لمقتل الإمبراطور موريس ، صديقهم ، وبدأوا يعدون العدة لغزو الأراضـى البيزنطية . إزاء كـــل هذه الأحداث قرر السناتو فى القسطنطينية أن يرسل رسالة إلى هرقل حاكم ولاية أفريقية البيزنطية كى يهب ويحشد قواته ويأتى لنـــجدة البلاد من براثن فوقـــاس البغيـــض .[2]

وقـــد قـــرر هرقل الأب أن يهب لنجدة البلاد ملبياً طلب رجال السناتو ، حيث أرسل ابنه وسميه هرقل إلى القسطنطينية واستطاع أن يستولى على زمام الأمور هناك، حيـــث توج إمبراطورا على الإمبراطورية البيزنطية بعد مقتل فوقاس.[3] كان هذا هو الســـبب القريـــب الذى ساهم فى تقييد حركة الإمبراطورية بعض الشئ وجعلها منهكة القـــوى وئيدة الحركة مبلبلة الفكر . أما السبب البعيد فهو يرجع إلى عصر الإمبراطور جســـتنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م الـــذى تملكـــته الـــنزعة الرومانية القديمة فى توحيد شطرى الإمـــبراطورية الغـــربى والشرقى وأن يجعل من نفسه إمبراطورا رومانياً . فقام بشن

---

[1] عن الكوارث التى حلت بالامبراطورية في عهد فوقاس انظر، *Theophanes*, pp. 420-429; Nicephoros Patriarch of Constantinople, *Short History,* ed. and Eng. trans. C. Mango, *CFHB*, 13(Washington, D.C. 1990), pp.35-38.

[2] انظـــر Theophanes, pp.427-428; *Chronicon Pashcale*, pp. 149-152.Cf. also Tarek M. Mohammed, The Expedition of Nicetas on Egypt 609-610 AD.How, Why and When?, *AESGRS*, 4(1999-2000), pp.97-112;
ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٤٢-٧٠.

[3] *Chronicon Paschale*, p.152ff.; *Theophanes*, pp. 427-429.See also Stratos, A. N., *Byzantium in the Seventh Century*, Vol. I, Eng. trans. M. Ogilvie-Grant, Amsterdam, 1968, 87ff.

سلسلة من الحروب التى لم تنقطع طوال فترة حكمه للإمبراطورية فتارة يعقد صلحاً مع الفرس ويتوجه للغرب اللاتينى ليخضعه لحكمه وتارة يتجه لمحاربة الهراطقة الآريوسيين ليكسب السلطة الدينية أيضاً ويضم البابوات إلى صفه وليعبأ نفوذهم وقواهم من أجل مشاريعه الطموحة التى جنت على الإمبراطورية الدمار والخراب من بعده إلى أن جاء هرقل سنة ٦١٠م. وأبسط شئ لهذا هى تلك الخزانة الخاوية التى لم يستطع أحد الأباطرة من بعده أن يعيد إليها شبابها وحيويتها، ومثال آخر متمثل في المدن التى قضى عليها وعلى أهميتها والتى كان من الممكن أن يستفاد منها لصالح الإمبراطورية مثل روما Roma ورافنا Ravenna وغيرها من المدن الإيطالية . بل عادت الإمبراطورية لتنهار تدريجياً بعد موته، حتى ما إذا قدم هرقل تفرغ لمشاكلها خاصة الشرقية.[١]

ومنذ عهد هذا الإمبراطور الشاب هرقل بدأت الإمبراطورية تتخذ سمات وملامح بيزنطية خاصة من حيث الشكل والمضمون، حيث أرسى قاعدة للتجنيد الوطنى في الجيش وجعله اجباريا على كل من بلغ سن الرشد من سكان البلاد من الذكور، واهتم بتدريب الجيش بنفسه، وأمر أن تصدر المراسيم باللغة اليونانية التى يجيدها الشعب، بعد أن كانت تكتب باللاتينية، واتخذ له لقبا يونانيا هو لقب باسيليوس، الذى يعنى الملك بدلا من اللقب الرومانى إمبراطور، كما وحد بين الجهاز الادارى والجهاز الدينى بالبلاد...وغير ذلك من الاجراءات التى جعلت الامبراطورية البيزنطية في عهده مختلفة الملامح عن ذى قبل. وبهذه الطريقة انتهى حلم جستنيان الذى ظل يحلم به طويلاً ومنى نفسه كثيراً به بأن يعيد أمجاد الامبراطورية الرومانية ويوحد بين شطريها ثانية. ولكن يبدو أن جستنيان كان السبب فى هذه الأوضاع المتردية التى انتابت

---

[١] عن احوال الامبراطورية البيزنطية في عهد جستنيان وما جره عليها انظر، *Theophanes*, pp. 265-355; *Chronicon Paschale*, pp.108-135. Procopius of Caesarea, *History of Wars*, Eng. trans. H. B. Dewing, Cambridge, Mass., 1941-1940), 7 Vols.Cf. Ure,P., *Justinian and his Age*, London, 1951, pp. 17-217.
محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادى، عصر جستنيان، القاهرة، ١٩٨٩؛ وسام فرج، دراسات، ص ٥٧-١٠٤.

الإمبراطورية البيزنطية من بعده فقد أهمل الجيش بعد أن أنهك قواه فى الحروب طيلة حكمه وبعد أن بدأ الملل يتطرق إلى جنوده ، بل إن السكان أنفسهم بدأوا يتأففون من سؤ أحوالهم ، وقضى على اقتصاد دولته. وهكذا أمست الخزانة خاوية تماماً بعد أن بدد أموال الشعب من أجل تحقيق حلمه، ولم يكتف بهذا بل شيد العديد من العمائر والمبانى التى أرهقت الخزانة وأرهقت الشعب نفسه الذى عانى كثيراً من السياسة المالية المتشددة الصارمة فى نفس الوقت.(١)

على أية حال ، اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية ٦١٠م بعد أن استطاع أن يقضى على فوقاس كما أسلفنا وكانت الأحوال العامة داخل الإمبراطورية لا تبشر بخير أبداً فمن ناحية عاد الفرس لمحاربة الإمبراطورية البيزنطية ثانية خاصة مع سياسة فوقاس المتشددة والمتعجرفة إزاء هذا الخصم اللدود ، الذى ظل يترصدهم دائماً، هذا من ناحية. أما من الناحية الأخرى فقد عاد الآفار لعبور نهر الدانوب واجتاحوا أقاليم تراقيا Thrace وايلليريا، أما السلاف فقد انتشروا فى كل مكان من شبه جزيرة البلقان دون عناء أو أية مقاومة.(٢) لقد استطاع فوقاس أن يقضى على كل ما تبقى من معانى الاستقرار والاستمرار فى الحكومة البيزنطية(٣) ولم يكن فوقاس هذا أهلاً للتحديات التى واجهت الإمبراطورية لذا سرعان ما خلص القدر الإمبراطورية منه. وقد كان على هرقل أن يعيد كل شئ لسابقه وأن يقدم الاستقرار لدولته وخاصة لسكان عاصمتها القسطنطينية كذلك كان عليه أن يملأ الخزانة البيزنطية ثانية وأن يصلح من أحوال شعبه بعد أن ساهم بعض أسلافه فى أن يلقوا عليه بهذه التبعات.

لقد أدرك هرقل مدى صعوبة مهمته لدرجة أنه فكر فى العودة ثانية لشمال أفريقية لولا اعتراض سكان العاصمة واعتراض البطريرك سرجيوس Sergius وكانت

---

(١) انظر Procopius of Caesarea, *De Aedificiis*, Eng. trans.H. B. Dewing, London, 1940.Cf. Ure, *Justinian*, pp.201-244.

(٢) ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٤٢، ٢٠٦-٢٣٠؛ وسام فرج، دراسات، ص ١٤٧-١٥٢.

(٣) وسام فرج، دراسات، ص ١١١.

أحوال الإمبراطورية المتردية هي السبب في أن تتطرق هذه الفكرة إلى ذهن الإمبراطور[1]. لقد كانت إغارات الآفار مدمرة بمعنى الكلمة على أنهم اختلفوا عن غيرهم من العناصر البربرية الأخرى فى أنهم كانوا ينزلون المناطق ينهبونها ويسلبونها ثم يعودوا لمناطق استقرارهم ثانية، بعكس السلاف الذين كانوا يستقرون فى المناطق التى ينزلون بها بعد أن ينهبونها . وقد استطاعت هذه العناصر أن تستولى على شبه جزيرة البلقان، ولم تكتف بالمناطق الواقعة جنوبى الدانوب ومقدونيا، إذ اجتاحت إقليم تراقيا ووصلت فى إغاراتها حتى أسوار القسطنطينية ، كما هاجم السلاف أيضاً إقليم دالماشيا Dalmatia . وفى نفس الوقت استمر ضغط الفرس على الجبهة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ففى سنة ٦١١م بدأ هجوم الفرس على الشام حيث هزموا جيشاً بيزنطياً بالقرب من انطاكية عام ٦١٣م. أمام هذا كله وجب على هرقل أن ينهض بدولته من سباتها العميق ليواجه هذه الأخطار السابقة الذكر .

ومن الجدير بالذكر أن نذكر أن الفرس استطاعوا أن يسقطوا دمشق فى قبضتهم عام ٦١٤م ولم يلبث بيت المقدس أن سقط بعد ذلك بقليل ، وحملوا الصليب المقدس ، وهو أقدس آثار المسيحية، إلى بلاد فارس؛ واستطاعوا دخول مصر أيضاً، وأصبحت مصر ولاية فارسية مدة عشر سنوات. وكان سقوط مصر فى أيدى الفرس ضربة قاصمة للإمبراطورية البيزنطية، لأن مصر كانت البقرة الحلوب للإمبراطورية البيزنطية بغلالها الوفيرة وأموالها الكثيرة ومدنها العتيقة ، وكان على بيزنطة أن تعد العدة لاستردادها مرة ثانية. وقد استطاعت القوات الفارسية أن تصل إلى أعماق آسيا الصغرى حتى مدينة خلقدونية وهو ما لم يحدث منذ عهد الملك دارا Dara ، واكسركسيس Xerxes .[2] وقد استبد اليأس بهرقل حتى أنه فكر فى نقل مقر حكومته إلى شمال إفريقية ليدير دفة الحكم من هناك كما سبق وذكرنا. وقد استطاع هرقل أن يرتب شئون دولته الإدارية من الداخل فقد حاول التوفيق بين المذهب المينوفيزتى

---

[1] وسام فرج، دراسات، ص ١٤٨.

[2] ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٢٠٦-٢٣٠.

ومذهب الإمبراطورية فاستطاع أن يجد صيغة مشتركة من التوفيق يسوى بها ما كان من الاختلافات المذهبية التى عمت دولته. كما أن هرقل لجأ وللمرة الأولى إلى تجنيد عناصر الجيش من العناصر الوطنية، وبهذا وضع قاعدة جديدة للتجنيد فى الجيش ، بدلاً من الاعتماد على المرتزقة ؛ بل وصل أمر الاعتناء بالجيش إلى أنه قام بنفسه بالإشراف على تدريب القوات البيزنطية ، كما قام بنسخ الكتب العسكرية البيزنطية التى تعنى بالجندية ، وتوزيعها على الجند .[1] ولم يكتف هرقل بتلك الإصلاحات ، بل تعداها إلى ابتكار نظام إدارى جديد يسمى نظام الثيمات أى "الأقاليم العسكرية".[2] وقد بدأ هرقل فى عام ٦٢٢م سلسلة من الحروب ضد الإمبراطورية الفارسية انتهت بالنصر فى النهاية. فقد صمم هرقل على ضرب الفرس فى عقر دارهم بدلاً من استرداد مصر وبلاد الشام، وقد تمكن من تنفيذ مشروعه الطموح فى أقل من ست سنوات (٦٢٢ - ٦٢٨) .

ففى سنة ٦٢٢م خرج هرقل بجيوشه من القسطنطينية بعد أن تركها تحت إمرة البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس كوصيان على ابنه الصغير . وقد تحرك هرقل على رأس جيشه إلى بلاد فارس بعد أن رفض كسرى أبارويز دعوة هرقل السلمية للصلح ، وقد استطاع هرقل أن يلحق بجيوش كسرى هزيمة سريعة فى عام ٦٢٢م . وفى العام التالى ٦٢٣م نزل هرقل بجيوشه فى إسوس Esoss بآسيا الصغرى واستطاع أن يهزم القوات الفارسية أيضاً فى هذا العام فى معركة فاصلة بينهما . وفى السنتين التاليتين ٦٢٤ ، ٦٢٥م استطاع هرقل أن يحتل أرمينية ، واتجه إلى زيادة أعداد جيشه بتجنيد قبائل الكولخيس والكرج الإيبرية . وفى عام ٦٢٦م استطاع كسرى أن يجمع جنوده من كل فج ويحشدهم للقيام بمعركة فاصلة يسحق فيها هرقل وجنوده . وكانت خطته أن يعرقل أحد جيوشه جيش هرقل بينما يتجه شطره الآخر لمحاصرة العاصمة

---

[1] طارق منصور، الجيش في الامبراطورية البيزنطية، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية الآداب ببنها، جامعة الزقازيق، ١٩٩٣، ص ٩٥-١٠٠.

[2] طارق منصور، الجيش، ص ٢٠٣-٢٧٣؛ طارق منصور، قطوف الفكر البيزنطى، ج١، الأدب، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١١٢-١٣٥، ١٤٥-١٦٠.

البيزنطية ومهاجمتها ؛ وفي نفس الوقت اتفق معهم خاقان الآفار على أن تحاصر جيوشه القسطنطينية من الشمال أيضاً . ولكن هرقل أفسد عليهم خطتهم بعد أن وجه شطراً من جيوشه للعاصمة للدفاع عنها في الوقت الذى استبسل فيه البطريرك سرجيوس ، وبونوس والسكان في الدفاع عن مدينتهم. وسرعان ما انسحب الآفار وحلت الهزيمة بالجيش الفارسي الآخر. وفي هذه الأثناء أتم هرقل استعداداته ليوجه الضربة القاضية إلى فارس في أواخر السنة التالية إذ هبط إلى وادى دجلة وشتت شمل آخر جيش فارسي، ثم استولى على قصر كسرى بعد أن استولى على مدينة دستاجرد، وانسحب كسرى إلى المدائن . وفي ربيع سنة ٦٢٨م هب الفرس ثائرين على كسرى وانتهى الأمر بقتله وتولية ابنه مكانه، حيث عقد صلحاً مع هرقل نتج عنه استرداد بيزنطة لجميع أراضيها التى فقدتها من قبل .[١]

ومن الجدير بالذكر أن شيرويه بن كسرى السابق ذكره توفي بعد ذلك ببضعة أشهر وأعلن قبل وفاته أن يصبح هرقل وصياً على ابنه الصغير. ولا شك أن هذه الوصية قد أعطت هيبة وجلالاً لهرقل وزادته نصراً على نصره ونالت من كرامة الفرس بقدر أعاد للبيزنطيين كرامتهم ؛ وقد تمكن هرقل من إعادة الصليب المقدس ثانية إلى مدينة بيت المقدس، حيث دخل المدينة في موكب مهيب وسط التهليل والتراتيل ، التى تغنى بها أهل المدينة، واستقبله الرهبان والبطريرك مودستوس، وأعاد هرقل الصليب إلى مكانه وكذلك كل ما نهبه الفرس من الذخائر الكنسية، وتبرع هرقل بالأموال اللازمة لشراء البخور، وقد وجد رجال الكنيسة الصليب سليما، فحمدوا الله على ذلك.[٢] وبهذا النصر تحققت الآية الكريمة التى بشر بها اللّٰه المسلمين بانتصار الروم على الفرس والتى قال فيها :

---

[١] عن تفاصيل حروب هرقل مع الفرس انظر، *Theophanes*, pp.438-459; *Nicephoros*, 55-67; *Chronicon Paschale*, pp. 165-188.

ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٢٣٠-٢٧٣.

[٢] Sébèos, *Histoire d' Heraclius*, ed. et trad. F. Macler, Paris, 1904, pp. 90-91.

"ألـــم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض * وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون" .[1] صدق اللّه العظيم

وبعد انتصارات هرقل وعودته إلى القسطنطينية فى عام ٦٢٨م جاءه وهو فى طـــريقه مـــن الشام إلى عاصمته كتاب محمد (ص) الذى بعث به فى العام السادس من هجرته الشريفة كما سيرد بعد ذلك.

وقـــد عاد هرقل إلى القسطنطينية بعد نصره العظيم الذى أحرزه على الفرس وســـط مواكـــب النصر والتهليل التى أعادت للدولة البيزنطية شيئاً من الانتعاش والثقة بالنفس.[2]

أمـــا عـــن الآفار فقد كانت هزيمتهم التى لحقت بهم حول أسوار القسطنطينية وهـــزيمة أســـطولهم فى البحر أشد من الصاعقة عليهم ، وكانت عاملاً هاماً فى تداعى نفوذهـــم ، وسيطرتهم على ذمام الأمور بعد ذلك . حيث انقلب عليهم الصقالبة والبلغار وشـــهدت الســـنوات التالية قيام أول دولة صقلبية فى مورافيا Moravia وتلاها إنشاء إمارة فى دالماشيا Dalmatia وهى إمارة كرواتيا[3] .

وهكذا أمن هرقل حدود دولته من كل جانب واتجه للإصلاحات الداخلية ولكن سرعان ما نهض لمحاربة عدو جديد له ، ألا وهو المسلمون .وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن البدايات الأولى للعلاقات بين البيزنطيين والمسلمين، لابد لنا أن نعرج قليلا للحديث عن أحوال العرب قبيل هذه البدايات.

احتلـــت بـــلاد العرب فى شبه الجزيرة العربية موقعاً جغرافياً ممتازاً جعلها مركـــزاً للصـــراعات السياسية والدينية آنذاك ، فهى تحيطها المياه من شرقها وغربها وجـــنوبها فضـــلاً عـــن اتســـاع مساحتها، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت شبه جزيرة

---

[1] القرآن الكريم، سورة الروم، آية ١ – ٤.

[2] عن مراسم الاحتفال بعودة هرقل الى العاصمة انظر، ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٢٧٣-٢٧٤.

[3] السيد الباز العرينى، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٦.

صحراوية أو شبه صحراوية بمعنى أصح، فقد اعتمد سكانها على الأمطار ، التى نادراً ما تسقط هناك ، لوقوعها فى المنطقة المدارية شديدة الحرارة صيفاً معتدلة شتاءً . كذلك لم تنشط الحياة الزراعية هناك بعكس وادى النيل أو بلاد ما بين النهرين . كان لكل هذا أثــره علــى سكان الجزيرة العربية فعمل البعض منهم بالتجارة، حيث كانت تخرج كل عام رحلتى الشتاء والصيف،[1] أما الغالبية منهم فقد عملت بالرعى .[2]

أمــا عن التنظيم السياسى، لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن، ولــم يكن لهم قضاة نظاميون يحتكمون إليهم، بل كان الجميع يدين بالسلطان إلى زعيم القبــيلة؛ كذلك لم يكن لهم جيشا يدرأ عنهم الأخطار الخارجية التى حاقت بهم مراراً، ولــم يكلفوا أيضا بدفع الضرائب لعدم وجود حكومة تقبض على زمام السلطة التنفيذية وتضــرب على أيدى المعتدى وتوقع عليه العقاب المتناسب مع جرمه وإنما كان واجبا على الشخص المعتدى عليه أن يثأر لنفسه بنفسه وعلى قبيلته أن تشد أزره.[3]

وقد يسقط هذا الثأر طالما دفع المعتدى الجزية أو تعويضا مناسبا تقدره القبيلة المعــتدى عليها. وكانت كل قبيلة تعتبر وحدة سياسية قائمة بذاتها لها كيانها المستقل ؛ وكثــيراً ما كانت تقوم المنازعات بين إحدى القبائل والأخرى أو تغير واحدة منها على الأخــرى، فكــان يخــرج أفراد القبيلة الذكور حاملين أسلحتهم ليكونوا جيشاً على قدر قبيلــتهم ، يهاجمون به القبيلة الأخرى ؛ وبعد عودتهم ينصرف كل فرد إلى عمله تاركاً ســلاحه قيد غارة أخرى . هكذا كانت الجيوش قائمة على العصبية القبلية آنذاك وكانت معظــم إغــاراتهم إما بهدف الثأر أو النزاع على الكلأ والمراعى ، التى كانت سبباً فى كثــير من إغاراتهم على أراضى الروم .[4] وقد صنعت القبائل من انتصاراتها ملاحم

---

[1] القران الكريم، سورة قريش، اية ١-٢.

[2] عــن جغرافــية شــبه الجزيرة العربية انظر، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤-٢٢؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى، ج١، القاهرة، بيروت، ١٩٩٦، ص ٩-١٢.

[3] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج١، ص ٤٦.

[4] عن النظام القبلى عند العرب انظر، أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٣-٧٨.

شـعرية تغـنى بها الشعراء آنذاك فى الجاهلية ومن أشهر تلك المعارك التى قامت بين العرب آنذاك يوم داحس والغبراء ، حرب البسوس ، وأيام الفجار . وكان الأحرار من العـرب يحاربون تحت إمرة سيدهم فى وقت الحرب ،[1] أما فى وقت السلم فقد كانت الأسرة هى الشئ الوحيد المنظم .

وقـد أقامـت القـوى العظمى آنذاك، الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسـية، ممالك عديدة تابعة لها فى المنطقة كان أشهرها إمارتى الحيرة والغساسنة ، الأولى أقامها الفرس أما الثانية فأقامها الروم .[2]

إمارة غسان :

كـان مـن نتيجة الصراع الذى نشب بين الفرس والبيزنطيين وكذلك اغارات العـرب علـى أملاك الدولة البيزنطية ، أن أقامت الدولة البيزنطية إمارة تابعة لها هى إمارة غسان ، والتى يعود تاريخها إلى الفترة التى خرب القادة الرومان فيها مدينة تدمر فـى عهد الإمبراطور أورليانوس Aurelianus سنة ٢٠٢م وفوض الرومان أمورهم فى هذه المناطق إلى الأمراء التنوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالت قبيلة غسان ملكهم عـام ٢٩٩م . ولمـا كانـت بلاد الشام تؤلف منطقة الحدود الشرقية فى الإمبراطورية البيزنطـية، كـان علـى أباطرة بيزنطة أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصـيب الأوفـر، ولذلـك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم فى صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها .

---

[1] عن هذه الحروب انظر، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٤٧-٥٤.

[2] تجـدر الاشارة إلى أن الاستاذ عرفان شهيد عالج علاقات العرب ببيزنطة في عدد من الدراسات المستفيضـة مـنها Irfan Shahid, *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century*, Washingtron D.C., 1984; Idem, *Byzantium and the Arabs in the Fifth Century*, Washington D.C., 1989.

وكان قبيلة قضاعة أول من قدم من العرب فى صحبة ملكهم مالك بن فهيم بن تـيم الله، وقيل أن الرومان قد ملكوا القضاعيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلـوا فـى النصرانية وأصبحوا صنائعهم، ولم يلبث أن انتقل الملك إلى بنى سليح بن حلـوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. وفى نفس الآونة تحركت قبائل الازد اليمنية على أثر انهيار سد مأرب إلى شمال الجزيرة العربية فسار بطن منها إلى الشام وأقاموا علـى ماء هناك يقال له غسان .[1] ولما نزلت غسان بجوار سليم فرضت عليهم الاتاوة وظل الغساسنة يؤدونها حتى قامت الحرب بينهم وانتصرت غسان فى النهاية وانفردت بالسـلطة دونها، حيث خضع العرب المقيمون بالشام لسلطانهم، وعقد معهم البيزنطيون حلفـا قام مقام حلفهم مع العرب الضجاعمة.[2] ويقول الأصفهاني "إن أول من ملك من غسـان، جفـنة بن عمرو مزيقيا بن عامر ابن ماء السماء وكان الذى ملكه على عرب الشام ملكاً يقال له نسطورس فلما ملك جفنه قتل ملوك قضاعة من سليح من الذين كانوا يدعـون الفجاعمـة ودانـت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبنى جلق والقرية وعدة مصانع" .[3]

كـان الحـارث بـن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأناً بلا منازع وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٢٨م ليكون بجانبه ضد المنذر ملك الحيرة . ولقد رفع جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م الحارس إلى مرتبة الملوك وبسط سيادته على كثير من قـبائل العرب بالشام حتى يقيم خصماً قوياً فى وجه المنذر ملك الحيرة .[4] ويستبعد أن يكـون الحـارث أو أحـد خلفائـه قد حمل رسمياً لقب ملك لأن هذا اللقب كان خاصاً بالإمـبراطور البيزنطى وحده كما أن الوثائق التى تمثل لغة الحكومة الرسمية أطلقت

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٣٧.

[2] عبد الرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم في عصر النبوة، القاهرة،١٩٩٧، ص ٣٧.

[3] حمزة الأصفهانى، تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء، بيروت، د.ت.، ص ١١٤-١١٥.

[4] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج١، ص ٣٧.

على الحارث وخلفائه لقب بطريق Patrictus أو رئيس قبيلة Phalarch .[١] ويبدو أن إمــارة الغساســنة قد بلغت شأنا عظيما فى عهد الحارث بن جبلة، ليس بسبب الألقاب البيزنطــية الشــرفية التى حملها، بل نفهم هذا من عبارة وردت عند يوحنا الافسوسى عــندما أراد خــدم الإمــبراطور جستين الثانى أن يخيفونه، بعد أن اصيب بلوثة عقلية جعلــته يهذى ويصرخ، فقالوا له "اهدأ، هاهو الحارث بن جبلة قادم إليك"، عندئذ اسرع جستين الثانى ليختبأ أسفل السرير ويتشبث بأحد أركانه.[٢]

لقــد حالف الغساسنة البيزنطيين محالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين علــى أطراف دولتهم واشترطوا أن يمدوهم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب ، وأن يمدوا البيزنطيين بعشرين ألفاً من المقاتلين إذا تحاربوا مع الفرس .

ولم تكن العلاقات بين البيزنطيين والغساسنة خلال حكم المنذر بنفس المستوي الذي كانت عليه من الود والمتانة خلال حكم أبيه الحارث بن جبلة. وقد عاصر المنذر حكم اثنين من الأباطرة البيزنطيين هما جستين الثاني (٥٦٥– ٥٧٨م) وتيبريوس (٥٧٨ – ٥٨٢م). وكان البَون شاسعاً بين جستين الثاني وسلفه جستنيان الأول في بعد النظرة وحســن السياسة. فرغم أن كلا الرجلين كان من أنصار الأرثوذكسية وقرارات مجمع خلقيدونيه فإن جستين الثاني لم يعرف هوادة في مطاردة المخالفين وشن حملة اضطهاد ضــدهم. ونتــيجة لذلك تعرض المونوفيزيتيون أو اليعاقبة في سوريا لإجراءات قمعية شديدة. ولما كان الغساسنة هم أكبر أنصار المذهب اليعقوبي وأخلص المدافعين عنه فقد شــملتهم لعــنة الاضطهاد الديني في بيزنطة علي يد الإمبراطور جستين٠ ولم يشفع له عــند الإمبراطور ما أداه له من خدمة جليلة حين سحق الهجوم الشرس الذى شنه ملك الحيرة اللخمى قابوس بن المنذر على الحدود الشامية–البيزنطية فى سنة٥٧٠ م٠

---

[١] علــى إبراهــيم حســن، التاريخ الإسلامى العام، القاهرة،د.ت.، ص ٨٩؛ أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، ج١، بيروت، ١٩٥٥، ص ٢٠٢–٢٠٣.

[٢] يوحــنا الأســيوى، تاريخ الكنيسة، الكتاب الثالث، ترجمة/صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٣٢.

لقد حاول جستين الثاني التخلص من المنذر بتدبير مؤامرة لاغتياله كان مصيرها الفشل وكان من أخطر نتائجها إعلان الغساسنة العصيان على البيزنطيين. ولكن استئناف الهجوم الفارسي على الحدود البيزنطية في أواخر حكم الإمبراطور الفارس كسرى أنوشروان جعل البيزنطيين يستميلون الغساسنة ويخطبون ودهم ليضمنوا عونهم فى ذلك الصراع .[1]

وقد شقت إمارة غسان عصا الطاعة على البيزنطيين في عهد أميرهم المنذر بن الحارث بن جبلة ٥٦٩-٥٨٢م لمدة ثلاث سنوات. حيث كان الامبراطور جستين الثاني قد غضب عليه ، وقطع عنه الاعانة المالية التى كان يرسلها إليه من القسطنطينية؛ إلا أنه بعد اجتماع المنذر بالبطريق جستنيان ممثل الإمبراطور جستين الثانى، تم التفاهم بين الطرفين وعادت المياه بينهما إلى سالف عهدها.[2]

وعندما توفى جستين في سنة ٥٧٨ م حاول خلفه "تيبريوس" أن يكسب ولاء الغساسنة تلبية لمتطلبات الصراع ضد الفرس. وفي عهد هذا الإمبراطور زار المنذر ابن الحارث القسطنطينية (في حوالي سنة ٥٨٠م) بصحبة اثنين من أبنائه، فأستقبله كما فعل جستنيان مع الحارث الرابع. ولكن تيبريوس لم يلبث أن شك في ولاء المنذر بعد عودته إلي الشام، متهماً إياه بالتفاهم مع الفرس، فدبر مؤامرة للقبض علي المنذر ونفذها بنجاح في حفل افتتاح إحدى الكنائس في حُوارين (الواقعة بين دمشق وتدمر) في سنة ٥٨١م. وحُمل المنذر أسيراً إلي القسطنطينية حيث أدين بالخيانة ونُفي إلي صقلية. وفي نفس الوقت أصدر تيبريوس الأمر بإيقاف المعونة المادية السنوية التي كانت بيزنطة تدفعها للغساسنة. وقد كان لهذا التصرف صداه البعيد المدى بين عرب الشام عموماً فضلاً عن الغساسنة الذين أسخطهم ما حل بأميرهم فأعلنوا الثورة علي البيزنطيين بقيادة

---

(1) عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٤٣-٤٤.

(2) انظر، فتحى الشاعر، عصر جوستنيان، ص ١٦٦-١٧١؛ Ure, *Justinian*, pp.68, 74-75 عن اسباب تصدع العلاقة بين المنذر والامبراطور جستين الثانى انظر، يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص ٩٠-٩٣؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٠٣.

النعمان. أكبر أولاد المنذر بن الحارث؛ ولكن الإمبراطور موريس الذي تولي السلطة سنة ٥٨٢م تمكن بالغدر والحيلة من أسره ايضا وإرساله إلي القسطنطينية، في سنة ٥٨٢ أو ٥٨٣م، وقد أعقب ذلك حالة من الفوضى والاستياء بين عرب الشام، ففقد البيزنطيون تقريباً ما كان لهم من ولاء عربي في هذا الإقليم.[1]

ويمكن القول أن الغساسنة وقفوا بصفة عامة إلى جانب البيزنطيين في حروبهم مع الفرس في عهد الامبراطور جستنيان الأول ٥٢٧-٥٦٧م[2] ومن بعده الامبراطور تيبريوس ٥٨٧-٥٨٢م وموريس ٥٨٢-٦٠٢م .[3] كما لعبوا نفس الدور فى عهد الإمبراطور هرقل ٦١٠-٦٤١م فى حروبه ضد الفرس ثم ضد الدولة الإسلامية إلى أن فتحت أراضيهم وأسلم معظمهم .[4]

وتجدر الإشارة إلى أنه عندما أجتاح الغزو الفارسي الشام في سنة ٦١٣ - ٦١٤م، فى مستهل عهد الإمبراطور هرقل، لم يقدم الغساسنة ولا العرب عموماً في الشام عوناً للبيزنطيين ضد الفرس، ولا نجد في المصادر التاريخية إشارة واضحة عن دورهم خلال تلك الحرب، وربما كان سبب ذلك اللطمات التى أصابت ملوكهم على أيدى جستين الثانى وتيبريوس وموريس. ويمكن القول إن الغزو الفارسي للشام وجه ضربة قاسية لإمارة الغساسنة وأفقدها مقومات استمرارها. فقد قامت هذه الإمارة - كما سبق القول - بهدف صد غارات بدو الجزيرة العربية علي حدود الشام ومساعدة البيزنطيين في حروبهم ضد الفرس. وقد قلب الغزو الفارسي كل هذه الموازين

---

(1) عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٤٤-٤٥.

(2) عن تفاصيل حروب الغساسنة مع موريس ضد الفرس في عهد تيبريوس انظر، يوحنا الأميوى، تاريخ الكنيسة، ص ٦٢-٦٥، ١٠٦ - ١٠٧؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٠٣-٢٠٦.

(3) عن تفاصيل حروب الغساسنة مع موريس ضد الفرس في عهد تيبريوس انظر، يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص ٦٢-٦٥، ١٠٦ - ١٠٧؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٠٣-٢٠٦.

(4) ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٤٦، ٣٤٩، ٣٧٢ ؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج١، ص ٣٧.

بإخضاعه بلاد الشام لحكم آل ساسان. ومع ذلك فقد ظل الغساسنة يحظون بتأييد عرب الشام رغم زوال التأييد البيزنطي الرسمي. ولكن الواضح أن هرقل – بعد أن هزم الفرس وطردهم من الشام – حاول أن يصل مرة أخري ما أنقطع بين البيزنطيين وعرب الشام بصفة عامة، وبينهم وبين الغساسنة بصفة خاصة. فيذكر المؤرخون عدداً من أمراء الغساسنة بالشام ممن كانوا نُواباً لهرقل حين أرسل الرسول صلي الله عليه وسلم كتبه إلي الملوك والأمراء.[١]

وهكذا انتهت إمارة غسان التى كانت خير حليف للدولة البيزنطية فى بلاد الشام، وحملت لواء صد الفرس وحلفائهم من عرب الحيرة سنوات طوال.

ونعود للحديث عن العرب وأحوالهم قبيل ظهور الإسلام ثانية بعد أن استعرضنا شيئا عن إمارة غسان ، وهى الإمارة العربية التى حالفت البيزنطيين سنوات طوال . كان سكان الجزيرة العربية يعملون بالدرجة الأولى بالتجارة ، التى مثلت عصب الحياة الاقتصادية هناك . فقد كانت الجزيرة العربية فقيرة المراعى والأرض الزراعية مما جعل سكانها يحترفون التجارة ، وكانت قريش من أول القبائل العربية وأهمها ، علاوة على مالها من امتيازات فى مكة ؛ وكانت القبائل هناك تقوم برحلتين تجاريتين فى العام هما رحلة الصيف ورحلة الشتاء . وقد عقدوا المعاهدات مع البيزنطيين والغساسنة لتنظيم التجارة معهم ، وكانوا يتعاملون بالدرهم الفارسى والدينار البيزنطى . وليس عسيراً علينا أن نعرف فضل التجارة أياً كان نوعها فى نقل الحضارة من منطقة لأخرى ومساهمتها فى تطور الشعوب، مما جعل العرب فى شبه الجزيرة العربية يملكون قدرا من الحضارة الانسانية .[٢]

لقد كان العرب ينظرون إلى الدولة البيزنطية على أنها واحدة من القوى العظمى التى لا يمكن قهرها، لما كان لها من حضارة عريقة وانتصارات عسكرية سجلها التاريخ، وكنيسة منفردة اجتمع حولها الشرق . لقد امتدت الحضارة البيزنطية

---

[١] عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٤٥-٤٦.

[٢] احمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٧٩-٨٧.

إلــى المناطق المتاخمة للدولة البيزنطية خاصة بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية وهى ولايــات تابعة لها. وكانت القسطنطينية هى العاصمة المركزية لها والتى كانت بالنسبة للعرب قلعــة حصــينة لا يجروء أحد ممن يقطنون جوارها أن يفكر فى اقتحام هذه العاصمة والنيل منها، خاصة وأن الأباطرة البيزنطيين أحسنوا اختيار موقعها ، وتفوقوا فى تحصينها براً وبحراً .

وكــان البيزنطــيون ينظرون إلى العرب نظرة دنيا ، فقد رأوا فيهم مجرد بدو يغــيرون علــى أراضــيهم ، لــذا يجب إيقافهم عند حدهم . أيضاً كان انشغالهم الدائم بالصــراع مــع الفــرس سبباً فى عدم غض الطرف عن العرب القاطنين فى الجزيرة العربــية ، وقــد بــدا هذا فى اهتمامهم الملحوظ بالتجارة المارة عبر أراضى العرب ، والتى انعكست بدورها فى صراعهم مع الفرس فى سبيل السيطرة عليها .

أما عن الحياة الدينية فى شبه الجزيرة العربية ، فقد انتقلت عبادة الأصنام إليها عــن طريق التجارة ، وكانت الأصنام هى عبادة الدهماء العرب ومعظم سادتها ، وهى ذات أشــكال عديــدة فمــنها عبادة اللات ، والعزى ، وهبل وكلها أصنام كان لهم فيها اعتقادات كبيرة ويتبركون بها . كذلك انتشرت اليهودية هناك قبل مجئ الإسلام ولاسيما فــى اليمــن كما انتشرت فى القرى وخيبر وتيماء ويثرب حيث أقامت هناك العديد من القــبائل الــيهودية . ويذكــر أحد المؤرخين أن هؤلاء اليهود كانوا من أهالى الجزيرة العربــية ثــم اعتــنقوا اليهودية وكانوا شديدو التمسك، بدينهم بينما يرى فريق آخر من المؤرخين أن اليهود العرب نزحوا إلى فلسطين حيث نشروا تعاليم التوراة أينما حلوا .

وانتشــرت أيضــاً المســيحية هناك فى قبائل تغلب وغسان وقضاعة شمالى الجزيرة العربية وفى بلاد اليمن ، وكانت على مذهبين النسطورية ، واليعقوبية . وكانت أهــم مراكز النصرانية فى بلاد العرب نجران حيث يعمل أهلها بالزراعة والصناعات الحريــرية والــتجارة . هــذا عــلاوة على انتشار بعض الديانات والمعتقدات الأخرى كالمجوسية والصابئة وعبادة الأشجار والحيوان وكلها عبادات فارسية الأصل .[1]

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٦٠-٦٤.

الفصل الثانى

الأسرة الهرقلية والمسلمون

الفصل الثانى

الأسرة الهرقلية والمسلمون

لا يستطيع المؤرخ الحديث عن سياسة الأسرة الهرقلية إزاء المسلمين إلا إذا تطرقنا بالحديث ولو فى عجالة عن ظهور الإسلام، لندرك الأثر الذى أحدثه فى ميزان القوى العالمية فى العصور الوسطى.

ولد محمد، عليه الصلاة والسلام، بمكة سنة ٥٧٠م تقريباً ، في عام الفيل وينتمى إلى واحدة من أشرف قبائلها وهى قريش . وكان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، تربى وتعلم مهناً كثيرة هناك ، منها الرعى والتجارة وبلغ من حسن سيرته بين الناس في مكة أن سمى باسم "الصادق الأمين" وليس بخفى عن أحد قصة نزول الوحى عليه برسالة الإسلام والقرآن الكريم، وكيفية انتشاره في مكة والمدينة. وقد دعى الرسول – صلى اللّه عليه وسلم العرب – للدخول في الإسلام في كل بقاع شبه الجزيرة العربية واستطاع بالصبر والحزم والأخلاق الكريمة أن ينشره بين العرب أجمعين. وقد صار الإسلام على يديه عقيدة وثقافة وحضارة ، وأصبح قوة عالمية لها وزنها على الصعيد الدولي في العصور الوسطى .

بيد أن أهم مرحلة في نشر الإسلام كانت هي الهجرة النبوية إلى المدينة والتي بدأ المسلمون يؤرخون لتاريخهم منذ وقتها وحتى الآن. ففيها استطاع الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – أن يدعم الدين الجديد وأن ينشره بين أهلها وزاد على ذلك انتصاره في غزواته ضد الكفار والمشركين وفيها بنى أول مسجد للمسلمين ، وأصبح الإسلام منذ يومها قوة قادرة على الرد على أعداء الإسلام في الجزيرة العربية، من اليهود والمشركين . وأثناء وجود المسلمين فى المدينة شرع اللّه الجهاد ، وكان لزاماً عليهم أن يخرجوا ليصدوا الكفار وينفذوا ما أمره اللّه بهم وهو القتال في سبيل نشر الدعوة

ولغــة واحــدة ، وكــان القرآن الكريم والسنة النبوية أساساً فى تشييد حضارة عريقة عاشــت قــروناً طويلة ؛ فمنه استمد المسلمون عقيدتهم الروحية، ومنه نظموا قوانينهم وآدابهم ومعاملاتهم .

لقــد جعل الإسلام العرب أمة واحدة ، لها حكومة نظامية كان مقرها المدينة ، وعلــى رأس الجهــاز الحكومى كان الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – وعماله على القرى والمدن الأخرى . واتخذ من المدينة مقراً له وعاصمة مركزية للدولة الإسلامية.

كذلك خلق الإسلام تضامناً بين أجناس عدة تحت راية واحدة هى راية الإسلام ولغــة واحــدة هــي اللغة العربية التي ارتقت بنزول القرآن فيها . وقد أصبح المسجد الحــرام قبلة يتوجه إليها المسلمون في شتى أنحاء الأرض ، كذلك غدا المسجد النبوي بعــد الهجرة داراً يجتمع فيها المسلمون بالرسول – صلى اللّه عليه وسلم – يتشاورون فــي أمور دينهم ودنياهم . وقد أقر الإسلام نظام الشورى في الحكم من بعد الرسول – صــلى اللّه عليه وسلم – واستطاع أن يقضى على العصبية القبلية التي كانت سائدة في الجاهلــية، وأصبح للسلطة المركزية السيادة العليا التي يُرجع إليها ، وألغى التباين بين الناس وأقر حقوقهم .

أما من ناحية التنظيم العسكرى فيمكن القول أنه فى ظل مبدأ الجهاد الإسلامى خــرج كــل قادر على حمل السلاح للجهاد فى سبيل نشر الدعوة وصد الكفار . وكان الرســول – صــلى اللّــه علــيه وسلم – على رأس هذا الجيش ومعه الصحابة وبقية المســلمين واتخــذ العديد من الأسلحة لتدعيمه . وقد عرف المسلمون نظام تعبئة الجند أسلوباً للقتال، ففي عهد الرسول كان الفرسان يخرجون للحرب ومعهم المشاة مترجلين ومتراصــين . أمــا فيما بعد في العصر الأموي ، فكانت الجيوش الإسلامية تقسم إلى خمس فرق، ميمنة وميسرة، والقلب ثم المقدمة ثم مؤخرة الجيش.

ويقــول حســن إبراهيم حسن نقلاً عن توماس أرنولد "وقد جمعت فكرة الدين المشــترك تحــت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد . ذلك النظام الذي ســرت مــزاياه بسرعة مذهلة تبعث على الدهشة والإعجاب . وإن فكرة واحدة كبرى

الإسلامية، وأذن للمسلمين بالقتال والجهاد في سبيل الله دفاعاً عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار .[1]

كان من نتيجة إيذاء الكفار للمسلمين أن هاجروا إلى المدينة، إلا أنهم تعقبوهم أيضاً هناك ولم يتركوهم حتى أفرغوا ما في جعبتهم من حيل ومكائد وأذاقوهم شتى أنواع العذاب . وقد أحس الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يدبره المشركين للإسلام والمسلمين ، وبمحاولتهم بكل جهدهم القضاء عليه وعلى أتباعه فكان على المسلمين أن يتخذوا الحيطة للدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الجديد ، ولم يكن هناك مفر من المواجهة بينهم وبين أعداء الإسلام. فكان على الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يستخدم الحجة والبراهين إلى جانب القتال ضد الكفار . وقد نصر الله المسلمين في مواقع عدة ، بعد أن أصبح الجهاد فريضة عليهم .[2]

والجهاد في الإسلام هو دعوة لنظرة جديدة في الحياة تؤدى إلى بناء مجتمع تتلاشى فيه مفاهيم النظم القبلية ويحل محلها نظم سامية تكفل لاتباعها الطمأنينة والعدالة والمساواة ، لأنها تقوم على تعاليم جاءت من لدن عزيز حكيم.[3] وقد دعم الله تشريعه للجهاد بآيات عدة منها قوله تعالى **"أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله".**[4] وقد استطاع الإسلام أن يؤلف بين قلوب العرب آنذاك، وأن يجمعهم على عقيدة واحدة

---

[1] على إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامي، ص ١٨٨.

[2] عن ظهور الإسلام وجهود الرسول في نشره انظر، بن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت٢١٣هـ)، مختصر سيرة ابن هشام، القاهرة، ١٩٩٧، ج١، ص ١٥٥-٤٨٠؛ ج٢، ص ٧-٢٩٥؛ احمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٢٣٦-٢٨٤، ٣٨١-٥٣٩؛ إبراهيم العدوى، التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، القاهرة، ١٩٧٦، ص ٧٢-١١٦؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٦٥-١٢٨؛ كارين ارمسترونج، محمد، ترجمة/ فاطمة نصر و محمد عنان، القاهرة، ١٩٩٨، ص ١٦٧-٣٩٣؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٥١-٣٢٥، ٣٣٧-٤٩٢.

[3] إبراهيم العدوى، التاريخ الإسلامي، ص ١٠١.

[4] القرآن الكريم، سورة الحج.

هـي التـي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية. وهكـذا كان النظام القبلي بين العرب لأول مرة، وإن لم يقضي عليه نهائياً، شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية .[1]

رسائل الرسول (ﷺ) إلى الملوك والأمراء :

"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون".[2]

هكـذا كـان علـى الرسـول – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يفارق الدنيا أن يرسم الطـريق أمـام أصحابه للخروج بهذا الدين من حدود الجزيرة العربية وإبلاغه للناس أجمعيـن. وقـد سـلك الرسـول الكريم في سبيل هذا طريقين : الأول ، وهو الطرق السـلمية التـي اتـبعها مع الملوك والأباطرة بالرسل والكتب التي أرسلها إليهم ومنهم هـرقل إمـبراطور بـيزنطة، فكان هذا الكتاب الذي أرسله الرسول – صلى الله عليه وسـلم – إلـى هـرقل بداية للعلاقات الرسمية بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – والأباطـرة البيزنطيين . أما الطريق الثاني ، فهو الجهاد أو استخدام القوة العسكرية فى سـبيل نشـر الدعـوة الإسلامية. وقد راعى الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصح الطـرق السياسـية فـي المعـاملات بيـنه وبين الأمم الأخرى. فقد أرسل كتاباً إلى الإمـبراطور البيزنطى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد وصلنا نص هذا الكتاب في المصادر الأصلية كالطبري وغيره ، وهذا هو نص الرسالة[3] :

"بسـم اللّـه الرحمن الرحيم : من محمد بن عبد اللّه ورسوله إلى هرقل قيصر الروم . السـلام علـى مـن اتبع الهدى أما بعد . أسلم تسلم وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين وإن

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٥٨-١٥٩.

[2] القرآن الكريم، سورة سبأ، أية ٣٤-٣٨.

[3] الطـبرى ،أبـو جعفر بن محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، جـ٣ ، بيروت، د.ت، ص ١٥٩٣ – ١٥٩٥. انظـر أيضـاً، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ص ١٢٩-١٣١؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٣٩٩؛ عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٧٢-٧٣.

تتولى فإن إثم الآكاريين[1] عليك "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"[2]. هذا هو نص الرسالة كما ورد في المصادر الأصلية والتي دعي فيها الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - هرقل بكل سماحة الإسلام إلى الدخول في الدين الجديد . ولا شك أن الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - كان على علم بأن هرقل هو عظيم الروم قولاً وفعلاً ، وبالتالي له السطوة والغلبة في البلاد، خاصة بعد إعادته للصليب المقدس من أيدي الفرس . وكما يقال فإن الناس على دين ملوكهم ، ومن ثم لو اعتنق هرقل الإسلام لحذا الناس حذوه. وقد أرسل الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - هذه الرسالة مع دحية بن خليفة الكلبى عام ٦هـ/ ٦٢٧-٦٢٨م[3]. وقد كان لهذه الرسالة أثراً كبيراً على هرقل نفسه. وينكر بعض المستشرقين إرسال الرسول ﷺ لهذه الكتب ومما يدعم هذا الإدعاء من وجهة نظرهم أنهم لم يعثروا على أية وثائق أو مخلفات تدل على إرسالها عند هؤلاء الملوك والأمراء، ومن المحتمل أن نص هذه الرسائل قد فقد لسبب من الأسباب ، علاوة على أن نص هذه الرسائل قد وصلنا في المصادر الأصلية العربية . ويقول البعض الآخر من المؤرخين أن الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - لم يخرج من الجزيرة العربية لذا لا يعلم شيئاً بأحوال البلاد المجاورة له ، ولكن يثبت التاريخ أن الرسول ﷺ كان يعمل بالتجارة بين الجزيرة العربية والبلاد المجاورة من قبل أن ينزل عليه الوحى لينبئه بالدعوة للدين الجديد وأنه كان على دراية بأحوال الدولة البيزنطية لكثرة سفره إلى الشام، وتدل كلمة الآكاريين التي وردت في رسالته إلى هرقل على أنه كان على علم بالصراعات المذهبية فى الدولة البيزنطية.

---

[1] الآكاريين ربما تعنى الآريوسيين، وهم أتباع مذهب أريوس الذى ينكر ألوهية السيد المسيح.

[2] القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية ٦٤.

[3] على إبراهيم حسن ، التاريخ الإسلامي، ص ٢٠٦ . اعتمدنا في مقابلة التواريخ الميلادية مع التواريخ الهجرية على كتاب التوفيقات الإلهامية لمؤلفه محمد مختار، القاهرة، ١٣١١هـ.

وقد أرسل الرسول ﷺ كتاباً إلى قيرس أو المقوقس بمصر ، وهو الذي كان يحكمهــا مــن قبل الدولة البيزنطية،[1] وفيه يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رســول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى. أما بعد...فإنى أدعوك بدعايــة الإسلام، فاسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين: **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابــاً مــن دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**".[2] وقد تقبل المقوقس كــتاب الرسول ﷺ بكل الرحب والسعة لأنه كان يعلم بأنه سوف يجئ نبي جديد في الأرض . وقــد أكــرم أعضــاء بعــثة رسول اللّه ﷺ وحملهم بالهدايا والأموال إلى الرســول – صــلى اللّه عليه وسلم – ورد عليه بقوله : "قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وكنــت أظن أن مخرجه الشام – وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله – فأراه قد خرج فــي العــرب في أرض بؤس وجهد. والقبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحــاورتى إياك" . وقد كان لهذه البعثة أثر كبير، فقد أرسل المقوقس للنبي ﷺ ماريا القبطية كجارية ضمن هداياه ، فتزوجها النبي وكانت وصيته الشريفة للمسلمين "إن اللّه سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة" .[3]

وقد أرسل الرسول رسالة أيضا إلى أمير الغساسنة المسمى الحارث الغسانى، الــذى كــان عامل هرقل على دمشق وأعمالها، وكان ينزل الجولان ومرج الصفر،[4] يدعــوه فيها إلى الدخول إلى الإسلام أيضا، مثلما دعى الملوك والأباطرة الآخرين. وقد

---

[1] المســعودى، أبو الحسن على بن الحسين، التنبيه والإشراف، تحقيق لجنة تحقيق التراث، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٤٣.

[2] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٣٠.

[3] انظر، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق/ محمد صبيح، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٦-٤٠ ؛ حســن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٣٥-١٣٦؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٠١.

[4] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٤٢-٢٤٣.

بعــث الحــارث الغساني برسالة إلى الإمبراطور هرقل، على أثر تلقيه رسالة الرسول علــيه الصلاة والسلام، يخبره فيها أن رسولا جاءه من محمد بكتاب، رأى هرقل شبهه بالكــتاب الــذى أرسل إليه يدعوه إلى الإسلام ويستأذن الحارث في أن يقوم على رأس جــيش لمعاقــبة هذا المدعى النبوة. إلا أن هرقل رأى أنه من الخير أن يبقى الحارث ببيت المقدس لحين زيارته إياه، ليزيد من جلال الحفلات برد الصليب المقدس إليه.[١]

وسوف نتعرض الآن لأثر الرسالة التي أرسلها النبي محمد – صلى اللّه عليه وســلم – إلى هرقل عليه، فقد تقبل هرقل هذه الرسالة قبولاً حسناً ، وكان وقتها بالشام عائداً إلى القسطنطينية . وتروى المصادر العربية كالطبرى وصحيح البخارى عن أبى ســفيان قوــله: خرجنا في نفر من قريش تجاراً إلى الشام ... وواللّه إنا لبغزة إذ هجم عليــنا صــاحب شرطة فقال أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز ؟ قلنا: نعم ! قال: انطلقوا بنا إلى الملك . فانطلقنا معه . فلما انتهينا إليه قال: أبكم أمسى به رحماً ! قلت: أنــا فقــال: أدنــه. فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي، قال إني سأسأله فإن كذب فــردوا عليه، فواللّه لو كذبت ما ردوا على ، ولكن كنت امرأ سيداً أتكرم عن الكذب، وعرفــت أن أيســر ما في ذلك إن أنا كذبته ، أن يحفظوا ذلك على ثم يحدثوا به عنى، فلــم أكذبه. وقال سألنى عن النبي، صلى اللّه عليه وسلم. فحاول أبو سفيان أن يصغر لــه شــأنه (وكان مازال كافراً) ويهون عليه أمره فلم يلتفت إليه . وقال له: كيف نسبه فــيكم ؟ قلــت: هو أوسطنا نسباً، قال: هل كان من أهل بيته من يقول مثل قوله؟ قلت: لا، قــال : فهــل له فــيكم ملك سلبتموه إياه ؟ قالت: لا ، قال: فمن اتبعه منكم؟ قلت: الضــعفاء والمســاكين، قال: فهل يحبه من يتبعه ويلزمه أم يبغضه ويفارقه؟ قلت: ما يتــبعه رجل ففارقه، قال: هل يغدر؟ قال أبو سفيان فلم أجد شيئاً أعجز به غيرها قلت: لا ونحن في هدنة ولا نأمن غدره قال أبو سفيان فما التفت إليها .

ويقــول أبــو ســفيان : قال لي هرقل سألتك عن نسبه فزعمت أنه من أوسط الــناس وكذلك الأنبياء وسألتك هل قال أحد من بيته مثل قوله فهو متشبه به فزعمت أن

---

[١] محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٠٠.

لا. وسألتك هل سلبتموه ملكه فجاء بهذا الأمر لتردوا عليه ملكه فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم من الضعفاء والمساكين وكذلك أتباع الرسل. وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه فزعمت أنهم يحبونه ولا يفارقونه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه، وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا. ولئن صدقتني ليسيرن على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده فاغسل قدميه . انطلق وشأنك ".

ثم جمع هرقل بطارقة دولته وأشرف عليهم من مكان عال خوفاً على نفسه وأغلق الأبواب خلفهم ثم قال لهم "قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه ، وأنه والله النبي الذي نجده في كتابنا فهلم فلنتبعه ونصدقه فتسلم لنا دنيانا وأخرتنا فنفروا منه، ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا فقال ردوهم علي وخافهم على نفسه، وقال إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم وقد رأيت منكم ما سرني فسجدوا له .

وتجمع الروايات العربية على أن هرقل كان يميل للإسلام ، وكان من أهم أسباب رفضه هو اتباعه لهذا الدين هو أنهم استكثروا على العرب أن يخرج من بينهم نبي ، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم مجرد بدو يقيمون في الصحراء ، وأن ما يدعونه هو مجرد هرطقة. إذ كيف يخضعون بما لهم من حضارة وملك وجبروت لهذا النبي الذي خرج من الصحارى يدعوهم للتخلى عن دينهم، صاحب السيادة العليا آنذاك في عالم العصور الوسطى، والدخول إلى الإسلام . وقد غضب هرقل حين علم أن المقوقس دخل مع المسلمين فى صلح بعد محاصرتهم لحصن بابليون Bablyon واستدعاه إلى القسطنطينية ثم نفاه، وأرسل قواده لمحاربة العرب فى مصر.[1] وهذه الأحداث تقلل من قيمة الروايات العربية التى أجمعت على أن هرقل كان راغباً فى دخول الإسلام خاصة وأن العرب كانوا قد داهموه قبل ذلك فى الشام فى غزوتى مؤتة، وتبوك. وإذا كانت الروايات العربية صحيحة فهذا لأن هرقل أراد أن يتجنب العداء مع القوة العربية الصاعدة ليتفرغ إلى تأمين حدود دولته مع الفرس، الذين قد يجددون الصراع معه.

---

[1] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٣٢-١٣٥.

سريتا دومة الجندل ومؤتة :

لمـــا اشـــتد ســـاعد الرسول ﷺ وأعوانه وانتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربـــية بدرجـــة أهلته كي يقوم بحملات خارجية فى سبيل نشر الدين الجديد ، كانت أولـــى حملاته على بلاد الروم سنة ٥هــ / ٦٢٦م خاصة بعد أن رفض هرقل دعوته الســلمية للدخـــول فـــى الإسلام، موجهة إلى دومة الجندل، الواقعة بالقرب من دمشق، وهى أولى غزواته للروم، على حد قول المسعودى.[1]

وكـــان صـــاحب دومـــة الجـــندل يدعـــى أكيدر بن عبد الملك الكندى، يدين بالنصـــرانية، وهـــو في طاعة هرقل ملك الروم؛ وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم، فـــبلغ أكـــيدر مسير الرسول ﷺ إليه فهرب، وتفرق أهل دومة الجندل سار إليها فلم يجد بها أحداً، فأقام أياما وعاد إلى المدينة واستخلف عليها ابن أم مكتوم.[2]

أمـــا عـــن ســـرية مؤتة فقد وجه الرسول ﷺ قوة إسلامية عام ٨هــ/٦٢٩م تـــتألف مـــن ثلاثـــة آلاف مقاتل من المسلمين إلى مؤتة على رأس هذه الحملة زيد بن حارثـــة، وكان بهذه الحملة خالد بن الوليد متطوعاً وجعفر ابن أبى طالب. ولما علمت قـــوات البيزنطيـــن بمسيرة هذا الجيش الإسلامي نحو أراضيهم خرجت له عند قرية مؤتـــة ، وهى قرية صغيرة من قرى البلقاء على حدود الشام، فاستشهد في هذه الغزوة زيـــد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب ، وكاد المسلمون أن يفنوا لولا أن حمل خالد بن الولـــيد لواء القيادة من بعدهما واستطاع أن ينجو بجزء من قوات المسلمين ويعود بهم

---

(1) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٣٠-٢٣١.

(2) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٣١؛ أحمد الشريف، مكة والمدينة، ص ٥٠٧.

إلــى المدينة ثانية بعد أن أبلى المسلمين فيها بلاءً حسناً ؛ ومنذ هذه الموقعة أطلق على خالد بن الوليد لقب سيف اللّه المسلول .[١]

وقد يتساءل البعض عن الدافع الذي أدى إلى هذه الغزوة؟ كان السبب الرئيسي وراء هــذه الغزوة أن رسول اللّه ﷺ أرسل رسولاً من قبله وهو الحارث ابن عمير الأزدى، إلــى عامل هرقل على بُصرى يدعوه للإسلام وأن أعرابيا من غسان يدعى شــرحبيل بن عمرو الغسانى قتله باسم هرقل، فأخرج الرسول هذه الحملة لتأديب ذلك العــامل ومــن يؤازره .[٢] وربما كان هناك ثمة هدف آخر وهو نشر الإسلام في تلك المناطق، وجس نبض البيزنطيين عسكرياً.

ومــن الجديــر بالذكر أنه من المحتمل أن البيزنطيين نظروا إلى هذه الحملة علــى أنها مجرد غارة عربية كالتي اعتادوا عليها من قبل حيث ينهب العرب المناطق التــي يغــيرون عليها ثم يعودون بعدها إلى بلادهم ثانية هذا من ناحية.[٣] ومن ناحية أخــرى كانــت هــذه الحملة من نوع جديد ولم يقدر الروم أهميتها. فهى غارة منظمة قامت لتؤدى مهمة خاصة، وغدا انهزامها وقتل قائدها باعثا جديدا على جعل المسلمين يتطلعون بأعين واسعة إلى بلاد الشام.كذلك أضحى تطلع المسلمين للقصاص من الروم قوة دفعت الأداة العسكرية الإسلامية في انطلاقها السريع تطوى تلك البلاد.[٤]

---

[١] لمــزيد من التفاصيل حول سرية مؤتة، انظر، عبد الرحمن سالم، المسلمــون والروم، ص ٨٧-١٠٢؛ لــيلى عــبد الجواد، هرقل، ص ٣٤٥-٣٤٩؛ إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٤٤-٤٥؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤١٠-٤١١.

[٢] محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤١٠-٤١١؛ عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ٧٣-٧٤؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٤٥.

[٣] ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٤٨.

[٤] أسد رستم، الروم، ج١، ص ٢٣٧-٢٣٨.

غزوة تبوك :

وقعت هذه الغزوة في عام ٩هـ / ٦٣٠م وكان من أسبابها أن بلغ الرسول ﷺ أن قوات الروم قد تجمعت على حدود فلسطين ومعهم بعض القبائل العربية لقتال المسلمين. ولما علم الرسول ﷺ بصحة هذا دعى المسلمين إلى الجهاد وخرج بالجيش إلى الشام فلما وصل إلى تبوك أقام فيها أياماً فصالحه أهلها ، وجاءت الوفود من أيله وغيرها وصالحوه على دفع الجزية له . كما بعث بخالد بن الوليد إلى دومة الجندل ومعه مجموعة من الجند فأسر صاحبها أكيدر ابن عبد الملك الكندى، واحضره إلى الرسول ﷺ بعد أن استولى عليها. وقد صالحه الرسول ﷺ على الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتابا ثم رده إليها ثانية؛[1] ثم عاد الرسول إلى المدينة، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ،[2] حيث وافته المنية بعد ذلك ومات في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١هـ، يونية سنة ٦٣٢م،[3] بعد أن نشر الدعوة الإسلامية ووطد أركانها في الجزيرة العربية كلها ، وبعد أن ألف بين قلوب العرب وجمعهم على كتاب واحد ولغة واحدة وقبلة واحدة .

---

[1] ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٥١.

[2] الواقدى، محمد بن عمر، كتاب المغازى، تحقيق/ مارسدن جونسون، ج٣، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٠٢٧-١٠٢٨؛ المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٥١.انظر أيضا، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٢١؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٥١؛ عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ١٠٩-١٢١.

[3] ابن هشام، مختصر سيرة ابن هشام، ج٢، ص ٣٠٨-٣١٩؛ المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٦٠-٢٦١؛ الذهبى، الإمام شمس الدين أبى عبد الله، دول الإسلام، تحقيق/ حسن إسماعيل مروة، ج ١، بيروت، ١٩٩٩، ص ٦؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٢٤، محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٩٤-٥١٣.

انتهى عهد الرسول ﷺ بانتقاله إلى الرفيق الأعلى عام ١١هـ/٦٣٢م وقبيل وفاته كان قد أعد حملة عسكرية للخروج إلى مشارف الشام من بلاد الروم، بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، الذي استشهد أباه في موقعة مؤتة ، وكان أسامة هذا صبياً ما زال في مقتبل العمر ومع هذا ولاه الرسول ﷺ إمرة هذا الجيش الذي كان يحوى العديد من قادة المسلمين. وقد توفى الرسول ﷺ قبل أن يشهد خروج هذه الحملة وقدر لخليفته أبو بكر الصديق أن يشهد ذلك بل ويسيرها كما كان يريد لها الرسول ﷺ. وقد أبى أبو بكر إلا أن ينفذ رغبة رسول الله ﷺ ويبعث بهذه الحملة كما أعدها الرسول ﷺ إلى مشارف الشام وذلك لأنه رأى فيها مناورة حربية وسياسية تشعر البيزنطيين بقوة المسلمين وثبات مركزهم .

ومن الجدير بالذكر أن الرسول ﷺ قد أسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد وكان في مقتبل العمر ، مما جعل بعض الصحابة يتأففون من قيادته ، ولكن بفضل حزم أبى بكر الصديق استطاع أن يقنعهم ويثنيهم عن هواهم لينضووا قادة أكفاء في هذا الجيش . ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر ماشياً لتوديعه بينما كان أسامة راكباً وتحدث إليه أبو بكر الصديق حديثاً ألهب حماسة أسامة بن زيد بن حارثة.

وهكذا قدر لأبى بكر أن يشغل العرب في الفتوح الخارجية ، ليخمد الفتن الداخلية ؛ وكذلك قدر للإمبراطور هرقل أن يشهد انتصاراته التي أحرزها على الدولة الفارسية ولسترد بفضلها أملاكه ثانية وهى تتحول إلى هزائم على أيدى المسلمين .

وقد نزل أسامة بجيشه في منطقة البلقاء بعد مسيرة عشرين يوماً حيث تقع مؤتة وقضى على كل من وقف في وجهه من أعداء الإسلام ، وأحرق المدن التي قاومت المسلمين . ولما سمع هرقل بهذه الأنباء أرسل جيشاً قوياً عسكر في البلقاء

ولكـــن المسلمين وعلى رأسهم أبى بكر الصديق لم يكونوا قد فكروا في فتح بلاد الشام بعد .[1]

وهكــذا وقفت حملة أسامة بن زيد وثأر لأبيه الذي قتله الروم في موقعة مؤتة عــام ٨هــ/٦٢٩م. وقد استمرت حركة الفتوحات الإسلامية بعد ذلك حيث ولى المثنى بــن حارثــة إمــرة الجــيش ولحــق به أيضاً خالد بن الوليد ليتوجها لفتح بلاد فارس والعراق.

ومــن الجدير بالذكر أن أبى بكر الصديق وجه الجيوش الإسلامية إلى أراضى الفــرس والــروم معــاً. وهذا إن دل على فإنما يدل على حسن تدبير الخليفة أبى بكر الصــديق وقــوة وصدق عزمه علي نشر الدعوة الإسلامية، وعلى القوة الحربية التي أصبح عليها العرب بعد انتشار الإسلام بينهم. ومن المحتمل أن السبب في تلك السياسة ربمــا يــرجع إلــى أن أبــى بكر الصديق أراد من ورائها ألا تستعين إحدى الدولتين بالأخرى، أو يعقدا معاهدات بينهما فيخرجا معاً لمحاربة المسلمين .

انتهــت حملــة أسامة بن زيد على النحو الذي عرضناه وكان هرقل قد حشد جيوشــه في منطقة البلقاء على الحدود بين العرب والبيزنطيين، ولما علم أبو بكر بهذا أعــد جيشــاً ضخماً دعى له جميع المقاتلين المسلمين فى الجزيرة العربية، وولى إمرة هــذا الجــيش إلى أربعة من القادة وهم أبو عبيدة بن الجراح، عمرو بن العاص ، يزيد بــن أبــى ســفيان، شــرحبيل بن حسنة. وكان لكل قائد منهم منطقة معينة يتجه إليها، وأمــرهم أبو بكر الصديق بأن يتعاونوا سوياً، وأن يكونوا جميعاً تحت إمرة أبى عبيدة بــن الجــراح، وأن يســتقل عمرو بفتح فلسطين، وأن يدعم الجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة إلى ذلك .[2]

---

[1] عبد الرحمن سالم، المسلمون والروم، ص ١٢٧-١٣٧؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٥٤-٣٥٦؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٥١٤-٥١٥.

[2] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٦٤.

رسم أبو بكر الصديق الخطة لعمرو بن العاص ، الذي سار بمقتضاها إلى فلسطين عن طريق إيلياء ونزل بمنطقة غمر العربات. ولما علم هرقل بوصول كتائب المسلمين إلى هناك، أراد أن يتبع المبدأ الروماني المعروف "فرق تسد" مع الجيش الإسلامي ، وقد وصلت الأنباء إلى المسلمين بأن الجيوش البيزنطية تربو على المائة ألف . فأرسل عمرو عبد اللّه بن عمر في ألف فارس داهم بهم حشداً كبيراً من الروم، يقول بعض المؤرخين أنه بلغ عشرة آلاف مقاتل، وحمل بنفسه على كبيرهم فقتله؛ فانتشر الهلع والرعب بين صفوف الروم؛ وانتهى الأمر بهزيمة الروم؛ وقد قتل من المسلمين سبعة جنود بينما أسر من الروم ٦٠٠ غير القتلى. وفى الصباح أقبل على المسلمين آلافاً من مقاتلى الروم فأقبل عمرو على المسلمين وأخذ يحفزهم ويقوى عزيمتهم بالإيمان ويأمرهم بقراءة القرآن بينما جاء الروم في محاولة يائسة منهم لتحقيق أية مكاسب عسكرية، إلا أنهم لقوا هزيمة فادحة في هذه المعركة وفقدوا ١٥ ألفاً من رجالهم بينما كانت خسائر المسلمين ١٣٠ مقاتل فقط.[١]

وفى الوقت الذي كان عمرو بن العاص يفتح فلسطين كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد بجيوشه في بلاد الشام محاولاً فتح مدنها، لكن بالرغم من بسالة القوات الإسلامية إلا أنها عجزت عن صد قوات الروم وخاصة الحملة التي أرسلها أبو عبيدة إلى مدينة بُصرى. وهى مدينة تجارية هامة كانت حاميتها على درجة كبيرة من الشجاعة والمقاومة. وأمام هذا كله اضطر أبو عبيدة بن الجراح أن يراسل الخليفة ليمده بالمدد والمساعدات العسكرية وأرسل الخليفة إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه إلى بلاد الشام لمساعدة الجيوش العربية التى كانت تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح. وترك خالد بن الوليد المثنى بن حارثة في العراق ، وأخذ شطراً من جنده وتوجه إلى بلاد الشام ، حيث تولى قيادة الجيش بناء على تعليمات أبى بكر الصديق إليه. وقد استطاع بعد قتال شديد مع القوات البيزنطية بالشام أن يستولى على مدينة بصرى

---

(١) البلاذرى، أبو العباس أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق/ عبد الله أنيس الطباع و عمر أنيس الطباع، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٥٠-١٥٣؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٤-١٨٥.

التجارية بفضل مساعدة واليها رومانوس الذي اعتنق الإسلام، والذي دلهم على سرداب للدخول منه إلى المدينة.[1]

وقد شجع هذا النصر المسلمين على محاصرة دمشق آنذاك في الوقت الذي شتتت فيه عمرو بن العاص شمل الجيوش البيزنطية في فلسطين . ومع هذا أرسل هرقل أربعة جيوش بيزنطية لمحاربة جيوش المسلمين هناك. ولما علم قادة المسلمين بهذا اتفقوا على أن يجتمعوا جميعا في اليرموك بجيوشهم ضد الجيوش البيزنطية، حتى يتسنى لهم توحيد قواتهم لتصمد في مواجهة البيزنطيين؛ وقد وجه إليهم الإمبراطور هرقل جيوشه التي بلغت عشرات الآلاف من الجنود البيزنطيين، تحت قيادة أخيه ثيودور، ومن والاهم من العرب الذين كانوا تحت إمرة ملك الغساسنة .

وقد أوصى هرقل ماهان، قائد من قواد جيوشه، بالاتصال بالمسلمين لطلب الصلح، فأرسل لهم جبلة بن الأيهم ، ملك الغساسنة، ليفاوضهم، وكان المسلمون مازالوا تحت قيادة أبى عبيدة الجراح الذي رفض مطالب البيزنطيين؛ ولم يكن خالد بن الوليد قد قدم من العراق بعد. وعندما وفد إلى الشام تولى القيادة هناك حيث رتب الجيوش الإسلامية على النحو التالي: أبو عبيدة في قلب الجيش وعمرو بن العاص على الميمنة ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة، ودارت رحى القتال بين الجانبين وظلت دائرة سجالاً بينهما إلى أن جاء يوم الواقوصة، والذي اشتد فيه القتال بين المسلمين والبيزنطيين ، وفيه خسرت الروم آلافاً من خيرة جنودها. وأثناء المعركة مات أبو بكر الصديق وتولى الخلافة عمر بن الخطاب.[2]

---

[1] البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٥٥-١٥٦؛ الواقدى، فتوح الشام،ج١، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ص ١٣-٢٠؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٥.

[2] لمزيد من التفاصيل عن موقعة اليرموك انظر، الواقدى، فتوح الشام، ج١، ص ٩٦-١١٠؛ المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٦٤؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٨٤-١٨٨؛ ابن كثير، عماد الدين أبى الفداء، البداية والنهاية، تحقيق/ محمد عبد العزيز النجار، ج٤، القاهرة، ١٩٩١، ص ٨-٢١؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٥-١٨٧؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٧١-٣٧٩؛ *Theophanes*, pp. 466-467; *Nicephoros*, p. 69. cf. also Nicolle, D., *Yarmuk*

وقـد انتهـت هذه المعركة بنصر ساحق للمسلمين. وفى الواقع كانت معركة الـيرموك ١٥هـ/٦٣٦م حداً فاصلاً بين المسلمين والروم ، فقد أدى هذا النصر إلى ازديـاد قـوة المسـلمين وتدهـور الحالة المعنوية للبيزنطيين ، كما لفت انتباه أباطرة بـيزنطة إلـى حجـم القوة الإسلامية الصاعدة ومدى خطورتها على الأمن البيزنطى الداخلـى والخارجى ؛ وهو الأمر الذى أجبر قادة بيزنطة على القيام بإصلاحات إدارية وعسكرية لتدعم القوة الحربية لبيزنطة لصد المسلمين بعد ذلك .

كذلـك أوضـحت هـذه الموقعة الهامة العبقرية العسكرية الإسلامية وتجلت عظمتها فى خطة خالد بن الوليد للمعركة وقضاؤه على مشكلة المياه التى كانت الشغل الشـاغل للجـيوش آنـذاك ، فقـد عسكر خالد بن الوليد بالقوات الإسلامية شمال نهر الـيرموك ، وفطن خالد إلى ضعف موقف الروم، إذ كان النهر يدور فى الشمال على شـكل نصـف دائـرة تقريـباً ، بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلاً له باب واحد من الجـنوب، بيـنما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى . فسد خالد المدخل الجنوبى ، على حيـن دار خلف جيش الروم ، وأحكم حوله الحصار ، ثم شن هجوماً شديداً على جيش الروم، الذي لقى هزيمة فادحة ، كما سبق القول .

وقـد نظم العرب في موقعة اليرموك شعرا منه ما يلى على لسان القعقاع بن عمرو:

أم ترنا على اليرموك فزنا * كما فزنا بأيـام العـراق

وعذراء المدائن قد فتحنا * ومرج الصـفرعلى العتاق

فتحنا قبلها بصرى وكانت*محرمة الجنـاب لدى النعاق

قتلنا من أقام لنا وفيـنا * نهابهـم بأسيـاف رقـاق

قتلنا الروم حتى ما تساوى*على اليرموك معروق الوراق

636AD. The Muslim Conquest of Syria, London, 1994.

فضضنا جمعهم لما استجالوا*على الواقوص بالبتر الرقاق

غداة تهافتوا فيها فصـــــاروا*إلى أمـــر يعــضل بالذواق(١)

وقـــد عـــاد أبو عبيدة الجراح لتولى قيادة الجيش الإسلامي ثانية بعد أن تنحى خالد بن الوليد عن القيادة بأمر من عمر بن الخطاب، وذلك بعد انتهاء موقعة اليرموك. وفـــي المـــرحلة التالـــية من الفتح أمر عمر بن الخطاب بأن تتوجه الجيوش الإسلامية الظافرة لفتح دمشق وأن تذهب فرقاً صغيرة منها لمناوشة أهل فحل، إلا أنهم فشلوا في فـــتحها، نظـــرا لوحولة الأرض بالمياه التى بثها البيزنطيون حول أرض القتال، فتعذر علـــى القـــوات الإســـلامية التقدم من خلالها. وقد استطاع المسلمون أن يستولوا على دمشـــق عـــام ١٤هــ/٦٣٥م بعد حصار دام سبعين يوماً ، ثم أكدوا هذا الفتح ثانية بعد الانـــتهاء من موقعة اليرموك عام ١٥هــ/٦٣٦م. وقد كتب أبو عبيدة بن الجراح كتاب صلح لأهل دمشق، واستخلف عليها يزيد بن أبى سفيان.(٢)

ومـــن الجديـــر بالذكـــر أن الإمبراطور هرقل توجه إلى مدينة حمص أو إلى أنطاكـــية بعد أن وصلته أنباء الهزيمة في اليرموك وكان ساعتها ببيت المقدس. وتقول بعـــض الآراء أن هـــرقل لمـــا علـــم بهـــزيمة جيوشه في اليرموك فر إلى عاصمته القسطنطينية مودعاً بلاد الشام قائلاً "عليك يا سورية السلام ونعم هذا البلد للعدو".(٣)

علـــى أية حال، بعد أن استولى المسلمين على دمشق توجهوا إلى منطقة فحل فـــي الأردن، ودارت معارك فحل بيان التي انتهت بنصر المسلمين وبسط نفوذهم على تلـــك المناطق وبعدها استولى المسلمين على حمص ، واللاذقية، وقنسرين عام ١٥هــ/ ٦٣٦م. وكانـــت موقعـــة فحل بيان من المواقع المهمة التي استطاع المسلمون فيها أن

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص ٢١.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول فتح العرب لدمشق، انظر، ابن كثير، البداية والنهـــاية، ج٣، ص ٢٧-٣٥؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٦٥-١٧٧؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٢-٤؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٧-١٨٨؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٦٨-٣٧١، ٣٧٩-٣٨١

(٣) إبراهيم العدوى، التاريخ الإسلامى، ص ١٢٣؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٨٢-٣٨٤.

يتغلبوا على الآلاف من البيزنطيين وتتبعوا فلولهم وأخذوا يوخزونهم بالرماح حتى أصيبوا جميعاً.[1]

واتجهت أجزاء من الجيش الإسلامي إلى فلسطين فاستولت على فحل بيان بعد أن حاصرها المسلمون عدة أيام، كما سبق القول، ولما علم أهل طبرية بما حل بأهل فحل بيان تصالحوا مع المسلمين . وهكذا أخذ النفوذ الإسلامي في المد مقابل انحسار النفوذ البيزنطي وتقلص القوة البيزنطية من بلاد الشام .

كان على المسلمين بعد ذلك أن يوسعوا فتوحاتهم ويؤكدوها فتوغلوا في فلسطين ؛ وكان عليها حاكماً يدعى أرطبون ، الذي حشد قواتا هائلة في بيت المقدس وغزة والرملة وفي أجنادين أيضاً . وقد راسل عمرو بن العاص عمر بن الخطاب يستشيره في الأمر فقال عمر "قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فانظروا عما تنفرج" ؟ وكتب إلى القواد أن يسيروا إلى قيصرية والرملة وايلياء ليشغلوا الروم عن عمرو .

ودارت رحى الحرب بين الفريقين في أجنادين وكان النصر حليف المسلمين فيها بعد أن اقتتلوا قتالاً عنيفاً لا يقل عن قتال موقعة اليرموك ، وانهزم البيزنطيون وعلى رأسهم أرطبون في ثمانين ألف من جنده ، حسب تقديرات بعض المؤرخين العرب . لم يتبق أمام المسلمين في فلسطين إلا بيت المقدس ، الذى أبى أرطبون أن يسلمه للمسلمين ، فاضطر المسلمون إلى حصار هذه المدينة، وخاف المسيحيون على كنائسهم، وأنه لا مفر من الهزيمة لو اصطدموا بالمسلمين فآثر أمراء المدينة وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس السلام مع المسلمين ، وبالفعل تم الاتفاق بين الجانبين على هذا بشرط أن يحضر عمر بن الخطاب بنفسه إلى بيت المقدس ليتسلم مفاتيحها شخصياً . ولبى عمر بن الخطاب طلب البطريرك صفرونيوس وذهب إلى فلسطين

---

[1] انظر، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ١٨٨-١٩٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٧٠-٧٤؛على إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامى، ص ٢٣٢.

وتسلم مفاتيح بيت المقدس بعد أن وعد المسيحيين هناك بالأمان، وبهذا فتحت مدينة بيت المقدس أبوابها أمام المسلمين عام ١٦هـ/٦٣٧.[1]

جدير بالذكر أنه تم فتح ايلياء في نفس العام، وبعد ذلك بقى هناك دور من أدوار المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين عند بلدة قيصرية، حيث أرسل هرقل ابنه قسطنطين بجيش كثيف ، وكان معسكراً بأنطاكية آنذاك ؛ فكان الخوف والرهبة من المسلمين عاملاً أساسياً من عوامل انتصار المسلمين على الروم ، علاوة على هروب قسطنطين من قيصرية بعد أن علم بانسحاب أبيه من أنطاكية وسلم الجند للمسلمين بعد أن علموا بهرب أميرهم إلى القسطنطينية.[2]

لقد كتب على الإمبراطور هرقل أن يشهد ضياع أملاك إمبراطوريته واحدة تلو الأخرى علاوة على الأحوال الاقتصادية المتردية داخل دولته وهجمات القبائل السلافية على حدوده الغربية من حين لآخر مشكلة عدواً جديداً لبيزنطة . وهكذا قضى المسلمون على النفوذ البيزنطي في بلاد الشام مقابل انحسار النفوذ البيزنطي فيها بسرعة غير متوقعة ؛ الأمر الذي مهد إلى انتشار الإسلام بين مسيحي بلاد الشام وفلسطين ، الذين كانوا يخالفون كنيسة القسطنطينية في مذهبها الديني .

فتح مصر

كان على المسلمين أن يأمنوا فتوحاتهم فى بلاد الشام وفلسطين وفارس ، وذلك بالاستيلاء على مصر ، وتخليصها من الوجود البيزنطى ، الذي كان يمقته المصريون . لقد كانت مصر بالنسبة للعرب آنذاك نقطة الانطلاق التالية في الفتوحات الإسلامية ، لاسيما نحو ولاية إفريقية البيزنطية ، مهد الإمبراطور هرقل ؛ كما أنها القلب الاقتصادي الذي كان يضخ ما بين ٨-٩ مليون أردب من القمح إلى أسواق

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٧٤-٨٠؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٨٤-٣٨٨؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٨-١٩٠.

[2] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٨٩.

وصـوامع العاصـمة البيزنطية سنوياً،[1] بالإضافة إلى الجبايات النقدية التي بلغت في عهـد المقوقس عشرين مليوناً من الدينارات سنوياً على حد ذكر ابن عبد الحكم وشيخ المؤرخين تقى الدين المقريزى .[2]

تذكـر المصـادر التاريخـية أنه لما كان عمر بن الخطاب في مؤتمر الجابية بالشـام أشـار عليه عمرو بن العاص بفتح مصر وأخذ يحبب إليه فتح مصر ويسهله أمامـه كـي يـأذن له بالخروج إليها . وتردد عمر بن الخطاب في الإذن له بذلك لعدة أسـباب : مـنها أن عمـر بن الخطاب تردد في الموافقة على هذا الأمر وأشفق على المسـلمين مـن أن يصيبهم الإخفاق ، بالإضافة إلى أنه لن يستطيع أن يجمع لفتح هذه الـبلاد جيشـاً كبيراً لتفرق جند المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وفارس ؛ أضف إلى ذلـك ما كان يخشاه عمر من التوسع في الفتح وخاصة أن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فـي الـبلاد التـي فتحوها ولم يزل عمرو يهون عليه فتحها ويعظم أمرها طمعاً فيها ورغـبة فـي خـيراتها ، لأنـه وقف بنفسه على أحوالها في الجاهلية عند قدومه إليها للـتجارة عـدة مـرات ، وعـرف خصب أرضها ووفرة خيراتها . كما بين لعمر أن اسـتيلاء المسـلمين علـيها معناه تثبيت فتوحاتهم في بلاد الشام وفلسطين وتأمينها من ناحـية الجـنوب . ويذكـر أحد المؤرخين أن تردد عمر بن الخطاب في الإذن لعمرو بالسير إلى مصر لم يكن في فتح مصر نفسه بقدر ما كان في شخص القائد .

ويقول المؤرخ سانت موس أن العرب أرسلوا حملة سبقت جيوشهم المتجـهة

---

[1] رأفـت عـبد الحمـيد، طـارق منصور، مصر في العصر البيزنطى، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٥؛ Johnson, A., and West, L., *Byzantine Egypt: Economic Studies*, Princeton, 1949, pp. 234, 236.

[2] ابـن عـبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ١١٠؛ المقريزى، تقى الدين،كتاب الاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، بيروت، د.ت.، ص ٧٩؛ طارق منصور، ظاهرة هروب المصريين من الأرض فـي القرنين السابع والثامن الميلاديين في ضوء البرديات اليونانية والقبطية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، ع ٤(١٩٩٩-٢٠٠٠)، ص ٣٣٢.

إلــى مصــر.[1] لكــن يــبدو أن هــذا القول بعيد عن الحقيقة ، لافتقاره إلى البراهين التاريخــية. ولم يزل عمرو بعمرَ حتى أذن له بأربعة آلاف مقاتل ، وفى رواية أخرى خمســة آلاف مقــاتل، وقــال لعمــرو "إنــي مرسل لك كتاباً فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وإن دخلتها قبل أن يأتــيك كتابــي فامض واستعن بالله واستنصره" . وعلى الرغم من وصول كتاب عمر إلــى عمرو وهو في طريقه إلى مصر فإنه لم يفتحه ليقرأ ما فيه إلا بعد أن دخل حدود مصر عند العريش .

لقــد اجــتاز جــيش المسلمين حدود مصر عام ١٨هـ/٦٣٩م واستولى على الفــرما (بلوزيــوم) بعــد أن فاجأ الحامية البيزنطية فيها[2] . ثم اتجه إلى بلبيس وهزم الحامــيات البيزنطــية هــناك والتي كانت تحت قيادة أرطبون السالف ذكره ، ثم تقدم واســتولى على قرية أم دنين ، ومكانها الآن الأزبكية بالقاهرة ، ودارت المعارك هناك بيــن الجانبيــن فلمــا أبطــأ الفتح ، أرسل عمرو بن العاص طالباً المدد العسكري من الخلــيفة فــأمده بأربعــة آلاف مقــاتل يرأســهم مجموعــة عظيمة من قادة المسلمين والصحابة. واستطاع المسلمون أن يوقعوا الهزيمة بالقوات البيزنطية فى تلك المناطق، حيــث فــروا إلــى حصــن بابليون ، أو قصر الشمع ، كما يسميه البعض ؛ فعاصر المســلمون بدورهم هذا الحصن . وكان المسلمون آنذاك يفتقرون إلى أدوات الحصار ، لــذا كان حصارهم له حصاراً بدائياً ، أي أنهم تراصوا حول الحصن في محاولة لمنع خــروج أي أحــد منه . ولم يستمر الأمر طويلاً فقد دارت معارك عديدة بين الطرفين كان يعود بعدها البيزنطيون لائذين داخل الحصن ، وسرعان ما دارت المفاوضات بين الجانبيــن خاصــة بعد أن رأى المقوقس أو قيرس ضرورة ذلك ؛ وكان رد المسلمين على هذه المفاوضات يتلخص في ثلاثة أمور: الدخول في الإسلام أو الجزية أو السيف فاختار البيزنطيون السيف ؛ وعادت الحرب بينهم ثانية . وفى النهاية اضطر قيرس أو

---

[1] مــوس، هــــ.، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة/عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٥٢.

[2] محمد حمدي المناوى ، مصر في ظل الإسلام ، الإسكندرية، ١٩٧٠، ص ١١ .

المقوقــس إلى عقد معاهدة سميت باسم معاهدة بابليون الأولى ، وربطها بموافقة هرقل علــيها ، وكانــت خاصـــة بقــبط مصـــر . ولكن هرقل رفضها واستدعى قيرس إلى القسطنطينية ليحقق معه في أمر عقدة معاهدة مع العرب ، وأمر قواده باستكمال القتال؛ ولكـــن كان المسلمون قد استولوا على الحصن ولم يعد هناك مفر من التسليم ، ورحلوا إلـــى الإســـكندرية خـــلال ثلاثة أيام . وبهذا بسط المسلمون نفوذهم على مصر السفلي ومصر الوسطى كمرحلة أولى .

وعـــاود البيزنطيون المعارك ثانية في الإسكندرية بعد أن بادر هرقل بإرسال جـــيش ومـــدد يحول دون وقوعها في أيدي المسلمين ، وتقاتل الفريقان قتالاً عنيفاً على مـــدى أربعـــة أشـــهر حاصــــر فيها المسلمون الإسكندرية؛ وتم فتح الإسكندرية عنوة وتصـــالح المســـلمون مـــع أهلهـــا ، وعقد قيرس أو المقوقس صلحاً سمى باسم صلح الإسكندرية أو معاهدة بابليون الثانية، وتتلخص شروطها فيما يلى:

١. أن يدفع كل من فرضت عليه الجزية دينارين سنويا
٢. المهادنة أحد عشر شهراً
٣. يحـــتفظ العـــرب بمركـــزهم مـــدة الهدنـــة، وألا يباشـــروا أعمالا حربية ضد الإسكندرية، وأن يكف الروم عن الأعمال العدائية
٤. ألا يتعرض المسلمون للكنائس بسوء وألا يتدخلوا في أمور المسيحيين
٥. أن تـــرحل حامية الإسكندرية البيزنطية ومعها ما تملك من أموال وأمتعة، وأن تدفع الجزية عن شهر عند رحيلها
٦. بقاء اليهود بالإسكندرية
٧. ألا يعود أو يحاول جيش رومى استرداد مصر

٨. أن يكـــون عند المسلمين من الروم ١٥٠ جنديا و ٥٠ ملكيا رهينة لضمان تنفيذ هذه المعاهدة.[1]

لقد لعب الصراع المذهبي الكنسى بين كنيستى القسطنطينية والإسكندرية دوراً مهمـــاً فـــى ترحيـــب المصريين بدخول العرب المسلمين بما عرف عنهم من التسامح الديني والعدل والخلق الكريم وبكل ما يقضى به الإسلام وعمل به المسلمون . فقد أراد هـــرقل أن يفرض مذهب الاتحاد عنوة على شعوب مصر والشام وفلسطين ، لكنه فشل فـــي هـــذا، مما جر نقمة سكان هذه البلاد عليه. ومن الجدير بالذكر أن الأقباط سهلوا للعـــرب فتح مصر وهو ما أدخل بارقة أمل فى نفوس المصريين للتخلص من الصراع المذهبـــي ومـــن ربقة الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية[2] ، التى انتزعت السيادة الروحية علـــى العـــالم المســـيحى الشرقى من كنيسة الإسكندرية، وصار لها المرتبة الثانية بين الكـــنائس العالمية وتراجعت مكانة كنيسة الإسكندرية إلى المرتبة الثالثة.[3] علاوة على أن بـــيزنطة كان شغلها الشاغل هو تحصيل أكبر قدر ممكن من ثروات مصر وإيداعها الخـــزانة البيزنطـــية . وبضـــياع مصر من أيدي البيزنطيين كتب عليهم أن يدخلوا مع المسلمين في دور من أدوار المواجهة الطويلة المضنية ، التي كانت قوتها تتوقف على قوة الأباطرة والخلفاء وسياساتهم إزاء كليهما .

وبعـــد هـــذه المـــرحلة مـــن الفتوحات الإسلامية، قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطـــاب عـــام ٢٣هــ/٦٤٣م ، ليتولى حكم الدولة الإسلامية بعده عثمان بن عفان ؛

---

[1] عن تفاصيل فتح مصر انظر، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٤٠-١١٥، ١١٨-١٢١؛ الواقدى، فتوح الشام، ج٢، ص ٢١-٥٨؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٩٨-٣١٣؛ ابن كثير، البداية والـــنهاية، ج٤، ص ١٣٠-١٣٥؛ الذهـــبى، تاريخ الإسلام، ج٢، ص ٢٩-٣٠، ٧٧؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١٩٠-٢٠٠؛ ليلى عبد الجواد، هرقل، ص ٣٨٩-٤١٧؛ أسد رستم، الـــروم، ج١، ص ٢٥٠-٢٥٣؛ بتلر، ا.، فتح العرب لمصر، ترجمة/ محمد فريد أبو حديد، القاهرة، ١٩٣٣؛ *Theophanes*, pp. 470-471.

[2] ربما تطلعت كنيسة الإسكندرية إلى استعادة مجدها السابق في ظل الحكومة الإسلامية الجديدة.

[3] انظر، رأفت عبد الحميد، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧، ص ٥٥-١٠٠.

الــذي لعــب فــي عهــده والى الشام معاوية بن أبى سفيان دوراً مهماً فى الفتوحات الإســلامية لبلاد الروم ، وفى توطيد وتوسيع دائرة الدولة الإسلامية . كان معاوية بن أبــى سفيان قد تولى ولاية الشام منذ عهد عمر بن الخطاب ، وأخذ يوطد لنفوذه هناك خاصــة بعــد أن تولــى الخلافة أحد أقربائه وهو عثمان بن عفان ، الذي اتبع سياسة تقريب الأقرباء والتي أودت بحياته في نهاية المطاف .

وقــبل أن نــتحدث عــن الفتوحات الإسلامية أو دور المواجهة بين المسلمين والبيزنطييــن فى عهد الخليفة عثمان بن عفان من الضروري أن نشير إلى اللبس الذي أثير حول شخصية قيرس أو المقوقس عظيم القبط فى مصر فالبعض يرى أن الاسمان لشــخص واحد كان يحكم مصر من قبل الإمبراطور هرقل ، والبعض الآخر يرى أن الاســمان لشخصــين مختلفين . ومن المحتمل أن يكون الرأي الأخير هو الأقرب إلى الحقــيقة لعدة أسباب . فمن المعروف أن هرقل قد أرسل قيرس إلى مصر لينفذ رغبة الإمــبراطور فى كف الجدل عن طبيعة السيد المسيح ، ونشر مذهب الاتحاد الهرقلى . وتذكــر المصــادر العربــية أن المصريين عرفوا قيرس باسم المقوقس، لكن يبدو أن الاســمان لشخصين مختلفين أولهما هو بطريرك الإسكندرية في الفترة من ٦٣١-٦٤١ م، والثانى، أى المقوقس، والى الإسكندرية، وذلك لكل يلى:

أولاً : كــان كــتاب الرسول ﷺ إلي المقوقس يبدأ بــ "من محمد رسول الله ﷺ إلى المقوقــس عظــيم القــبط فــي مصــر ... الخ" كما أورده الطبري وغيره من المؤرخين .

ثانــياً : أن محمــداً – صلى الله عليه وسلم – أرسل كتابه إلى المقوقس ، عظيم القبط فــي مصر عام ٦٢٨م/٧هــ ، الذى يسميه ابن عبد الحكم ملك الإسكندرية[1]. وبهذا يدعم ابن عبد الحكم افتراضنا أن المقوقس كان حاكم الإسكندرية.

---

[1] ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٤٣.

ثالثاً : يشير ثيوفانيس إلى أن البطريرك جورج، بطريرك الإسكندرية توفى عام ٦٣١ م/١٠هـ، وفي نفس العام أرسل هرقل قيرس ليتولى منصب بطريرك الإسكندرية خلفا لجورج. وكان عليه أن ينشر مذهب الاتحاد الهرقلي في مصر، حتى يكف الناس عن الجدل في طبيعة السيد المسيح.[١]

رابعاً: يؤكد ثيوفانيس على أن قيرس كان رجل دين لا يحمل سلاحا، وليس حاكما على مصر، بل بطريركا على كنيستها.[٢] على هذا يبدو لى أن قيرس لجأ إلى عقد معاهدة مع العرب حتى يحقن الدماء، متأثرا بتكوينه الدينى؛ لاسيما بعد هلاك عدد من القادة البيزنطيين في المعارك مع العرب. بل يذهب نقفور إلى أبعد من هذا حيث يقول أن قيرس عرض على هرقل تزويج الأوغسطا ايدوكيا أو أى من بنات الإمبراطور الأخريات من عمرو بن العاص، الذى قد يتم تعميده في تلك الحالة وتنصيره.[٣]

خامساً: كان كل ما يهم هرقل هو مصر وذهبها على حد تعبير ثيوفانيس[٤]، وليس أهلها، لذا بعث إلى قيرس وعنفه على قبول دفع الجزية وعقده معاهدة مع المسلمين، واستدعاه إلى القسطنطينية وأمر قواده بمعاودة القتال.

وتكمن المشكلة الآن في أن المصادر العربية تذكر أن المقوقس، حاكم الإسكندرية، هو الذى عقد المعاهدة مع العرب، بينما تذكر المصادر البيزنطية أن الذى عقدها معهم هو البطريرك قيرس!!

يبدو لى أن المقوقس كان حاكما على مصر، زمن أرسل الرسول رسالته إليه عام ٧هـ/٦٢٨م، حسب المصادر العربية؛ في نفس الوقت الذى كان الأسقف جورج يتولى بطريركية الإسكندرية. أما في عام ٦٣١-٦٣٢م فقد اصبح قيرس بطريركا

---

(١) *Theophanes*, pp. 461-462.

(٢) *Theophanes*, p. 470.

(٣) *Nikephoros*, p. 73.

(٤) *Theophanes*, p. 470.

علـــى كنيسة الإسكندرية، حتى مجيء العرب إلى مصر، حسب المصادر البيزنطية. ويـــبدو أن قـــيرس كانـــت موكلة إليه سلطات مدنية أيضا، بدليل أنه كان يقود القوات البيزنطـــية في مصر على اثر مصرع عدد من القادة البيزنطيين؛ بالإضافة إلى قيامه بأمـــر المفاوضـــات مـــع العرب. ومما يؤكد هذا استدعاء هرقل له إلى القسطنطينية، لمســـاءلته حول المعاهدة التى عقدها مع العرب. وهذا إن دل فإنه يدل على عدم وجود والـــى أغســـطى علـــى مصر، وقتما أرسل قيرس إليها، لهذا جمع بين يديه السلطتين المدنـــية والدينـــية، بما فيها أمر الدفاع عن مصر. وقد اعتقد المؤرخين المسلمين في هذه الحالة أن قيرس هو المقوقس، وسجلوا الأحداث على أنهما شخص واحد.[1]

جديـــر بالذكـــر أن عمرو بن العاص استطاع أن يفتح برقة بليبيا صلحاً التي كانـــت بمـــثابة البوابة الغربية لمصر وفتح طرابلس عنوة عام ٢٢هـ/٦٤٢م ؛ ثم بعث نـــافع بـــن عبد القيس الفهرى إلى بلاد النوبة . ولما ولى إمرة مصر عبد الله بن أبى الســـرح فكـــر فـــي غزو أفريقية وكانت خاضعة للنفوذ البيزنطي ، فاستأذن عثمان بن عفـــان ، وأرسل إليه الخليفة جيشاً ضخماً يضم كثيراً من الصحابة ، وسار هذا الجيش إلـــى أفريقية . وسرعان ما انقطعت أخباره عن مركز الخلافة فأرسل عثمان بن عفان جماعـــة على رأسهم عبد الله بن الزبير ليوافوه بالأخبار ، واستطاع بن الزبير أن يغير ويجـــدد من خطة عبد الله بن أبى السرح في القتال ، واستطاع المسلمون أن ينتصروا على العدو ويغنموا غنائم لا حد لها.[2]

وتجـــدر الإشارة إلى أن البيزنطيين حاولوا استرداد مصر من أيدى العرب فى عـــام ٢٥م/٦٤٥م . ففـــي ولايـــة عـــبد الله بن أبى السرح كتب أهل الإسكندرية إلى الإمبراطور قنسطانز يهونون عليه فتح الإسكندرية لقلة عدد الحاميات الإسلامية بها ، فأرسل حملة بحرية قوامها ثلثمائة سفينة يرأسها قائده مانويل إلى الإسكندرية . وبالفعل اســـتطاع هـــذا الجـــيش أن يستولى على الإسكندرية حتى بلغ مدينة نقيوس وعاث في الأرض فســـاداً ؛ ودار القـــتال بين المسلمين والبيزنطيين براً وبحراً ، إلى أن انتصر

---

(١) راجع أحمد فؤاد سيد، تاريخ الدعوة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٦٤٢-٧٦٣.

(٢) الذهبى، دول الإسلام، ج١، ص ١٨-١٩؛ حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص ٢١٣.

المسلمين في النهاية، وخاب أمل الإمبراطور فى استرداد مصر ثانية ، وهكذا ضاعت منه إلى الأبد ودخلت دار الإسلام[1] .

أما في بلاد الشام فقد استطاع واليها معاوية بن أبى سفيان أن يثبت أقدام الإسلام والمسلمين هناك بفضل سياسته وبفضل إخضاع المدن الساحلية للمسلمين ، التي كانت تتلقى العون والمدد البيزنطى عبر البحر المتوسط ، فكان عليه أن يسد هذه الثغرة. وبالفعل أظهر معاوية ضروباً عديدة من ضروب الشجاعة والذكاء في فتح هذه المدن مثل قيصرية ، وطرابلس . وكان فى كل مرة يستأذن الخليفة في فتح بقية المدن الأخرى وقد استطاع أن يفتح قيصرية عام ١٩هـ / ٦٤٠م ثم اتجه إلى حصار مدينة عسقلان وكان هذه المدينة ذات حصانة شديدة واستولى عليها معاوية بعد عقد صلح مع أهلها . وفى أواخر عهد الخليفة عمر بن الخطاب بدأ البيزنطيون فى شن هجمات عسكرية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أملاك الإمبراطورية ، إلا أن المدن الإسلامية تمكنت من صد هذه الهجمات بفضل التحصينات التي أقامها معاوية بها وبفضل شجاعة الحاميات الإسلامية .

وقد أطلق الخليفة عثمان بن عفان العنان لمعاوية بن أبى سفيان فى فتح بقية مدن الشام فاتجه معاوية إلى طرابلس ، وهى مدينة تمتاز بحصانة طبيعية ممتازة علاوة على الإمدادات البيزنطية لها بحراً ، ثم قوة حصونها المقامة حولها ، واستطاع المسلمون أن يستولوا على هذه المدينة بعد أن هرب سكانها منها من شدة الحصار الإسلامي وقسوته وكان هذا نصراً عظيماً للمسلمين . وبفضل استيلاء معاوية على هذه المدن أمن الجنود المسلمين على أنفسهم ورتبوا جيوشهم . واستطاع معاوية أن يتخلص من العصبية القبلية بين المسلمين بالشام والتي كادت أن تفت في عضد الإسلام والمسلمين وبفضل دهاء معاوية وحسن تصريفه للأمور استطاع أن يوحد العرب ثانية

---

[1] كان هذا في عهد قنسطانز الثاني، وقد اضطر عثمان بن عفان إلى إرسال عمرو بن العاص على رأس جيش إلى مصر لمحاربة الروم إلى أن انتصر عليهم وهدم أسوار الإسكندرية. انظر، علية عبد السميع الجنزورى، هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣١-٣٤.

هـــناك . ثــم انتقل معاوية من تنظيم أهله وجيشه إلى إعداد هيئة استشارية خاصة به تقوم بتنفيذ أعماله الحربية ضد بيزنطة ، وكان اختيار معاوية لهذه الشخصيات اختياراً دقـيقاً وصـــائباً ، إذ جعلهم شيعة وجنداً مخلصين له ، ورجالاً صناديد لا يعرفون غير الشام وطناً لهم .

وفـــي تلـــك الأثناء مات الإمبراطور البيزنطى قسطنطين Constantine III بعـــد ثلاثـــة أشهر من حكمه للإمبراطورية وظن الناس أن مارتينا زوجة أبيه هي التي دســـت له الســـم من أجل السلطة ، لهذا هب الجيش ثائراً مطالباً بتنصيب ابنه الملقب بقنســـطانز Constans II علـــى عــرش الإمبراطورية، وكان عمره آنذاك أحد عشر عاماً؛ وبالرغم من حداثة سنه إلا أنه كان يقظاً نشطاً.

وقـــد وضع قنسطانز الخطر الإسلامي نصب عينيه فبدأ يأمن الجبهة الداخلية بمحاولـــة القضـــاء علـــى المشاكل الداخلية والخارجية أيضاً فاستطاع أن يخضع قبائل الســـلاف مرة أخرى كمعاهدين للإمبراطورية بعد أن كانوا قد بدءوا يتمردون عليها ، ثـــم هـــداه عقله إلى أن يسجن البابا لكي يحل المشكلة الدينية التي أثيرت حول طبيعة السيد المسيح .

أما عن معاوية بن أبى فيعزي إليه سفيان وضع حجر الأساس أو اللبنة الأولى لبناء الأساطيل الإسلامية البحرية . فلقد أدرك أهمية السيطرة على مياه البحر المتوسط الـــذي كـــان بمثابة بحيرة بيزنطية تجوب فيه السفن البيزنطية التي اتخذت من الجزر الموجـــودة بـــه قواعـــد لشن الهجمات على المسلمين ، التي قاسى المسلمون كثيراً في صـــدها ، وربمـــا استعصت بعض مدن الشام على الفتح الإسلامي لها نتيجة لإمدادات الأســـطول البيزنطـــي لها من البحر . لهذا ألح معاوية على الخليفتين عمر بن الخطاب وعـــثمان بـــن عفـــان في فتح جزيرة قبرص وضمها إلى دار الإسلام إلى أن أذن له عـــثمان بن عفان بعد ذلك ، بعد أن استطاع أن يبنى أسطولاً إسلامياً قوياً يمخر عباب الـــبحر المتوســـط مطارداً السفن البيزنطية . وتجدر الإشارة إلى أن العرب لم يكن لهم آيـــه درايـــة سابقة بشئون الأسطول ولا كيفية إدارته كنتيجة حتمية للحياة الصحراوية

التـي كـانوا يحـيون فيها ولكن الظروف التي وضعوا فيها جعلتهم يهتمون بمثل هذا الـنوع مـن الأسلحة وهو ما يسمى اليوم "بسلاح البحرية"، علي الرغم من أن العرب كانوا يركبون البحر من قبل الإسلام كتجار إلي بلاد الهند وفارس، في سفن تجارية.

لقـد راعـى معاويـة منذ ولايته على الشام الاهتمام بالمدن الساحلية خاصة وتقويـة حصونها وتزويد هذه المدن بالقوات المحاربة وأنشأ نظاماً عرف باسم الرباط وهـو مكـان يـتجمع فيه الجند والركبان استعداداً لشن هجوم على أرض العدو أوصد هجـوم علـيهم ؛ وقـد استطاع معاوية أن يطور في هذا النظام بعد ذلك . كذلك شجع الـناس على الهبوط إلى المدن الساحلية ومنح كل من يرغب في الهجرة إليها إقطاعات مـن الأرض يديـرها لحسابه . مع كل هذه الخطوات التي اتخذها معاوية منذ أن كان والـياً علـى الشام إلى أن أصبح مؤسس أسرة حاكمة بعد ذلك، كان يرجع الفضل إلى المسـلمين أنفسـهم فـي عهدها أنهم الذين حققوا أغلى وأعظم الانتصارات في تاريخ الإسلام .[١]

فتح قبرص

بعـد أن تـأكد معاويـة بن أبى سفيان من استعداداته البحرية وقوة الأسطول الإسـلامي الناشـئ أخذ يلح على الخليفة عثمان بن عفان في فتح هذه الجزيرة الكائنة شـمال البحر المتوسط بالقرب من سواحل الشام . ولكن لماذا هذه الجزيرة بالذات التي أراد معاويـة فـتحها ؟ يبدو أن هذه الجزيرة كانت ذات مركز إستراتيجي على درجة كبـيرة مـن الأهمـية ، وكانت تحت السيادة البيزنطية ومثلت معقل من معاقل الهجوم على المسلمين في الشام ومصر . وترجع أهمية الجزيرة أيضاً إلى أن موقعها أتاح لها فرصـة الـتحكم فـي مياه الجزء الشمالي الشرقي من البحر المتوسط وقد جعلها هذا الموقـع موضع صراع بين القوى العظمى، فقد جعلها البيزنطيون قاعدة عسكرية هامة لشن هجماتهم على المسلمين، وتطلع المسلمون إليها ليستغلوها أيضاً فى هذا المضمار؛ عـلاوة علـى أنهـا كانـت ذات أهمـية تجارية كبيرة وأثرت كثيراً من التجارة عبر

---

[١] انظر، إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٥٥-٦٠.

أراضيها. وأعد معاوية بن أبى سفيان والى الشام حملة بحرية سنة ٢٨هـ/٦٤٩م لفتح الجزيرة حيث حشد معاوية قواته في ميناء عكا ، وكانت السفن كلها من مصر على حين اشترك من الجند العربى كبار رجال الشام وغيرهم من مشاهير قادة العرب وقد اصطحب معاوية معه زوجته حسب ما أمره الخليفة ، وفاحتوت الحملة على العنصر النسائى بذلك، وأبحرت الحملة البحرية وكلها أمل فى تحقيق النصر ووصلت الحملة إلى أراضى قبرص بسلام محققة نصر بحرى للمسلمين . وعرض المسلمون أهدافهم على أهالى قبرص ولم يدخل أهالى قبرص فى أية مفاوضات معهم تحت ضغط من البيزنطيين . فتقدمت القوات العربية نحو عاصمة الجزيرة، التى تجمع بها معظم سكانها وحملوا إليها معظم ثرواتهم وبعد مدة قصيرة من الحصار اقتحم المسلمون المدينة واستولوا على كنوزها وعدد من الأسرى، واضطر الأهالى إلى أن يدخلوا فى المفاوضات مع المسلمين وعقد حاكم الجزيرة صلحاً مع المسلمين على أن يدفع لهم ٧٢٠٠ دينار كجزية سنوية مثلما كانوا يدفعون للبيزنطيين ، وتعهدوا أيضاً بألا يمدوا بيزنطة بأية معونات بحرية ، وبألا يفشوا أى من أسرار المسلمين ؛ وألا يخبروا البيزنطيين بأسرار وتحركات الأسطول الإسلامى ، كذلك تعهدوا بأن يزودوا المسلمين بأية أنباء عن حملات الروم تجاههم . وبالفعل التزم أهالى قبرص بالمعاهدة فترة ووقفوا موقف الحياد بين المسلمين والبيزنطيين ، وعاد الأسطول الإسلامى إلى سواحل الشام بعد أن نجح فى تحقيق أهدافه التوسعية . وظل معاوية فترة يراقب أهالى قبرص ومدى التزامهم بتنفيذ بنود المعاهدة .[1]

---

[1] انظر، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٠٨-٢١٥؛ الذهبى، تاريخ الاسلام، ج٢، ص ٧٨؛ عبد الوهاب حسن محمد، قبرص والصراع البيزنطى الإسلامى، في الفترة من ٢١-٣٥٤هـ/٦٤١-٩٦٥ م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٩٦، ص ٧٧٩٣، أحمد عتمان، تاريخ قبرص، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٢٨-١٢٩؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ١٢٦؛ *Theophanes*, pp. 478-479.

[2] الذهبى، دول الإسلام، ج١، ص ٢٢؛ عبد الوهاب حسن، قبرص، ص ٩٥-٩٧.

ولكن في سنة ٣٢هـ/٦٥٢م أخل أهل قبرص ببنود المعاهدة وأمدوا البيزنطيين ببعض السفن البحرية التي ساعدتهم على تنفيذ هجومهم على الأراضي العربية الإسلامية، فما كان من معاوية إلا أنه جهز أسطولاً ثانياً قدرت سفنه بخمسمائة سفينة واتجه الأسطول نحو الجزيرة ثانية في عام ٣٣هـ/ ٦٥٣م واستطاع أن يستولي عليها عنوة رغم أنوف أهلها وعاد إلى سواحل الشام ثانية بعد أن ترك جيشاً نظامياً إسلامياً في قبرص وأجرى لجنوده الرواتب ، وشجع أهالي المدن الساحلية بالشام على الهجرة إلى قبرص لتقوية النفوذ الإسلامي بها.[١]

وبهذا أصبحت قبرص بمثابة قاعدة بحرية إسلامية لها وزنها العسكري في شرقي البحر المتوسط بحيث استطاع المسلمون أن يصدوا الهجمات البيزنطية بل ويشنوا منها هجماتهم العسكرية على أراضي بيزنطة . وهكذا فقدت القسطنطينية واحدة من معاقل الدفاع عنها وعن أملاكها والتي سهلت للمسلمين بعد ذلك الهجوم على هذه العاصمة المنيعة .

وبإغارة المسلمين على جزيرة قبرص اثبتوا أنهم على فهم ودراية كبيرين لطبيعة وأهمية الجزر التي كان يستولي عليها البيزنطيون بشرق البحر الأبيض المتوسط إذ رأوا ضرورة الاستيلاء عليها لما تتمتع به من مراكز استراتيجية هامة ولشل حركات الروم البحرية[٢] .

وأتاحت هذه السياسة البحرية للأسطول العربي الإسلامي ميداناً واسعاً ذلك أن الجزر تنتشر في الشطر الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بحيث تقسمه إلى بحار داخلية صغيرة يتصل بعضها ببعض عن طريق مضايق وفتحات صغيرة تكفل للمسيطر عليها تمام السيادة على ما يليها من بحار داخلية ؛ وما يطل على هذه البحار من أراض وبلاد. ومن ثم سارت حركات الأسطول العربي إزاء تلك الجزر حسب سياسة

---

[١] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٢١٧؛الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١، ص ١١٥؛ إبراهيم أحمد العدوي ، التاريخ الإسلامي، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

واضــحة ومرســومة تهـدف أولاً إلى تأمين سلامة الفتوح العربية من الجزر القريبة والمباشــرة لأراضيهم ، ثم الاستيلاء على غيرها من الجزر التى تتحكم فى أكبر عدد مــن المضــايق البحرية لصد الروم وسد الطريق فى وجه هجماتهم . وقد أظهر أمراء البحر العربى شجاعة وبسالة نادرتين فى هذا المضمار .

فتح جزيرة أرواد

ومــن ذلك أنه استرعى نظر قادة العرب وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان أثناء إغاراتهم على قبرص وقوع جزيرة تدعى إرواد بالقرب من ساحل الشام ولم يكن أول داع للأســطول العــربى وهــو معاوية بالشخص الذى يتهاون فى ترك أى معقل للروم يهدد سلامة الإسلام والمسلمين؛ أو يدعه شوكة فى جانب ولايته . فكانت جزيرة أرواد تتمــتع بشهرة عالية منذ أقدم العصور بالرغم مما بدت عليه من ضآلة الشأن فى تلــك الفــترة الأولــى من نشاط الأسطول العربى فى مياه البحر المتوسط . فقد لاحظ اســترابون قديماً أن أهل أرواد يحترفون القرصنة على النقيض من سائر البلاد القريبة مــنها والــتى اتخــذت لنفســها الطــرق القويمة فى الاشتغال بالتجارة لتدعيم رخائها الاقتصادى، فكان أهالى هذه الجزيرة يستغلون ما حبتهم به الطبيعة من مركز جغرافى ممــتاز فى ميدان التجارة وأبدوا جميعاً نهماً فى تنمية مواردهم الاقتصادية عن طريق مــيدان القرصــنة المخــيف وقد جعلتهم هذه الأمور أهلاً يتسمون بالغدر وبالبعد عن مواضع الثقة والتقدير .

عقد معاوية العزم على التخلص من مخاوفه من تلك الجزيرة بالاستيلاء عليها فــأعد الأســطول العربى لمهاجمتها سنة ٢٨هـ/٦٤٨م بعد عودته من الإغارة الأولى علــى جزيــرة قــبرص . واســتطاع الأسطول الإسلامى السيطرة على شواطئ تلك الجزيــرة وإنــزال الجــند العــرب بهــا، ولكن أهل أرواد رفضوا الإذعان والتسليم واعتصــموا بقلعــة الجزيرة على الرغم من وساطة أحد الأساقفة حيث رأى أن يبصر ســكان هذه الجزيرة بمغبة الإصرار والعناد . وكانت خطة العرب البحرية تسير على أســاس مسالمة أهالى جزر البحر الأبيض المتوسط أولاً فإن أبوا فالقتال حتى النصر .

وعادت الحملة إلى أراضيها ثانية أمام موقف أهالى الجزيرة منهم على أن يعودوا إليها فى العام التالى .

وبالفعل أعدوا حملة ثانية فى العام التالى لمهاجمة جزيرة أرواد ودخلوا الجزيرة وهاجموا العاصمة وقلعتها وألزموا جميع أهاليها بإخلاء الجزيرة تماماً ، جزاء عنادهم الذى تجلى فى مقاومتهم الشديدة فى المرة السابقة ، ولم يكن فى هذا التصرف الذى اتخذه المسلمون شئ من التعسف وإنما جاء وليد بعد نظرهم وفهم لطبيعة سكان هذه الجزيرة ووسائلهم التى اعتمدوا عليها لإنهاك مهاجميهم ، فكان أهالى هذه الجزيرة يتجنبون دائماً الهزائم القاصمة ويحتفظون بقوتهم ونشاطهم بالاعتصام بالمياه حتى يزول الخطر المحيق بهم. ولذا قضى المسلمون نهائياً على عناصر المقاومة فى هذه الجزيرة ومناعتها وأمنوا ما قد يجيش بنفوس أهاليها من عدوان ولاسيما بعد أن كشفوا القناع عن نواياهم فى وضوح وجلاء[1] .

فتح صقلية

هكذا لم يقم الأسطول العربى بنشاطه البحرى المبكر عفوياً أو نتيجة خطط مرتجلة وإنما سار العرب في أعمالهم البحرية وفق سياسة واضحة المعالم تهدف أولاً إلى حماية ممتلكاتهم ثم إقصاء الروم عن أى مكان تتجمع فيه أساطيلهم لمهاجمة أراضى العرب . وكانت آية هذا التفكير العربى السديد هو اتجاه الأسطول العربى للهجوم على جزيرة صقلية إذ يبدوا أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون

---

[1] قسطنطين بورفيروجنيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠، ص ٧٨؛ إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٨٨؛ كوثر على سرحان، فتح المسلمين ومغادرتهم لأرواد "كيزيكوس" ورودس، ندوة المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربى عبر العصور، حصاد ٩، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٥-٥٨؛ عبد العزيز بن إبراهيم العمرى، خطط الراشدين في البحر المتوسط، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٨(٢٠٠٠)، ص ٣٣٧
Theophanes, p. 479; Constantine Porpherogenitus, *De Administrando Imperio*, Ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. H. Jenkins, Budapest, 1949,p. 84.

موضـــع خطـــر مباشر على إقليم الشام ومصر ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صـــقلية غدت قاعدة لأساطيل البيزنطيين التى انسحبت من قواعدها بالشام ومصر بعد الفـــتح العـــربى لهما، ومركزاً تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحرى بين أســـاطيلهم فـــى مصـــر والشام . وكانت صقلية بموقعها الجغرافى تتحكم فى المداخل الرئيسية الكبرى لشرقي البحر الأبيض المتوسط . إذ هى تقسم البحر الأبيض المتوسط عامـــة إلـــى قسمين رئيسيين وتشرف على الاتصال بينهما عن طريق مضيق ميسينيا Misenea ومضـــيق صـــقلية الواقع بين طرف جزيرة صقلية الجنوبى وشمال إفريقية ثـــم أن جزيرة صقلية تلقت من كل بلاد الروم ، البعيدة عن متناول الأسطول العربى ، مســـاعدات جعلـــتها أعظـــم قاعدة لأسطول الروم فى شرق البحر الأبيض المتوسط .
وكانـــت مصر أول من أدرك خطورة اتخاذ أساطيل الروم قاعدة لها فى صقلية، ومن ثـــم تكـــاتف الأســـطول العربى المصرى والشامى فى الهجوم على تلك الجزيرة لتقليم أظافـــر البيزنطييـــن وبث الرعب في نفوسهم . فقام الأسطول العربى من موانئ الشام تـــؤازره القوات البحرية المصرية سنة ٣٢هـــ/٦٥٢م، تحت قيادة معاوية بن حديج،[1] بمهاجمـــة صقلية ونزلت الحملة الحربية البحرية بالشواطئ ومعها المجانيق والهراوات وأعملـــت التدمـــير فى حصون الجزيرة ثم هاجمت القوات الإسلامية معاقل الروم فى الجزيـــرة وألجـــأت حامـــياتها إلى الانسحاب داخل الجزيرة ثم اتبع العرب، انتصارهم بالإغـــارة لـــيلاً علـــى القرى والمدن القريبة من السواحل ، ثم عادوا بعد هذا النصر العظـــيم إلى سواحل الشام . وقد توالت إغارات المسلمين بعد ذلك على جزيرة صقلية حيـــث خرجـــت وحـــدات الأسطول تارة من الشام وتارة أخرى من مصر حتى صار مركـــز أســـطول البيزنطيين ضعيفاً ولا تقوى سفنه على صد الأسطول الإسلامى .[2]

---

[1] انظـــر، محمـــد أحمد زيود، النشاط الفاطمى المغربى في صقلية وجنوب إيطاليا، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٩(٢٠٠١)، ص ٢٨٧-٢٨٩؛ عزيز أحمد، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة/أمين توفيق الطيبى، طرابلس، ١٩٨٠، ص٨-٩.

[2] عزيز أحمد، صقلية الإسلامية،١٩٨٠، ص ٨-١٢.

ومما لا شك فيه أن دخول العرب صقلية قد فتح الباب على مصراعيه لكى تنتشر الروح العربية الإسلامية بين الشعوب الأجنبية ولينتشر الاسلام فى هذه البقاع من الأرض وكانت فاتحة خير للعرب حيث خرجت ثقافتهم وحضاراتهم إلى العالم الخارجى ، وحيث غدت صقلية فيما بعد واحدة من مراكز إشعاع الحضارة الاسلامية في عالم البحر المتوسط.

جدير بالذكر أن الإمبراطور البيزنطى قنسطانز أرسل على أثر الفتح الإسلامي المتواصل لبلاد وجزر البيزنطيين، رسالة مع سفيره بروكوبيوس إلى معاوية يطلب فيها عقد سلام بينهما. وقد وافق معاوية على عقد هذا السلام لمدة عامين، بعد أن أخذ أحد قادة بيزنطة، جريجورى بن ثيودور، رهينة في دمشق. [1] وربما كان يهدف قنسطانز من وراء عقد هذه الهدنة إعطاء نفسه برهة من الوقت ليستعد للهجوم على سواحل الشام بأسطوله، لاسيما وأن الجيوش الإسلامية كانت تتقدم في أرمينية وأسيا الصغرى أنذاك، وهو ما حدث فيما بعد حيث التقى المسلمون والبيزنطيون في ذات الصوارى، كما سيرد.

فتح رودس[2]

وبعد النصر الذى أحرزه الأسطول الإسلامى على البيزنطيين بصقلية فى عهد عثمان بن عفان وفى ولاية معاوية بن أبى سفيان على الشام اتجه الأخير بأسطوله لإحراز نصر آخر لاستكمال السياسة التى انتهجها إزاء الروم خاصة فى المجال البحرى. فاتجه الأسطول الإسلامي شطر رودس أهم جزر بحر ايجه وأعلاها مكانة فى الدولة البيزنطية من حيث نشاطها البحرى وحركة صناعة السفن بها ، فهذه الجزيرة أول حلقة من حلقات سلسلة أرخبيل بحر ايجه من ناحية الشرق وتمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى على بعد إثنى عشر ميلاً تقريباً من الساحل

---

(١) *Theophanes*, p. 479.

(٢) عبد العزيز العمرى، خطط الراشدين، ص ٣٣٧-٣٣٨؛ *Theophanes*, p.481

الآسـيوى . وقد أهلها هذا الموقع لأن تكون خطراً جاسماً على أطراف الشام الشمالية المـتاخمة للحدود البيزنطية بآسيا الصغرى وشوكة مسلطة على إقليم العواصم والثغور الشامية . وقد بعث معاوية حملته لفتح رودس سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م تحت قيادة جناده بن أمـيه الأزدى واسـتطاع هـذا القائد أن يستولى على الجزيرة عنوة، ونظراً لأن هذه الجزيـرة كانـت مـن أنسـب الأماكن لإقامة المسلمين ، فقد أمر معاوية ببناء حصن بالجزيرة وبعث إليها جماعة من المسلمين يتولون الدفاع عنها وبلغ من اهتمامه بحامية رودس أنـه كـان يجدد أفرادها دائماً ويسحب الذين قضوا بالجزيرة مدة طويلة وذلك لكـى يـبقى على بأس الحامية وقوتها ، وأرسل إلى المسلمين هناك الفقهاء والمعلمين لتثبيت الإسلام فى قلوبهم.

فتح كريت

أراد معاويـة أن يقطع كل الطرق على البيزنطيين فرأى أن يستولى على هذه الجزيـرة لسد منافذ بحر ايجه الرئيسية فى وجه البيزنطيين وهذه الجزيرة تسيطر على بحـر ايجه فأرسل معاوية أسطوله وجنوده للاستيلاء على هذه الجزيرة ، ولكن جنوده لـم يسـتطيعوا الاستيلاء عليها . وربما لم تقو القوى البحرية الإسلامية الناشئة آنذاك علـى فتح هذه الجزيرة التى تشبث بها الروم ، فاكتفى المسلمون بشن غارات هجومية عليها للبطش بالبيزنطيين فيها وإلحاق الأذى بأساطيلهم .

ممـا لا شك فيه أن هذه الانتصارات كلها قد زادت من قوة المسلمين وثباتهم وأوجـدت عندهم الرغبة فى التوسع وبسط النفوذ الإسلامى إلى أكبر حد ممكن . كذلك كتـب علـى الإمـبراطور قنسطانز أن يشهد كل هذه الهزائم ، التى زادته حقداً على المسـلمين وتصـميماً علـى دحـرهم وبـدأ الصراع يأخذ أشكالاً متعددة بين القوتين العظمتيـن آنـذاك إلـى أن جاءت موقعة ذات الصوارى البحرية والتى أنهت السيادة البيزنطـية على البحر الأبيض المتوسط وكانت هذه واحدة من أهم أدوار المواجهة بين المسـلمين والبيزنطييـن ، فكما أن موقعة اليرموك كانت المواجهة الحقيقية الأولى بين

الجيوش البرية الإسلامية والبيزنطية، أصبحت ذات الصوارى المواجهة البحرية التى أنهت نفوذ بيزنطة فى البحر الأبيض وحولته إلى بحيرة إسلامية كبرى كما سنري.

معركة ذات الصوارى[1]

كانت الانتصارات السابقة حافزاً شجع معاوية على استكمال الفتوحات البحرية الإسلامية وكانت أولى الخطط التى رسمها لاستكمال هذه السياسة هى الاستيلاء على القسطنطينية ذلك المحول الذى يدير دفة الأمور فى الدولة البيزنطية ففى سنة ٦٥٥م / ٣٤هـ/٦٥٤م ترامت أنباء إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى ٦٤١-٦٦٨م/٢١-٤٨هـ بأن معاوية يعد العدة ويجهز أسطولاً كبيراً وجيشاً كثيفاً لمهاجمة القسطنطينية فعمل الإمبراطور قنسطانز الثانى على أن يتلافى هذا الخطر المقبل ؛ وعول على الخروج قاصداً الشام ليدمر الأساطيل الإسلامية قبل إبحارها من قواعدها وفى الفترة التى أسرع فيها قنسطانز بإعداد سفنه الحربية نشط وكلاء الدولة البيزنطية بالشام لعرقلة الاستعدادات الإسلامية وقد نجح هؤلاء العملاء فى تدمير المعدات الإسلامية التى حشدها معاوية فى طرابلس وأطلقوا الأسرى من السجون ثم فروا إلى آسيا الصغرى . لكن تمكن معاوية من إصلاح كل هذا وأعد آلات الحرب ثانية وسار معاوية على رأس قواته البرية سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤م إلى مدينة قيصرية بآسيا الصغرى على حين وصلت سفناً حربية من مصر إلى سواحل الشام وانضمت إلى الأسطول الإسلامى على أن الأسطول الإسلامي توقف قرب سواحل ليكيا عند فوينكس Phoinix حيث

---

[1] عن رؤى المؤرخين لهذه المعركة، انظر، الذهبى، دول الإسلام، ج١، ص٢٣ ، حيث يطلق عليها اسم موقعة ذى خشب انظر، الذهبى، تاريخ الاسلام، ج٢، ص ١٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٢١٩؛ عبد العزيز العمرى، خطط الراشدين، ص ٣٣٨-٣٣٩؛ إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٠٠- ١٠٧؛ صلاح حسن العاورر، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية في العصر الأموى، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٨(٢٠٠٠)، ص ٣٧٦-٣٧٩ ؛
Theophanes, p. 482

بلغه نبأ اقتراب الأسطول البيزنطى وعلى رأسه الإمبراطور نفسه ،[1] أما عن الأسطول الإسلامى فكان تحت قيادة عبد اللّه بن أبى السرح . وظهر أسطول البيزنطيين أمام المسلمين، وقد راعهم منظر سفنه التى كثرت صواريها وربما وقع شئ من الرهبة فى نفوس المسلمين فقد جاء قنسطانز عاقداً العزم على ضرب المسلمين تماماً وإلى الأبد . وكانت الرياح فى ذلك اليوم غير مستقرة فلم يلتقى الفريقان إلا فى اليوم التالى وقضوا ليلتهم حسب طقوس كل فريق ، فعن المسلمون يقال أنهم ظلوا يصلون ويتعبدون طيلة الليل ، أما البيزنطيون يقال أنهم أخذوا يدقون النواقيس استعداداً للحرب. واشتبك الفريقان فى الصباح وأخذ رجال الأسطول الإسلامى يقذفون السفن البيزنطية بالسهام والنبال إلى أن فرغت ذخيرتهم، وذلك لأن السفن البيزنطية كانت تتعمد البعد عن مرمي السفن الإسلامية من باب المراوغة، وبدأ المسلمون يقذفون الأحجار على العدو وأدرك قنسطانز أنه سائر نحو النصر ، ولكن سرعان ما لجأ المسلمون إلى حيلة وهي أنهم ربطوا سفنهم بعضها إلى البعض ورموا الكلاليب والخطاطيف على السفن البيزنطية وجذبوها نحوهم وأخذوا يتقاتلون بالسيوف والخناجر وكأنها معركة برية . ورمى قنسطانز إلى أسر سفينة القيادة الإسلامية وكاد أن ينجح لولا شجاعة أحد المسلمين ويسمى علقمة ؛ حيث ضحى بنفسه فى سبيل قطع السلاسل التى تجذب السفينة نحو الأسطول البيزنطى ودارت الدائرة على البيزنطيين وهزموا فى هذه المعركة وكاد الإمبراطور أن يؤسر لولا تنكره في زى أحد قارعى الطبول وهرب من المعركة بأعجوبة فى أحد القوارب إلى جزيرة صقلية. وقد تفانى المسلمون والبيزنطيون في هذه المعركة والتى حسمت مصير البحر المتوسط ولمن

---

[1] يذكر ثيوفانيس أن الأسطول الإسلامي كان تحت قيادة أبو الأعور. *Theophanes*, p. 482 جدير بالذكر أن أحد الباحثين يذكر أن الموقعة سميت باسم ذات الصوارى لا لكثرة صوارى السفن المتناحرة كما هو شائع، بل نظرا لأن المكان الذى دارت فيه المعركة، كان مصدرا للأخشاب ، مدللا على رأيه بنصوص من الطبرى. انظر صلاح حسن العاوور، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٧٩. وسوف يعالج المؤلف هذه القضية فى بحث مستقل.

السيادة فيه؟ وربما نتساءل عن مصير جيوش معاوية البرية بآسيا الصغرى فنحن لا نعرف تقريباً ما قامت به ولكن يبدو أنها هدفت إلى قطع الاتصالات والإمدادات بين البيزنطيين فى البحر ومعاقلهم البرية فى آسيا الصغرى .

وكان من أهم نتائج المعركة هو اعتراف بيزنطة بالمسلمين كقوة عظمى بمعنى أنه لم تعد تراود أباطرتها فكرة القضاء على المسلمين وطردهم من المناطق التى استولوا عليها، إذ أدرك الأباطرة البيزنطيون إن مثل هذه الفكرة ضرب من ضروب الخيال . كذلك عمد كل فريق منهما إلى تقوية مناطق الثغور والتخوم ليتجنب كل منهما هجمات الآخر على أراضيه. واتجه الإمبراطور قنسطانز بعد ذلك لتأديب عناصر السلاف فى البلقان لعله يجد ضالته المنشودة فى نصره على السلاف .[١]

جدير بالذكر أن الإمبراطور قنسطانز الثانى قرر على أثر هزيمة أسطوله من المسلمين في ذات الصوارى، نقل عاصمته إلى سيراكوزا بصقلية، تمهيدا لنقلها إلى روما؛ حيث بعث برسالة إلى القسطنطينية يطلب فيها إرسال زوجه وأبنائه الثلاثة قسطنطين، وهرقل، وتيبريوس، إلا أن سكان العاصمة رفضوا السماح لهم بالذهاب إلى صقلية.[٢] وقد انتهى الأمر باغتيال الإمبراطور قنسطانز في حمامه المسمى دافنى بسيراكوزا بصقلية، بسبب كره الشعب له.[٣]

فى أعقاب هذا النصر دخلت الدولة الإسلامية فى فوضى مقتل الخليفة عثمان بن عفان مما ردها عن مواصلة الهجوم على الأراضى البيزنطية . كذلك فإن معاوية بن أبى سفيان بعد تقويته لمناطق الثغور والتخوم أخذ يتجه إلى الأحداث الدائرة فى الدولة الإسلامية محاولاً الإفادة منها وقد حدث هذا بالفعل حينما تولى الخلافة "على بن

---

(١) *Theophanes*, p. 484.

(٢) *Theophanes*, p. 486.

(٣) *Theophanes*, p. 490; *Nikephoros*, p. 85.

أبـــى طالـــب" وحـــدث مـــا سمى بفتنة على، والتى انقسم العالم الإسلامى على أثرها وانغمس المسلمون فى فترة من الحروب والصراعات الداخلية التى شغلتهم عن نصرة الإســلام والخـــروج به إلى آفاق جديدة وأراض جديدة إلى أن انتهت هذه المعمعة التى أصـــيب بهـــا العالم الإسلامى وخرج معاوية بن أبى سفيان ليؤسس أسرة جديدة حملت رايـــة الجهـــاد على عاتقها ، والتى شهدت الفتوح الإسلامية عصرها الذهبى فى عهد مؤسسها بالشام معاوية بن أبي سفيان .

هكـــذا رأيـــنا العديـــد مـــن أدوار المواجهة العسكرية التى خاضها المسلمون والبيزنطـــيون البرية منها والبحرية ولم نتعرض للمواجهة الحضارية والثقافية ، والتى لا تقـــل عـــن المواجهـــة العســـكرية ، مـــن حيث المجد والعظمة ، والتى أثرت كلتا الحضارتين البيزنطية والإسلامية ثراء عظيماً .

والآن هـــناك سؤال ينبغى أن نتعرض له وهو ما طبيعة التأثيرات التى أحدثها اجتياح المسلمين للعالم البيزنطى آنذاك على الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ؟

كانـــت الإمـــبراطورية البيزنطـــية منذ نهاية القرن السادس الميلادى وحتى بدايـــات القـــرن السابع الميلادى تعانى من أزمة اقتصادية حادة ، نجمت عن الحروب الـــتى خاضـــها الأباطـــرة الســـابقون أمـــثال الإمـــبراطور جســـتنيان ٥٢٦-٥٦٥م والإمـــبراطور موريـــس ٥٨٢-٦٠٢م ، مـــع أعـــداء الإمبراطورية البيزنطية شرقاً وغرباً ، الفرس والقوط الشرقيون والقوط الغربيون والوندال والآفار والقبائل السلافية.

وإذا كـــان الإمـــبراطور موريس قد حاول إجراء بعض الإصلاحات الداخلية للـــنهوض بدولته وبجيشه ، إلا أن خاتمته المؤلمة كانت أكبر رد داخلى على من يريد القيام بإصلاحات جذرية لإصلاح المؤسسات الداخلية فى بيزنطة ، فقد فقد الإمبراطور موريـــس حياته ، بل وراحت أسرته ضحية الإصلاح الذى حاول القيام به ، وكان من أبـــرز ســـمات ذلـــك الإصـــلاح أنه حاول تخليص الخزانة الإمبراطورية من عبء المرتبات التى كانت تدفع للمرتزقة للدفاع عن حدود الإمبراطورة ؛ حيث سعى حثيثاً للاعـــتماد علـــى العنصر الوطنى كقاعدة للتجنيد ، وأمر قواته ، لاسيما المرابطة على

الدانــوب ، بالاعــتماد علــى المــوارد المحلية هناك كمصدر للإعاشة بدلاً من الميرة والرواتــب التى كانت ترسل من القسطنطينية ، بل وصل به الحد إلى قيامه بالحد من ظاهرة الرهبانية التى لجأ إليها السكان للهروب من التجنيد .

وازداد الطيــن بله فى الإدارة البيزنطية عندما تولى فوقاس الحكم ٦٠٢-٦١٠ م، وانهــار الجيش والمؤسسات العسكرية ، وخلت الخزانة الإمبراطورية من الأموال اللازمــة للــزود عــن حــدود الإمبراطورية ، لاسيما وأن الفرس ، المطالبين بالثأر لصــديقهم الإمــبراطور موريس ، انسالوا إلى أراضى الإمبراطورية فاقتطعوا منها أغــنى ولاياتهــا، حيث احتلوا آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ومصر . وإذا كان الإمــبراطور هــرقل ٦١٠-٦٤١م قــد اســتطاع أن يزود عن حدود دولته وأن يطرد الفــرس مــن بلاده ، بل ويدخل إلى العاصمة الفارسية نفسها بقواته ، فإنه لم يكن فى حســبانه أن التأثيرات التى سيحدثها ظهور المسلمين فى المنطقة سوف يكون لها آثاراً أكــثر عمقــاً مــن الاحــتلال الفارسى لأراضى بيزنطة إبان حكم فوقاس. فقد انتزع المســلمون بــلاد الشــام من أيدى البيزنطيين ، ثم تلاها فتح مصر ، ثم ولاية إفريقية. وهكــذا فقدت بيزنطة أغنى ولايات الشرق مصر وبلاد الشام ؛ وتوقفت شحنات القمح الــتى كانت ترسل من مصر إلى القسطنطينية واضطربت التجارة المارة عبر أراضى مصر أو عبر أراضى بلاد الشام إلى القسطنطينية . الأمر الذى نجم عنه حدوث بعض الاختــناقات الاقتصادية فى القسطنطينية ؛ مما دفع بالإمبراطور هرقل إلى القيام بعدة إصلاحات جذرية للنهوض بالمؤسسات الاقتصادية والعسكرية فى دولته .

اعــتمدت فكــرة الإصلاح التى قام بها الإمبراطور هرقل على ركيزة أساسية وهــى استغلال الأرض إلى أقصى درجة ممكنة . فأمر بتقسيم أراضى الإمبراطورية البيزنطية إلى مساحات متباينة ، على أن توزع هذه المساحات على الجند ، كل حسب حاجته ، مقابل التزام من حاز هذه الأراضى بأداء الخدمة العسكرية كفارس فى الجيش البــيزنطى عــند وقــت الحاجة . وهكذا ، أصبح الجنود البيزنطيون فلاحون عاملون بــالأرض فى وقت السلم ، مقاتلون أشداء عندما تنطلق أبواق القتال ؛ وفى هذه الحالة كــان على أسرة المقاتل أن تتولى رعاية هذه الأرض حتى يعود من الحرب ؛ وإذا قدر

لــه أن يقتل فى المعركة كان على أسرته ؛ إذا ما أرادت الاحتفاظ بالأرض ، أن تقدم أحــد أبــنائه عوضاً عن أبيه للقيام بالخدمة العسكرية ، أو أن تقدم فارساً مجهزاً على نفقــتها الخاصــة . هكــذا عــرف هذا النظام باسم "الاستراتيوتيكا كاتيماتا" ، ويمكن ترجمتها باسم "الأراضى العسكرية الموقوفة" .

لــم يكن هذا هو الإصلاح الوحيد الذى أجراه الإمبراطور هرقل وطوره مع ظهور المسلمين ، بل قام بإعادة توزيع الفيالق العسكرية فى الأقاليم البيزنطية ، وجعل حــاكم الإقلــيم ، وهو فى نفس الوقت قائد الجيش المحلى ، يجمع فى كلتا يديه الإدارة العســكرية والمدنــية فى آن واحد ؛ وهو النظام المعروف باسم "الأقاليم العسكرية" أو "الثــيماتا" بلغــة المصــادر البيزنطية . وبهذا صار العنصر الوطنى هو الأساس الذى أصــبح قاعدة لا للتجنيد فى الجيش فحسب ، بل لتنمية الاقتصاد البيزنطى المتداعى فى ذلك الوقت .

وتجــدر الإشــارة إلى أن الإمبراطور قسطنطين السابع يشير فى كتابه "عن الأقاليم البيزنطية" إلى أن نظام الثيمات هذا يعود إلى عهد الإمبراطور البيزنطى هرقل وخلفائه[1]، وبالتحديد عند حديثه عن إقليم الأرمنياق[2].

ويــبدو أن إنشــاء أول الأقاليم العسكرية يرجع إلى عصر هرقل، قبل الهجوم الكبــير الــذى شــنه علــى فــارس[3]. وكــان أول هذه الأقاليم العسكرية بالطبع هو الأرمنــياق[4]، لمواجهــة الضغط الفارسى[5]. ويبدى قسطنطين فى معرض حديثه عن

---

(1) Dieh, Ch.et Marçais, G., *Histoire du moyen âge*, Paris, 1936, p. 222; Ostrogorsky,G., 'sur la date de la composition du Livre des thèmes',*B*, 22(1952) p. 49.

(2) Constantine Porphyrognetus, *De thematibus*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1840, p. 18; idem, *De thematibus*, ed. and com. A. Pertusi, Vaticano, 1952, p. 117.

(3) Ostrogorsky, *Livre des thèmes*, pp. 52-53.

(4) Lemerle,P., *Histoire de Byzance*,Paris, 1975, p.72.

(5) Vasiliev, A., *History of the Byzantine Empire 324-1453AD.*,Madison, 1958, p. 227; Ahrweiler, *La mer*, p. 21; Lemerle, P., *Philippes et la Macédonie oriental a l'époque chrétienne et byzantine*, Paris, 1945, p. 119.

يذكر نورمان بينز هذه النتائج ، ولكن قام اوستروجورسكى بتنفيذ رأيه ، انظر،
Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 227; Stratos, *Byzantium*, 268.

إقلــيم الأناضول، أول أقاليم الشرق ، بعض الملاحظات عن أصل نظام الثيمات بصفة عامة ، فيقول أن هذه الأقاليم (الثيمات) قد أنشئت عندما بدأت الإمبراطورية تفقد بعض أطــرافها وتتفتــت علــى أيدى المسلمين.[١] ما أنه مع بداية الفتوحات العربية فى عهد هــرقل، انسحبت الفرق العسكرية البيزنطية ، التى كانت تتمركز فى الشام وأرمينية ، إلى داخل آسيا الصغرى وأعيد توزيعها ، بهدف إقامة خط دفاعى جديد فيها[٢]. لذلك ، يــبدو أن تلك هى الفترة التى قصدت إليها الكلمات التى ذكرها قسطنطين . ولمزيد من الإيضـــاح أضـــاف أن تقسيم الإمبراطورية إلى أقاليم عسكرية لم يكن موجوداً بعد فى عهــد جســتنيان ولا حتى فى عهد موريس[٣]. وهناك ملاحظة اكتشفها جلتزر فى أحد المصـــادر تؤكــد وجود إقليم الأناضول منذ الربع الثانى من القرن السابع[٤]، كرد فعل للغزوات العربية للأراضى البيزنطية[٥].

جديــر بالذكــر ، أن كلمــة ثــيم أو ثيما θημα كانت تعنى فى البداية فرقة عســكرية أو فــيلق مــن الجند[٦]، متمركزة فى أحد أقاليم الإمبراطورية[٧] ثم بدأ اسم الفرقة أو الفيلق وكذلك المصطلح العسكرى ينتقل تدريجياً إلى الإقليم نفسه الذى تقيم به

---

(١) Ostrogorsky, *Livre des thèmes*, p. 51.

(٢) وسام فرج ، دراسات ، ص ١٩٩.

(٣) Ostrogorsky, *Livre des thèmes*, p. 49-50.

(٤) Ostrogorsky, Livre des thèmes, p. 50.

(٥) Lemerle, *Philippes*, p. 119; Lemerle, *Byzance*, p. 72; Ahrweiler, *La mer*, p. 21; Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 227.
انظر أيضاً ، حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٨٦ ، ص٧٤.

(٦) Ahrweiler, H., "Recherches sur l' administration de l'empire byzantine aux IX^e-XI^e sicèles, *BCH*, 84(1960), p. 2; Jenkins, R., *Byzantium The Imperial Centuries 610-1071 AD.*, London, 1966, p. 23; Oman, Ch., *History of the Art of War in the Middle Ages*, London, 1924, Vol. I, p. 182; Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 226; Diehl, Ch., *Byzantium: Greatness and Decline*, Eng. Trans. N. Walford, New York, 1957,p. 65; Lemerle, *Philippes*, p. 119; Shahid, I.,' Heraclius and the Theme System', *B*, 57(1987) , p. 393; Stratos, *Byzantium*, p. 267; Bréhier, L., *Les Institutions de l'empire byzantin*, Paris, 1943, p. 353.
انظر أيضاً، حسنين ربيع ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٤ ؛ وسام فرج ، دراسات، ص ١٩٩.

(٧) Shahid, *Heraclius*, p. 393; Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 226; Lemerle, *Philippes*, p. 119.

هـذه الفرقة أو الفيلق[١]، وحمل الإقليم الاسم الجديد له ثيما بدلاً من مقاطعة أو أبرشية Eparchia.[٢] ومـن ثم أصبحت الكلمة الأولى مستخدمة فى المصادر البيزنطية لتشير إلـى الأقاليم الإدارية التى تقيم بها الفيالق ، أو الفرق العسكرية[٣]. وأصبحت كلمة ثيما فى القرن التاسع ، تحمل إلى جانب معناها الإدارى والجغرافى معناً عسكرياً محضاً ، يعـبر عـن فـرقة أو فيلق عسكرى مكون من عدد معين من المحاربين، يأتمر بأمر ضـابط ذو رتبة عالة، وهو الاستراتيجوس[٤]. وعلى هذا فقد آثرنا أن نترجم كلمة ثيم بالإقلـيم العسـكرى، لأن هـذه الأقاليم كان يغلب عليها الطابع العسكرى كما سنرى ، ولأن حاكمها كان يحمل لقب استراتيجوس ، الذى يعنى باليونانية قائد عسكرى .

كـيفما كـان الأمـر ، أشـار المـؤرخ شـتين Stien أن الجهود التى بذلها الإمبراطور هرقل فى تنظيم الأقاليم العسكرية تتفق مع الإصلاحات التى تم تحقيقها فى إمـبراطورية الساسـانيين أثـناء القـرن السادس ، على يد بعض ملوكها أمثال قباذ ، وكسـرى أنوشروان الأول . إذ طبع هذان الملكان إدارة الإمبراطورية الفارسية بالطابع العسـكرى تماماً . وقد أراد هرقل أن يسير على نهجها قبل أن يبدأ حملاته على فارس

---

(١) Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 226; Shahid, *Heraclius*, p. 393; Diehl, Ch., "L'origine du regime des thèmes dans l'empire byzantin,"dans *Etudes Byzantines*, Paris, 1905, p. 287.

(٢) Shahid, *Heraclius*, p. 393.

(٣) Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. ٢٢٦; Diehl, *Byzantium*, p. 48; Jenkins, *Byzantium*, p. 23; Ahrweiler, H., " Asie mineure et les invasions arabe dans VII^e–IX^e siècles" , RH, 127(1962), p. 22.

انظـر أيضاً ، وسام فرج ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٩ ، ليلى عبد الجواد ، هرقل ، ص ١١١ . يرى بعض المؤرخين أن هذا الأمر حدث بدءاً من القرن الثامن الميلادى ، انظر،

Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 226.

انظر أيضاً ، حسنين ربيع ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٤ .

(٤) Ahrweiler, *Recherches*, p. 2.

عن اختلافات المؤرخين حول تفسير اللفظة وتعدد معانيها ، انظر،

Stratos, *Byzantium*, pp. 267-268; Ahrweiler, *Recherches*, pp. 78-79.

فــدرس بعـــناية شديدة تنظم دولة الأعداء وأسرع يقلده[1] وفق ما تيسر له فى الحصول علــى بعض المصادر من الأرشيف الفارسى[2]. وهذا ما جعل المؤرخ داركو يعتقد أنه هــناك ثمـــة تأثر بالنظم الطورانية ، جعل البيزنطيين يستلهمون نظام الأقاليم العسكرية مـــن الفرس[3]. أما أوستروجورسكى وبرتوسى فقد رفضا ما افترضه شتين وداركو ، لأنـــه كمـــا هـــو واضح يرتبط ببعض مؤسسات الإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية الأولـــى[4]. ومن خلال ذلك ينبغى علينا أن نوضح علاقة نظام الأقاليم العسكرية الجديد بالمؤسســـات الأولى التى قصدها أوستروجورسكى . فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية فـــى القـــرن السادس الميلادى تنقسم إلى مجموعة من القيادات العسكرية ، يتولى قيادة كـــل منها أحد القادة العسكريين Militum Magistri ، فكان فى الشرق القائد العسكرى العـــام للشرق[5]، ثم القائد العسكرى العام لأرمينية ، الذى أنشأه جستنيان[6]. وكان فى الغـــرب القائد العسكرى العام لتراقيا ، وأخيراً القائد العسكرى العام لإيلليريا ؛ وأضاف جســـتنيان إليها، للدفاع عن فتوحاته الجديدة ، القائد العسكرى العام لإفريقية ، ولإيطاليا أيضاً ؛ أما فى القسطنطينية ذاتها فكان بها القائد العسكرى لقوات العاصمة[7].

وقـــد عاشت هذه النظم طويلاً ، وكان هناك قادة الشرق العسكريون فى تراقيا وفـــى أرمينية ، وفى إفريقية وإيطاليا تحت حكم الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢م) ،

---

(١) Darkó, E., 'L'influences touraniennes sur l'évolution de l'art militaire des grées, des romains et des byzantins', *B*, 12(1937), p. 136; Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 228.

(٢) Vasiliev, *Byz. Emp.*, p. 228.

(٣) Darkó, *Influences*, p. 137.

(٤) Ostrogorsky, *Livre des thèmes*, pp. 54-55, n.1.

(٥) كانت سلطات هذا القائد تمارس على مصر والشام ، وبعد سقوطهما فى أيدى العرب أصبحت آسيا الصغرى المقر الرئيسى لنشاطه ، انظر،

Diehl, *Des themes*, p. 291.

(٦) Diehl, *Des thèmes*, p. 289.

(٧) Diehl, *Des thèmes*, pp. 289-290.

انظر أيضا ، طارق منصور، الجيش، ص ٥٨-٥٩.

ومــن بعــده الإمــبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠م)[١]. ويرى شارل ديل أنه منذ عصر جســتنيان، كانت توجد، وبنفس الامتداد الإقليمى، القيادات العسكرية للقرن السابع[٢] . ولا يــتردد فــى الاعــتراف بوجــود الرابطة بينهما ، وفى التعرف - فى المكونات العســكرية للقرن السادس - على النموذج الأصلى الحقيقى للقيادات الكبرى فى القرن الســابع[٣]. ويؤيد داركو المؤرخ شارل ديل بجعله قادة جستنيان العسكريين أسلافاً لقادة Strategi هــرقل[٤]. فعلــى سبيل المثال، كان القائد العسكرى العام لأرمينية هو القلب المحــرك لاستراتيجوس إقليم الأرمنياق فى القرن السابع ، على حد قول ديل[٥] . ولكن مــنذ نهاية القرن السادس أوجد الإمبراطور موريس نظاماً دفاعياً كان له أبلغ الأثر فى مواجهــة هجمــات اللومبارديين فى ايطاليا والبربر فى إفريقية . فقامت بذلك أرخونية رافــنا ، ومن بعدها أرخونية إفريقية . وجمع هذا الأرخون إلى جانب سلطته العسكرية اختصاصــات الإدارة المدنــية ، فكان له الإشراف التام على كل مرافق الولاية وعلى مواطنــيها بما فيهم الحاكم المدنى[٦]. وبهذا النظام تم إلغاء الفصل الواضح بين السلطة الإداريــة والسلطة العسكرية فى حكم الولايات ، والعمل على توحيدهما فى يد شخص واحــد[٧] . وهــذا ما تم بالضبط فيما بعد فى الأقاليم العسكرية المختلفة . إذ كان كبار القــادة فــى الإدارة المدنــية القديمــة يفقدون يوماً بعد يوم أهميتهم الكبيرة التى كانوا يتمــتعون بهــا فــى الماضى فى مواجهة قادة فرق الجيش الأقوياء ، كما أن المناطق المدنــية القديمــة راحــت دون وعــى تتجمع تحت سلطة القائد العسكرى الذى يدافع عــنها[٨]. وهــذا ما جعل بعض المؤرخين يرون أن أرخونيتى رافنا وإفريقية ينبغى أن

---

(١) Diehl, *Des thèmes*, p. 292.

(٢) Diehl, *Des thèmes*, p. 291.

(٣) Diehl, *Des thèmes*, p. 292.

(٤) Darkó, *Influences*, p. 135.

(٥) Diehl, *Des thèmes*, p. 290

(٦) Diehl, *Des thèmes*, p. 292.

(٧) وسام فرج ، دراسات، ص ١٩٨.

(٨) Diehl, *Des thèmes*., p. 288.

تدرســا على أنهما البداية الحقيقية لتنظيم الثيم ، والذى بدأ يجوب أنحاء الإمبراطورية بـدءاً من القرن السابع الميلادى[1]. بينما يرى البعض الآخر أن الإمبراطور هرقل قد طور هذا النظام (نظام الأرخونية) ، وطبقه على آسيا الصغرى تحت مسمى الثيمات . ويمضــى جنكيــنز أكثر من هذا ويحدد أن هذا النظام طبقة هرقل بنجاح وبتعمد على آسـيا الصــغرى ، فــى الفترة من ٦١٩-٦٢٢م ، مغيراً فقط بعضاً من المصطلحات اللاتينية الباقية[2].

ويؤيد الباحث هذا الرأى ، لأن الإمبراطور هرقل هو ابن هرقل حاكم إفريقية وقــائد قواتها[3]، وقد عرف كل شئ عن نظام الأرخونية ، وأدرك بثاقب بصره نجاحها ورخاءهــا الاقتصــادى ، ولعل هذا ما دفعه إلى التفكير فى أن ينقل عاصمته فى عام ٦١٨م إلــى قــرطاجة[4]. وبــناءً عليه ، ربما يكون قد شعر بأن هذا النظام هو الذى تحــتاجه الإمــبراطورية فى الأوقات العصيبة التى كانت تمر بها . فقد حثته الحروب المســتمرة مع الفرس والأخطار الناجمة عن الآفار والسلاف على البدء فى تطبيق هذا الــنظام الذى يعرفه ، والذى يصحح نقاط الضعف فى الإدارة ، كم أنه يكفل لها الدفاع عن الإمبراطورية[5].

وعلــى ذلك يكون نظام الأقاليم العسكرية (البيزنطى الطابع) قد حمل بين ثناياه بعضاً من آثار الأرخونية التى حملها هرقل معه من إفريقية إلى القسطنطينية ؛ ويعتبر فى نفس الوقت خيط رفيع يربط بين النظامين القديم والحديث (الأرخونية - الثيم) على الأقــل فــى المــراحل الأولى لتطبيق هذا النظام ، على عهد الإمبراطور هرقل ولكنه

---

(١) Vasiliev, *Byz. Emp.*, pp. 175-176, 227; Stratos, *Byzantium*, p. 268; Diehl, *Des thèmes*, pp. 277, 289.

انظر أيضاً، حسنين ربيع ، الدولة البيزنطية، ص ٧٥ ؛ هارتمان وباراكلاف، الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة/ جوزيف نسيم يوسف، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ٩٩، هــ ٣.

(٢) Jenkins, *Byzantium*, pp. 16, 27.

انظر أيضا، إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية، ص ٤٧، هــ ٣.

(٣) Stratos, *Byzantium*, p. 266.

(٤) Jenkins, *Byzantium*, p. 27.

(٥) Stratos, *Byzantium*, p. 266.

سرعان ما تهتك هذا الخيط بصفة خاصة فى القرن الثامن والتاسع من الميلاد عندما تأكدت الصفة البيزنطية للإمبراطورية ومن ثم انتقلت بدورها إلى كل مؤسساتها ، لاسيما النظم العسكرية والإدارية بصفة خاصة .

جدير بالذكر أن هذه الأقاليم العسكرية لم تكن مناطق إدارية فقط ولكنها كانت المنطقة التى استقر فيها الجند المكلفون بحمايتها. ثم بدأت الإدارة الإمبراطورية تقدم قطعاً من الأرض الزراعية فى تلك المناطق الجديدة للجنود فى شكل منح ممنوع التصرف فيها تعرف باسم " استراتيوتيكا كاتيماتا " ؛ بشرط أن يتقدم الجندى للخدمة العسكرية فى قوات هذا الإقليم (الثيم) ويتم توارث هذه الخدمة العسكرية مثلما يتم توارث حيازة الأرض[1]. هكذا كان كل ثيم يشكل إقليمياً عسكرياً وفرقة أو فيلق من الجيش ، وينبغى أن يكون مكتفياً ذاتياً ويجند أفراده من بين المواطنين الذين يعيشون فى نطاقه[2].

جدير بالذكر ، أن الأقاليم العسكرية لم تنشأ فى تاريخ واحد ، بل نتيجة لضروريات معينة أدت – طبقاً لحالة الإقليم – إلى تطبيقات متوالية ، قليلة العدد فى أول الأمر ، لنفس المبدأ العام[3].

وتفسر أسماء الأقاليم العسكرية الجديدة الآسيوية نفسها بسهولة ، فكان إقليما الأناضول ، والأرمنياق الكبيران، هما الإقليمان اللذان يحميانهما جيش الشرق ، وجيش أرمينية[4]. ولما كان الأصل فى هذا النظام هو إنزال فرق معينة ، أى تجمعات نظامية معينة من الكتائب للدفاع عن نواح معينة ، فان هذه النواحى سميت باسم الثيمات Themes ، ومن ثم فى البداية كان كل إقليم يسمى باسم الفرقة التى تحتله ،

---

(1) وسام فرج ، دراسات، ص ٢٠٠.

(2) Leo VI, *Tactica*, ed. J. P. Migne, *PG*, Turnholti, 1978, col., 698; Lot, F., *L'art militaire et les armées*, Paris, 1946 , p. 62.

(3) Diehl, *Des thèmes*, p. 276; Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 222.

(4) Oman, *Art of War*, p. 242.

مثل فرقة الأوبتيماطى، أو فرقة البقلاريه . وفيما بعد عندما كانت الإمبراطورية تسترد مناطق جديدة من أعدائها ، كانت ترفعها إلى مرتبة الإقليم العسكرى ؛ وأطلقت على هذه الفرق (الثيمات) الأخيرة أسماء جغرافية مثل الثيم الخرشنى ، أو السلوقى حسب العواصم التابعين لها ؛ أو الثيم القبادوقى أو البيلوبونيزى حسب الاسم القديم للمقاطعة[1].

وكان كل حاكم من حكام هذه الأقاليم يسمى استراتيجوس ، أى قائد ، وقد عكس لقبهم هذا الأصل العسكرى لوظيفتهم ؛ ولكن كانت هناك استثناءات ، حيث كان قائد إقليم الأوبسيق يسمى قومس Comes ، وقائد إقليم الأوبتيماطى يسمى دومستق[2]؛ وكان يوجد إلى جانبهم فى القرن السابع لقب أرخون كما كان قائد الإقليم البحرى كبيرايوت يسمى درونجير . وهذه الألقاب تنتمى بوضوح إلى الهرم القيادى العسكرى ولا تتضمن فى جوهرها أى انتساب إلى النظام المدنى[3].

والآن بعد أن تعرفنا على تاريخ نشأة الأقاليم العسكرية ، أو الثيمات على حسب التعبير البيزنطى ، والتى نشأت نتيجة لظهور المسلمين فى القرن السابع والحالة الاقتصادية المتردية التى انتابت الإمبراطورية آنذاك، قد يكون من المناسب أن نلقى الضوء على النظام الإدارى فيها .

لقد كان الإمبراطور يعين قائد الإقليم[4]، ومهمته الإشراف على سائر المنطقة الموكلة إليه عسكرياً وإدارياً ، وبصورة شخصية[5]. ومن ثم فهو الرئيس الأعلى

---

(١) رنسمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة/عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٦٣.

(٢) Ensslin,W., 'The Government and Administration of the Byzantine Empire', *CMH*, Vol. IV, Pt. II, Cambridge, 1967, p. 28.
يرد ذكر دومستق الأوبتيماطى عند ابن الفقيه الهمذانى ، انظر ، ياقوت ، ص ٩٩ .

(٣) Diehl, *Des thèmes*, p. 286.

(٤) Leo VI, *Tactica*, col. 679; Diehl, *Byzantium*, p. 67; Ahrweiler, *Recherches*, p. 36; Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 500. عن الأصل التاريخى للاستراتيجوس ، انظر ، Hanton,' Lexique explicatif du recueil des inscriptions gréque-chrétiennes d'Asie mineure', *B*, (1928-1929) , pp. 124-126.

(٥) Leo VI, *Tactica*, col. 679.

للإقليم[١]، وهو الذى يحكم فيالق الجيش المقيمة فيه[٢]. وقائد الإقليم ممثل للإمبراطور ، بل يصل الأمر إلى أنه يقوم بدور نائب الملك فى إقليمه[٣]، ولذلك كان على اتصال مباشر معه[٤]؛ يخضع له[٥]. وقد مارس قائد الإقليم فى دائرته كافة السلطات الإدارية ، كإدارة الأراضى ، وإدارة العدل ، والشئون المالية[٦]؛ فضلاً عن أنه رئيساً لهيئة الشرطة[٧]، ومسئولاً عن تجنيد وتسليح وتدريب الجنود فى إقليمه[٨]. وكان قائد الإقليم يعين لمدة محدودة تتراوح بين ثلاث أو أربع سنوات ، ولا يستطيع خلالها أن يبرح المكان دون تصريح خاص من القسطنطينية ، ولا مغادرة إقليمية ، إلا لأسباب عسكرية (كالمشاركة فى حملة) أو لأسباب دينية (كالزيارات المقدسة)[٩]. كما كان قائد الإقليم يعين مرؤسيه إما عن طريقه مباشرة ، أو عن طريق الإمبراطور ، بعد استشارته[١٠]. وقد كانت لديه السلطة ، عند اللزوم ، أن يعزل مساعديه[١١].

وكان لقائد الإقليم سلطة على الشعوب الأجنبية المقيمة داخل نطاق إقليمه، مثل المردة فى إقليم كبيرايوت ومناطق أخرى (كيفالونيا ، نيقوبولس ، البيلوبونيز) ، والسلاف فى الأوبسيق ، والسلاف فى مقدونيا ، والميليجيين والـ Ezeritai

---

(١) Ahrweiler, *Recherches* , p. 36.

(٢) Constantine Porphyrognété, *Le livre des cérémonies*, I, trad. A. Vogt, Paris, 1935, p. 92; Diehl, *Byzantium*, p. 67.

(٣) Constantine Porph., *Cérém.*, pp. 92-93; Ahrweiler, *Recherches*, p. 36; Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 500; Diehl, *Byzantium*, p. 67.

(٤) Diehl, *Byzantium*, p. 67.

(٥) Ensslin, *Government*, p. 28.

(٦) Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 500.

انظر أيضاً ، ليلى عبد الجواد ، هرقل ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

(٧) Ahrweiler, *Recherches*, pp. 38, 42.

(٨) Ahrweiler, *Recherches*, p. 38.

(٩) Ahrweiler, *Recherches*, p. 45.

(١٠) Leo VI, *Tactica*, col. 679; Ahrweiler, *Recherches*, p. 38; Mitard,M., ' Etudes sur le règne de Leon VI', *BZ*, 12(1903), p. 221.

(١١) Ahrweiler, *Recherches*, p. 38.

فــى البيلوبونيز ، والفالاك فى الهيلاس (أى اليونان)[1]. وكان له أيضاً الحق فى تعيين رؤســاء العشــائر المقيمين فى دائرة اختصاصه ؛ فهو يعين أراخنة الميلجيين ، وقادة السلاف فى الأوبسيق ، وضباط السلاف فى ستريمون وتسالونيك . أما بالنسبة لقطبان المــردة فــى أطالــيا ، وهــو ضابط ذو رتبة عالية ، فكان يتم تعيينه مباشرة من قبل الإمبراطور كأرخون الفالاك فى الهيلاس[2].

كمــا كــان لقائد الإقليم حق التدخل فى المنازعات التى تدور بين المؤسسات الخيرية فى إقليمه ، وله حق ايقاف وحبس المشبوهين ومرتكبى مختلف الجرائم . كما كــان يقضــى فــى الجــرائم ذات الطــابع العسكرى ، ويصدر الأحكام فيها بمساعدة الموظفين للإقليم ، مثل الأشغال الشاقة في المناجم أو الحكم بالإعدام[3].

وبالرغم من سلطات قائد الإقليم العسكرية والمدنية الواسعة ، كان يحظر عليه بشــكل قــاطع ، أثناء تأديته لمهام وظيفته ، أن يشيد أو يبنى أى شئ يصبح لاستعماله الشخصى ، أو يكتب ملكية دون تصريح خاص ، سواء عن طريق الهبة أو الشراء[4]. ويحظــر عليه كذلك ممارسة التجارة أو أن يقرض مبالغ نقدية بفائدة[5]. وعلى العكس، كانت كل هذه الأمور متاحة لمرؤسيه بشرط الحصول على موافقته[6].

ولمــا كان من الممكن أن يسئ قائد الإقليم استخدام سلطته ، نتيجة لأن الأقاليم كانت أقل عدداً وأكثر اتساعاً ، فان الحكومة المركزية وضعت بجانبه نائباً عن الشئون المدنــية وهــو البروتونــتاريوس[7] ؛ والبرايــتور ، أى قاضــى الإقلــيم[1]. وكــان

---

(١) Ahrweiler, *Recherches*, p. 38.

(٢) Ahrweiler, *Recherches*,p. 39.

(٣) Ahrweiler, *Recherches*, p. 42.

(٤) Leo VI, *Les novelles de Leon VI le sage*, trad. P. Noailles et A. Dain, Paris, 1944, pp. 282-284; Ahrweiler, *Recherches*, p. 45.

(٥) Ahrweiler, *Recherches*, p. 45

(٦) Leo VI, *Novelles*,p. 284; Mitard, *Leon VI*, p. 222.

(٧) Traité de Philothée (899 AD.), dans *Les listes de préséance byzantines des IXe-Xe sicèles*, ed. N. Oikonomides, Paris, 1972, p. 159; Leo VI, *Tactica*, col. 706.

البروتونـــتاريوس المسئول عن الشئون المدنية ، يتبع كارتولاريوس الـــ .Sacellion[2] وله الحق فى تبادل الرسائل مع الإمبراطور مباشر[3]. وبالرغم من أن هذين الموظفين كانــا فــى بعض الأحيان تابعين لقائد الإقليم ، عند وجودهما به[4] إلا أنهما كانا أيضاً مســئولان أمــام الحكومة المركزية مباشرة[5] وكان إلى جانبيهما موظف ثالث يسمى الكـــارتولاريوس[6] ؛ وهـــو المســئول عـــن حفـــظ السجلات العسكرية فى الإقليم[7]، والإشـــراف علـــى الشـــئون المالية، أى دفع الرواتب للجند[8]. ولهذا كان مسئولاً أمام لغثيـــت الخـــزانة العسكرية (الاستراتيوتيكون)[9]، برغم أنه كان يخضع لقائد الإقليم[10] ومذكور فى هيئة موظفيه[11] . وكثيراً ما نجد ذكر له فى المصادر البيزنطية[12].

---

(1) Dain, A., *L'extraite tactique tire de Leon VI le sage*, Paris, 1942, p. 97; Leo VI, *Taetica*, col. 706; Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 500; Ensslin, *Government*, p. 29; Ahrweiler, *Recherches*, pp. 43-44; Diehl, *Byzantium*, p. 67; Bury, J. B., *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, London, 1911, p. 44.

(2) Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*, Eng. trans. J. Hussy, New Jersey, 1957, p. 34; Ensslin, Emperor, p. 291.

(3) Diehl et Marçais,*Moyen âge*, pp. 500-501.

يـــرى اوستروجورسكى أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى حل محـــله الأنثيباتـــوس انظر
Ostrogorsky, *State*, p. 219.

(4) يرى انسلين أن هذا بدأ على الأقل من القرن العاشر الميلادى، انظر،
Ensslin, *Government*, p. 29.

(5) Bury, *Adm. System*, p. 44; Ahrweiler, *Recherches*, p. 43.

(6) Ostrogorsky, *State*, p. 43; Ensslin, Government، p. 29; Bréhier, Institutions, p. 362.

(7) Ostrogorsky, *State*, p. 43; Guillou, A., *L' civilization byzantin*, Arthaud, 1974, p. 168; Ensslin, *Government*, p. 38.

(8) Ensslin, *Government*, pp. 29, 38; Guillou, *Civilisation*, p. 168.

(9) Ostrogorsky, *State*, p. 43; Bréhier, *Institutions*, p. 362; Bury, *Adm. System*, p. 44.

(10) Ensslin,W., 'The Emperor and the Imperial Administration', in: *Byzantium*, ed. N. Bayns and H. Moss, Oxford, 1948, p. 29; Ahrweiler, *Recherches*, p. 43.

(11) *Traité Phil.*, pp. 109, 119; Bury, *Adm. System*, pp. 42, 44.

(12) *Taktikon Uspenski*,(842-843 AD.), dans *Les listes de préséance byzantines*

علـــى أيـــة حـــال ، إذا كان بروتونتاريوس الإقليم والكارتولاريوس ، وأيضاً البرايـــتور يخضعون فعلاً ، فى بعض الظروف ، لسلطة قائد الإقليم ، فإنه من المؤكد أنهـــم كـــانوا يتـــبعون سلطة الإمبراطور بطريقة تجعله يدين لهم بوسيلة الرقابة على الإدارة والمســـائل المدنـــية والعســـكرية ، على حد تعبير الإمبراطور ليو السادس(١). وبذلـــك يكـــون مـــن الواضـــح أن الحكومة المركزية احتفظت لنفسها بحق معين فى الإشـــراف، لكى تسيطر على قادة الأقاليم وتكبح جماحهم(٢). وكان يؤكد نفس الغرض أيضاً موظفون يبعثون من قبل الإدارة المركزية كمراقبين ومفتشين٣. كما كان الأساقفة يُنصحون بأن يراقبوا الإجراءات الإدارية فى أقاليمهم(٤).

وهكـــذا يكـــون من الواضح أن قائد الإقليم كان ذا سلطة عظمى ، لاسيما وأن الإقليم الواحد كان يشمل عديداً من الأقاليم القديمة . وبالتالى اتخذت التنظيمات الإدارية الجديـــدة طابعاً عسكرياً واضحاً(٥). ولا ينبغى أن ننســـى أن الأقاليـــم الأولى كانـــت فـــى بـــادئ الأمـــر قلـــيلة وشاســـعة ، وحكامهـــا جمعوا فى أيديهم السلطتين المدنية والعســـكرية.(٦) ومـــن الضرورى أن نشير إلى الجانب الآخر من مهام قائد الإقليم، أى إلى الجانب العسكرى، أو التنظيم العسكرى للأقاليم البيزنطية.

لقـــد تـــزود كل إقليم من الأقاليم البيزنطية بثيما واحدة (أى فرقة عسكرية)(٧) والـــتى قســـمت بدورهـــا ، طبقاً لحجمها أو وفقاً لأهمية الإقليم(٨)، إلى اثنين أو ثلاث

---

*des IX*e*–X*e *sicèles*, ed. N. Oikonomides, Paris, 1972, p. 61; *Traité Phil.*, pp. 109, 119; Constantine Porphyrognetus, *De ceremoniis aulae byzantinae*, ed. I. Resikii, *CSHB*, Bonnae, 1838, II, p. 622; Leo VI, *Tactica*, col. 706.

(١) Dain, *Tactique*, p. 97; Ensslin, *Government*, p. 29; Mitard, *Leon VI*, p. 221.

(٢) Ensslin, *Government*, p.29.

(٣) Ensslin, *Emperor*, p. 291; Ahrweiler, *Recherches*, pp. 39-40.

(٤) Ensslin, *Government*, p. 29.

(٥) Ostrogorsky, *State*, p. 87.

(٦) Oman, Ch., *The Dark Middle Ages*، London, 1924, p. 242.

(٧) Ensslin, *Government*, p. 37; Ensslin, *Emperor*, p. 298.

(٨) Ahrweiler, *Recherche*, p. 80.

تورمـــات (أى لواءات) Turmai[1]، أو أربعة تورمات فى بعض الأحيان[2]. ويقود كل تورمـا مـــن هذه التورمات طورمارخ[3]. الذى كان يساعد قائد الإقليم فى قيادة جيشه ويوضع على رأس الجناح الأيمن فى التشكيل[4]. وكانت هذه التورمات تحمى المناطق التى كان يقسم إليها الإقليم .

ويـــرى المؤرخ لوت نقلاً عن ليو السادس ، أنه كان بإمكان كل إقليم أن يحشد مـــا بين ثمانية آلاف إلى اثنى عشر ألف رجل ، مقسمين إلى اثنين أو ثلاثة تورمات ، بكـــل منها من ثلاثة إلى خمسة آلاف رجل[5]، للزود عن أراضى الإقليم المهاجمة من قبل المسلمين.

وهكـــذا ، فإن نظام الأقاليم العسكرية (نظام الثيمات) ، الذى أنشأه الإمبراطور هـــرقل ، اســـتطاع أن يوفـــر خطـــاً دفاعياً لحماية أقاليم آسيا الصغرى من المسلمين، والتصـــدى لكـــل محاولة من قبلهم لتحقيق أى وجود عسكرى لهم فى آسيا الصغرى. فكان بمثابة العمود الفقرى للدولة البيزنطية على حد تعبير أوستروجورسكى .

أمـــا عن الجانب الإسلامى فقد أدت الهزائم التى لاقاها البيزنطيون على أيدى المســـلمين مـــن ناحـــية ؛ وســـقوط العديد من الولايات البيزنطية سابقاً فى أيديهم إلى ضـــرورة اهتمام المسلمين بتقوية وتحصين مناطق التخوم مع البيزنطيين ؛ وهو الأمر

---

(١) Ensslin, *Emperor*, p. 298; Bury, J. B., *A History of the Eastern Roman Empire*, London, 1914, p. 226; Lot, *Militaire*, p. 64.

(٢) Ahrweiler, *Recherches*, p. 80.

(٣) Ensslin, *Emperor*, p. 298; Ensslin, *Government* ،p. 37; Bury, *E.R.E.*, p. 226
Diehl et Marçais, *Moyen âge*, p. 500; Lot, *Militaire*، p. 64; Bury, *Adm. System*, p. 41.

(٤) Bréhier, *Institutions*, p. 368.

(٥) Lot, *Militaire*, p. 63; Oman, *Art of War*, p. 184.

الـــذى أدى إلـــى ظهـــور مـــا يعرف باسم إقليمى الثغور والعواصم على الحدود بين الدولتين.[1]

تجـــدر الإشـــارة إلى أن المناطق الحدية الواقعة بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطـــية كانت وعرة للغاية ويصعب على القوات الإسلامية المرور منها بسلام دون وقـــوع كمائـــن أو كوارث عسكرية غير متوقعة . لقد كان على المسلمين أن يجتازوا بعـــض الـــدروب الجبلـــية فـــى جبال طوروس لمهاجمة البيزنطيين ، وأهمها ممران مشـــهوران يعـــرف الأول منهما باسم البوابات القيليقية ، التى يقع على ناصيتها حصن طرســـوس ، والـــثانى يســـمى درب الحدث ، ويقع شمال شرقى الممر السابق ؛ وهو الأصـــعب جغرافـــياً مـــن ســـابقه ، وفيه لاقى المسلمون عدداً من الهزائم على أيدى البيزنطيين .[2]

لـــم يلبـــث المســـلمون أن عملوا على تلافى هذه الأخطار بترك حاميات عند المضـــايق الجبلـــية الـــتى ينفذون من خلالها إلى أراضى الدولة البيزنطية ، ثم قاموا بتحصـــين المدن التى تتحكم فى هذه الممرات . فانتشرت هذه السلسلة من الحصون في المـــنطقة التى عرفت فيما بعد باسم إقليم العواصم ، على عهد الخليفة هارون الرشيد ، وهى المنطقة الممتدة من طرسوس إلى سميساط على نهر الفرات .

وقـــد اتـــبع معاوية بن أبى سفيان ، منذ أن كان والياً على بلاد الشام ، سياسة تعمـــير تلـــك المدن والحصون وحشدها بالمسلمين ، فأغرى المسلمين على الإقامة فى أنطاكـــية، حيـــث منحهم أراض هناك ، وقوى الرباط المخصص للدفاع عنهم. وأكمل سياسته فى تحصين المناطق الحدية بين الدولتين ، بأن بدأ فى تعمير المدن الواقعة بين الإســـكندرية وطرســـوس أثناء إغارته على أراضى البيزنطيين ، حتى أصبحت حدود بلاد الشام تتاخم مباشرة جبال طوروس ، الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول .

---

[1] انظر، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢٢٣-٢٣٦، ٢٥٩-٢٧٢؛ ابن خردانبة، المسالك والممالك، القاهرة، د.ت.، ص ٢٥٤-٢٥٥.

[2] ابن خردانبة، المسالك والممالك، ص ١٠٠-١٠٤.

وعرفت سلسلة الحصون فى الجهات المتاخمة للدروب من ناحية المسلمين باسم "إقليم الثغور" على حين أطلق اسم "العواصم" على سلسلة الحصون الواقعة فيما وراء الثغور. ولم تلبث أن اتسعت منطقة العواصم والثغور باتساع نشاط معاوية بن أبى سفيان؛ لاسيما عندما ضم إليه الخليفة عثمان شمال الجزيرة وعهد إليه بصد البيزنطيين. فأقام القبائل العربية الضاربة فى شمال العراق فى جهات بعيدة عن المدن المعرضة للغزو البيزنطى، ثم حصن هذه المدن بسلسلة من الحصون أشبه بالعواصم والثغور الشامية ، وخصص لها حاميات دائمة للدفاع عنها من الجند النظامى للدولة .

وتابع معاوية أعماله فى ذلك السبيل باستكمال سيطرته على المعاقل والحصون المهمة الواقعة على المنطقة الحدية بين الدولتين ، فاستولى قائده حبيب بن مسلمة الفهرى على مدينة سميساط، ثم ملطية؛ التى شحنها بالجند لتمصير قاعدة للهجمات الإسلامية على الأراضى البيزنطية . واستكمل معاوية جهوده فى تأمين وتحصين المنطقة الحدية بين الدولتين بناء حصن مرعش (جرمانيكا) ، وأعاد ترميم حصن الحدث، المتحكم فى ممر الحدث عبر جبال طوروس؛ وأخيراً استولى معاوية على حصن زبطرة وأعاد تحصينه.

كان من نتائج تحصين هذه الجهات أن انقسمت الحدود الإسلامية إلى قسمين ، إقليم العواصم والثغور الشامية للدفاع عن بلاد الشام ، والانطلاق منه إلى الأراضى البيزنطية ؛ وإقليم العواصم والثغور الجزرية للدفاع عن شمال العراق، وللحملات المنطلقة منه نحو الأراضى البيزنطية.[1]

أدت هذه الخطوط الدفاعية-الهجومية الأمامية إلى ظهور ما عرف باسم "الصوائف والشواتى" فى الأيديولوجية العسكرية الإسلامية . وهى عبارة عن اغارات سريعة مركزة نحو هدف معين ، قد يكون واقعاً على أطراف الدولة البيزنطية أو فى العمق ؛ وتهدف هذه الصوائف والشواتى إلى إقلاق بال البيزنطيين دائماً ، بصورة لا تجعلهم يجنحون إلى الراحة أو الهدوء العسكرى ؛ وهو الأمر الذى كان يستلزم منهم

---

[1] إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٠٨-١١٢.

شحذ همم الجند طوال العام ، المرابطة فى الحصون بصورة متصلة ، خوفاً من تلك الصوائف والشواتى التى كان المسلمون يدفعون بها نحو أراضى بيزنطة .

أدرك معاوية بن أبى سفيان آنذاك ضرورة الاعتماد على قادة أكفاء للقيام بأمر الصوائف والشواتى لتؤتى ثمارها المرجوة من ناحية ؛ وحتى يجنب الجيوش الإسلامية خطر الهلاك على أيدى القوات البيزنطية التى كانت تجيد فن الكمائن والقتال بين المرتفعات من ناحية أخرى ، فكان معاوية يستدعى القادة الأكفاء ويعقد لهم اختباراً ليقف منه على مدى قدراتهم القتالية ، ثم ينتقى من بينهم أحدهم لقيادة الصائفة أو الشاتية. وبهذا أضحى ميدان الصوائف والشواتى مجالاً يبدى فيه قادة المسلمين مواهبهم ويتدربون فيه على أساليب القتال . وقد برز من هؤلاء القادة مالك بن عبد اللّه الخثعمى، الذى لقب باسم "مالك الصوائف" ، من حسن ما أبلاه فى مجال الصوائف والشواتى فى بلاد الروم . كذلك اشتهر من بين هؤلاء القادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الذى أغار على آسيا الصغرى عام ٦٦٣م/٤٣هـ ، وأسر الكثير من الروم ، وخرب عدداً من الحصون .

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد شن شاتية على أرض الروم فى عام ٦٦٤م/٤٤هـ ، انضم إلى جانبه فيها خمسة آلاف من السلاف الذين يقطنون أراضى الدولة البيزنطية ، حيث اصطحبهم معه فى طريق العودة إلى بلاد الشام، حيث أسكنهم فى شمالها .[١]

ويروى لنا قدامة بن جعفر تفاصيل غاية فى الأهمية حول ماهية نظام الصوائف والشواتى التى كان يشنها المسلمون على أراضى البيزنطيين آنذاك . فيذكر أن أصعب هذه الغزوات "مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعة ، لعشرة أيام تخلو من آيار ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً ، وهى بقية آيار ، وعشرة من حزيران ، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكناً ، وكأن دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيقيمون

---

[١] إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١١٣-١١٥.

إلـى خمسة وعشرين يوماً وهى بقية حزيران ، وخمسة من تموز ، حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع الناس لغزو الصائفة ؛ ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون إلى وقـت قفولهـم ستين يوماً . فأما الشواتى فإنى رأيتهم جميعاً يقولون إن كان لابد منها فليكـن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار مما يحمل الرجل لفرسـه مـا يكفـيه على ظهره ، وأن يكون ذلك فى آخر شباط ، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضـى مـن آذار ، فإنهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواباً ، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون"[1] .

علـى هـذا الـنحو لخص لنا قدامة بن جعفر طبيعة وماهية نظام الصوائف والشـواتى ، الـذى كان من النتائج المباشرة لتلك المرحلة من العلاقات بين المسلمين ودولـة الروم ، إلى جانب إنشاء إقليمى العواصم والثغور . وبعد أن تعرفنا على بعض النـتائج الـبارزة الـتى عـادت علـى الدولتين البيزنطية والإسلامية آنذاك من جراء الاحتكاك العسكرى بينهما نعاود لنستكمل الحديث عن العلاقات بينهما وإلم مضت .

بعـد أن مـن اللّـه علـى المسلمين بفتح بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقـية وبـلاد العراق وفارس ، أصبح شغل معاوية بن أبى سفيان الشاغل هو غزو مديـنة القسـطنطينية ذاتها وفتحها وتحويلها إلى دار الإسلام ؛ حيث كانت هذه المدينة لـيس فقط عاصمة الدولة البيزنطية بل العاصمة الروحية لمسيحى الشرق ، ودرة مدن البحر المتوسط التى تزخر بكل نفيس وغال من التجارات العالمية ؛ بل لا نبالغ إذا قلنا أن القسطنطينية كانت رمزاً للجمال والثراء فى عالم العصور الوسطى .

الحملات الإسلامية على القسطنطينية

أرسـل معاوية حملة استكشافية فى عام ٦٦٨م /٤٨هـ بقيادة فضالة بن عبيد الأنصـارى إلى ضواحى القسطنطينية ؛ حيث استطاع أن يصل إلى مدينة خلقدونية ،

---

[1] قدامـة بـن جعفـر ، نبذ من كتاب الخراج ، ملحق على كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، القاهـرة ، د.ت ، ص ٢٥٩ .

وأقــام بها شتاء ذلك العام . وكانت العمليات الحربية تتوقف خلال الشتاء نظراً للبرودة الشــديدة والثلوج ، فظل فضالة طوال شتاء ٦٦٨م/٦٦٩م في جزيرة كيزيكوس[١] ينظم قواتــه انــتظاراً للممدد الذى سيرسله إليه معاوية من دمشق ؛ حيث أرسل معاوية إليه جيشاً تولى قيادته ابنه يزيد .

وتجــدر الإشارة إلى أن هذه الحملة ، التى يصنفها المؤرخون على أنها أولى الحمــلات الإســلامية علــى القســطنطينية ، شــارك فيها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصــارى. خــرج جيش يزيد إلى أراضى الدولة البيزنطية حيث التحم بقوات فضالة بن عبيد الأنصارى عند خلقدونية ، وساروا جميعاً نحو مدينة القسطنطينية ، التى ألقوا الحصــار علــيها . وبعــد أن حاصــر المسلمين القسطنطينية فترة من الوقت ، فكوا الحصــار عــنها فــى صــيف عــام ٦٦٩م/٤٩هــ ، بعد أن لاقوا مقاومة شديدة من البيزنطييــن مــن ناحية، ولعدم كفاءة أدوات الحصار الموجودة فى حوزة المسلمين بما يتناسب مع ضخامة وحصانة أسوار المدينة من ناحية أخرى.

ولــيس ثمة شك أن وصول القوات الإسلامية إلى القسطنطينية وحصارها لعدة شــهور قــد أحدث صدمة فى نفوس البيزنطيين ، وكانت مفاجأة غير سارة لهم أدخلت الرعــب والهلع إلى صدورهم ، والأهم من كل هذا أنها نبهتهم إلى أن عاصمتهم ليست بعــيدة عن أيدى المسلمين ، وأنها صارت هدفاً لهم . تجدر الإشارة إلى أن أبى أيوب الأنصــارى قــد لاقى حتفه فى تلك الحملة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية . وقد نــال قــبر الصــحابى الجلــيل أبى أيوب الأنصارى قدراً من التكريم من البيزنطيين المقيميــن فى أجواره ، حيث كانوا يعتقدون أنه يجلب الإمطار إليهم ، وتعهدوه بالترميم والإصلاح على حد قول أحد المؤرخين .[٢]

---

[١] *Theophanes*, p. 492.

[٢] إبراهــيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٦٢-١٦٥؛ صلاح العاوور، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٨١

لم تمض بضع سنوات على عودة الحملة الإسلامية الأولى على القسطنطينية حتى أتم معاوية بن أبى سفيان استعداداته العسكرية للقيام بحملة ثانية على القسطنطينية فى عام٦٧٣- ٦٧٤م/٥٤-٥٥هـ ، هدفها الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ذاتها . فأرسل قائده عبد الرحمن بن خالد على رأس حملة عسكرية فى عام ٦٧٣م/٥٤هـ إلى القسطنطينية، مدعومة بأسطول بحرى ، حتى يتمكن المسلمون من حصار المدينة براً وبحراً .(١) وتجدر الإشارة إلى أن فصل الشتاء لعام ٦٧٣م/٥٤هـ قد حل والقوات الإسلامية فى طريقها عبر آسيا الصغرى ، فتوقفت السفن البحرية عند شاطئ قيليقية لحين تحسن المناخ .

وبمطلع الربيع وصل أسطول إسلامى آخر إلى البوسفور ، حيث زحفت القوات الإسلامية جميعاً نحو القسطنطينية . وفى شهر أبريل اجتاز الأسطول الإسلامى مضيق الدردنيل دون مقاومة ؛ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش البرية عبر آسيا الصغرى أيضاً .

استولى المسلمون آنذاك على جزيرة ارواد (كيزيكوس) الواقعة فى بحر ايجة، واتخذوها مركزاً للعمليات الحربية ضد القسطنطينية . وكان الأسطول الإسلامى ينقل الجنود وينقلهم إلى القسطنطينية لحصارها براً ، فى الوقت الذى كان يتم الأسطول فيه حصاره البحرى لها فى نفس الوقت . وقد استمر الحصار الإسلامى البحرى - البرى منذ شهر أبريل إلى شهر سبتمبر ، واستمرت معه المناوشات الحربية بين الطرفين . واضطرت السفن الإسلامية إلى العودة إلى جزيرة ارواد لقضاء الشتاء بها ، ثم تعاود الحصار بعد تحسن الأحوال الجوية . وبحلول الربيع كانت السفن الإسلامية تعود محملة بالعتاد والجند لتلقى الحصار براً وبحراً حول القسطنطينية مرة ثانية .

---

(١) *Theophanes*, p. 493; *Nikephoros*, p. 85.

صلاح العاوور، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٨٠-٣٨٥؛ إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ١٧٢-١٧٨.

علــى هــذا النحو ، استمرت القوات الإسلامية في إلقاء الحصار حول أسوار القســطنطينية والقتال بصورة يومية في معارك حربية متصلة بين الجانبين، في الفترة مــن الربيع وحتى الخريف،[1] وذلك لمدة سبعة أعوام . إلا أنه بعد هذه السنوات السبع فشــلت حملــة معاويــة بــن أبــي سفيان الثانية على القسطنطينية وعادت بقايا السفن الإســلامية بخفى حنين إلى قواعدها ببلاد الشام دون إحراز نصر عسكرى يتلاءم مع ســنوات سبع من الحصار والقتال مع البيزنطيين ؛ على الرغم من كثرة الجند والعتاد والتســليح الجــيد والقادة الأكفاء أمثال عبد الرحمن بن خالد ، وسفيان بن عوف ويزيد بــن معاويــة وغيرهم . ولعل فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية له أسبابه الوجــيهة الــتى لا حيلة للمسلمين فيها، على الرغم من بلاءهم فى القتال بلاءً حسناً ؛ ويمكن أن نجمل هذه الأسباب فيما يلى :

أولاً : سؤ الأحوال الجوية والمناخ القارس البرودة ، الذى لم يعتاده المسلمون من قبل؛ حيــث اضــطروا إلــى اللجــوء تــارة إلى جزيرة كيزيكوس وتارة أخرى إلى كريت،[2] وبناء أكواخ خشبية للاحتماء بها من برد الشتاء ؛ بل بلغ سؤ الأحوال الجوية أنهم اضطروا إلى أكل لحوم خيولهم على حد ذكر بعض المؤرخين .

ثانــياً : حصانة مدينة القسطنطينية ؛ حيث كانت مدينة القسطنطينية محصنة بعدد من الأسوار التى يصعب اقتحامها ، دون توافر آلات وأدوات ثقيلة للحصار ونقب الأسوار . فمن المعروف أن معظم مدن العصور الوسطى كان يتم تحصينها ، طــبقاً لمــدى أهمية تلك المدينة وماهية وطبوغرافية المدينة أيضاً . وفى حالة مديــنة كالقسطنطينية ، التى كانت درة مدن البحر المتوسط ، وراعية المسيحية فــى الشرق ، ورمز الثراء فى الفكر الأوروبى الوسيط ، كان لابد أن تتحصن بشــكل غــير تقلــيدى يقــيها شــر هجمات الطامعين فيها من القبائل والأمم المجــاورة. فقد كانت المدينة محصنة بثلاثة أسوار برية يعلو كل منها الآخر ،

---

(١) *Nikephoros*, p. 87.

(٢) *Theophanes*, pp. 494-495; *Nikephoros*, p. 87.

وهـى الأسوار المعروفة باسم أسوار ثيودوسيوس ؛ وكان يتخلل هذه الأسوار مجموعـة كبـيرة من الأبراج ، ذات الطابقين والثلاثة طوابق ، ويتخللها سلم داخلـى لصـعود الجند إلى هذه الطوابق . وأمام السور الثالث وهو الأدنى فى الارتفـاع ، كـان يوجد خندق مائى ، يصعب اجتيازه . وتتخلل هذه الأسوار البرية مجموعة من البوابات لمرور السكان والجنود والجيوش الخارجة للقتال؛ كـان مـن أشهرها تلك البوابة المعروفة باسم "باب الذهب" . وعلى بعد خمسة كيلومـترات مـن هذه الأسوار كان يقع سور أنستاسيوس الطويل ، ليكون خط دفـاع وعـامل إعاقـة أمـامى للقوات المغيرة على القسطنطينية من الجانب الأوربى .

أمـا من ناحية البحر فقد كانت هناك سلسلة متصلة من الأسوار التى تخـرج قواعدهـا بصـورة رأسية حادة من البحر بطول شواطئ المدينة على البوسـفور، وكانـت هـذه الأسوار الشاهقة التى يصعب تسلقها أو خرقها، من الجرانيـت المقـاوم لمياه البحر، وكانت تتخللها الأبراج متعددة الطوابق أيضاً ، وتمـتد مـن الجـنوب حـتى شـمال المدينة، حيث يقع القصر الإمبراطور ى المعـروف باسم "قصر البلاشيرن". وحتى يحكم البيزنطيون تحصينات المدينة ، وضـعوا سلسلة حديدية طويلة تمتد من الطرف الجنوبى للشاطئ الغربى لآسيا الصغرى إلى الجهة المقابلة لها على الجانب الأوروبى، أو الجانب الشرقى لشبه جزيرة البلقان، وبهذا تسد هذه السلسلة فم خليج القرن الذهبى أمام سفن الأعداء، التى تسعى إلى دخول الدردنيل لمحاصرة المدينة . وهكذا ، لم يكن من السهولة بمكان على المسلمين اختراق كل هذه التحصينات، التى اختبر الزمان حصانتها ومناعتها قبل ظهور المسلمين مراراً .[1]

---

[1] عن تحصينات القسطنطينية انظر، Van Millingen, A., *Byzantine Constantinople, the Walls of the City and Adjoining Historical Sites*, London, 1899; Backer, G., *The Walls of Constantinople*, New York, without date; Whitby, M., "The Long walls of Constantinople", *B*, 55(1985), pp. 560-583.

ثالثاً : أما العامل الثالث الذى أفضى إلى فشل الحملة الإسلامية الثانية على القسطنطينية فتمثل فيما عرف باسم "النار الإغريقية" . فقد هاجمت سفن الأسطول البيزنطى قطع الأسطول الإسلامى مراراً وكانت تقذفه بألسنة من اللهب ، عبر أنابيب فى مقدمة ومؤخرة السفن البيزنطية ، عرفت باسم السيفونات Siphons ؛ وهذا اللهب لا ينطفئ بالماء بل يظل مشتعلاً بالسفن حتى يؤتى عليها ، وهو الأمر الذى أرهق المسلمين آنذاك وقضى على الكثير من سفنهم .[1] بل مما زاد الأمر سوءاً أن البيزنطيين كانوا يصنعون كرات من الأحجار أو الحديد تحتوى على المادة الفعالة للنار الإغريقية ، يتم إشعالها وإلقائها من أعلى الأسوار على الجنود المسلمين الذين يحاصرون المدينة براً .

ويشير المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس إلى أن هذه النار كانت من اختراع مهندس يدعى كالينيكوس ، من مواليد هليوبوليس ببلاد الشام ، هاجر إلى أراضى الدولة البيزنطية هرباً من المسلمين ، وهناك قدم ابتكاره للإمبراطور البيزنطى،[2] الذى اعتبره الأباطرة سراً من أسرار الدولة التى ينبغى الحفاظ عليها وعدم البوح بطبيعتها أو ماهيتها أو عناصرها إلى الأعداء.[3]

رابعاً : أخيراً يمكن القول أن حركة التيارات المائية فى الدردنيل ، سواء كانت التيارات السطحية للمياه أو التيارات الداخلية المعاكسة ، كانت عاملاً أعاق حركة السفن الملاحية، لاسيما عند هبوب الرياح عليها . على أية حال ، استطاع البيزنطيون وإمبراطورهم قسطنطين الرابع ٦٦٨-٦٨٥م الزود عن مدينتهم ، ورد المسلمين بعيداً عن أسوار مدينتهم دون إحرازهم لنصر يذكر

---

(١) *Theophanes*, p. 494.

(٢) *Theophanes*, p. 494.

(٣) عن تركيبة النار الإغريقية انظر، Zenghelis, C., "Le feu gregeois et les armes à feu des byzantines", *B*, 7(1932), pp. 265-286; Haldon, J., "A Possible Solution to the Greek Fire", *BZ*, 70(1977), pp. 91-99.

يتلاءم مع السنوات السبع التى قضتها الحملة الإسلامية حول القسطنطينية ؛ بل طلب المسلمون الصلح مع البيزنطيين بشروط كانت جميعها فى صالح البيزنطيين .

يعتبر موت الإمبراطور قسطنطين الرابع Constantine VI عام ٦٨٥م/٦٦هـ علامة فاصلة بين فترتين تاريخيتين متميزتين فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية. حيث تعتبر الفترة الأولى ، فترة التحدى والاستجابة إذا جاز لنا القول ، والتى تبتدأ بعصر الإمبراطور هرقل وتنتهى بعهد قسطنطين الرابع ٦٦٨-٦٨٥م/٤٨-٦٦هـ مروراً بقنسطانز الثانى Constans II ٦٤١-٦٦٨م/٢١-٤٨هـ .

ففى الفترة الأولى منيت الإمبراطورية بضربات شديدة لاسيما على الصعيد الخارجى ، من جانب المسلمين ، بالإضافة إلى التغلغل السلافى فى البلقان المضطرب. وقد نتج عن هذه الفترة العصيبة فقدان الإمبراطورية لبلاد الشام ومصر وفلسطين وشمال افريقية ، واستيلاء المسلمين عليها . وقد امتد التهديد الخارجى إلى قيام المسلمين بتهديد القسطنطينية ذاتها مرتين متتاليتين ، كما سبق وذكرنا . وقد امتدت الأخطار المحيقة بالدولة البيزنطية إلى الكيان الاجتماعى الذى كانت تعيشه الأقاليم البيزنطية . وكانت السياسة الدينية للإمبراطورية عاملاً من العوامل التى زادت التمزق الاجتماعى، إذ أعلن الإمبراطور هرقل مبدأه الدينى المعروف باسم المونوثليتية ، أى أن للمسيح عليه السلام مشيئة واحدة فقط، وسعى إلى تطبيقه على سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية ، رغم عدم رضى سكانها .

هذا عن الفترة الأولى، أما الفترة الثانية فتبدأ باعتلاء الإمبراطور جستنيان الثانى Justinian II عرش الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٨٥-٦٩٥م/٦٦-٧٦هـ ، ثم عزله وتولى العرش ثانية عام ٧٠٥-٧١١م/٨٦-٩٣هـ؛ وهذه الفترة الثانية قضاها فى الانتقام ممن عزلوه عن العرش الإمبراطور ى وتولوا الحكم بدلاً منه ، ولم يكن

لهـــا مـــن الإنجازات سواء كانت الداخلية أو الخارجية ما يجعلها تسير على نفس نهج أجداده من الأسرة الهرقلية.[١]

وإذا كانـــت الإمـــبراطورية البيزنطية قد تمتعت بمركز قوى فى الشرق فإنما يرجع ذلك إلى جهود قسطنطين الرابع ، فى وقت بدت فيه الخلافة الأموية وقد أعاقتها المشـــكلات الداخلية التى ظهرت على مسرح الأحداث بعد وفاة معاوية وانتقال الخلافة مـــن الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ثم قيام فتنة ابن الزبير. وقد حاول عبد الملك بن مروان ، الذى تولى الخلافة عام ٦٥هـــ/٦٨٥م ، أن يجدد معاهدة السلام التى سبق لمعاويـــة بن أبى سفيان أن عقدها مع الإمبراطور قسطنطين الرابع بشأن المردة، الذين كـــانوا يهاجمون أراضى الدولة الإسلامية من مواقعهم في لبنان، والتى تنص على عقد ســـلام بيـــن الطرفين نظير دفع المسلمين جزية سنوية قدرها ٣٠٠٠ قطعة ذهبية و٥٠ أسيرا و ٥٠ جوادا كل عام، وتسرى هذه المعاهدة لمدة ٣٠ عاماً.[٢]

وابـــتدأ جســـتنيان الـــثانى عهـــده بتجديد المعاهدة،[٣] وبدا للوهلة الأولى أن الاتفاقية الجديدة جاءت بفوائد مباشرة أكثر من سابقتها، وتم التوصل إلى تسوية بالنسبة للولايـــات المتنازع عليها وهى قبرص وأرمينيا وايبريا، على أساس أن يقسم دخل هذه الأقالـــيم بيـــن الطرفين مناصفة ؛ إلا أن الإمبراطور جستنيان وافق فى مقابل هذا على نقـــل المـــردة مـــن شمال بلاد الشام وبالتحديد من جبل اللكام بلبنان إلى داخل أراضى الإمبراطورية البيزنطية . ويشير المؤرخون إلى سؤ تدبير جستنيان الثانى، عندما نقل

---

[١] وسام عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الإسكندرية، ١٩٨١، ص ٣٨٤١.

[٢] قســـطنطين بورفيروجنيتوس، إدارة الإمبراطورية، ص ٨٥؛ وسام فرج، العلاقات، ص ٤٢-٤٣؛ *Theophanes*, p. 496; *Nikephoros*, p. 87.

[٣] *Theophanes*, p. 503.

هـؤلاء المردة، الذى كانوا يشكلون سوراً نحاسياً على حد قول البلاذرى يصد غارات المسلمين على بيزنطة.[1]

وسـرعان ما أدرك الإمبراطور جستنيان الثانى خطأ تشتيته المردة، واجتياح الدولـة لهـم حيـن تجـددت إغارات الجيش الاسلامى على آسيا الصغرى. إذ أدرك ضـرورة سـد الثغرة التى أحدثها نقل المردة (الجراجمة)، وعول على وضع عناصر جديـدة ذات بـأس وشـدة فـى الأماكن المعرضة للخطر، لحمايتها على نحو ما فعل الجـراجمة مـن قبل واتجهت أنظار جستنيان الثانى نحو العناصر السلافية القاطنة فى الـبلقان . وكانـت الدولـة البيزنطية تدفع لهم ضريبة سنوية مقابل احتفاظهم بالهدوء والسـكينة فـى الأراضى البيزنطية التى استقروا بها. ورأى جستنيان الفرصة مواتية للـتخلص من التزاماته المالية والهجوم على هذه العناصر وأخذ عدداً كبيراً منها أسرى لإحلالهم محل المردة ونجح فى مهاجمة العناصر السلافية المقيمة بالقرب من سالونيكا وأسـر عـدداً كبـيراً حملهـم معه إلى آسيا الصغرى ، مكوناً منهم فرقة كبرى بلغت ٣٠٠٠٠ جـندى ، وجعـل مقرها الرئيسى فى المنطقة المطلة على الدردنيل ، والتى عرفت إذ ذاك بثيم الأوبسيق . وكانت هذه المنطقة محط رحال القوات الإسلامية حيث عملت على إقامة نقط ارتكاز لها هناك قبل عبورها المياه لحصار القسطنطينية . وأراد جسـتنيان بعد ذلك شد أزر جماعات السلاف بنقل عدد كبير من أهالى جزيرة قبرص إلـى ثيم الأوبسيق أيضاً . وكانت خطوته تحمل فى طياتها الكثير من العسف والعنت ، إذ واجهت السفن التى تقل أهالى قبرص عاصفة عاتية أغرقت الكثيرين منهم، ولم ينج إلا القليل عاد أدراجه إلى جزيرة قبرص .[2]

---

[1] عـن المردة بين البيزنطيين والمسلمين، انظر، البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٢١٧-٢٢٢؛ إبراهيم العـدوى، الأمويـون والبيزنطـيون، ص ٢٠٥-٢٠٨؛وسـام فـرج، العلاقـات، ص ٤٢-٤٥؛ *Theophanes*, pp. 496, 503.

[2] إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢٠٧-٢٠٨.

وســرعان مــا دب الخلاف بين عبد الملك بن مروان وجستنيان الثانى حول مســألة القراطيس ، أو الورق الذى كانت تستورده الإمبراطورية البيزنطية من الدولة الإســلامية ، وتدفــع مقابل ذلك دنانير بيزنطية، وهى العملة المستخدمة فى التعاملات الــتجارية بين المسلمين . وكانت مصر هى التى تصدر القراطيس للدولة البيزنطية منذ تبعيــتها لهــا قبل الفتح الإسلامى. وقد جرت عادة أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعــبارة التثليــث فــى رؤوس الطوامير أو قطع الورق الكبيرة. ولكن عبد الملك بن مــروان رأى أن هــذه الصــيغة لا تــتفق ومظهر الدولة الإسلامية الجديدة . فأمر أن يستبدل بهذه الصيغة عبارة "قل هو الله أحد" .[1]

ووصــلت هذه القراطيس الجديدة إلى الإمبراطورية البيزنطية وأحدثت ضجة كــبرى فى البلاط البيزنطى، إذ غضب الإمبراطور جستنيان الثانى واستكبر قيام الدولة الإســلامية بهذا العمل الجديد . فكتب إلى الخليفة عبد الملك "إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كــتاباً نكــرهه ، فإن تركتموه ، وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه" حد قــول الــبلاذرى.[2] وقــد أغضــب هــذا الخطاب الخليفة عبد الملك كثيراً ، وخشى اضــطراب أحــوال العملة بسبب تهديد الإمبراطور البيزنطى ، وما قد تحدثه من أثر سيئ فى نفوس عامة المسلمين ، إذ أن الدنانير البيزنطية كانت العملة الرسمية للتجارة فى الأسواق الإسلامية .

وأشــار خــالد بن يزيد بن معاوية على الخليفة عبد الملك بالتمسك بالقراطيس الجديــدة دون أن يخشى تهديد البيزنطيين ، فقال له : "يا أمير المؤمنين حرم دنانيرهم فــلا يــتعامل بهــا، وأضــرب للناس سككاً ، ولا تُعف هؤلاء الكفرة، مما كرهوا فى الطوامــير" .[3] وجــاء هذا الحل مقنعا للخليفة ، ورأى أنه يصلح خطوة أساسية لصبغ

---

[1] البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣٣٥-٣٣٦.

[2] البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣٣٦.

[3] البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٣٣٦.

الدولة الإسلامية بصبغة عربية خالصة، وخلق وحدة اقتصادية عن طريق عملة خاصة بها .

وأقبل عبد الملك على سك دنانير إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن ، عرفت باسم الدنانير الدمشقية . وهكذا خلص عبد الملك الدولة الإسلامية من التبعية الاقتصادية ومن العملات الأجنبية التى كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد . إذ كانت دنانير بيزنطة ترد إلى بلاد العرب منذ الجاهلية ، وتعتبر العملة الأساسية فى المعاملات التجارية الكبرى ، على حين يستخدم الدرهم الفارسى فى المعاملات المحلية. وظل أمر العملة الأجنبية معلقاً فى الشئون التجارية الإسلامية حتى نشب الخلاف بين عبد الملك وجستنيان الثانى ، حيث ضرب عملته الجديدة (سنة ٧٤-٧٥ هـ/٦٩٣-٦٩٤م) ليتخلص من تهديد البيزنطيين .

وفى عام ٦٩٢م/٧٣هـ أعلن الإمبراطور جستنيان الثانى الحرب على المسلمين، بسبب وصول الجزية السنوية، التى كان يرسلها عبد الملك بن مروان إليه نقداً نظير إبعاد المردة ، فى هيئة مختلفة عما كانت تسك عليه . حيث ضرب الخليفة الأموى آنذاك ديناراً إسلامياً بدلاً من الدينار البيزنطى، ونقش عليه عبارة "لا إله إلا الله" بدلا من صور الأباطرة البيزنطيين التى كانت تسك على أحد وجهى العملة مع بعض الرموز الدينية المسيحية . وأياً كانت الأسباب ، سواء الدينية أو الاقتصادية ، التى دفعت جستنيان الثانى إلى الغضب وإعلان الحرب على المسلمين ، فالثابت أن هذه الخطوة الجريئة التى اتخذها الأمويون كانت البداية الحقيقية للتخلص من سيطرة الدينار البيزنطى على التعاملات التجارية آنذاك ، وإحلال عملة إسلامية جديدة منافسة له. وقد صادف آنذاك تخلص الخليفة عبد الملك بن مروان من مشاكله الداخلية فعمل على تلقين الإمبراطور درسا قاسيا فى الحرب والقتال .

دارت رحى القتال بين الطرفين عند مدينة سباستوبوليس، وانتهت بانتصار المسلمين ، وفرار جستنيان الثانى مع بقايا قواته نحو نيقوميديا . وتجدر الإشارة إلى أن ما يقرب من عشرين ألفاً من السلاف العاملين فى جيش الإمبراطور البيزنطى

تخلــوا عنه وقت القتال وانضموا إلى جانب المسلمين ، مما فت فى عضد الإمبراطور وجعلــه أســير الانتقام من بقايا السلاف العاملين فى جيشه. وإذا كان بعض المؤرخين يفسرون سبب انضمام السلاف إلى القوات الإسلامية بالرشوة التى قدمها المسلمون إلى زعماء أولئك السلاف، إلا أن السبب الرئيسى الذى حدا بالسلاف إلى عمل ذلك هو سؤ معاملــة جستنيان الثانى لهم وتهجيرهم من شبه جزيرة البلقان بالقوة عندما غزا بلادهم فــى فترة سابقة على حربه مع المسلمين، كما سبق القول، بل قام بتجنيد فرقة مختارة منهم فى الجيش وقام بتوزيع بقيتهم على الأقاليم البيزنطية ليشتت شملهم، ويضمن عدم تمــردهم أو هجماتهم على القسطنطينية . وقد استفاد المسلمون كثيراً من ولاء السلاف لهم، إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى والمسالك التى تصل بين مدنها المختلفة. فقــاموا بوظــيفة الأدلاء للجــيوش الإســلامية ، يهدونهــا إلى أسهل الطرق وأيسرها للاســتيلاء علــى المعــاقل الهامة بهذه البلاد. ولذا تابعت الجيوش الأموية انتصاراتها وإغاراتها على مدن آسيا الصغرى دون أن تلقى جهداً كبيراً .[1]

يــبدو أن هــذا الــتوتر فــى العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين ، الذى مس عصــب اقتصــاد الدولتين ، دفع المسلمين إلى استكمال مسيرة الجهاد ضد البيزنطيين فكــان الوليد بن عبد الملك خير خلف لأبيه ، إذ تابع الفتوحات التى بدأها أبوه فى آسيا الصــغرى، وجعــل هــدف حركاته الحربية الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية . واستهل الوليد تنفيذ خطته الجديدة بحصار مديــنة طوانة مفتاح الطريق الهام بين الشام والبسفور والذى تسلكه الجيوش الإسلامية فــى طــريقها لمهاجمة القسطنطينية . وحاصر المسلمون هذه المدينة عامين متتاليين ، لشــدة تحصيناتها ولاستماتة البيزنطيين فى الدفاع عنها . وأرسل الإمبراطور جستنيان الــثانى قائديــن من قادة الدولة البيزنطية على رأس قوات من الجند النظامى ، ومعهم عــدد من الجند غير النظامى لإنقاذ المدينة وتخفيف حدة الهجوم على حامياتها . ولكن المســلمين قضــوا على هذه الإمدادات ، وتابعوا حصارهم للمدينة . ولم تجد الحاميات

---

[1] إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢١٠-٢١١؛وسام فرج، العلاقات، ص ٤٩-٥١.

البيزنطية مفراً من التسليم بعد أن أنهك الجوع جندها وضج سكان المدينة من العناء . ودخلت القوات الإسلامية مدينة الطوانة سنة ٧٠٧م/٨٩هـ وأصبحوا يتحكمون فى أهم معامل إقليم قباوقيا بآسيا الصغرى.

وتابع المسلمون إغاراتهم على مدن آسيا الصغرى . وامتازت سنوات ٧١٠ م/٩٢هـ، ٧١١م/٩٣هـ بما لازم الجيوش الإسلامية من توفيق فى نشر الذعر والاضطراب بين صفوف الجنود البيزنطيين . وفى سنة ٧١٢م/٩٤هـ وصلت الجيوش الإسلامية إلى البسفور واستولت على بعض المعاقل الهامة بالقرب منه. وكانت هذه العمليات الحربية الإسلامية حملات استطلاعية ومقدمة للزحف المباشر على العاصمة البيزنطية ، وقد ساهم الأسطول الإسلامى فى تلك التحركات الحربية أيضاً. ومن ثم عمل البيزنطيون على حمل المسلمين ودياً على إيقاف زحفهم صوب القسطنطينية. إذ أسر الأسطول البيزنطى فى سنة ٩٠هـ/٧٠٨م خالد بن كيسان أمير البحر على السفن الإسلامية ، فبادر الإمبراطور البيزنطى إلى إعادته للخليفة الوليد دليلاً على رغبته فى استئناف العلاقات الودية مع المسلمين.

وانتقل الخليفة الوليد بعد نجاح جيوشه فى السيطرة على معاقل آسيا الصغرى الهامة إلى إعداد حملة لمهاجمة القسطنطينية نفسها . وكان الإمبراطور البيزنطى إذ ذاك هو أنستاسيوس الثانى الذى أدرك الفوضى التى سادت أقاليم آسيا الصغرى الحربية. فبدأ الإمبراطور يقوى جبهة آسيا الصغرى لمواجهة الحملات الإسلامية المتكررة . وعين على ثيم الأناضول أى الإقليم الحربى العسكري الشرقى بآسيا الصغرى ، قائداً واعداً سيصبح له دور هام فى الأحداث التالية .

كان هذا القائد البيزنطى الجديد يدعى ليو الأيسورى ، وهو من مواطنى إقليم إيسوريا، ولكنه قضى فترة طفولته فى مدينة مرعش (جرمانيكا) على الحدود الإسلامية البيزنطية. عمل فى خدمة الإمبراطور جستنيان الثانى الذى أوفده إلى القبائل الضاربة على حدود الإمبراطورية فى الشمال لبذر بذور التفرقة والشقاق بينها. وعاد مكللاً بالنجاح من مهمته على عهد الإمبراطور انستاسيوس الثانى الذى كان يبحث

عــن رجال جدد يعهد إليهم بإدارة الأقاليم العسكرية فى آسيا الصغرى، لاسيما بعد أن تحولــت حمــلات المســلمين عليها إلى نشاط منظم هدفه الاستيلاء على القسطنطينية. فاختار الإمبراطور أنستاسيوس الثاني ليو ليدير إقليم الأناضول بآسيا الصغرى، ومهد بذلــك لهــذا القــائد طــريق الاحتكاك بالمسلمين خلال أحداث حصارهم الثالث لمدينة القسطنطينية. [١]

---

[١] إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢١٢-٢١٣.

الفصل الثالث

الأسرة الايسورية والمسلمون

الفصل الثالث

الأسرة الايسورية والمسلمون

فـــى الوقت الذى كان الإمبراطور البيزنطى أنستاسيوس الثانى Anstasius II يرفع فيه شخصية ليو الايسورى إلى مسرح الأحداث، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعد شخصية أخرى اضطلعت ببطولة الحصار الأموى الثالث لمدينة القسطنطينية.[1] إذ عهـــد إلى أخيه مسلمة ابن عبد الملك إدارة دفة الحملات الإسلامية التى استولت على معظم المعاقل البيزنطية بآسيا الصغرى، والمؤدية إلى القسطنطينية.

أقـــبل مسلمة بن عبد الملك على مساعدة أخيه الخليفة الوليد فى تجهيز الحملة الإســـلامية المـــتجهة إلـــى حصار القسطنطينية. وكانت الاستعدادات الإسلامية واسعة النطاق بحيث ترامت أنباء هذه الحملة إلى السلطات البيزنطية فى العاصمة سنة ٧١٤م فأوفد الإمبراطور انستاسيوس الثانى سفارة إلى دمشق لتتباحث مع السلطات الإسلامية فـــى شأن عقد هدنة بين الدولتين ، ولكنه زود السفارة البيزنطية بتعليمات سرية تقضى بالتجســـس علـــى مـــدى اســـتعداد المسلمين الحربى، والتحقق من صدق عزمهم على مهاجمـــة القسطنطينية. وكان رئيس هذه السفارة رجلاً حصيفاً يدعى دانيال حاكم مدينة ســـينوب الواقعـــة على الشاطئ الجنوبى للبحر الأسود ، ومن الشخصيات الكبرى التى تعتمد الدولة البيزنطية على صدق تقاريره .[2]

---

[1] عن تفاصيل هذا الحصار انظر،ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٩؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٣٣١-٣٣٢؛ وســـام فـــرج، العلاقـــات، ص ١٢١-١٧٥؛ إبراهـــيم العـــدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢١٤- ٢٢٣ ؛ صلاح العاورر، المحاولات العربية لفتح القسطنطينية، ص ٣٨٦-٣٨٩؛ ليلى عبد الجواد، دور البلغار في مواجهة حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٦(١٩٩١)، ص ٨٣-١١٤؛ *Theophanes*, pp. 545f, 550; *Nikephoros*, p. 117ff.; Constantine Porph., *DAI*, I, p. 86; Ahrweiler, *La mer*, p. 35 ; Canard, M., "Les expéditions des arabes contre Constantinople", *JA*, 108(1926), pp. 61-121; Guilland, R., "L'expédition de Maslama contre Constantinople", *Al-Mashreq*, Beirut, 1955, pp. 89-112.

[2] ليلى عبد الجواد، دور البلغار، ص ٩١.

ولمـا وصلت السفارة البيزنطية إلى دمشق رصدت نشاط الخليفة الأموي فى إعـداد الجيـوش لتوجـيهها ضد القسطنطينية. فعادت السفارة تحمل إلى الإمبراطور البـيزنطى صـدق ما بلغه من أنباء ، وتنصح بضرورة اتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصـمة. ونفـذ انستاسـيوس تعليمات السفارة، فأعلن فى القسطنطينية أخبار الحملة الإسـلامية المنـتظرة ، وأمر كل فرد أن يخزن لنفسه مؤونة تكفيه ثلاث سنوات، وأن يخـرج مـن المديـنة كـل معـوز وغـير قادر على تدبير مؤونته. ثم ملأ الصوامع الإمـبراطورية بكميات هائلة من القمح وغيره من الاحتياجات التى يتطلبها المدافعون عـن المديـنة. واهـتم كذلك بتجديد أسوار المدينة ولاسيما الجهات المطلة منها على المـياه، حيث كان التداعى قد دب فيها، ووضع على الأسوار البرية كل الآلات الحربية من المنجنيقات وغيرها من وسائل الدفاع .

وفـى تلـك الفـترة من الاستعدادات الإسلامية البيزنطية توفى الخليفة الوليد، ولكـن المشروع الإسلامي لحصار القسطنطينية سار قدماً دون أى تغيير، إذ تبناه أخوه سـليمان بـن عـبد الملـك الـذى خلفه على عرش الدولة الإسلامية . فقد بلغ اهتمام المسـلمين فـى أرجـاء الدولـة الإسلامية شأناً كبيراً بالمساهمة فى مجهودات الخليفة سـليمان. وتكاتفـت مصر والشام وشمال إفريقيا على تزويد الحملة الإسلامية بكل ما تحـتاج إليه من عدة وعتاد. فأبحر أسطول من مصر إلى شواطئ الشام لجمع أخشاب مـن سواحل لبنان ليصنع منها سفناً جديدة في دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الأسطول الإسلامي المتجه لحصار القسطنطينية ،

وعلم الإمبراطور انستاسيوس الثانى بأخبار نشاط المسلمين وازدياد استعدادهم الحـربى علـى عهد الخليفة سليمان، وآثر أن يعرقل هذه الاستعدادات، لاسيما البحرية مـنها. فعمـد إلـى مهاجمة الأسطول المصرى وتخريب الأخشاب قبل وصولها إلى مصـر، وعهـد إلـى جـند إقليم الأوبسيق بتنفيذ هذه المهمة . ولكن باءت مجهودات الإمبراطور انستاسيوس الثانى بالفشل لعصيان الفرق الإمبراطورية لأوامره وكراهيتها لـه، إذ شقت عليه عصا الطاعة حين وصلت جزيرة رودس وهى فى طريقها لمهاجمة

ســواحل الشــام، وقتلــت القائد الذى عينه الإمبراطور عليها لإدارة عمليات الهجوم، وعادت إلى القسطنطينية وعزلت الإمبراطور وعينت على العرش إمبراطورا آخر.

رأى الخلــيفة ســليمان بن عبد الملك ملاءمة أحوال الإمبراطورية البيزنطية لحصـــار القسطنطينية ، ولاسيما بعد أن سرى الفساد فى جميع مرافقها وإدارتها. فأعد فـــى دابـــق بشـــمال الشام معسكراً كبيراً ليكون مقراً لإدارة دفة العمليات الحربية ضد القســـطنطينية[1]، وقضى الخليفة معظم وقته فى هذا المعسكر ليشرف بنفسه على سير العمل فيه، "وأعطى اللَّه عهداً أن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذى وجهه إلى الروم القسطنطينية" .

وفـــى سنة ٩٨هـ/٧١٦م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية تحت قـــيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه . وأمر سليمان أخاه "أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره" . فبعث مسلمة أحد قادته ويدعى سليمان على رأس جيش يستطلع لـــه الطـــريق عـــبر آسيا الصغرى. وتوغل سليمان فى إقليم الأناضول حتى بلغ مدينة عموريـــة، عاصـــمة الإقليم، التى كانت منذ أيام معاوية بن أبى سفيان مقصد الجيوش الإســـلامية الزاحفة على القسطنطينية . وألقى سليمان الحصار على هذه المدينة ، وعلم إذ ذاك أن حاكمها المدعو ليو، يدين بمركزه للإمبراطور السابق انستاسيوس، ويناهض الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث الذى تولى الحكم بالقسطنطينية.

وبـــدأ القـــائد سليمان يدبر خططاً هدفها كسب ليو إلى صفه وإدخاله فى تبعية المســـلمين ، والاستفادة من خبرته فى فتح القسطنطينية. فكتب إلى ليو خطابا جاء فيه "نحـــن نعلـــم أن مـــآل الإمـــبراطورية الرومانية إليك ، فاخرج لنا لنتفق على شروط الصـــلح، " ثـــم أمـــر القوات الإسلامية المرابطة أمام أسوار عمورية بأن تهتف "يحيا الإمـــبراطور لـــيو" وأجاب ليو على خطاب سليمان متسائلاً "لماذا يحاصر المسلمون

---

[1] وسام فرج، العلاقات، ص ١٢٥.

مدينــة عموريــة إذا كــانوا يــريدون عقد صلح معه ؟ . فرد عليه سليمان مبيناً ، أن الحصار سيرفع عن المدينة عندما تبدأ المحادثات الرسمية بينهما" .(١)

وأدرك ليو أن المسلمين سيواصلون الزحف على القسطنطينية ، وأنه لا بد أن يسلم لهم . فدخل ليو فى مفاوضات مع المسلمين أعلن لهم فيها انضمامه إليهم ، وطلب مــنهم رفع الحصار عن عمورية ، ثم صاحب الجيوش الإسلامية بعد نجاح مفاوضاته قاصــداً القسطنطينية. ولكن أعداء ليو اتهموه بتفريطه فى الدفاع عن إقليم الأناضول ، وبممالأتــه للمسلمين ، وتسهيله سبل الطمأنينة والراحة لهم عبر آسيا الصغرى . وكان هــذا الاتهــام عــاملاً جعــل لــيو موضع ثقة المسلمين ، وسمحوا له بأن يسبقهم إلى القســطنطينية لــيمهد لهــم ســبل الاســتيلاء عليها، بعد أن رفعوا الحصار عن مدينة عموريــة، عاصمة إقليم الأناضول. وبدأ ليو حينئذ ينفذ ما عزم عليه من الحصول على الســلطان وعــرش الإمــبراطورية، معتمدا على قوات ثيم الأناضول التابعة له . فأخذ يعمل على إضعاف جبهة الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث المقيم بالقسطنطينية . وكان هذا الإمبراطور يعتمد فى قوته على الجند المقيم فى إقليم الأوبسيق ونصب عليها ابنه قائداً ليحقق لنفسه أسباب الطمأنينة والسلام .

ولــذا نــاهض ابن الإمبراطور ليو الايسورى واستعد لصد هجومه عند مدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى . ولكن ليو تمكن من هزيمة ابن الإمبراطور ، وعبر البسفور إلى القسطنطينية . واستطاع أن يقتحم المدينة من باب الذهب ودخلها ليوطد نفوذه بها. وسرعان ما كشف عن نواياه الحقيقية عندما احتل العاصمة، وأخذ يعمل على الوصول إلــى العــرش الإمــبراطوري، واســتغل أخبار الحملة الإسلامية وقرب وصولها إلى القســطنطينية لــيجذب الأنصار حوله. فأعلن أن المدينة معرضة لحصار طويل، وأن جــيش المســلمين قــوى العدة والعتاد، وأن الموقف يتطلب شخصية حازمة لمواجهة الأزمة التى توشك أن تحل بالعاصمة. وساعد ليو على نجاح دعوته العناصر الأسيوية

---

(١) *Theophanes*, pp. 545-546.

المقـيمة بالقسطنطينية ، إذ انضمت إليه ونادت به إمبراطورا وكذلك قوات الأ،اضول التي كانت برفقته.

وفـي ٢٥ مارس سنة ٧١٧م/٩٩هـ عقد اجتماع من كبار رجال العاصمة ، قـرر عـزل ثيودوسيوس عن العرش وتنصيب ليو إمبراطورا تحت اسم ليو الثالث . وبذلـك حقـق لـيو مـا كانـت تصـبو إليه نفسه من آمال ، حيث وصل إلى عرش الإمـبراطورية . ولكن لم يتمتع بهذا الظفر طويلاً، إذ كانت الجيوش الإسلامية تقترب حثيـثاً من القسطنطينية. وكان ليو يعلم الكثير عن مطامح المسلمين وأغراضهم فى هذه الحملـة الكـبرى ولاسـيما أنه صاحب جيوشها فترة من الزمن، فأسرع فى تحصين العاصمة وتقويتها لمواجهة الحصار الإسلامى الوشيك .

لقد كسب ليو من وراء ذلك ولاء أهل عمورية وقوات الأناضول الذين حفظوا لـه تجنيبهم ويلات الحصار ، ونادوا به إمبراطورا على الدولة البيزنطية عند وصوله إلـى القسطنطينية، وتخلى عندئذ عن اتفاقه مع القادة المسلمين الذى كان يقضى بتسليم المديـنة بعـد ذلك لهم. وقد بعث إليه مسلمة بن عبد الملك يناشده الوفاء بالعهد فأرسل إليه ليو الايسورى رسالة يقول فيها" ملك الروم لا يبايع بالوفاء...".[1]

كان أمام ليو فترة خمسة أشهر لإتمام استعداداته الحربية ، إذ قضى المسلمون هـذه الفـترة فى تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم ، فاستولى مسلمة بجيشه الـبالغ ٨٠,٠٠٠ جندى على مدينة برجامه ،[2] ثم عبر الدردنيل عند أبيدوس Abydos وعسـكر أمام أسوار القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م/٩٩هـ . وكان مسلمة يـدرك أهمية تدبير مؤونة جيوشه ، فأمر "كل فارس أن يحمل على عجل فرسه مديين من طعام ..." .[3] واحتفظ بقدر كبير آخر من المؤن لتزويد جنده بها أثناء الحصار.

---

[1] الذهبى، تاريخ الاسلام، ج٣، ص ٣٣٢.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٣.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٩.

وبعد ستة عشر يوماً من وصول مسلمة إلى أسوار القسطنطينية ، دخل مياه البسفور في أول سبتمبر أسطول إسلامى كبير ، مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة أخرى كثيرة. وأخذ مسلمة ينظم قواته لإتمام حلقة الحصار على القسطنطينية. فاضطلعت قوات مسلمة البرية بحصار أسوار المدينة من الناحية البرية، على حين عمد سليمان أمير البحر المسلم على سد المنافذ والمسالك المائية التى يمكن أن تحصل منها العاصمة على الإمداد والمؤن ، ثم حصار أسوار المدينة البحرية كذلك. فاحتل الأسطول الإسلامي مدخل البسفور الجنوبى لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه أيضاً ثم انتهز أمير البحر فرصة هبوب رياح جنوبية وبعث شطراً من أسطوله لاحتلال مدخل البسفور الشمالي لمنع وصول أى مدد يأتى للمدينة من البحر الأسود، ولاسيما أن شواطئه الشمالية كانت غنية بحقول القمح التى تزود القسطنطينية بالغلال .

وسارت السفن الإسلامية سيراً بطيئاً بسبب الرياح الناجمة عن التيار المائى الشديد الذى يتدفق من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ثم غيرت الرياح اتجاهها فجأة فاختل سير السفن لسوء الأحوال الطبيعية ورداءة الملاحة فى هذه المياه الإقليمية للقسطنطينية . عندئذ انتهز البيزنطيون هذه الفرصة ، وبعثوا بسفنهم المزودة بالنار الإغريقية ليزيدوا من متاعب السفن الإسلامية .

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً قاسياً شديداً برغم بقاء جهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة . وظل الحصار مستمراً حتى جاء الشتاء ، وهو قارس جداً، ويعتبر من العوامل الطبيعية الأخرى التى تعتمد عليها القسطنطينية فى الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها . غير أن مسلمة احتاط لهذه العوامل الطبيعية "وعمل بيوتاً من خشب ، شتا فيها وزرع الناس. وأقام بالقسطنطينية قاهراً لأهلها ، ومعه وجوه أهل الشام " .

وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقائد مسلمة بن عبد الملك . فجاءه أسطول من مصر بقيادة أمير بحر يدعى سفيان ، وآخر من شمال إفريقيه تحت

إمـرة شـخص يدعى يزيد . وتعاون هذا القائدان مع مسلمة ، لأن أمير البحر السابق سـليمان توفـى مـن قبل أثناء الشتاء. وكذلك وصلت نجدات برية بقيادة رجل يدعى مـرداس، عـبرت آسيا الصغرى عن طريق البوابات القيليقية وعسكرت في نيقوميديا ونيقـية. وأخـذت القـوات الأخـيرة تهاجم من شواطئ آسيا الصغرى الغربية السفن البيزنطية التي تحاول الخروج ، طلباً للصيد أو الذهاب إلى البحر الأسود لجلب الغلال من شواطئه.

وقـد استخدم المسلمون النفط آنذاك، واستعانوا بنوع أشبه بالمدفعية في حصار القسـطنطينية وأبلـى الجـند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحـبهم للاستشـهاد فـي سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وظهر من الجند الإسلامي رجل يدعى عبد الله البطال ، وكان كبير حراس مسلمة بن عبد الملك، أبلى في هذا الحصار بلاءً حسناً أكسبه لقب زعيم الأبطال . واستشهد هذا البطل في معركة أكروينون فيـما بعـد (٧٤٠م/١٢٣هـــ) بعد انتهاء الحصار الإسلامي، حيث كان دائباً على الجهاد . وعـرف فـي القصص التي تداولت عن شجاعته باسم السيد هارى، واعتبره الأتراك فـيما بعـد بطـلاً مـن أبطال أمتهم. وتسرد القصص عن البطال أيضاً أن البيزنطيين رسـموا صـورته علـى بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وسطوة بين جند المسلمين .

وفـي تلك الفترة التي اشتد فيها الحصار الإسلامي لمدينة القسطنطينية ، توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز . وتردد صدى هـذا التغيـير فـي ميدان الحملة الإسلامية المحاصرة للعاصمة البيزنطية . حيث عمد عمـر بن عبد العزيز إلى سحب القوات الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية، حفاظاً على أرواح المسلمين. فأرسل في ١٥ أغسطس عام ٧١٨م/١٠٠هـ ، بعد اثنى عشر شهرا من الحصار، يطلب من مسلمة بن عبد الملك العودة بجيوشه وأساطيله إلى بلاد الشام. وانصاع مسلمة إلى أمر الخليفة وعاد بأسطوله وقواته إلى بلاد الشام دون إتمام الهدف

الرئيسي من الحملة وهو فتح القسطنطينية.[1] وربما هدف الخليفة الأموى من وراء ذلك إلى حقن دماء المسلمين أو الرأفة بهم بعد أن ضاق بهم الحال أمام القسطنطينية مما اضطرهم إلى أكل كل شيء عدا التراب على حد قول ابن كثير، [2] أو اضطرهم إلى أكل لحوم موتاهم على حد قول ثيوفانيس.[3]

وتجدر الإشارة إلى أن ثيوفانيس يشير إلى أن البلغار قد لعبوا دورا مهما في إجهاض هذه الحملة، حيث هاجمت قواتهم المسلمين المحاصرين القسطنطينية براً، حيث دار القتال بين الطرفين وأسفر عن مقتل ٢٢,٠٠٠ من المسلمين.[4] كما قامت رياح عاتية أتت على الكثير من السفن الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية؛[5] هذا بالإضافة إلى ما فعلته النار الإغريقية بسفن المسلمين.

على أية حال، إذا كان الأمويون قد تركوا مهمة الاستيلاء على القسطنطينية لغيرهم من المسلمين ، فإن جهودهم وحملاتهم على هذه العاصمة لم تضع سدى ، إذ تردد صدى هذه الحملات فى إقليم شمال إفريقيا ، الذى اتجهت إليه جيوشهم أيضاً لطرد البيزنطيين منه ، وضمه إلى رقعة الإسلام . فقد صرفت أحداث الحصار الأموى للقسطنطينية أنظار الأباطرة عن التفرغ لدفع المسلمين عن شمال إفريقيا، واعتبروا حماية هذا الإقليم فى المرتبة الثانية بالقياس إلى الدفاع عن عاصمتهم. وهكذا جنى الأمويون ثمار جهودهم ضد القسطنطينية، حيث جعلوا من شمال إفريقيا ركناً هاماً من أركان الدولة الإسلامية القوية الأوتاد.[6]

---

[1] انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٩؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٣٣٠-٣٣٢؛ *Theophanes*, p. 550

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٩.

[3] *Theophanes*, p. 546.

[4] *Theophanes*, p. 546.

[5] *Theophanes*, p. 546.

[6] انظر، إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، ص ٢١٢-٢٢٣.

وتجــدر الإشــارة إلــى أن عمر بن عبد العزير ، برغم الأسباب التى ساقها المؤرخــون لدوافــع عمــر بن عبد العزيز لعودة الحملة الإسلامية الثالثة التى خرجت لحصــار القسطنطينية لقواعدها ببلاد الشام ، قد أعطى الفرصة بقراره هذا للبيزنطيين ليعــيدوا تنظيم صفوفهم ثانية، بعد أن شكل المسلمون عليهم ضغطاً عسكرياً من خلال محــاولاتهم المســتميتة لفــتح القســطنطينية. ويكفى القول أن الإمبراطور ليو الثالث الأيســورى قــد اتجــه بدقة الإصلاح إلى شتى أرجاء دولته ، وتجلت إصلاحاته فى الــتطورات الإداريــة الــتى أدخلها على الثيمات ، وفى الكتيبات والقوانين العسكرية والاقتصادية التى أصدرها.

لقــد كــان الإمبراطور ليو الثالث يدرك جيداً ، بحكم التجربة ، خطورة ترك أقالــيم شاسعة فى أيدى حكام وقادة ممن يتمتعون بقوة الشكيمة. فعمل على إنشاء إقليم عســكرى جديــد سمى "إقليم التراقيسيان" ، اقتطع أراضيه من الجزء الغربى من إقليم الأناضول الفسيح، وقد سمى بهذا الاسم نسبة إلى الجنود التراقيين الذين كانوا يرابطون بــه.[١] وهكــذا تم زيادة عدد الأقاليم العسكرية فى آسيا الصغرى ، والحد من سلطات

---

(١) Bréhier, L., *Les institutions de l'empire byzantin*, Paris, 1943, p.357; Anastos, A., "Iconoclasm and the Imperial Rule 717-842", *CMH*, Vol. IV, Pt. II, Cambridge, 1966, p. 74.

يــرى بعــض المؤرخين أن الإمبراطور ليو قد أنشأ إقليماً ثانياً فى آسيا الصغرى عرف باسم "إقليم الــبقلار" ، اقتطع أراضيه من "إقليم الأوبسيق" ؛ وعرف بهذا الاسم نسبة إلى فرقة البقلار التى كانت تتلقى خبزاً جافاً يعرف باسم "البقلا" وترابط فى تلك المناطق. انظر، وسام فرج، العلاقات، ص ١٨٦؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٠١. لكن ثبت حديثا أن هذا الإقليم أنشأ في عهد الإمبراطور قسطنطين الخــامس ، بعد إخماده لثورة ارتفاندوس، حاكم إقليم الاوبسيق. انظر، طارق منصور، قطوف الفكر البــيزنطى، ج١، ص ١٦٤-١٦٥؛ Constantine Porph., *De Thematibus*, p. 134; Ostrogorsky, G., *History of Byzantine State*, Oxford, 1956, p. 140; Bréhier, *Institutions*, p. 357; Diehl, *Des thèmes*, p. 279.

(٢) Constantine Porph., *De Thematibus*, pp. 149-150.

لمزيد من التفاصيل حول هذا الثيم انظر، طارق منصور، قطوف الفكر البيزنطى، ج١، ص ١٧٤-١٧٥.

قـادة الأقاليـم العظام الأناضول، الأرمنياق، الأوبسيق. ولم يكتف ليو الثالث بهذا ، بل قـام بتقسيم الإقليم البحرى المسمى كاربيزيانى إلى إقليمين بحريين هما إقليم كيبرايوت وإقلـيم بحـر ايجــة.[1] على هذا النحو، أعاد ليو الثالث ترتيب دفاعات الإمبراطورية البيزنطية فى مواجهة المسلمين فى الفترة القادمة.

وتجــدر الإشارة إلى أن المسعودى ينفرد بالإشارة إلى أن الخليفة عمر بن عبد العزيـز قد أرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى ليو الأيسورى، "لي أمر من مصـالح المســلمين، وحـق يدعوه إليه..."، ولم يفصح عن ماهية هذا الأمر.[2] ولا نستطيع أن نعـرف بالضــبط ماهــية هــذه السفارة لصمت المصادر البيزنطية عنها، إلا أنه من المحــتمل أنها أرسلت بهدف الفداء بعض الأسرى المسلمين أو بخصـوص المسجد الذى بــناه مســلمة بن عبد الملك في القسطنطينية،[3] لأن هذين الأمرين يعتبرا من الصالح العام للمسلمين، الذى أشار إليه المسعودى.

علـى أيــة حــال يمكــن تلخيص شخصية ليو الثالث وما أداه للإمبراطورية البيزنطــية فــي كلمــات المــورخ اوستروجورسكى التالية "لقد أسس الإمبراطور ليو الأيســورى أسرة جديدة ، وأنقذ القسطنطينية ، وأصلح الكنيسة والدولة ، كما كان أول إمـبراطور بـيزنطى اســتطاع أن يوقــف سيل الفتوح الإسلامية الجارف ، بخطوات مدروســة مــنظمة تعكس عبقرية عسكرية وكفاءة إدارية . وكان عمله الخاص بتقسيم الثـيمات الشاسعة رائعاً لأنه أعطى الجهاز الإدارى المرونة اللازمة، وأكمل خللاً في

---

(1) انظر أيضاً، وسام عبد العزيز، الملاكات، ص ١٨٩; Ostrogorsky, *Byzantine State*, p. 140; عـن ثيم كاربيزيانى انظر، Antoniadis-Bibicou, H., *Etudes d'histoire maritime de Byzance*, Paris, 1966, pp. 63-114.

(2) المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق/ مفيد محمد قميحه، بيروت، ١٩٨٦، ج٣، ص ٢٢٦.

(3) بـنى مسلمة بن عبد الملك مسجدا في القسطنطينية " شديد البناء ، محكما، رحب الفناء، شاهقا في السماء". انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٢٢٩.

النظام العسكرى ، وبعث الروح من جديد فى دفاعات بيزنطة الشرقية مكمن الخطر.[1]

وعلى الرغم من الروح التى بثها ليو الثالث فى جسد الإمبراطورية البيزنطية إلا أن سياسة دولته لم تتحول إلى السياسة الهجومية تجاه المسلمين، لاسيما وأن الدولة البيزنطية انغمست فيما يعرف باسم الحركة اللأيقونية[2] ؛ وفى المقابل لم تتوقف الغزوات التقليدية للمسلمين والمتمثلة فى الصوائف والشواتى على أراضى الدولة البيزنطية .

وابتداء من عهد يزيد بن عبد الملك بدأت العلاقات بين المسلمين والروم تأخذ طابعاً جديداً ، حيث نشط البيزنطيون فى حروبهم مع المسلمين ، بعد أن استقرت أحوال الإمبراطورية البيزنطية على عهد ليو الأيسورى . وفى تلك المرحلة من الصراع بين القوتين العظمتين ، المسلمون والروم ، ظهرت قوى جديدة فى ذلك الصراع هما قوة الخزر والأرمن ، حيث لعبا دوراً بارزاً بين الطرفين .

وتجدر الإشارة إلى أن البيزنطيين أغاروا على مصر بحراً فى عام ٧٢٠م / ١٠٢هـ ونزلوا إلى مدينة تنيس حيث قتلوا أميرها مزاحم بن مسلمة المرادى فى جمع من أعوانه.[3] ثم أعادوا الإغارة على مصر فى عام ٧٢٥م/١٠٧هـ. ويبدو أن الخليفة هشام بن عبد الملك قد آثر الرد على هذا الهجوم بصورة سريعة ، حيث أرسل جيوشاً إسلامية عام ٧٢٩م/١١١هـ لتغزو آسيا الصغرى . حيث استطاع أخاه مسلمة بن عبد الملك أن يستولى على قيصرية آسيا الصغرى ؛ بينما تمكن جيشاً إسلامياً آخر

---

[1] أطلق هذا المصطلح على الحركة المناهضة لتقديس وإجلال الصور الدينية المسيحية في الدولة البيزنطية، وذلك بدءا من عهد ليو الثالث الايسورى، وقد بلغت شدتها في عهد ابنه قسطنطين الخامس واستمرت بين المناصرة والمقاومة طوال عهد الأسرتين الايسورية والعمورية. لمزيد من التفاصيل عن الحركة اللأيقونية انظر، أسد رستم، حرب في الكنائس، بيروت، ١٩٥٨؛ إبراهيم على طرخان، الحركة اللأيقونية، القاهرة، ١٩٥٨؛ Bréhier, L., *La querelle des images VIII*e*-IX*e* siècles*, Paris, 1904.

[2] علية الجنزورى ، هجمات الروم، ص ٤٩ -٥٠ .

بقيادة معاوية بن هشام من الوصول إلى مدينة نيقية حيث ألقى عليها الحصار ، إلا أن القوات البيزنطية تمكنت من صد المسلمين عند نيقية وردهم إلى قواعدهم ثانية دون انتصارات تذكر.

وقد استمرت حلقة الصراع الحربى بين الروم والمسلمين ، حيث هاجم المسلمون عام ٧٣٧م/١١٩هـ آسيا الصغرى بحملتين خرجتا من الثغور الشامية والجزرية، استطاع المسلمون من خلالها الوصول إلى برجامة ، غربى آسيا الصغرى. وإزاء المد الإسلامى الحربى فى بلاد الروم ، لم يقف الروم مكتوفى الأيدى فشنوا حملة بحرية على مدينة بيروت عام ٨٣٨م/١٢٠هـ ، استولوا فيها على سفن إسلامية وأسروا وسبوا. [١]

وفى عام ٧٣٩م/١٢٢هـ شن الروم هجوماً بحرياً على الشواطئ المصرية حيث نزلوا مدينة دمياط فى عهد هشام بن عبد الملك بأسطول مكون من ٣٦٠ مركباً ، فقتلوا وسبوا . ومن المرجح أن ذلك الهجوم أحرز نجاحاً جزئياً ، نتيجة للظروف التى كانت تمر بها مصر آنذاك ، عندما قام الأقباط بثورة كبرى ، بالإضافة إلى هجوم أقباط النوبة على حدود مصر الجنوبية. [٢]

ويبدو أن المسلمين ردوا على الهجوم البيزنطى على مصر بشن حملة كبيرة فى قلب آسيا الصغرى عام ٧٣٩م - ٧٤٠م /١٢٢-١٢٣هـ ، حيث التقت جيوش الطرفين فى واحدة من أشهر المعارك الحربية بينهما والتى عرفت باسم معركة أكروينون ؛ استطاع فيها الإمبراطور ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس أن ينزلا بالمسلمين هزيمة شنعاء، أجبرتهم على إخلاء الجزء الغربى من آسيا الصغرى تماماً، والتقهقر شرقاً. ويجمع المؤرخون المحدثون على أن النصر الذى أحرزه البيزنطيون فى هذه المعركة كان بفضل الدعم الذى قدمه الخزر للبيزنطيين ، وقيامهم بالضغط

---

[١] وسام عبد العزيز ، العلاقات ، ص ٢٣١ - ٢٣٢؛ وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الاسلامى، الإسكندرية، ١٩٩٠، ص ١١٣.

[٢] علية الجنزورى ، هجمات الروم ، ص ٥١؛ وديع فتحى، العلاقات، ص ١١٣.

كـــان هــذه هـــى قصة استشهاد البطال على الرغم مما بها من بعض المبالغة والتشوش التاريخى .

وبعــد هــذه المعــركة المهمة فى تاريخ العلاقات بين الدولتين خفت هجمات المسلمين على أسيا الصغرى، واتخذت الإمبراطورية البيزنطية زمام المبادرة الحربية؛ حيث بدأت بيزنطة فى المد العسكرى داخل أراضى الدولة الإسلامية على حساب الفتن الداخلــية والقلاقــل، وذلــك فى عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس Constantine V ٧٤٠-٧٧٥م/١٢٣-١٥٩هــ، الذى وصلت جيوشه إلى أعالى الفرات، بعد أن هاجمت حصوناً إسلامية عديدة كملطية ومرعش.

أمــا فى المجال البحرى، فقد وقعت معركة بحرية بين المسلمين والبيزنطيين بالقــرب مــن سولحل قبرص عام ٧٤٦م/١٢٩هــ، حيث حاصر الأسطول البيزنطى مايقــرب مــن ألف سفينة إسلامية خرجت من الإسكندرية، وتمكن الأسطول البيزنطى المكــون مــن ثلاثيــن سفينة، بقيادة استراتيجوس ثيم الكبيرايوت من الانقضاض على الأسطول الإسلامي عند خليج كيرامايا Keramaia وبفضل استخدام النار الإغريقية أن ينزل الهزيمة بالمسلمين ويقضى على أسطولهم هذا، الذى لم ينج منه سوى ثلاث سفن فــق علــى حــد ذكــر ثيوفانيس.[1] وقد انهى هذا الانتصار البحرى البيزنطى السيادة الإسلامية البحرية على شرقى البحر المتوسط، ولم يستطع المسلمون فى مصر والشام أن يعوضــوا تلــك الخســارة واختفــت قوة البحرية الإسلامية لما يقرب من قرن من الزمان. ومن المحتمل أن المسلمين قد شنوا هذه الحملة البحرية على قبرص عام ٧٤٦ م لتوكــيد ســيادتهم عليها، لاسيما بعد حملتهم السابقة عليها عام ٧٤٣م/١٢٦هــ التى خرجــت بقــيادة الأســود بن بلال المحاربى، عامل الوليد الثانى بن يزيد على الثغور الشامية وقائد أسطول الشام، والتى على أثرها تم تهجير جزءاً من القبارصة إلى داخل

---

(١) *Theophanes*, p. 586.

انظر أيضا، وديع فتحى، العلاقات، ص ١٣٦-١٣٧؛ عبد الوهاب حسن، قبرص، ص ١٢٢-١٢٥.

أراضـــى الدولة الإسلامية والجزء الأخر إلى داخل أراضى الدولة البيزنطية.[1] أو أنهم شنوها على أثر تعاون القبارصة مع البيزنطيين ضد المسلمين، وبهذا خالفوا معاهدتهم مع المسلمين.[2]

علـــى أيـــة حـــال تعرضـــت الدولة الإسلامية آنذاك إلى مجموعة من القلاقل الداخلـــية الـــتى أودت بالخلافـــة الأمويـــة وأدت إلى ظهور الدعوة العباسية ، ثم قيام الخلافة العباسية فى نهاية المطاف.

وفى عهد العباسيين كانت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين ميداناً لنشاط حربى محـــدود، ولكـــنه يكـــاد يكون متصلاً ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشـــاط المسلمين فى العهد الأموى ، إذ كان هدف الأمويين الزحف والتوسع ، واحتلال القســـطنطينية عاصـــمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك فتح بلاد الروم كما تم من قبل فتح فـــارس . أمـــا العباســـيون فقد غيروا هذه السياسة وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غـــارات الغـــرض مـــنها إظهار القوة ، وإرهاب العدو ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل، وقبل أن نسير فى وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل: لماذا لم يسر العباســـيون علـــى سياسة الأمويين فى الزحف والتوسع؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية؟

من المحتمل إن ذلك يرجع إلى سببين هما :

أولهمـــا : مـــناوأة أهـــالى بـــلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويـــين (مع ملاحظة أن أى تحرك للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشـــام قاعدة لها ، فإذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيوش المعسكرة فيها والمتحركة منها ، فإن النصر يكون صعباً) .

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٥، ص ٢٧٤؛ البلاذرى، فتوح البلدان، ج١، ص ١١٠؛ عبد الوهاب حسن، قبرص، ص ١٢١.

[2] عبد الوهاب حسن، قبرص، ص ١٢٢.

علـــى المســـلمين فـــى جـــبهة القوقاز فى نفس الوقت الذى يقاتلون فيه الروم. وتجدر الإشـــارة إلـــى أن هـــذه المعـــركة استشهد فيها بطلاً إسلامياً سبق ذكره وهو عبد الله الـــبطال، الـــذى نـــال شهرة واسعة فى قتال الروم ، وكان مضرباً للشجاعة والإقدام ، ونموذجـــاً شعبياً يحتذى به فى قتال الروم. وقد زودنا ابن كثير بتفاصيل قيمة عن قتاله للبيزنطيين واستشهاده في معركة اكروينون حيث يقول :

" ... وكـــان ســـبب شهادته أن "ليون" ملك الروم خرج من القسطنطينية في مائة ألف فـــارس، فبعـــث الـــبطريق، الذى البطال متزوج بابنته، إلي البطال يخبره بذلك، فأخبر الـــبطال أمير عساكر المسلمين بذلك، وكان الأمير مالك بن شبيب، وقال له: المصلحة تقتضـــي أن نتحصـــن في مدينة حران فنكون بها حتي يقدم علينا سليمان بن هشام في الجـــيوش الإســـلامية، فأبـــي عليه ذلك، ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديداً والأبطال تحـــوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفاً عليه من الروم، فأتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطا منه.

فلمـــا ســـمع ذلـــك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه بـــرماحهم فألقوه إلي الأرض، ورأى الناس يقتلون ويأسرون، وقتل الأمير الكبير مالك بـــن شبيب وأنكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها، وأصبح لـــيون فوقـــف علي مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق، فقال له ليون: ما هذا يا أبا يحيـــي؟ فقال هكذا تقتل الأبطال، فأستدعي ليون بالأطباء ليداوه، فإذا جراحه قد وصلت إلي مقاتلة، فقال ليون: هل من حاجة يا أبا يحيي؟ قال نعم فأمر من معك من المسلمين أن يلـــوا غســـلي والصـــلاة علـــي ودفني، ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأساري وانطلق ليون إلي جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشـــدة والحصـــار، إذ جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية ففر لـــيون في جيشه الخبيث هارباً راجعاً إلي بلاده قبحه الله، فدخل القسطنطينية وتحصن بها...".[1]

---

[1] انظـــر، ابـــن كثـــير، الـــبداية والنهاية، جـــ٥، ص٤٣٤-٤٣٧. انظر أيضا، وسام عبد العزيز، العلاقات، ص ٢٢٦-٢٢٧؛ وديع فتحى، العلاقات، ص ١١٤-١١٨.

ثانيهما : يمكن أن يضاف لهذين السببين أسبابا أخرى لا تقل خطراً عنهما ، فالدولة الإسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً يستلزم جهداً كبيراً للسيطرة عليها ، وتأمين حدودها ، ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد شمالى إفريقية تثير التمرد عليه من حين إلى آخر ، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا إلى السيطرة على ما فى أيديهم ، والمحافظة على إمبراطوريتهم ، بدل أن يوجهوا قوتهم إلى التوسع فتضعف شوكتهم فى الداخل ، ويعرضهم ذلك إلى فقدان أجزاء أخرى من الإمبراطورية. هذا بالإضافة إلى كثرة الحركات الداخلية التى شغلت العباسيين فى عصرهم الزاهر الذى كان يمكن أن يكون عصر فتوح . واكتفى العباسيون بالإغارات ليظهروا قوتهم للأعداء ، وأنهم دائماً على أهبة الاستعداد للزحف عليهم والإيقاع بهم ، وقد اتخذت هذه الإغارات شكلاً منتظماً ، وكانت تسمى الصوائف والشواتى ، كما سبق القول.[1]

ويتضح أن جل نشاط العباسيين الحربى كان يتم فى الصيف ، وأنهم كانوا يتحاشون القيام بإغارات فى الشتاء إذا لم تدع الضرورة لذلك ، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة ؛ وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا فى خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م وقد قام بها سعيد بن عبد الله . ثم انتظمت بعد ذلك ، فنجد الطبرى وابن الأثير يقرنان الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة ، فيقولان: وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلاناً ، فإذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللاً له، فهو يقول فى حوادث سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م: "ولم يكن للناس فى هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ"، ويقول فى حوادث سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م "... ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م لاشتغال المنصور بابنى عبد الله ابن الحسن". وهكذا

---

(1) انظر احمد شلبى، موسوعة التاريخ الاسلامى، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٥٠ -٢٦١.

كان شن الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، ومن أهم الصوائف التي حدثت في عهد المنصور تلك الصائفة التي مرت الإشارة إليها والتي ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م، وكانت رداً على غارة شنها إمبراطور الروم على ملطية سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، فهدم أسوارها ودخلها عنوة، وقد أعد المنصور رده على هذه الغارة في الصائفة التالية، وجعل قيادتها لأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن علي. وقد بدأ صالح بإصلاح ما أفسده الروم في السور، ثم دخل في أرض الروم، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم . وقد عقدت هدنة بين المسلمين والبيزنطيين آنذاك مدتها سبع سنوات، واتفق على تبادل الأسرى بين الطرفين.[١]

وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة نفسه أو ولي عهده ، ففي عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م على سبيل المثال جهز الخليفة المهدي ابنه هارون الرشيد لغزو الأراضي البيزنطية في جموع هائلة من المقاتلين، واستطاع هارون الرشيد أن يفتح مدنا وحصونا كثيرة في أرض الروم، ثم كر عائدا إلى بلاد الشام.[٢] وفي العام التالي غزا المسلمون بلاد الروم بقيادة عبد الكبير بن عبد الحميد بن زيد بن الخطاب، فلقيه البيزنطيون في تسعين ألفا من الجنود البيزنطيين بقيادة البطريق ميخائيل. وعندما أدرك عبد الكبير أنه لا قبل له بمواجهة هذه الجموع البيزنطية الهائلة قفل عائدا إلى بغداد، ليلقى عقابه من الخليفة المهدي جزاء انسحابه من القتال.[٣] ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التي تمت في عهد هارون الرشيد كانت من أقسى الصوائف وطأة على البيزنطيين ، وأكثرها إذلالاً لهم ، وطالما تولاها الرشيد بنفسه .

وقد عمد العباسيون إلى إنشاء إقليم العواصم لحماية أطراف الدولة الإسلامية من هجمات الروم . ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ولأن المسلمين

---

[١] انظر، وديع فتحي، العلاقات، ص ١٥١؛ أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٥٢-٢٥٣

[٢] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ٦٤٨.

[٣] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٦٤٩.

كانوا يعتصمون بها من العدو ، ثم هى للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهى الحصون التى سميت بإقليم الثغور ، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التى فى أرض العدو ، وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى ، ويسمى بالثغور الجزيرية (نسبة إلى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث ، والقسم الثانى بالثغور الشامية فى الجنوب الغربى حيث تقترب من ساحل خليج الاسكندرونه ، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس .

وقصة إنشاء العواصم والثغور أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده ، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين خطاً دفاعياً وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور الطرفية(الكليزورات)، ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعى البيزنطى على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وكان هذا الإقليم جزءاً من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله هارون الرشيد عنه ، وعين ابنه المعتصم أميراً له ، وجعل عاصمته أنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وشمال أنطاكية ومنطقة الساحل .[1]

ومع أن نظام الصوائف والشواتى كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه الفترة ، فقد كانت ظروف خاصة تجد أحياناً ، فتجعل الصائفة أو الشاتية تتوغل فى قلب بلاد الروم، أو معركة حربية حامية أوسع مدى ، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذى كان يميز الصوائف والشواتى، وقد لمع اسم هارون الرشيد فى هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو ، كما لمع فيها اسم المعتصم ابنه، وقد سجل التاريخ والشعر العربى بعضاً من هذه المعارك التى نقدم أمثلة منها :

موقعة خليج القسطنطينية :

كانت الصائفة التى شنها المهدى على البيزنطيين سنة ٧٨١م/١٦٥هـ قوية جارفة بسبب النشاط العدائى الذى قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيل هذا

---

[1] أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، ص ٢٥٤-٢٥٥.

الـزحف ، وقـد سير الخليفة المهدى ابنه الرشيد عام ٧٨١م/١٦٥هـ على رأس هذه الصـائفة فـى حوالـى مائة ألف مقاتل . وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن مزيد الشـيبانى ، وقـد كتب لجيش المسلمين النصر فى زحفه ، واستطاع الرشيد أن يصل بجيشـه إلـى خلـيج القسـطنطينية . فأوقع الرعب فى قلب الإمبراطورة إيرين أرملة الإمـبراطور لـيو الـرابع ٧٧٥-٧٨٠م/١٥٩-١٦٤هـ وكانـت وصية على ابنها قسـطنطين السـادس ، فطلبـت الصـلح ، وقـتل وجرح من الروم فى هذه الوقـائع ٥٤,٠٠٠ مـن القتلى.[1] وقد عقدت الإمبراطورة ايرين صلحا مع هارون الرشيد على الشروط التالية:[2]

١. عقد معاهدة سلام بين الطرفين مدتها ثلاث سنوات تبدأ من عام ١٦٦هـ

٢. تدفع الإمبراطورة الوصية على العرش البيزنطى ايرين جزية سنوية للمسلمين قدرها ٧٠,٠٠٠ دينار

٣. يتم تبادل الأسرى بين الجانبين .

٤. فتح الأسواق أمام التجار المسلمين في بيزنطة

٥. تمد بيزنطة جيش هارون الرشيد بالأدلاء في أثناء عودته

٦. عدم اعتراض القوات الإسلامية المحملة بالغنائم وهى في طريق عودتها

وبإتمـام الصلح بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية بدأ المسلمون في الانسـحاب من الأراضى البيزنطية في ١٧ من المحرم ١٦٦هـ / ١ سبتمبر ٧٨٢ م. وقـد اصـطحب هارون الرشيد معه أحد قادة بيزنطة الذى لجا إلى العباسيين ويدعى تاتزاتـيس، الـذى اصطحب معه زوجته ومؤيديه. ودخل هارون الرشيد بغداد وسط الاحتفالات بالنصر، ومعه رسل ايرين محملين بالجزية من الذهب.[3]

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٦٥٠-٦٥١؛ وديع فتحى، العلاقات، ص ٢١٤-٢٢٥.

[2] وديع فتحى، العلاقات، ص ٢٢١-٢٢٢؛ حسنين ربيع، دراسات، ص ١٢٦.

[3] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٦٥٠؛ وديع فتحى، العلاقات، ص ٢٢٥.

وفى هذه الغزوة يقول مروان بن أبى حفصة مخاطباً الرشيد :

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رمتها حتى أتتك ملوكها بجزيتها ، والحرب تغلى قدورها[1]

وقد حرص الخليفة العباسى هارون الرشيد على أن يدعم علاقاته بأعداء أعدائه من البيزنطيين والأمويين في الأندلس في آن واحد. فقد تم تبادل السفارات والهدايا بينه وبين شارلمان، إمبراطور الفرنجة، حيث بعث له بالهدايا الثمينة والعطور والمنتجات الشرقية القيمة؛ كما كان قد بعث إليه بفيل، كان قد طلبه منه شارلمان من قبل في إحدى السفارات بينهما. [2]

وقد تعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية والخارجية فى الدولة البيزنطية إلى أحداث جسام . فعلى الصعيد الداخلى تصارعت فيها ثلاثة قوى: قوة الإمبراطورة إيرين وقوة ابنها قسطنطين السادس ٧٨٠-٧٩٧م/١٦٤-١٨١هـ الذى تخطى مرحلة الصبا إلى مرحلة الرشد، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين ، وانهزمت إيرين أولاً، واعتلى الأمير العرش، باسم قسطنطين السادس، ولكن إيرين عادت فقبضت على ابنها وسملت عينيه وانفردت بالحكم، وفى أثناء حكمها تمت معركة خليج القسطنطينية التى تحدثنا عنها آنفاً، والتى قادها هارون الرشيد، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه الجزية، غير أن قوة الجيش ظلت فى طريقها إلى أن نجحت، وأعلن نقفور، الذى كان وزيرا للمالية، نفسه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية سنة ٨٠٢م/١٨٧هـ. أما على الصعيد الخارجى فقد كان البلغار يشكلون تهديدا على الجبهة البيزنطية الغربية في البلقان، حتى اضطر قسطنطين السادس للخروج لقتالهم فلاقى هزيمة شنعاء في ماركيلاى Marcellae عام ٧٩١م على أيدى كاردام Kardam زعيم البلغار، واضطر البيزنطيون لشراء السلام مع البلغار بدفع

---

[1] ابن خردانبة، المسالك والممالك، ص ١٠٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٦٥٠؛ أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، ص ٢٥٥-٢٥٦.

[2] اينهارد، حياة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٠٤-١٠٧.

جـزية سنوية لهم.[1] كما كانت البابوية تتحرش ببيزنطة في ذلك الوقت مستغلة وجود ايريـن علـى العرش البيزنطي؛ وصارت هناك مراسلات بين القسطنطينية واكس لا شـابل لإتمـام زواج قسـطنطين السـادس مـن ابنة شارلمان المدعـوة هرودرود Hruodrud،[2] الـتى بـدءوا في تعليمها اليونانية وآداب البلاط البيزنطي. إلا أن هذا المشروع فشل ولم يستكمل لسبب أو لآخر. ولم تقف البابوية مكتوفة الأيدى، بل سعت الـبابوية بعد تتويج شارلمان إمبراطورا رومانيا عام ٨٠٠م،[3] إلى تزويج ايرين من شـارلمان نفسـه، حتى تنعم بسيطرتها على الإمبراطورية الرومانية بعد توحيد شقيها بـزواج شـارلمان، حامل اللقب الإمبراطوري بمباركة البابا، من ايرين الجالسة على عـرش بـيزنطة بلا حق بعد أن سملت عيني الإمبراطور الشرعى ونفته من البلاد. ويشـير ايـنهارد إلى ان الأباطرة البيزنطيين استاءوا من تتويج شارلمان إمبراطورا رومانـيا، لأنهم كانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب هذا الحق، ومن ثم أرسل لهم شارلمان رسـائل رقـيقة ليهدأ من روعهم وغضبهم، لاسيما وانه كان كارها لمسرحية التتويج الـتى أداها البابا وأعوانه عام ٨٠٠م.[4] فوصلت رسل شارلمان إلى القسطنطينية عام ٨٠٢م لإتمام هذا الزواج. وقد وافقت ايرين على هذا الزواج لولا قيام نقفور بالإطاحة بها ونفيها إلى إحدى الجزر اليونانية.[5]

كـان الجـيش البـيزنطي يعـتقد أن الضـعف الذى ظهرت به الإمبراطورية البيزنطـية أمـام جـيوش المسلمين ، راجع إلى أن الدولة تحكمها امرأة ، ولذلك بعث

---

[1] الـباز العريـنى، الدولة البيزنطية، ص ٢٠١؛ *Theophanes*, p. 643; Runciman, S., *A History of the First Bulgarian Empire*, London, 1930, pp. 48-49; Browning, R., *Byzantium and Bulgaria*, London, 1975, p. 48.

[2] يشـير ايـنهارد إلى خطبة هرودرود من قسطنطين السادس. انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ص ١٢٠-١٢١.

[3] عن هذا التتويج انظر، اينهارد، سيرة شارلمان، ص ١٤٣-١٤٥؛ *Theophanes*, p. 653

[4] اينهارد، سيرة شارلمان، ص ١٤٣-١٤٥.

[5] حسـنين ربـيع، دراسات، ص ١٢٧-١٣١؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٠١-٢٠٥؛ ديفز، كارلس، شارلمان، ترجمة/ السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٨٦.

نقفور، بعد أن تولى العرش البيزنطى، إلى هارون الرشيد الذى كان قد آلت إليه خلافة المسلمين بالرسالة التالية : "من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب. أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ، ما كنت خليقاً بحمل أمثالها إليك ، لكن ذاك ضعف النساء . فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع له المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك" .

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استشاط غضباً ، حتى لم يستطيع أحد من جلسائه أن ينظر إليه : ثم دعا بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب : "من عبد الله هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم : أما بعد فقد فهمت كتابك يابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون أن تسمعه ، والسلام على من اتبع الهدى" .[1]

وشخص الرشيد من يومه إلى أعدائه ومعه جيش هائل عام ٨٠٦م/١٩١هـ ، وعجزت القوات البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل إلى مدينة هرقلة، وقد غنم فى طريقه وأفنى ، كما شاءت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلة، وبدأ يقذف حصونها بحجارة ملتهبة حتى سقطت ، وقد سجل الشاعر العربى هذه الصورة فى قوله:

هوت هرقلة لما أن رأت عجباً جوائماً ترتمى بالنفط والنار

كأن نيراننا فى قلب قلعتهم مصبغات على أرسان قصار

وأدرك نقفور أن الإمبراطورة إيرين لم تكن سبب الهزائم التى حلت ببيزنطة ، وإنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله، فسأل الصلح على مال يؤدى كما كانت إيرين تفعل من قبل، وقبل هارون الرشيد ذلك بعد أن أدبه، ولكن الرجل لم يستطع أن يبر بما وعد ، فما أن غادر الرشيد أرض

---

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٧٠٩؛ القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على (ت ١٤١٨م/٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة، د. ت.، ج١، ص ١٩٢.

الــروم حتى نقض نقفور العهد، ظاناً أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقد كان النكث شديد الوقع على قادة المسلمين ، حتى أن أحداً منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتــيل بشــاعر مــن جنده يكنى أبا محمد عبد الله ابن يوسف، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمى ليقول فى ذلك شعراً وينشده الرشيد ، فقال :

نقــض الــذى أعطيــته نقفــور فعلــيه دائــرة الــبوار تــدور

أبشــر لأمــير المؤمنيــن فإنــه غــنم أتــاك بــه الإلــه كبــير

فعــرف الرشــيد بذلــك خبر النكث ، وعاد من فوره ، وأثخن فى بلاد الروم ، وفــتح هــرقلة ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله ، وكان مقدارها ٧٠,٠٠٠ دينار .[١]

كانــت هــذه أشــهر الاحتكاكات الحربية بين هارون الرشيد ، الذى كان مكتوباً على قلنسوته "غاز حاج" وبين أباطرة الروم.[٢]

وتجــدر الإشارة إلى أنه حدث تبادل للأسرى بين البيزنطيين والمسلمين في عهد هــارون الرشــيد ونقفــور الأول عام ١٨٩هــ/٨٠٤م، وقد أطلق المسعودى على هذا الفــداء اســم فداء أبى سليم، نسبة إلى أبى سليم فرج، خادم هارون الرشيد، الذى تولى عملــية تــبادل الأســرى بين الطرفين. وقد تم التبادل بين الطرفين عند نهر اللامس، الواقــع طــرف ســلوقية. كمــا أشرف على هذا الفداء أيضا القاسم ابن الرشيد، وكان معســكرا بدابــق، شــمالى الشــام. وقد كان مجموع من افتدوا في ذلك الفداء ٣٧٠٠ أســير.[٣] وقد حدث تبادل للأسرى مرة ثانية بين المسلمين والبيزنطيين في عام ١٩٢

---

[١] أحمــد شــلبى، موسوعة التاريخ الإسلامى، ص ٢٥٧-٢٥٨. ولمزيد من التفاصيل عن العلاقات البيزنطية الإسلامية خلال عهدى أيرين وابنها قسطنطين ونقفور الأول انظر، وديع فتحى، العلاقات، ص ٢٠٦-٣١٩.

[٢] حسنين ربيع، دراسات، ص ١٤٠.

[٣] المســعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٦-١٧٧. انظر أيضا، حامد زيان، الأسرى المسلمون في بلاد الروم، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٢-٣٣.

هـ/٨٠٧م، وقد عرف بفداء ثابت، نسبة إلى ثابت بن نصر الخزاعى أمير الثغور الشامية؛ وقد افتدى في ذلك الفداء ٢٥٠٠ أسير أو يزيد.[1]

ولننتقل الآن إلى واحدة من أهم المواقع بين الطرفين والمعروفة باسم "يوم عمورية"، والتى عاصر وقوعها عهد أسرة جديدة في التاريخ البيزنطى هى الأسرة العمورية.

---

[1] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٧. انظر أيضا، حامد زيان، الأسرى المسلمون فى بلاد الروم، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٣٤-٣٥.

الفصل الرابع

الأسرة العمورية والمسلمون

الفصل الرابع

الأسرة العمورية والمسلمون

انـــتهى عهـــد الأسرة الايسورية بتولى ميخائيل الثانى Michael II أو العمورى كمـــا يطلـــق عليه، العرش فى عام ٨٢٠م/٢٠٥هـــ، وتأسيسه لأسرة حاكمة تنسب إلى مسقط رأسه، وسميت باسم الأسرة العمورية.

كـــان الإمـــبراطور ميخائـــيل الـــثانى العمورى ٨٢٠-٨٢٩م/٢٠٥-٢١٤هـــ معاصـــراً للخليفة العباسى المأمون، وقد منى كل منهما بثائر عنيد أشعل نار الفتنة فى الداخـــل، وأثـــار القلاقـــل فى وجه سيده ، منى المأمون ببابك الخرمى، ومنى ميخائيل بـــتوماس Thomas Sclavinian الصـــقلبى، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر، وكانـــت هـــذه الطائفـــة إحـــدى طوائف الفرس التى تعيث فى الأرض فساداً، وتخيف السبيل، وتبيح الحرمات.

أمـــا توماس الصقلبى فهو رجل سلافى الأصل ، قاد الثائرين على الإمبراطور لعـــدد مـــن الأســـباب الخاصة به والعامة، في ثورة استمرت عامين.[1] وقويت هاتان الـــثورتان واستفحل شأنهما، إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمده بالعون، وفعل ميخائيل وخلفـــه ثيوفـــيل Theophilus ٨٢٩-٨٤٢م/٢١٤-٢٢٨هـــ مثل ذلك بالنسبة إلى بابك الخـــرمى، ولكن ميخائيل العمورى استطاع بعد كثير من الجهد أن يقضى على المتمرد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر فى بلاده ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجد ليقلم أظفاره ويقضى عليه .

---

[1] عن ثورة توماس السلافى انظر، حسنين ربيع، دراسات، ص ١٤٠-١٤٢؛ وسام عبد العزيز فرج، "السادة والاتباع: دراسة في ظاهرة التبعية الشخصية في العصر البيزنطى الأوسط"، مجلة الجمعية المصـرية للدراسات التاريخية، عدد ٣٢(١٩٨٥)، ص ٢٣٥-٢٨٦؛ فازيلييف، أ.، العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيره، القاهرة، د.ت.، ص ٢٨-٥١؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٢٠-٣٢٢.

أمـــا عـــن الاحتكاكات الحربية بين البيزنطيين والمسلمين آنذاك ففى سنة ٨٣٠م هـــاجم ثيوفيل مدينة زبطرة وخربها، بعد أن قتل عددا كبيرا من سكانها.وخرج المأمون غازيا بلاد الروم للانتقام من ثيوفيل فاتخذ طريقه إلى منبج وانطاكية وطرسوس، حيث اجـــتاز الدروب القيليقية، وفتح عددا من الحصون وهزم ثيوفيل في نهاية المطاف.[١] وفى عام ٨٣١م شن ثيوفيل حملة ناجحة على الحدود الإسلامية- البيزنطية ، فاستولى علـــى بعض الحصون الطرفية، الأمر الذى شجعه على إيفاد رسله إلى الخليفة العباسى ليعقد معه هدنة مدتها خمس سنوات وأن يعيد إليه ما استولى عليه من حصون وإطلاق ســـراح خمســـمائة أسير، وكان المأمون في آذنة غازيا؛ إلا أن الخليفة العباسى رفض الانصـــياع لطلـــبه واســـتكمل المســـلمون القتال ضد البيزنطيين، الذى انتهى بهزيمة ثيوفـــيل.[٢] وبعد عودة المأمون من مصر عام ٨٣٢م اتجه على غزو بلاد الروم، حيث حاصـــر قلعة اللؤلؤة ، التى استسلمت له في نهاية المطاف؛ وقد توفى الخليفة المأمون في عام ٨٣٣م ، حيث دفن في طرسوس.[٣]

تولـــى المعتصـــم الخلافة العباسية بعد موت أخوه المأمون، وتوقف القتال بين المســـلمين والبيزنطيـــن فى أول سنى عهده لانشغاله بالقضاء على فتنة بابك الخرمى، وانصراف ثيوفيل لحشد قواه لاسترداد صقلية من أيدى المسلمين.

وأعـــد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركى الأفشين، وبعث بها لمحاربة هذا الـــثائر، ولمـــا ضـــيق علـــيه الخـــناق، وأحـــس بابك أن الدنيا ضاقت به، أرسل إلى الإمـــبراطور ثيوفـــيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنيه بأن الغزو سيكون سهلاً ما دامت جيوش المسلمين مشـــغولة فى حربها معه، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك، وكان بذلك يخدم غرضين، فهو يخفف الضغط عن حليفه، ثم هو يثأر لأمته من المسلمين الذين طالما نكلوا به وبقومه،

---

[١] فازيلييف، العرب والروم، ص ٩١-٩٦؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٤٤.

[٢] فازيلييف، العرب والروم، ص ٩٦وما بعدها؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٤٤.

[٣] فازيلييف، العرب والروم، ص ١٠٤-١١١.

ولكـــن المعتصــــم كــــان فطـــناً، فاحتمل طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك إلى أن انتصر عليه ، وشتت شمل جيشه، ومثل به.[1]

أمـــا ثيوفيل فكان قد اتخذ زبطرة، مسقط رأس المعتصم، هدفاً لهجومه. ويحدثنا المؤرخــون أنـــه قتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار كذلك على أهل ملطـــية وغـــيرها من حصون المسلمين، ومثل بمن صار في يده من المسلمين، وسمل عـــيونهم، وقطـــع أنوفهم وآذانهم، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة، فصاحت: وامعتصماه، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة إلى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب: لبيك يا أماه .[2]

علـــى أن مـــا أصـــاب زبطـــرة على أيدى الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل من التخريـــب والحريق بلغت أنباؤه المعتصم فى عاصمته سامرا، فعزم على أن يثأر لها، ومـــا كـــاد ينـــتهى من فتنة بابك التى انتهت بمصرعه سنة ٨٣٧م/٢٢٣هـ، حتى أعد عدتـــه بأن يصوب ضربة قاصمة لذلك الإمبراطور وتقضي على هيبته، فالمعروف أن عموريـــة هى مسقط رأس الإمبراطور ثيوفيل Theophilus ٨٢٩-٨٤٢م/٢١٤-٢٢٨هـــ ، فعزم المعتصم على إزالتها من الوجود. على أن لعمورية أهمية أخرى، إذ أن الاســـتيلاء علـــيها، يعتـــبر خطـــوة فى سبيل الوصول إلى القسطنطينية، فهى من أهم وأحصـــن مـــدن أســـيا الصغرى الواقعة على الطريق إلى القسطنطينية. فلم تكن حملة المعتصم كالحملات السابقة موجهة إلى الحصون الواقعة على الأطراف، بل موجه إلى أهم موقع فى جوف آسيا الصغرى، إذ اعتبرها أحد المؤرخين "عين النصرانية" .[3]

غـــادر المعتصـــم سامرا فى أبريل سنة ٨٣٨م/٢٢٤هـــ ، وقد كتب على ألوية الجـــيش وتروســـه "عمورية". لقد اشتهر المعتصم بالفروسية والبسالة، وقد جعل على

---

[1] عن نهاية بابك الخرمي، انظر، الذهبى، دول الاسلام، ج١، ص ١٩١-١٩٢.

[2] أحمد شلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ٢٥٩.

[3] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٤٥-٢٤٦.

مقدمـــة الجيش أشناس التركى، وشارك فى هذه الحملة الأفشين، الذى اشتهر بأنه قضى على الفتنة التى حدثت بمصر، واشترك فى قتال بابك .

جعل المعتصم أنقره أول هدف للحملة، فزحف جيش الشرق، بقيادة الأفشين وقد ســلك طــريق مرعش، فعبر الحدود عن طريق درب الحدث، فى وقت جرى الاتفاق علــيه، حتى يتهيأ له الالتقاء بالجيش القادم من الغرب، فى سهل أنقرة وأنضم إلى هذا الجــيش، فــيما يبدو، جند من الأرمن وأمير ملطية. أما الخليفة (المعتصم) ، فتهيأ فى نفس الوقت إلى المسير إلى أنقره وليس إلى عمورية فقط.

لــم يخــف علــى الإمبراطور البيزنطى ما وضعه الخليفة من خطط عن انقره وعموريـــة ، خــرج ثيوفــيل مــن القسطنطينية فى مايو سنة ٨٣٨م/٢٢٤هـــ ، وفى دوريلــيوم علــى مسيرة ثلاثة أيام من عمورية، وتقع على الطريق المؤدى إلى الحدود الإســلامية، أخــذ يجمع من المؤن والعتاد ما يقوى به أسوار عمورية وحاميتها. ومن الطبيعى أن يقوم اثيتيوس قائد ثيم الأناضول بالدفاع عن عمورية ، عاصمة ذلك الثيم.

وأعــد الإمبراطور خطته، على أن يقوم بمهاجمة قوات المسلمين، أثناء سيرها صــوب الشــمال إلــى أنقــرة. ولما لم يكن يعلم شيئاً عن الجيش الشرقى الذى يقوده الأفشــين، عبر نهر الهاليس Halys ، وعسكر بجيشه بموضع يقع فى أقصى خرشنة ، ولا يــبعد كثــيراً عــن النهر، وذلك لأنه ظن أن الجيش الإسلامى، سوف يجتاز درب قيليقية، فى طريقه إلى أنقرة، فيستطيع بذلك أن يهاجم جناحه.

علــى أن جــيش الخلــيفة القادم من جهة الغرب، إنما زحف من طوانة صوب الشــمال. غير أن الخليفة أصدر أوامره بالتوقف، ريثما يقف على مواقع العدو. وحدث فــى الوقــت ذاته أن علم ثيوفيل بزحف الجيش القادم من الشرق، فاضطرب بذلك ما وضعه من الخطط. إذ تحتم عليه أن يقسم قواته، فجعل الجانب الأكبر من الجيش تحت قــيادته، وتوجــه لمواجهــة الأفشين، بينما ترك بقية الجيش لمنع تقدم الخليفة. وما كاد الأفشــين يجــتاز سواس، وأضحى فى إقليم دازيمون حتى تحتم أن تنشب معركة بينه وبين الإمبراطور .

وابتدأت المعركة فى أول ساعات الصباح من يوم الخميس ٢٥ شعبان /٢٢ يوليه، وعلى الرغم من أن البيزنطيين أحرزوا النصر أول الأمر، فإن المسلمين سيطروا على الموقف، ووقع الاضطراب فى صفوف البيزنطيين، حين شاع الخبر بأن الإمبراطور لقى مصرعه، غير أن الإمبراطور عاد إلى معسكره، وأنزل العقاب بمن هرب من الجنود. وأرسل من قبله طواشيا إلى أنقره للدفاع عنها. غير أن الأمر جاء متأخراً، إذ احتل المدينة الجيش الإسلامى القادم من الغرب دون أن يجد مقاومة ، ذلك أن أهل المدينة أفزعهم ما بلغهم من نبأ انتصار الأفشين، فغادروا المدينة، واعتصموا بالجبال، ولم يلبث اشناس أن اكتشف مواضعهم فأنزل بهم هزيمة ساحقة. ولم يلبث أن انضم الأفشين بقواته إلى المعتصم وأشناس وقواتهما بأنقرة ، فأنزلوا بها الخراب والدمار . ولم يسع الإمبراطور إلا أن يلتمس من الخليفة الصفح عنه وإجراء الصلح فأرسل إليه مبعوثين ، يطلبون عقد هدنة. ويعرضون تعهد الإمبراطور بإعادة بناء زبطرة، وإعادة السكان إليها، وأن يطلق سراح من عنده من أسرى المسلمين وأن يسلم إلى الخليفة كل من ارتكب فى زبطرة شيئاً من أعمال العنف القوة. غير أن الخليفة لم يستجب لتوسلات الإمبراطور ، وشيع رسله بالاحتقار والسخرية.

أما الإمبراطور ثيوفيل فإنه توجه إلى دوريليوم، منتظراً ما سوف يحل بمدينة عمورية من المصير المحتوم بعد تدمير أنقره، لجعل جيشه ثلاثة أقسام، على أن يفصل بين كل قسم وقسم فرسخان ، فكان أشناس على المقدمة ، واتخذ الخليفة موضعه فى القلب ، بينما كان الأفشين في المؤخرة، وأنزلوا أثناء سيرهم الخراب والدمار بكل ما يجتازونه من الجهات، حتى وصلوا إلى عمورية بعد سبعة أيام من سيرهم. وشرع المعتصم فى حصار عمورية فى أول أغسطس. واشتهرت المدينة بشدة مناعتها وحصانتها، حيث كان يحيط بها سورا مرتفعا يزيد من مناعته ما يقع عليه من أبراج بلغ عددها أربعاً وأربعين برجاً، وأحاط بها خندق واسع. وتولى الدفاع عنها اثيتيوس قائد ثيم الأناضول وساعده قادة آخرون .

وبعد حصار استمر أسبوعين ، أعلنت المدينة التسليم فى ١٣ أغسطس ٨٣٨ م/ ٢٢٤هـ، فوقع فى أيدى الخليفة عددا وفيرا من الأسرى من النساء والأطفال، فضلاً

عـن الغـنائم الوفـيرة، ونقل المعتصم معه إلى سامرا اثنين وأربعين أسيراً من ذوى المكانة، حيث ظلوا فى الحبس سبع سنوات.

وأرسـل ثيوفـيل إلى المعتصم باسيل قائد ثيم خرشنة بالهدايا، وبرسالة تتضمن أسـفه لما حل بزبطرة من الدمار، ويطلب إلى الخليفة أن يطلق سراح اثيتيوس، مقابل أن يطلـق سـراح مـن عنده من الأسرى المسلمين. غير أن الخليفة رفض أيضاً ذلك الطلب.

ثم حدث أن عرض ثيوفيل من جديد على الخليفة المعتصم تبادل الأسرى ، فرد علـيه المعتصـم ، أنـه إذا أردت أن ترد علينا من كان لديك من المسلمين ، دون أن تطلب مقابلاً لذلك، فإننا نرد عليك أضعاف من تطلق سراحه، وبذلك نبزك فى كل شئ على أنه لم يطلق سراح أثيتيوس، وتقرر عقد الهدنة عام ٨٤١م/٢٢٧هـ.[١]

وممـا ترتـب على غزو المعتصم من كوارث بآسيا الصغرى ، وما جرى من توغـل مسـلمى إفريقـية فـى جزيـرة صقلية ، وما أنزله العرب فى جزيرة كريت بالإمـبراطورية البيزنطـية من هزائم ، كل ذلك جعل الإمبراطور يعتقد أنه لا قبل له بقـوة المسلمين المتزايدة فى البحر المتوسط ، فعزم على أن يلتمس المساعدة من الدول الأوربـية . فأرسل إلى لويس التقى Loius the Pious، الإمبراطور الفرنجى سفارة ، تضم أسقفاً وبطريقاً ، فطلبت إلى الإمبراطور أن يبعث بجيش قوى لمهاجمة مصر أو الشـام ، حتى يضعف من قوة الخليفة وتشتيتها. ولقيت السفارة ترحيباً فى انجلهيم (فى ١٧ يونـيه سنة ٨٣٩م)، غير أنه لم يترتب عليها نتيجة من النتائج . وما سعى إليه من حـث أمير الأندلس ، عبد الرحمن الثانى، على التعاون معه ضد الخليفة العباسى ، لم يلـق إلا الفشـل الذريـع . إذ أن أحوال الأندلس وقتذاك بلغت من السوء ما جعل من المستحيل أن توجه حملة لمساندة الإمبراطور، غير أنه (عبد الرحمن الثانى) أظهر من

---

[١] عن تفاصيل حملة المعتصم على عمورية انظر، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥، ص ٨٢٧-٨٣٠؛ الذهبى، دول الإسلام، ج١، ١٩٢؛ فازيلييف، العرب والروم، ص ١٣٠-١٥٧؛ أسد رستم، الروم، ج١ ، ص ٣٢٥-٣٢٧؛ Bury, J. B., "Mautasim's March through Cappadocia in 838 AD.", *JHS*, 29(1897), pp. 120-129.

النية الحسنة ما جعله يرسل مع السفارة صديقه الشاعر يحيى الغزال ، وطلب إليه أن يذكر للإمبراطور بأنه سوف يرسل إليه أسطولاً إذا هدأت الأمور فى بلاده ، غير أنه لم يتم شئ من هذا القبيل .[1]

وقد خلد الشاعر العباسى أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها:[2]

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عنك أنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد	والمشركين ودار الشرك فى وصب
أم لهم ، لو رجوا أن تفتدى جعلوا	فداءها كل أم بــرة وأب
من عهد إسكندري أو قبل ذلك قد	شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
لقد تركت أمير المؤمنين بها	للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى	يغله وسطها صبح من اللهب
إن كان بين ليالى الدهر من رحم	موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها	وبين أيام بدر أقرب النسب

على أن المعتصم تجهز لمهاجمة القسطنطينية، وأعد لذلك أسطولاً مؤلفاً من ٤٠٠ سفينة ، أبحرت من موانىء الشام سنة ٨٤٢م/٢٢٨هـ ، غير أن المعتصم مات فى نفس الشهر الذى مات فيه ثيوفيل، وتحطمت السفن على صخور جزائر خيلدونيا فلم ينج منها إلا سبع سفن فقط.[3]

---

[1] فازيلييف، العرب والروم، ص ١٥٧-١٦٥؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٢٦-٣٢٧.

[2] أبو تمام الطائى ، ديوان أبى تمام، بيروت، ١٨٨٩، ص ١٥ وما بعدها.

[3] أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٢٦.

تولــى الخلافــة بعــد المعتصم، الخليفة الواثق ٢٢٨-٢٣٣هـ/ ٨٤٢ – ٨٤٧م الــذى جــرى فــى زمــنه مــن الفتن الدينية والثورات فى الدولة الإسلامية، والسخط والكراهية فى بغداد ، ما جعله عاجزاً عن مواصلة الجهاد الدينى. وعلى الرغم من أنه لــم تعقد بين البيزنطيين والمسلمين هدنة، فإنه تم تبادل الأسرى بين الطرفين، وتوقفت الأعمال الحربية عدة سنوات.

ومــا كادت تعود عبادة الصور الدينية (الأيقونات) إلى سابق عهدها قبل عهد لــيو الايســورى، حتى جرى استئناف القتال ضد المسلمين. إذ أن الوزير ثيوكتستوس Theoktistos قــاد حملــة بحــرية ضخمة لمهاجمة جزيرة كريت في ١٨ مارس سنة ٨٤٣م/٢٢٩هــــ ، وبلغــت هذه الحملة من القوة والاستعداد ما لم تبلغه سائر الحملات الــتى وجههــا مــن قبل ميخائيل الثانى. ولم يلق ثيوكتستوس صعوبة فى الوصل إلى كريــت، والــنزول بقواته بها. غير أن المسلمين بكريت استطاعوا أن يثيروا مخاوف القائد على مركزه ومكانته عند الإمبراطورة ثيودورا Theodora، الوصية على عرش ابــنها ميخائيل الثالث، فشاع الخبر بأن الإمبراطورة جعلت أحد منافسيه قيما فى الحكم، فلم يسع القائد إلا أن يعجل بالعودة إلى القسطنطينية ، وأن يترك جانباً كبيراً من جيشه بكريت ، فتعرض للهزيمة الساحقة التى أنزلها به المسلمون.[١]

وعلى الرغم من أن أمراء كريت كانوا مستقلين فعلاً، فإنهم اعترفوا بسيادة [٢] الخلــيفة فــى مؤونتها على ما تمدها به الإسكندرية ، وأنها أضحت كأنها تابعة لولاية مصـــر. ومن المحتمل أن ثيودورا، حينما أدركت هذه الصلة، أرسلت إلى مصر سنة ٨٥٣م / ٢٣٨هــــ حملــة فاقــت فى الضخامة كل ما كان معروفاً وقتذاك من القوى الحربية؛ أو أنها أرادت أن تنتقم لهزيمة ثيوكتستوس على أيدى المسلمين في كريت.

---

(١) *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1838, p. 654;Tsougarakis, D., *Byzantine Crete from the 5th Century to the Ventian Conquest*, Athens, 1988, pp. 46-48; Malamut, E., *Les iles de l'empire byzantin*, Vol. I, Paris, 1988, p.78-79.

أنظر أيضا، فازيلييف، العرب والروم، ص ١٧١-١٧٢.

تألفـت هـذه الحملة البحرية من ثلاثة أساطيل، تشتمل على ثلثمائة سفينة. منها أسـطولان لم تعرف الجهة التى يقصدانها، والراجح أنه جرى تكليفهما بأعمال حربية فـى بحـر الأرخبـيل، أو على ساحل الشام. أما الأسطول الثالث الذى تألف من ٨٥ سفينة، وخمسة آلاف رجل وتولى قيادته، على حد ما ورد فى المصادر العربية ، ابن قطونـا ، فقـدم إلى دمياط فى ٢٢ مايو سنة ٨٥٣م/٢٣٨هـ . ولما وصل الأسطول البـيزنطى ، ولم يكن بالمدينة حامية عسكرية إذ أن عنبسة ابن اسحاق آخر الولاة من العـرب علـى مصر، استدعى الجند للاشتراك فى الاحتفال بعيد الأضحى بالفسطاط وبـادر أهـل المدينة بمغادرتها ، بينما أنزل البيزنطيون بها النهب والحريق، وأسروا من سكانها نحو ٦٠٠ من المسلمين والقبط ، وعثروا على مقادير كبيرة من الذخائر ، جـرى إعدادهـا لإرسالها إلى والى كريت ، وبعد أن استمر البيزنطيون فى مهاجمة دمـياط ، أقلعوا بسفنهم إلى جزيرة تنيس، غير أنهم لم يلبثوا أن تحولوا بعد أن أدركوا مـا تـتعرض لـه سفنهم من الخطر بسبب ما يكتنف الجزيرة من كثبان رملية ، إلى حصـن اشتوم ، المشهور بمناعة أسواره وأبوابه المصنوعة من الحديد. وبعد أن دمر البيزنطيون ما عثروا عليه من أدوات الحرب، عادوا إلى مواطنهم .[١]

وفـى السـنوات الأخيرة من حكم ميخائيل الثالث Michael III ٨٤٢-٨٦٧م/٢٢٨-٢٥٣هـ ، واصـل المسـلمون بكريت ، غاراتهم على جزر بحر الأرخبيل ، فتعرضـت جزيرة لسبوس Lesbos للنهب والتخريب ، وجرى نقل رهبان دير اثوس Athos مـن مواضعهم. وقام الإمبراطور ميخائيل الثالث وبارداس Bardas بمحاولة أخـيرة لاسـترداد جزيرة كريت، بأن أعدا حملة بحرية كبيرة، أقلعت من شواطئ ثيم التراقيسـيان، حيث اجتمعت سائر الأساطيل والعساكر القادمة من ثيمات آسيا الصغرى للاشتراك فى الحملة ضد كريت، على أن هذه الحملة قضى عليها أعداء الإمبراطور ، وظلت كريت فى أيدى العرب نحو ثلاثين سنة أخرى.[٢]

---

[١] انظر، عليه الجنزورى، هجمات الروم، ص ٥٣-٦٣؛ فازيلييف، العرب والروم، ص ١٨٧-١٩٢.

[٢] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٦٠.

وعهــدت ثيودورا Theodora إلى ثيوكتستوس بقتال المسلمين فى الشرق، غير أنـــه حلــت به الهزيمة أيضاً برا عند ماوروبوتامون Mauropotamon ، عند مدخل البوسفور ولما عاد ثيوكتستوس إلى العاصمة ، أذاع بأن بارداس هو المسئول عما حل بالجــيش البيزنطى من الهزائم، وأن ما ارتكبه من الأخطاء أدت إلى هروب البيزنطيين مــن القتال، وقد لقى التأييد من ثيودورا واضطر بارداس على أثر ذلك إلى أن يغادر العاصمة.[1]

علــى أن مــا حــدث زمــن الواثق ٢٢٨-٢٣٣م/ ٨٤٢ - ٨٤٧م ، الذى تولى الخلافــة بعد المعتصم من الفتن الداخلية فى أنحاء الخلافة العباسية، كالثورة التى شبت فــى دمشــق بتأييد الأمويين، وما وقع فى بلاد العرب من تمرد القبائل، وثورة الأكراد فــى أعالى العراق ، وفتن الخوارج، وما حدث من ازدياد السخط والكراهية للخليفة فى بغــداد بســبب ســوء الإدارة وفسادها، وبسبب الفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن وقدمــه، وحول رؤية الله فى الحياة الآخرة، كل ذلك جعل الخليفة يجنح إلى عقد هدنة مــع البيزنطيــن، ولم تكن أحوال بيزنطة وقتذاك تدعو إلى المضى فى قتال المسلمين بعدما أصابتها الكوارث والهزائم الخطيرة فى صقلية سنة ٨٤٤م/٢٣٠هـ.[2]

ولــذا تقــرر إجــراء تــبادل الأسرى بين الدولتين ٨٤٥ م/٢٣١هــ، على نهر اللامــس بآســيا الصغرى الذى يعتبر حدا فاصلا بين الممتلكات الإسلامية والبيزنطية. ففــى عام ٢٣١هــ/ ٨٤٥ م حدث تبادل للأسرى بين البيزنطيين والمسلمين عند نهر اللامــس، الواقــع بسلوقية، وتولى الإشراف على هذا التبادل من قبل المسلمين خاقان الخــادم الــتركى، وفــيه تــم افــتداء أربعة آلاف وثلاثمائة واثنين وستين من الذكور والإنــاث، وقــيل أن عدد المفتدين أيضا بلغ أربعة آلاف وسبعة وأربعين. جدير بالذكر أنـــه افــتدى فـــي هـــذا الفــداء مسلم بن أبى مسلم الجرمي، الذى يدين له المؤرخون

---

(1) انظر أيضا، فازيلييف، العرب والروم، ص ١٧٢-١٧٤ *Symeon Magister*, p.654;

(2) فازيلييف، العرب والروم، ص ١٧٥-١٨٠.

المحدثـــون بالفضل الكبير لمعلوماته الدقيقة التى وصلتنا عن لسانه عن أحوال بيزنطة ونظمها آنذاك.[1]

ويرتــبط بالقــتال بين المسلمين والبيزنطيين فى الشرق ، ما جرى من اضطهاد البيالصـــة Paulicians. فالمعــروف أن مذهــب البيالصـــة ذاع وانتشر فى سائر آسيا الصـــغرى مـــن فريجـــيا Phyregia وليكاعونيا Lycaonia إلى أرمينيه، وأن أتباع هذا المذهــب عاشـــوا فى هدوء وسلام زمن الأباطرة اللأيقونيين فى القرن الثامن الميلادى ولمـــا اشتهروا به من تحريم عبادة الصور والرسوم والصلبان، واعتبار الذين يقومون بذلك، عبدة أصنام، صار لهم سلطانا كبيرا على الحركة اللايقونية، غير أنه أصابهم ما أصـــاب اللأيقونيين من الاضطهاد زمن ثيوفيل وابنه ميخائيل الثالث ؛ وترتب على هذا الاضـــطهاد أن لجأ إلى حماية أمير ملطية الأمير عمر بن عبيد الله الأقطع ، أحد القادة البيزنطييـــن ويدعـــى قربـــياص، بثيم الأناضول بمن معه من الجند الذين يبلغون نحو خمســـة آلاف رجـــل. والـــراجح أنه كان للبيالصة مناطق فى شمال ملطية وغربها ، وأشهر مدنهم تفريك؛ التى اتخذها البيالصنة حاضرة لهم، وأقام بها زعيمهم .

وإذا أدرك البيالصـــة أن ثيودورا سوف تمضى فى سياسة زوجها ، التى تقضى باضـــطهاد المذاهب المخالفة للأرثونكسية، وأنها هددت البيالصة بالإبادة إذا لم يرجعوا إلـــى الديـــن القويـــم. وأعقبت ذلك بإرسال حملة ضخمة لتنفيذ رغبتها، فجرت المذابح وهلـــك عـــدد كبـــير مـــن البيالصـــة قتلاً أو حرقاً؛ ومن نجا منهم هرب إلى الحدود، واستولت الدولة على ممتلكاتهم. [2]

جديـــر بالذكـــر انه قد وقع فداء للسرى بين المسلمين، في عهد الخليفة المتوكل، والبيزنطييـــن، في عهد ميخائيل الثالث، عام ٨٥٥م/٢٤١هـــ عند نهر اللامس بسلوقية

---

[1] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٧-١٧٨؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٣٥-٣٧.

[2] انظـــر، فازيلييف، العرب والروم، ص ٢٠٠-٢٠٤؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٦١-٢٦٢؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٣٤.

أيضاً، وقد أشرف على هذا الفداء من الجانب الإسلامى شنيف الخادم، وعلى بن يحيى الأرمنى، أمير الثغور الشامية.وتم افتداء حوالى ألفين ومائتى رجل. [١]

وما كادت ثيودورا تعزل من الحكم سنة ٨٥٦م/٢٤٢هـ حتى نشط البيالصة فى التعاون مع المسلمين فى قتال البيزنطيين. إذ أن أخاها بتروناس Petronas ، الذى شغل وقتذاك وظيفة قائد ثيم التراقيسيان تولى قيادة الجيش ، وفى صيف سنة ٨٥٦ م/ ٢٤٢هـ؛ قام بغارات على سميساط وآمد ؛ ثم تقدم لمهاجمة تفريك؛ الذى انحاز إلى أمير ملطية ووالى طرسوس فى الإغارة على أملاك البيزنطيين. وما حدث فى هذه السنة ٨٥٦م/ ٢٤٢هـ من غارات أمير ملطية وأمير طرسوس وانحياز زعيم البيالصة لهما ، إنما يقابله ما قام به الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III، الذى بلغ وقتذاك، سن الرشد، وبصحبته خاله بارداس وبتروناس ، من الاستعداد لقتال المسلمين. فتوجهت الحملة الأولى لمهاجمة سميساط، وتولى قيادتها بارداس، غير أن المسلمين داهموا البيزنطيين ولم ينجح الإمبراطور ميخائيل إلا بصعوبة بالغة . ثم جرى تبادل الأسرى فى شتاء عام ٨٦٠م/٢٤٦هـ .[٢] وقد سمى هذا الفداء باسم فداء نصر بن الأزهر وعلى بن يحيى الأرمنى، وبلغ جملة المفتدين ألفين وثلثمائة وسبعة وستين من الذكور والإناث معا.[٣]

والراجح أن الإمبراطور البيزنطى، هو الذى إقترح ذلك، بعد أن حاقت به الكوارث فى الشرق، وفى صقلية. على أنه ما كادت أسابيع قليلة تمضى على هذا الفداء، حتى خرج الإمبراطور ميخائيل لمهاجمة أملاك المسلمين، غير أن ما ورد من أخبار مهاجمة الروس للقسطنطينية فى يونيه عام ٨٦٠م/٢٤٦هـ جعله يعود لمعالجة الموقف؛[٤] فلما زال الخطر، أرتحل الإمبراطور من جديد إلى الشرق، لقتال عمر

---

[١] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٨؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٣٧-٣٨.

[٢] أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٣٥-٣٣٦.

[٣] المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٨-١٧٩؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٣٨.

[٤] هاجم الروس للمرة الأولى القسطنطينية عام ٨٦٠م، وكان الجيش البيزنطى آنذاك مشغولا في عملياته الحربية في الشرق. إلا أنه اضطر للتخلى عن عملياته العسكرية مع المسلمين والتوجه للدفاع

أمــير ملطــية ، الــذى اســتعد للأمــر وخــرج للحرب. اتخذ الإمبراطور الطريق الإمــبراطورى المعهود الذى يؤدى إلى أعالى الفرات عن طريق أنقرة وسيواس، وأقام معســكره فــى سهل دازيمان، حيث أنزل الأفشين بأبيه من قبل هزيمة ساحقة؛ وصار يرقــب قدوم الأمير من سواس، من الطريق المعهود، غير أن عمر اتخذ طريقاً مختلفاً، وأخــذ البيزنطييــن علــى غرة، وذلك بأن قاد جيوشه صوب الشمال عبر التلال، ولما هبط إلى سهل دازيمون، اتخذ له ولجيوشه موضعاً ملائماً في خوناريون Chonarion، قــرب المعســكر البــيزنطى ، ونشــبت بين الفريقين معركة حاسمة، انتهت بالهزيمة الســاحقة الــتى حلت بالبيزنطيين، وفر الإمبراطور ميخائيل إلى قمة التلال ، فحصره الجــيش الإســلامى فترة من الزمن، غير أن المسلمين لم يلبثوا أن انسحبوا بسبب قلة المؤونة ونفاد الماء.(١)

والــراجح أن عمــر أمير ملطية تقدم، بعد الانتصارات التى أحرزها ، حتى بلغ سينوب ثم عاد بعد ثلاثة سنوات عام ٨٦٣م/٢٤٩هـــ ، فخرب ثيم الأرمنياق ، واستمر فــى ســيره حتى ساحل البحر الأسود ؛ فاستولى على أميسوس Amisus ؛ التى كانت تعتــبر وقــتذاك من أكبر موانى قبادوقيا، على ساحل البحر الأسود، وترتبط بقبادوقيا بطريق ممهد سهل.

ولمــا علم الإمبراطور ميخائيل بما أحرزه عمر أمير ملطية من الانتصارات، أعــد جيشــاً كبــيراً، جعــل على رأسه بتروناس، وجعل أيضاً تحت تصرفه الجيوش البيزنطــية المــرابطة فــى تراقيا ومقدونيا. اتخذ عمر طريقه الممتد على شاطئ نهر هالــيس إلى طوانة والبدندون . وجعل بتروناس خطته على أساس أن يعترض طريقه،

عــن العاصمة البيزنطية. وعلى الرغم من نجاح القوات البيزنطية في تشتيت الروس، إلا أن السكان أصابهم الذعر من هؤلاء الغزاة الجدد. انظر، *Symeon Magister*, pp. 674-675; Zonaras, I., *Epitomae Historiarum*, tome III, ed. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, Bonnae, 1897, p. 404; Jenkins, R., *Byzantium the Imperial Centuries AD. 610-1071*, London, 1966, p. 161; Vasiliev, A., *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD.*, Cambridge, Mass., 1947.

(١) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٦٢-٢٦٣.

ويوقــف تقدمـــه، وأن يطوق عدوه فى الموضع بين بحيرة تطا Tatta وبهر الهاليس. فاجــتمع إلـــى الشمال منه جيوش ثيمات الأرمنياق ، والبقلار، وبافلاجونيا ، وكولونيا، بيـــنما احتشـــد فـــى الجـــنوب والجنوب الشرقى جيوش ثيمات الأناضول ، والابسيق وقبادوقـــيا، يعززها عساكر سلوقية وخرشنة، بينما اتخذ بتروناس ومن معه من عساكر ثـــيمات التراقسيان وتراقيا ومقدونيا مكانه إلى الغرب من طريق الجيش الإسلامى، ولم يكـــن يفصـــل بيـــنه وبين معسكر المسلمين إلا تل ، استطاع بتروناس أن يحتل قمته ، وعلـــى الرغم من أنه جرى تطويق قوات عمر فى هذا الموضع ، غير أنه شن هجوماً خاطفـــاً، كـــان يـــرمى من ورائه إلى أن يشق له طريقاً وسط الجيوش البيزنطية، التى قدرهـــا المؤرخون المسلمون بنحو ٥٠ ألفاً، ليسير نحو الشمال أو الجنوب، غير أنه لم يســـتطع إلى ذلك سبيلاً ، فلقى مصرعه وهو يقاتل عدوه الذى يفوقه فى العدد وأرسلت رأســـه ليطاف بها فى شوارع القسطنطينية.[١] وآخر ما حدث من الحروب فى الشرق زمـــن ميخائيـــل الثالث Michael III ، كان فى سنة ٨٦٤ م/٢٥٠هـــ، حيث لقى على بـــن يحـــيى الرمـــنى، والـــى الـــثغور الشـــامية، مصرعه فى موقعه مارتيروبوليس Martyropolis (ميافارقين) فى أعلى الفرات .[٢]

ولم تتعرض الحدود بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية فى آسيا الصغرى لتغيير كبـــير. غير أن المسلمين أضافوا إلى أملاكهم حصوناً عديدة ، وما هو أهم من ذلك أن رسخت أقدامهم فى قبادوقيا شرق نهر الهاليس .

أمـــا سياســـة ميخائـــيل الثالـــث فى البحر المتوسط ، فالمعروف أن المسلمين بجزيـــرة كريـــت، أخذوا يجوبون بحر الأرخبيل كيفما شاءوا، وحصلوا على ما كانوا يبـــتغون مـــن الغنائم. وتعرضت جزيرة لسبوس للتخريب والنهب . وقد قرر ميخائيل الثالث وبارداس أن يعدا حملة ضخمة لمهاجمة كريت الإسلامية ، وأن تقلع هذه الحملة

---

[١] فازيليـــيف، العـــرب والروم، ص ٢١٨-٢٢٥؛ طارق منصور، الجيش، ص ٤٣٢-٤٣٠ ؛ أسد رستم، الروم، ج١، ص ٣٣٧.

[٢] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٦٤.

مــن شــواطئ ثيم التراقيسيان التى تجتمع بها سائر أساطيل الأقاليم والقوات العسكرية القادمة من الثيمات الآسيوية ، وذلك سنة ٨٦٦ م/٢٥٢هـ، غير أن ما حدث من نجاح المؤامرة التى دبرها باسيل Basil I (الذى صار فيما بعد الإمبراطور باسيل المقدونى)، لاغتــيال القيصـــر بارداس، أوقف سير الحملة إلى كريت. أما فى صقلية، فإن محاولة الأســرة العمورية لاسترداد ما استولى عليه المسلمون من المواقع باءت بالفشل، بل إن إقــدام المســلمين رســخت فى الجنوب الشرقى للجزيرة باستيلائهم على نوتو Noto و Sceicli ، وكذا فى الشمال الشرقى ، باستيلائهم على مرتفعات تاورمينا Tauromeniu، غــير أن ســيراكوزا عاصـــمة الجزيـــرة لـــم تســقط فى أيدى المسلمــين إلا زمن المقدونييــن .[1]

[1] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٢٦٤-٢٦٥.

الفصل الخامس

الأسرة المقدونية والمسلمون



الفصل الخامس

الأسرة المقدونية والمسلمون

وقعت في أواخر عهد الخليفة العباسى المستعين فتناً داخلية فى بغداد وبلاد الخلافة العباسية بسبب تسلط الترك وإرغامهم الخليفة على التخلى عن الخلافة سنة ٨٦٦ م/٢٥٢هـ. فولى الخلافة من بعده الخليفة المعتز، ومنذئذ دخلت الدولة العباسية في دور التداعى والتفكك ، على حين أن الدولة البيزنطية استهلت عصراً جديداً من القوة والتوسع، على أيدى أباطرة الأسرة المقدونية ٨٦٧-١٠٥٦م/٢٥٣-٤٤٨هـ، وذلك بعد أن اغتال باسيل الأول Basil I سيده ميخائيل الثالث وصار إمبراطورا على الإمبراطورية البيزنطية عام ٨٦٧م/٢٥٣هـ.[1]

كان على باسيل الأول أن يواجه تحديات كبرى فرضت على دولته قسرا. وكانت العلاقة مع المسلمين سواء شرق البحر المتوسط أو غربه واحدة من الأمور الملحة، التي كان عليه أن يسرع بعلاجها، وإيقاف الضغط الإسلامي المستمر على الجبهات البيزنطية الخارجية.

جدير بالذكر أن ما وقع من النزاع بين الأمراء اللومبارديين فى جنوب إيطاليا، وما تعرضت له روما من غارات المسلمين، وما حدث من المصادمات بين نابولى والأمراء اللومبارديين، كل ذلك دعا أباطرة الفرنجة أمثال لويس التقى Louis the Pious، ولوثير Lothair إلى التدخل فى شئون إيطاليا؛[2] حيث أرسل الأخير إلى ابنه

---

[1] يشير ا.د. وسام فرج إلى أن هناك عدة عوامل أفضت إلى نهضة الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادى وتتلخص في ١-حالة الضعف العام التى انتابت الخلافة العباسية ونشأة العديد من الدويلات المستقلة. ٢-الاهتمام بالجيش البيزنطى ودقة التنظيم العسكرى آنذاك. ٣-الدماء الفتية التى دخلت في نسيج المجتمع البيزنطى مثل السلاف والأرمن. انظر، وسام فرج، دراسات، ج١، ص ٢٥١ -٢٥٨.

[2] Gay, J., *L'Italie méridionale et l'empire byzantin depius l'avenèment de Basil Ier jusque à la prise de Bari par les Normands 867-1071*, Paris, 1904, p. 60.

لويــس الثانى، ملك إيطاليا، ليحثه على أن توطيد سلطانه فى إيطاليا ، وطرد المسلمين واســترداد مــا استولوا عليه من البلاد.[1] والمعروف أن المسلمين استولوا على بارى Bari وأقــاموا لهــم بهــا أمارة، وصاروا يسيطرون على أبوليا Apulia، حيث خضع لســلطانهم ٢٤ حصــنا، ومــن هــذه الحصون صاروا يشنون الغارات على الجهات المجــاورة؛ وقــد اشــتهرت بارى باستحكاماتها المنيعة.[2] وخرج لويس الثانى لقتال المسلمين في عام ٨٤٧م على رأس جيش كبير لقتال المسلمين، وسار متوجها لبنفينتو. ومع هذا ظلت أبوليا في أيدى المسلمين منذ عام ٨٤٩م وحتى عام ٨٦٦م.[3] ففى ذلك العــام عقد لويس الثانى العزم على طرد المسلمين من إيطاليا، ولما لم يكن لديه أسطول قــوى ، لــم يســتطع لويس أن ينتزع من المسلمين معاقلهم الساحلية، فتعرض لهزيمة ساحقة حينما حاول الاستيلاء على بارى، على الرغم من طول مدة حصاره لها، وذلك ســنة ٨٦٦ م/٢٥٢هــــ. وترتــب على ذلك أن استعان لويس الثانى بكل من البندقية والدولــة البيزنطــية ســنة ٨٦٧ م/٢٥٣هــــ.[4] وفى نفس العام وصلت سفارة سكان دالماشــيا إلــى البلاط البيزنطى ، وقد استبد بهم الرعب من هجمات المسلمين، طالبين تدخــل الإمــبراطور عسكريا لاقتلاع جذور المسلمين من هناك . وقد أحرزت القوات المــتحالفة بعــد ذلك نصراً بحرياً فى تارنت Tarentum التى أقلع منها أو من كريت أســطول إســلامي ليغير فى عام ٨٧٥م/٢٦٢هــ على البندقية، فأحرق ميناء كوماشيو Comacchio الواقــع علــى مصب نهر البو. وتعتبر هذه هى آخر إغارات المسلمين على أعالى البحر الادرياتى.

وعلــى الــرغم مــن أن الدولة البيزنطية بمساعدة البندقية، استطاعت أن تصد الضــربات الــتى وجههــا المسلمون إلى سواحل دالماشيا واليونان والبيلوبونيز ، وأن

---

[1] مــنى محمود السيد، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين في صقلية وجنوب إيطاليا زمن الأسرة المقدونية، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩٦، ص ٣٥.

[2] منى محمود السيد، العلاقات، ص ٣١.

[3] منى محمود السيد، العلاقات، ص ٣٥-٣٦؛ Gay, *L'Italie méridionale*, pp. 66

[4] Gay, *L'Italie méridionale*, p. 95.

تستولى على جزيرة قبرص وتحتلها لمدة سبع سنوات، فإنها لم تستطع أن تبسط سلطانها على الساحل الغربى لإيطاليا. إذ ازداد ضغط المسلمين على امتداد هذا الساحل الإيطالي، فأغاروا على جائيتا Gaeta وسالرنو Salerno، وتعرضت إمارة البابا لهذه الغارات التخريبية، واستنجد البابا حنا الثامن بالإمبراطور شارل الأصلع، وبالدولة البيزنطية ، وبمدن أمالفى Amalfi وجائيتا ونابولى، غير أن دعوته لم تلق اهتماماً محسوساً. فلم تحفل الدولة البيزنطية بمساعدته لما تبين لها من ممالأته للفرنجة ومناوأته لمصالحها ، فضلاً عن تحسن مركزها فى صقلية والشرق . ولم يكن لدى شارل الأصلع قوة بحرية يستطيع أن يبعث بها لرد المسلمين . يضاف إلى ذلك أن مدن كامبانيا حرصت على الإبقاء على صداقة المسلمين فلم يسع البابا ، إزاء كل ذلك، إلا أن يدفع للمسلمين جزية قدرها ٢٥ ألف دينار حتى يستتب الأمن والسلام فى أملاك الكنيسة بوسط إيطاليا. ثم استولى المسلمون على جزيرة مالطة ، التى اشتهرت بموقعها الحربى بجنوب صقلية وفى سنة ٨٧٨ م/٢٦٥هـ سقطت سيراكوزا ، بعد حصار استمر تسعة أشهر، تعرضت أثناءه المدينة لمجاعة شديدة ترتب عليها وباء ، هلك فيه عدد كبير من السكان ، فلم يبق فى يد البيزنطيين إلا تاورمينا Taormina فى شرق الجزيرة؛ على أن ضغط المسلمين لم تتوقف حدته إلا سنة ٨٨٠م/٢٦٧هـ حين ظهر أسطول بيزنطى قبالة صقلية، واعترض طريق التجارة بين المسلمين ومدن جنوب إيطاليا، واستولى على مقادير من الزيت بلغت من الوفرة أن انخفضت أسعار الزيت فى أسواق القسطنطينية. ومن الواضح أن هذا الأسطول اتخذ قاعدته فى ترمينى Termini. وعلى الرغم من أن نابولى عادت إلى سابق تبعيتها لبيزنطة بسبب قوة هذا الأسطول، فإن نشاط المسلمين البحرى لم يتوقف فى المياه الغربية، بل أنهم اتخذوا لهم قاعدة بحرية فى سنة ٨٨٢ أو ٨٨٣ م ، فى مونت جارجليانو Monte Garigliano .

وقد ترتب على قوة بيزنطة البحرية فى تلك الجهات ، أن تقرر عقد هدنة فى سنة ٨٨٥ م/٢٧٢هـ بين المسلمين فى صقلية وبين البيزنطيين. وفى نفس السنة استطاعت بيزنطة أن تنزل فى جنوب إيطاليا جيشا ضخما بقيادة نقفور فوقاس Nicephor Phocas. وتقرر إنشاء ثيمى كالابريا وأبوليا ، بينما اعترفت بنفنتو بسلطة

بـــيزنطة علـــيها، وجرت على نهجها سائر مدن كامبانيا؛ فأضحت بيزنطة بهذا، وسط الإمــارات الإيطالـــية الصغيرة المتعادية ، العامل الوحيد الذى يمثل القوة والاستقرار. وهــذه الأمور تفسر ما اتخذته البابوية من اتجاه طيب نحو بيزنطة فى الأمور الكنسية آنذاك.[١]

أمــا عن العلاقة بين البيزنطيين والمسلمين فى الشرق بعد ذلك، فالواقع أنه تهيأ لباســيل الأول ٨٦٧-٨٨٦م/٢٥٣-٢٧٣هـــ من الأحوال المواتية لقتال المسلمين ما لم يتهـــيأ لإمبراطور قبله ، فإلى جانب ما يربطه من علاقات سلمية مع جيرانه المسيحيين (ارمينـــية، روسيا وبلغاريا ، والبندقية والإمبراطورية الغربية) ، سادت الفتن الداخلية فـــى أنحـــاء العـــالم الإســـلامى ، فازداد نفوذ الترك فى دار الخلافة العباسية ببغداد ، واســـتقل أحمـــد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨م/٢٥٤هـــ ، ونشبت الحرب الداخلية فى شـــمال إفريقـــية، واشـــتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس، ومع ذلك لم يتحقق للإمبراطورية البيزنطية كل ما تصبو إليه من آمال .

والمعـــروف أن البيالصـــة ازداد نفوذهم فى الشرق ، وانتشروا فى سائر أنحاء آســـيا الصـــغرى . وفـــى ســـنة ٨٧٢م/٢٥٩هـــــ توجهـــت حملـــة بقيادة كريستوفر Chrestopher، صـــهر الإمـــبراطور باســـيل الأول والقـــائد العام للجيش ، لقتالهم ، فأحرزت انتصارا حاسما على البيالصة ، ودمرت معقلهم فى تفريك ، وخربت ما كان لهم من استحكامات عديدة ، وبددت قواتهم فى معركة حامية، هلك فيها زعيم البيالصة المدعـــو خريســـوخير Chrysocherius . وترتـــب علـــى هـــذا الانتصار أن واصل البيزنطيون الزحف نحو الشرق . فاندفع باسيل بجيشه، حتى بلغ إقليم الفرات، فاستولى ســـنة ٨٧٣ م/٢٦٠هــــــ، علـــى زبطـــرة وسميساط، ومع ذلك تعرض باسيل لهزيمة ســـاحقة، حين حاول الاستيلاء على حصن ملطية الذى يعتبر من المعاقل الهامة. وعلى الـــرغم مـــن أن باســـيل اكتفى بهذا الانتصار الجزئى فى هذه الحملة، وفيما تلاها من الحمـــلات التى توجهت إلى أقاليم الفرات والى أطراف طوروس، فإن عمله يعتبر بداية

---

[١] عن هذه الأحداث بالتفصيل انظر، منى محمود، العلاقات، ص ٣٦-٤٣.

مــرحلة جديــدة مــن مــراحل الزحف والتقدم المنتظم ، التى قامت به الإمبراطورية البيزنطــية على الأطراف الشرقية. يضاف إلى ذلك أن ما أصاب الدولة الإسلامية من الضــعف، أســهم فى نمو أرمينية، إذ اعترف بسلطة آشوط الأول وقرر اعتباره ملكاً، كل من الخليفة، سنة ٨٨٥ م/٢٧٢هـ، والإمبراطور البيزنطى سنة ٨٨٧ م/٢٧٤هـ، فكان ذلك الاعتراف بداية بمرحلة من مراحل توسع أرمينية زمن الأسرة البجراطية.

لم تكن لبيزنطة من القوة ما تستطيع بها مواجهة المسلمين فى الشرق والغرب . والمعــروف أن بــيزنطة ارتبطــت بأرمينية، زمن باسيل المقدونى، بنوع من التحالف والعلاقــات الوديــة، منذ زمن ملكها أشوط الأول، وصارت أرمينيا تعتبر دولة حاجزة ضــد المســلمين فى الشرق. غير أن أرمينيه لا زالت تعترف للمسلمين بالسيادة. ومن الدلــيل علــى ذلــك، مــا كانــت تدفعه من جزية سنوية للخليفة العباسى ، وضرورة الحصــول على موافقة الخليفة عند تنصيب ملوكهم. وفى سبيل المحافظة على السلام ، حرص أشوط على أن يعقد محالفات مع سائر الملوك والأمراء المجاورين. فتوجه إلى القســطنطينية لمقابلة الإمبراطور ليو الفيلسوف Leo VI (ليو السادس ٨٨٦-٩١٢م/ ٢٧٣-٣٠٠هــ) ، الــذى قــيل عنه ، أنه ينحدر من أصل أرمنى. ووقع ليو السادس والملــك أشــوط معاهدة سياسية وتجارية. وأمد الملك أشوط الإمبراطورية البيزنطية بكتيبة أرمينية ، تسانده فى الحرب ضد البلغار .

وما كاد أشوط يقضى نحبه وتولى مكانه ابنه سمبــاد الأول Sambat I (٨٩٢-٩١٤) ، حتى نشبت الحرب الداخلية فى البلاد ، وانحاز كثير من الأمراء ، إلى جانب المســلمين فى أذربيجان، الذين يكرهون أرمينية . وتطلع سمباد إلى المساعدة الخارجية مــن قــبل البيزنطيين . على أن أرمينية تعرضت لمهاجمات المسلمين المستمرة، ولم يســتطع الإمبراطور البيزنطى أن ينهض لمساعدة أرمينية، وحينما توجه ليو السادس علــى رأس حملــة لتقديم المساعدة للأرمن ، مات قبل أن تصل إليهم النجدة، ولم تلبث أرمينية أن خضعت لحكم المسلمين سنة ٩١٤م/٣٠٢هــ .[١]

---

[١] انظر، الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص٢٩٣-٢٩٤، ٣٢٩-٣٣٠ .

وعلى الرغم مما حدث من نشوب خلاف وشقاق بين البيزنطيين ، بسبب مشكلة زيجـات الإمبراطور ليو السادس الأربع،[1] أصبح النضال بين البيزنطيين والمسلمين شاقا ومضنيا. ففى الأربع عشرة سنة الأولى من حكم ليو السادس ، من سنة ٨٨٦ إلى سـنة ٩٠٠ م/٢٨٨هـ، تعـرض البيزنطـيون لهزائم عديدة فى الشرق، عند أبواب قيليقـية، وفـى غرب قيليقية ، حيث أدى انتصار المسلمين إلى أن يزحفوا على امتداد الساحل، وأن يتوغلوا فى جوف آسيا الصغرى. وما حل بالبيزنطيين من الهزيمة براً ، وما تعرضوا له من الهزيمة بحراً سنة ٨٩٨م/٢٨٥هـ عند Raghib تجاه شاطئ آسيا الصـغرى، أجبر الحكومة البيزنطية على أن تستدعى من إيطاليا قائدها الشجاع نقفور فوقـاس ، فقـدم إلـى آسـيا الصغرى سنة ٩٠٠م/٢٨٨هـ . وما أحرزه نقفور من انتصـار فـى أذنه سنة ٩٠٠م/٢٨٨هـ لم يترتب عليه منع إغارات المسلمين ووقف هجماتهم .

أمـا عن الوضع بين القوتين البيزنطية والإسلامية فى إيطاليا وصقلية فقد أخذت الأمـور فـى صـقلية تزداد سوءاً ، سنة بعد سنة ، فعلى الرغم من الجهود التى بذلها باسـيل الأول ، لتوطيد النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا ، وإفادته من التزام المسلمين بصـقلية الهـدوء ، فى توجيه البحرية البيزنطية لمواصلة نشاطها فى البحر التيرانى ، فـإن هـذا الهدوء لم يكن إلا ظاهرياً. إذا أعقب وفاة باسيل سنة ٨٨٦ م/٢٧٣هـ، أن

---

[1] توفيـت الامبراطورة ثيوفانو زوج ليو السادس عام ٨٩٣م، ثم لحقت بها زوجته الثانية زوى عام ٨٩٦م. وفـى عام ٨٩٩م تحدى ليو القوانين الكنسية وتزوج للمرة الثالثة من ايدوكيا الفريجية، التى سـرعان ما توفيت عام ٩٠٠م. وقد تحدى ليو البطريرك نيقولا مستيكوس وتزوج للمرة الرابعة من زوى كاربونسـينا. وتعقـدت المشكلات بين ليو السادس والبطريرك، الذى رفض هذه الزيجة وقطع شـركة لـيو من الكنيسة؛ فما كان من ليو إلا أن عزله من منصبه وعين مكانه البطريرك ليثيميوس. وتجـدر الإشـارة إلى ان البابا في روما اجاز هذه الزيجة ، مما تسبب في مشكلات بينه وبين كنيسة القسـطنطينية. لمـزيد مـن التفاصيل انظر، وسام عبد العزيز فرج، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس، الإسكندرية، ١٩٩١، ص ٣٥-١٤٢؛ Oinkonomidès, N., "La dérniere volonté de Léon VI au sujet de la tétragamie", *BZ*, 56(1963), pp. 46-52; Karlin-Hayter, P., "La prehistoire de la dérniere volonté de Léon VI", *B*, 33(1963), pp. 251-252.

عــاد المسلمون بصقلية إلى الهجوم ، فأغاروا فى سنة ٨٨٨ م/٢٧٥هــ على كالابريا (قلورية) وأقلعت قوات بحرية بيزنطية ، نحو الغرب ، إلى ريجيو (ريو) ، وإلى مدينة مســينيا ، وبالقــرب مــن ميلاص Milazzo ، تجاه الساحل الشمالى لجزيرة صقلية ، التقت بأسطول إسلامى ضخم ، فحلت الهزيمة بالقوات البيزنطية ، وتعرض الأسطول البــيزنطى للتدمــير . وتقــرر سنة ٨٩٥ م/ ٢٨٢هــ، عقد هدنة بين الفريقين، وبذلك فقدت بيزنطة كل ما لها من سلطان على مياه صقلية وغرب إيطاليا .[1]

والســنوات الأولــى مــن القرن العاشر الميلادى ، اشتهرت بما أصاب الدولة البيزنطــية من الهزائم ، إذ استولى أبو العباس إبراهيم بن الأغلب ، فى سنة ٩٠١ م/ ٢٨٩هـــــ علــى ريجيو فى كالابريا ، بينما قاد إبراهيم بن الأغلب ، الذى تنازل لابنه عــن حكــم أفريقــية ، حملة ضخمة سارت براً وبحراً فى سنة ٩٠٢ م/٢٩٠هــ، من بالــرمو لمهاجمــة آخر ما تبقى فى صقلية من الأملاك فى يد البيزنطيين، التى لم تتعد مديــنة تاورمينا (طبرمين) وما يجاورها، والتى لم تلبث أن سقطت فى يد المسلمين. ثم واصــل إبراهــيم بن الأغلب المسير إلى كالابريا. غير أن موته المفاجئ فى كوسنزا Cosenza، أنقذ إيطاليا من المصير الذى تعرضت له تاورمينا، إذ أن الجيش الإسلامى عــاد إلــى صــقلية. وعلــى الرغم من أن بيزنطة لا زالت تملك بعض المواضع فى صــقلية، فــإن هذه المواضع لم يكن لها أهمية فيما بعد ، فى تاريخ بيزنطة . فمنذ سنة ٩٠٢ م/٢٩٠هــــ، مــا جــرى من الحوادث بصقلية لم يكن لها أثر فى توجيه الأمور السياســية فــى بــيزنطة.[2] ومــا سار عليه ليو السادس فى سياسته مع المسلمين فى الشرق، لا ترتبط مطلقاً بعلاقاته مع المسلمين فى صقلية.

وقــد اشــتهرت أيضاً السنوات الأولى من القرن العاشر الميلادى ، بما وقع من حــوادث كبــيرة الأهمية . إذ أن المسلمين فى الشرق لم يسيطروا فحسب على البحر المتوســط ، بل بسطوا سلطانهم على بحر ايجه ، الذى تحيط به الممتلكات البيزنطية.

---

[1] منى محمود، العلاقات، ص ٤٤-٤٥؛ عزيز أحمد، صقلية الإسلامية، ص ٢٣.

[2] انظر، منى محمود، العلاقات، ص ٤٥، ٤٩-٥٥؛ عزيز أحمد، صقلية الإسلامية، ص ٢٤.

فجـــزر بحـــر الأرخبـــيل، وســـاحل البيلوبونيز، وتساليا ، تعرضت باستمرار لغارات المســـلمين المخربة . واشترك عادة ، الأسطولان الإسلاميان ، فى الشام وكريت ، فى هـــذه الغارات. ففى عام٨٨٧م/٢٧٤هـــ غزا يازمان والى طرسوس بلاد الروم، حيث ســـبى وغـــنم وعـــاد ظافرا إلى طرسوس.(١) وفى عام ٨٨٨م/٢٧٥هـــ شن المسلمون إغـــارة بحـــرية على بيزنطة بقيادة يازمان، والى طرسوس، واستطاع أن يستولى على أربـــع مراكب بيزنطية، وعاد سالما إلى طرسوس.(٢) وفى عام ٨٩١م/٢٧٨هـــ هاجم يازمان أيضا مدينة سلنده Salandu الواقعة على الساحل الغربى لقيليقية.(٣) وفى الفترة مـــن ٨٩١-٨٩٣م/ ٢٧٨-٢٨٠هـــ استولى المسلمون على جزيرة ساموس وأسروا قائدهـــا الاســـتراتيجوس باسبالاس Paspalas. أما في عام ٨٩٨م/٢٨٥هـــ فقد فقد شن الخصـــى راغـــب إغـــارة بحرية ناجحة، أسر فيها ثلاثة آلاف بحار بيزنطى ، بعد أن هـــزمهم فـــي الـــبحر وأحرق سفنهم.(٤) وفى سنة ٩٠١ م/٢٨٩هـــ ، أغار الأسطول الإسلامي بقيادة داميانوس Damianus ، على جزائر بحر ايجه ، وأنزل الدمار بمدينة ديمـــترياس Demetrias ، الواقعة فى تساليا ، والتى اشتهرت بكثرة عدد سكانها ووفرة ثـــروتها. وقد رد البيزنطيون على هذه الإغارة بإغارة برية-بحرية عام ٩٠١م/ ٢٨٩ هـــ على الأراضى الإسلامية. وقد وصلت أنباء الهزيمة إلى بغداد مع التجار القادمين مـــن الـــرقة، حيـــث أفـــادوا أن البيزنطيين وصلوا برا وبحرا إلى قيسوم الواقعة في منتصـــف الطريق بين مرعش وسميساط. وقد أسر البيزنطيون ما يقرب من ١٥,٠٠٠

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٦٢.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٦٥؛ Tougher, S., *The Reign of Leo VI 886-912*, Brill, 1997, pp. 185.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ٧١؛ Tougher, *Leo VI*, p.185.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٦٩؛ Tougher, *Leo VI*, p.185.

تجـــدر الإشارة على أنه حدث فداء للأسرى بين المسلمين والبيزنطيين عام ٨٩٦م/٢٨٣هـــ وعرف باســـم فداء ابن طغان، أمير الثغور الشامية خمارويه بن احمد بن طولون، وفودى فيه ٢٤٩٥ اسيراً. انظر، المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٩؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٣٩.

مــن المســلمين. وقــد رد المسلمون سريعا على هذا الهجوم بأن استولوا على جزيرة ليمنوس وأسروا سكانها في عام ٩٠٢م/ ٢٩٠هــ.(١)

وفــي ســنة ٩٠٤ م/٢٩٢هـــ هاجمــت جيوش بيزنطة، بقيادة أندرونيقوس دوقاس، أراضى منطقة الثغور الإسلامية، حيث قصدت حصن الحدث فخربته وغنمت وســلبت وأســرت ثم عادت أدراجها. ويبدو أن رد المسلمين جاء أسرع مما يتوقع ليو الحكــيم، فقد قام أسطول إسلامى بقيادة ليو الطرابلسى Leo of Tripolii أو كما يطلق علــيه البعض "ليو غلام زرافة" ، وهو يونانى اعتنق الإسلام ، بالهجوم في نفس العام علــى الســاحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وفى شهر يوليه من هذه السنة استولى على مديــنة أطاليا Attalia الهامة. ثم عزم ليو على أن يقصد القسطنطينية ليستولى عليها ، فاجــتاز فعــلاً الدردنــيل إلى بحر مرمرة واستولى على أبيدوس ، التى تعتبر الميناء الرئيســى، للسفن عند مضيها إلى القسطنطينية، حيث يقع بها الديوان (الجمرك) . غير أن لــيو لــم يلبــث أن ارتحــل فجأة ، واستدار مع شبه جزيرة خلقيديقا Chalcidice وانقــض علــى مديــنة سالونيك التى اشتهرت بنشاطها التجارى والثقافى ، والتى تلى القســطنطينية فــى الأهمــية والثروة ، وانحاز إلى أسطوله سفنا إسلامية من كريت ، واســتخدم فــى هذا الهجوم قاذفات اللهب ، فأحرز انتصاراً حاسماً ، ووقع فى يده من الســبى نحــو ٢٢ ألفــاً ، من الذكور والإناث ، فباعهم فى أسواق الرقيق فى الخندق وطرابلس ، فضلاً عن الغنائم.(٢)

---

(١) Tougher, *Leo VI*, pp. 185-186.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٠٩. وانظر الدراسات الحديثة التالية،

Tougher, *Leo VI*. pp. 184, 186-187; Livadas, A., "Some Questions of Medieval Nautical Technology in Kameniates' "Sack of Thessloniki" (904 AD.)", *Graeco-Arabica*, 6(1995), pp. 145-151; Farag, W., "Some Remarks on Leo Tripoli's Attack on Thessalonikii", *BZ*, 82(1989), pp. 133-139; Christides, V., "Once again Cameniates' "Capture of Thesslaoniki", *BZ*, 74(1981), pp. 7-10; Každan, A., "Some questions addressed to the Scholars who believed in the Authenticity of Kameniates' ", *BZ*, 71(1978), pp. 301-314.

وقــد رد البيزنطيون على هجوم ليو الطرابلسى الناجح على تسالونيك، بأن قاد أحــد القادة البيزنطيين ويدعى اندرونيقوس دوقاس جيشا أغار به على مرعش في نفس العام.(١) وقد انتهى القتال بينه وبين مسلمو الثغور بقيادة رستم بن بردو بإجراء تبادل للأسرى، حيث عرف هذا الفداء باسم فداء رستم، وبلغ عدد المفتدين من المسلمين ألف ومائــتى نفــس.(٢) وقــد أطلــق المسلمون على هذا الفداء اسم فداء الغدر، نظرا لأن البيزنطييــن عــادوا ببقية الأسرى المسلمين بعد أن افتدى المسلمون ألف ومائتى نفس فقط.(٣)

ومــا أصاب الدولة البيزنطية من ضربات قاصمة ، ردها إلى صوابها ، فعملت علــى إقامة استحكامات قوية فى تسالونيك وأضاليا ، واتخذت من التدابير الفعالة ، ما يــزيد فــى قوة الأسطول . ولم تلبث هذه القوة الجديدة أن ظهرت آثارها ، إذ استطاع الوزيــر هيمــيريوس Himerius ، أن يحــرز فى سنة ٩٠٦م/٢٩٤هــ انتصاراً باهراً علــى المسلمين.٤ وفى نفس العام أرسل ليو الحكيم إلى الخليفة العباسى المكتفى يساله إجــراء فــداء للأسرى بين الطرفين، وذلك على أثر انضمام البطريق اندرونيقوس إلى صف المسلمين، وهزيمة القوات البيزنطية في منطقة الحدود الإسلامية-البيزنطية. وقد استجاب الخليفة لطلبه، ووقع الفداء، الذى عرف باسم فداء التمام، وأشرف عليه رستم، وفــيه افتدى المسلمون ١٨٤٢ نفساً من الذكور والإناث.(٥) وفى سنة ٩١٠م/٢٩٨هــ ، نزل هيميريوس بجنده فى جزيرة قبرص ، ومن ثم تحول لمهاجمة ساحل الشام ، حيث اقتحم مدينة اللاذقية.(٦)

---

(١) Tsougarakis, *Byzantine Crete*, p. 51.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١١١.

(٣) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٩-١٨٠؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤٠-٤١.

(٤) Malamut, *L'iles*, p. 82.

(٥) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٧٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١١٧؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤٠.

(٦) الــباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٣٢-٣٣٣؛ Tsougarakis, *Byzantine Crete*, pp. 53-54

وفـــي ســـنة ٩١١م/٢٩٩هــــ أرسلت بيزنطة حملة عسكرية لاسترداد كريت أسندت قيادة الأسطول فيها إلى ألبطريق واللغثيث هيميريوس. وقد بلغ عدد البحارة فى الأســطول الإمبراطوري وأساطيل الولايات البحرية البيزنطية التى اشتركت فى الحملة ٣٣٧ و ٣٣ بحـــاراً ، كما ضمت أعداداً كبيرة من السفن الحربية البيزنطية بلغ عددها أكـــثر من ٢٤٥ قطعة ما بين كبيرة وصغيرة . وكانت هذه الأعداد من السفن والبحارة موزعة على النحو التالى :

أولاً : الأســـطول الإمـــبراطورى : تكـــون هذا الأسطول من ٦٠ درومونه وبلغ بعضـــها مـــن الضخامة أنه كان للسفينة الواحدة من ٢٠٠-٢٣٠ مجداف وبلغت حمولة الولحـــدة مـــنها ٧٠ مقاتلاً . إلى جانب ٤٠ بامفيليه تحمل كل منها من ١٣٠ إلى ١٦٠ مقـــاتلاً ، و ٧٠ زورقاً حربياً "روسوس" . وبلغ عدد البحارة فى هذا الأسطول ١٢ ألف بحارا بيزنطيا ، ٧٠٠ بحاراً من الروس ، ٥٠٣٧ بحاراً من المردة .

ثانـــياً : أســـاطيل الولايات البحرية البيزنطية : وقد اشترك ثيم كبيرايوت فى هذه الحملـــة بأســـطول كبـــير مكون من ١٥ درومونه ، ١٦ بامفيليه ، وكان يضم ٦٦٠٠ بحاراً . وتألف أسطول ثيم ساموس من عدد غير محدد من الدرمونات ، بالإضافة إلى ٢٠ بامفيليه ، ٥٠٠٠ بحاراً . أما أسطول ثيم بحر إيجة فقد اشتمل على ٧ درومونات، ٧ بامفيلـــيات ، ٤٠٠٠ بحـــاراً كمـــا تكون ثيم الهيلاس من ١٠ درومونات ، ولم يذكر الإمبراطور قسطنطين السابع عدد البحارة العاملين فى هذا الأسطول .[1]

وقـــد أسندت قيادة الجيش فى هذا الحملة إلى القائد البيزنطى رومانوس ليكابينوس وتكـــون هـــذا الجيش من الفرسان والمشاة ، أما الفرسان فقد بلغ عددهم ٦و٠٣٧ فارساً جمعـــوا مـــن ثـــيمات مقدونياً والتراقيسيان والأرمنياق . وبلغ عدد المشاه ١٢٩ . ٣١ رجـــلاً، من بينهم ٥٠٢ . ١٢ من القادة والجنود من الجيش الإمبراطورى ، ٧٦٠ . ٦

(1) Constantine Porphyroginetus, *De Ceremoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Resikii, *CSHB*, Bonnae, 1840, II, pp. 651-660; Tsougarakis, *Byzantine Crete*, pp. 54-55; Malamut, *L'iles*, pp. 83-85;
اسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ٢٠٦ وما بعدها.

رجـل من الكشافة والمقاتلين من ثيم ساموس ، كما أرسل ثيم البحر الإيجى ١٠٠ . ٣ من الكشافة والمقاتلين ، إلى جانب ٠٨٧ . ٤ كشافاً ومقاتلاً من المرده .

هـذا ، وقـد أنفقـت مـبالغ طائلـة على أعداد هذه الحملة ، وساق الإمبراطور قسـطنطين السـابع أمثلة من العطاءات الإضافية Rogas التى صرفت للقادة والجنود الذيـن اشـتركوا فـى الحمـلة والتى تحملتـها كلها الخزينـة الإمبراطـورية ، وقد مـنـح البحـار الذى ينتـمى إلى الأسطـول الإمـبراطورى ٦٦ نومـيزما[١] ، ١٣ ليرة[٢] ، وتقاضى البحار الروسى فى الأسطول الإمبراطورى ٤٣ نوميزما ، ٥٩ ليرة، على حين تناول كل بحار من العاملين فى أساطيل الولايات ٢٤ نوميزما ، ٨٣ ليرة .

أما بالنسبة لعطاءات الفرسان والجنود المشاه المشتركين فى الجيش الإمبراطورى وجيوش الولايات ، فكانت على النحو التالى :

الفرسـان : لـم يذكـر الإمـبراطور قسـطنطين عطـاءات الفرسـان بالجيش الإمبراطورى أما الفارس الذى ينتمى إلى ثيم مقدونيا فكان عطاؤه ٤٢٣ نوميزما ، ٤١ لـيره . وتقاضـى الفـارس من ثيم التراقيسيان ٢٤ نوميزما ، ٨٠ ليرة ، أما الفارس الأرمينى فقد منح ٤٨ نوميزما ، ٤١ ليرة .

---

[١] النوميزما ، هى عملة ذهبية بيزنطية ، وكانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين (١/٧٢ من الرطل من الذهب ، وكانت النوميزما تنقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، التى تنقسم بدورها إلى اثنى عشر فلسا ، انظر، رانسمان، الحضارة البيزنطية ، ص ٢١٠ .

[٢] اللـيرة ، هى عملة ذهبية استعملت فى الدولة البيزنطية ، وكانت تسك على أساس اثنين وسبعين قطعـة من الذهب ، وهى تساوى ٣٢٧ جراماً من الذهب ، ويستطرد المؤرخ موريس لومبار فى تعريفه بالليره قائلاً "أى أنها هى الصلدى المعروف فى الاصطلاح القسطنطينى بالصلدى الذهبى ، أو الديـناريون الذهبى ، ومنه اشتق المسلمون عملتهم الذهبية أو الدينار" انظر ، لومبار، الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية، ترجمه/ توفيق اسكندر، منشور فى كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٦ .

المشاه : تقاضى كل قائد بالجيش الإمبراطورى عدد غير محدد من النوميزمات ، ٩٠ ليره ، ومنح الجندى فى هذا الجيش ٣٢ نوميزما ، ٦٩ ليره . وبلغ عطاء الجندى الواحد فى ثيم ساموس ١١ نوميزما وليره واحدة أما الجندى الذى ينتمى إلى ثيم البحر الإيجى فتقاضى ٣ نوميزمات ، ٥٤ ليره وبلغ عطاء الجندى من المرده ٣٢ نوميزما ، ٦٦ ليره .

هذا إلى جانب كميات هائلة من أدوات القتال ، من السيوف ، والحراب والسهام والدروع والخوذ الحديدية والشوك والكلاليب ، والمواد الملتهبة والمنجنيقات وغيرها من الآلات التى استخدمها الجيش والأسطول البيزنطى فى الحرب .

ومن العرض السابق يتضح مدى استعدادات هذه الحملة الكبيرة التى فاقت ما قبلها من حملات أرسلتها بيزنطة ضد كريت . ورغم أن الإمبراطور قسطنطين السابع أفاض فى ذكر استعدادات هذه الحملة ، إلا أنه أشار بصورة سريعة إلى الاشتباكات التى حدثت بينها وبين الكريتيين . ولم تمدنا المصادر الأخرى بما يفيد فى هذا المجال. وقد ذكر الإمبراطور قسطنطين أن الحملة أبحرت إلى كريت فى صيف عام ٩١١ م/ ٢٩٩هـ، لكنه لم يحدد التاريخ الدقيق لإبحارها ، ووصل هيميريوس أمام كريت دون أن يواجه صعوبات تذكر لكنه لم يستطع النزول إلى أرض الجزيرة ، نظراً للمقاومة الشديدة التى قابلها من المسلمين ، ففرض الحصار عليها ، واستمر محاصراً لها لمدة ثمانية شهور وقعت خلالها بعض الاشتباكات بين الطرفين كان التفوق فيها للمسلمين . وإذ تملك هيميريوس اليأس ، رفع الحصار وانسحب من أمام كريت . وفى طريق عودته إلى بيزنطة ، طارده أسطول الشام بقيادة ليو الطرابلسى ، والتقى الطرفان فى معركة كبيرة بالقرب من جزيرة ساموس فى ربيع عام ٩١٢م /٣٠٠هـ ، ألحق فيها المسلمون بالبيزنطيين هزيمة ساحقة ودمروا العدد الأكبر من أسطولهم ، واستطاع القائد رومانوس ليكابينوس أن ينقذ البقية الباقية من جيشه بصعوبة بالغة . أما هيميريوس فقد نجح فى الفرار إلى جزيرة ميتلين ، واختفى بها لبعض الوقت ، وحين عاد إلى بيزنطه كان الإمبراطور ليو السادس قد توفى في ١٢ مايو ٩١٢م وخلفه على

العــرش شقيقه الإمبراطور الإسكندر Alexandre ، الذى أمر بإدخال هيميريوس الدير، ليقضى به بقية حياته عقاباً له على هزيمته.[١]

والواقــع أن الوقفــة الصامدة التى وقفتها كريت فى وجه القوات البيزنطية التى استمرت فى حصارها للجزيرة لمدة ثمانية شهور كاملة ، توضح مدى القوة التى كانت تتمــتع بها الجزيرة وقتذاك ، وإن كانت المصادر المعاصرة والمتأخرة لم توضح ذلك صراحة .

تجدر الإشارة إلى أن الإمبراطورية البيزنطية ظلت حتى سنة ٩٢٧م/٣١٥هــ منصــرفة إلــى النضــال ضد سيميون البلغارى Symeon في الجبهة الغربية. أما فى الجــبهة الشــرقية ، فــإن ما بذلته الإمبراطورية من نشاط ، اقتصر على اتخاذ تدابير دفاعــية، أو شن إغارات وقائية؛ شن البيزنطيون إغارة على الثغور الجزرية عام ٣٠٣ هــــ/٩١٥م، كما هاجموا حصن مرعش بواسطة مليح الأرمنى، حيث اسروا عددا من المســلمين.[٢] وفــى العــام الــتالى رد المسلمون على هذه الاغارة، حيث أغاروا على ملطــية، وفــتحوا عــددا من الحصون.[٣] إلا أن بيزنطة لجأت بعد ذلك، ربما بسبب حــروبها فــي البلقان، إلى سياسة الإفادة من التحالف مع أرمينيه ، والمحافظة على ما بيــن بــيزنطة والدولة الإسلامية، من السلام والهدوء. فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين بورفيروجنيتوس عام ٣٠٥هـــ/٩١٧م إلى الخليفة العباسى المقتدر يطلب منه عقد هدنة وتبادل الأسرى بين الطرفين؛ وربما كان هذا الطلب بسبب الأحداث المشتعلة فــي الــبلقان والقتال ضد البلغار، والذى انتهى بهزيمة البيزنطيين في موقعة انخيالوس عــام ٩١٧م، الــتى هلــك فيها الجيش الببيزنطى.[٤] ووافق الخليفة العباسى على طلب

---

(١) اسمت غنيم، كريت الإسلامية، ٢١٠-٢٠٦.

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٥٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٥٧.

(٤) انظــر، Runciman, *Bulgarian Empire*, pp.159-161; Fine, J., *The Early Medieval Balkans*, Michigan, 1993, pp. 149-150.

البيزنطيين، بعد ان اكرم وفادة رسل الإمبراطور البيزنطى.[1] وقد عرف الفداء الذى تم بين الطرفين باسم فداء مؤنس، نسبة إلى مؤنس الخادم، وكان عدد المفتدين ٣٣٣٦ رجلا وامرأة.[2]

ويبدو أن الأحوال العامة التى كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية، داخليا وخارجيا، وازعاج المسلمين الدائم للبيزنطيين بصوائفهم وشواتيهم،[3] جعلت الإمبراطور رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus، الوصى على عرش قسطنطين بورفيروجنيتوس Constantine Porphyroginetus، يسير على سياسة المهادنة مع المسلمين، حيث ورد رسول الإمبراطور البيزنطى على الخليفة العباسى طالبا الفداء.[4] وقد جرى فداء الأسرى بين الطرفين عام ٣١٣هـ/٩٢٥م عند نهر اللامس، وعرف هذا الفداء باسم فداء مفلح، نسبة إلى مفلح الخادم. وقد تم افتداء ٣٩٨٣ أسيرا من الرجال والنساء.[5]

غير أن بيزنطة ما كادت تتخلص من الخطر البلغارى في البلقان، حتى شرعت فى أن تتخذ خطة الهجوم فى الشرق . وتولى تحقيق هذه الخطة القائد الشهير يوحنا كوركواس Jean Caurcuas. وأفاد الدومستق كوركواس من الأحوال السيئة التى تعرضت لها الدولة العباسية وقتذاك. إذ أن القرامطة هددوا العراق، بل بغداد ذاتها، ونشبت ثورات القادة والأمراء. وما حدث فى دار الخلافة من الفتن، منع جانباً كبيراً من الجيش الإسلامى من القيام بأى مجهود حربى .

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٥٨-١٥٩.

(2) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٨٠؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤١-٤٤.

(3) وقعت إغارات متبادلة بين الطرفين أعوام ٣٠٦هـ، ٣١٠هـ، ٣١١هـ. انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٦١، ١٧٢، ١٧٥.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٨١.

(5) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٨٠؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤٤.

علـــى أن المنطقة المحيطة بجبال طوروس ، ظلت محافظة على ما سادها من الهـــدوء والاستقرار ، بينما غدت أرمينية وأعالى الجزيرة مسرحاً للقتال بين البيزنطيين والمســـلمين . وأول مـــا أحرزه البيزنطيون من نجاح كبير تحت قيادة الدومستق وقائده ملـــيح الأرمنى ، يتمثل فى استيلائهم على ملطية عام ٣١٤هـــ/٩٢٦م، التى ظلت دائماً هدفـــاً للمحاولات البيزنطية المتكررة ، بفضل ما اشتهرت به من أهمية، إذ أنها تواجه ثـــيم ليكاندوس عند البيزنطيين.[١] غير أن سعيد بن حمدان أمير الموصل وديار بكر ، لم يلبث أن استردها فى سهولة ويسر .

ويـــبدو أن هـــذا النصر شجع البيزنطيون على المضى قدما في غزو الأراضى الإسلامية، ففى العام التالى ٣١٥هـــ/٩٢٧م مباشرة غزا الدومستق الأراضى الإسلامية حـــتى وصـــل إلـــى مديـــنة دبيل، وكان قد أحضر معه الدبابات الخشبية العملاقة التى تســـتخدم في الحصار، وكذلك المنجنيقات والزراقات، التى كانت تستخدم لزرق النيران علـــى المسلمين، التى كانت نيرانها من أشد الأشياء على المسلمين، على حد تعبير ابن الأثـــير. وعلـــى الـــرغم من طول القتال وشدته إلا أن الغلبة كانت للمسلمين في نهاية المطاف، وقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف من البيزنطيين.[٢]

وفـــى عـــام٣١٦هـــ/٩٢٨م حاول مليح الأرمنى الاستيلاء على ملطية، إلا أنه فشـــل فـــي هـــذا. وفى عام ٣١٧هـــ/٩٢٩م ضعفت الثغور الجزرية ولم تعد تتحمل ضـــغوط البيزنطيين العسكرية المستمرة، فكتب أهل ملطية وميافارقين وآمد ،ارزن إلى الخلـــيفة المقـــتدر ليشـــد أزرهـــم بالجند وإلا اضطروا للدخول في طاعة الإمبراطور البـــيزنطى؛ إلا أن الخلـــيفة العباســـى لم يعرهم الاهتمام اللازم بإرسال قوات إسلامية لمساعدتهم.[٣] وقد ترتب على هذا الأمر أن سلمت ملطية للبيزنطيين مفاتيحها.[٤]

---

[١] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٨٥.

[٢] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٨٩-١٩٠.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ١٩٩، ٢٠٧.

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢١٧.

وفى عام ٣١٩هـ/ ٩٣١م غزا ثمال، والى طرسوس، آسيا الصغرى في إغارة وصلت إلى عمق اسيا الصغرى، حيث حاصر عمورية بإقليم الأناضول، ودخلها وغنم منها الكثير؛ ثم واصل سيره حتى وصل إلى مدينة انقرة . وقد حاول البيزنطيون الرد على هذه الغزوة بان حاصروا ملطية إلا انهم فشلوا في فتحها آنذاك.(١)

وقد استولى القائد البيزنطى الدومستق يوحنا كوراكوس على ملطية من جديد سنة ٩٣٤م/٣٢٣هـ،(٢) فأضحت منذ ذلك التاريخ، حتى سنة ١١٠١م من أملاك الإمبراطور الخاصة. غير أن كوركواس وجد نداً خطيراً، يتمثل فى أمير الموصل وحلب ، سيف الدولة الحمدانى، الذى تولى عبء الجهاد ضد البيزنطيين. وصار لزاماً على البيزنطيين لمواجهة هذا العدو الجديد، أن يدخلوا فى علاقات ودية مع الخليفة العباسي ببغداد، ومع الاخشيديين بمصر.(٣) فقد أرسل الإمبراطور البيزنطى رومانوس ليكابينوس رسالة إلى الخليفة العباسى الراضى عام ٩٣٧م/٣٢٦هـ يطلب فيها المهادنة وتبادل الأسرى بين الطرفين؛ وقد وافق الخليفة على طلب الإمبراطور البيزنطى وتم الفداء بين الطرفين،(٤) وعرف هذا الفداء باسم فداء ابن ورقانى، نسبة إلى ابن ورقاء الشيبانى. وقد تم افتداء ٦٣٠٠ وربما أكثر، من الرجال والنساء.(٥)

على أن سيف الدولة أحرز فى سبتمبر سنة ٩٣٨ م/ ٣٢٧هـ انتصاراً باهراً على يوحنا كوراكوس فى إقليم أعالى الجزيرة ، فى موضع يقع بين حصن زياد وحصن سلام . ثم غزا سيف الدولة أرمينية ، وأرغم عدداً كبيراً من الأرمن والكرج على الاعتراف بسيادته . وبعد أن اجتاز الأراضى التى خضعت له ، ظهر فى بلاد

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٢١٦-٢١٧..

(٢) ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٤٣.

(٣) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٤٠٥.

(٤) انظر نص الرسائل في ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٥) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ١٨٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٢٦٨؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤٥-٤٦؛ ليلى عبد الجواد إسماعيل، علاقة دولة الروم بمصر عصرى الطولونيين والاخشيديين، القاهرة، ١٩٨٨، ص ٧٦-٧٧.

أرمينية البيزنطية، فخرب الجهات المجاورة لكولونيا Kolonea سنة ٩٤٠ م/٣٢٩هـ. ومـا قـام به سيف الدولة الحمداني من الحروب إنما قصد بها منع بيزنطة من فرض سـيطرتها علـى أرمينـية ، ومن استعادة الأرض التي استـولت عليـها في إقلـيم الجزيـرة ،[1] فذاع اسمه في العالم الإسلامي، لا على أنه أمير حلب بل على أنه بطل الجهـاد ضد البيزنطيين . على أن ما حدث من منازعات داخلية في دار الخلافة ، منع سـيف الدولـة عن المضي في غزواته ، فعاد كيما يستأنف التدخل في أحوال الخلافة ببغداد.[2]

وفـي تلـك الأثـناء هاجمـت القـوات الروسـية بقيادة زعيمهم ايجور Igor القسـطنطينية مرتيـن ، الأولـى في عام ٩٤١م/٣٣٧هـ ، وانتهى هذا الهجوم الأول بهزيمة القوات الروسية وارتدادها إلى كييف[3] ؛ وفي عام ٩٤٤م/٣٣٣هـ قرر أيجور شن هجوم ثان على القسطنطينية ليعوض به خسارته في الهجوم الأول ، ويحصل على امتـيازات تجاريـة من وراء ذلك الهجوم المزمع القيام به . وقد استطاعت بيزنطة أن توقـف استكمال ايجور لذلك الهجوم وتقدمه نحو القسطنطينية ، بلجوءها إلى الدبلوماسية والهدايـا والرشـاوى البيزنطـية . وتم عقد اتفاقية تجارية – سياسية بين الطرفين عام ٩٤٤م/٣٣٣هـ.[4]

---

[1] عن هذه الحروب انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣١٢.

[2] Ostrogorsky, *Byzantine State*, pp. 244-245;

الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

[3] *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, Eng. trans.& ed. by S. H Cross & O. P. Sherbawitz - Wetzor, Cambridge, Mass., 1953 , p. 72; *Cedrenus*, G., *Historiarum Compendium*, ed. I. Bekker, *CSHB*, II, Bonnae, 1838, pp. 316 – 317; Runciman, *S., The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, Cambridge, 1963, pp. 112-113.

[4] *R.P.C.*, pp. 73–78.

انظر أيضاً، طارق منصور، الروس والمجتمع الدولي، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٦-٤٠ .

ولا شــك أن هــذه الاضطرابات على الجبهة الشمالية البيزنطية أدت إلى تهدئة الأوضاع على الجبهة الشرقية والتركيز على الجبهة الشمالية .

وبعــد أن أنــزل يوحنا كوراكوس الهزيمة بالروس على البوسفور ، توجه مرة أخــرى نحــو الشــرق ، ليواصل القتال فى إقليم الجزيرة ، فاستولى على ميافارقين ، وآمد، ودارا ، ونصيبين . ثم ولى وجهه نحو الرها ، التى اشتهرت بما احتفظت به من المقدســات الدينــية ، وأهمهــا صــورة المسيح وهو يقوم بالمعجزات ، وهى الصورة المرتبطة بأسطورة الأبجر . ولما اشتد حصار البيزنطيين للرها ، قبلت المدينة أن تسلم المــنديل المقــدس الذى لم تصنعه فى اعتقادهم يد إنسان ، فجرى نقله إلى القسطنطينية باحتفال كبير فى أغسطس سنة ٩٤٤م .

وبفضــل جهود يوحنا كوراكوس ، ازداد امتداد الطرف البيزنطى نحو الشرق ، وأضــحى لبــيزنطة من المكانة والهيبة فى آسيا ، ما مهد الطريق للهجوم الشديد على الدولة الإسلامية .

فــى أواخر عهد رومانوس الأول ، وفى أثناء الفترة التى انفرد فيها قسطنطين بــالحكم ، كــان كل الاهتمام موجهاً إلى قتال المسلمين فى الشرق . ففى السنوات التى تلت عزل يوحنا كوراكوس وسقوط رومانوس ليكابينوس ، أحرز المسلمون انتصارات باهــرة علــى البيزنطيين على أيدى سيف الدولة الحمدانى . والمعروف أن الحمدانيين ينــتمون إلى قبيلة بنى تغلب ، وأن زعيمهم عبد الله بن حمدان استطاع أن يحصل من الخلــيفة المكــتفى على الموصل سنة ٩٠٥ م/٢٩٣هــ، واتخذ ولداه حسن وعلى لقبى ناصــر الدولــة وسيف الدولة . وأقام سيف الدولة لنفسه إمارة جعل حاضرتها حلب ، وذلــك ســنة ٩٤٤م/٣٣٣هــــ ، بينما بقى ناصر الدولة فى الموصل . وامتدت أملاك ســيف الدولة من طرسوس إلى أرمينية . ولما أصبحت حلب مقراً لسيف الدولة تحول القــتال الرئيسى بين المسلمين والبيزنطيين من جهة أرمينية إلى جهة جديدة امتدت من قيليقــية حــتى ديــار بكر . ومن المعروف أن الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة على الفــرات تقــع فــوق سميســاط ، وتمــر بين حصن منصور وزبطرة ، وفوق الحدث

ومرعش ، وقد انبعث سلسلتى جبال طوروس حتى أبواب قيليقية ونهر اللامس ، واتجهت من ناحية نحو الشمال إلى شرقى سميساط فأرمينية[1] .

وفى سنة ٩٤٤م/٣٣٣هـ انتصر سيف الدولة على البيزنطيين بالقرب من مرعش ، وانتصر عليهم أيضاً سنة ٩٤٧م ، وكان برداس فوقاس قائداً آنذاك للجيش البيزنطى ، الذى ضم جنداً من المرتزقة الروس والبلغار .

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من الحرب المستمرة بين الحمدانيين والبيزنطيين ، جرى التفاهم بين الفريقين سنة ٩٤٥م/٣٣٤هـ على تبادل الأسرى عند نهر اللامس ، على أن هذا الترتيب جرى فى الوقت الذى لم يعد فيه لسيف الدولة سلطان على إقليم الثغور ، بل كان الأخشيد ، حاكم مصر ، هو صاحب السيطرة فى هذه الجهات . ولعل الإمبراطور البيزنطى هو الذى اقترح إجراء تبادل الأسرى ، على أن بعض المؤرخين يشيرون إلى أن الأخشيد هو الذى عرض هذا الاقتراح ؛ ومهما يكن من الأمر ، فإن الدافع لذلك كان إنسانياً. غير أن ما حدث سنة ٩٤٦م/٣٣٥هـ، من وفاة الإخشيد واستبداد خليفته كافور بالأمر، أدى إلى أن يخرج والى الثغور على طاعة الدولة الإخشيدية، وأن يعلن انتماءه إلى سيف الدولة الحمدانى ، وترتب على ذلك أن المفاوضات جرت بين الحمدانيين والبيزنطيين بشأن تبادل الأسرى .[2]

وفى سنة ٩٤٩م/٣٣٨هـ استولى البيزنطيون على مرعش ، واستمروا فى زحفهم حتى طرسوس .[3] وفى سنة ٩٥٠م/٣٣٩هـ ، خرج سيف الدولة غازياً فى أراضى الدولة البيزنطية ، فحشد ثلاثين ألف مقاتل ، واصطحب ثلاثة من الشعراء ، المتنبى وأبا فراس وأبا زهير المهلهل ، وانضم إليه أربعة آلاف مقاتل من طرسوس ،

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٣ .

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٢٤؛ المسعودى، التنبيه والاشراف، ص ١٨١؛ حامد زيان، الأسرى المسلمون، ص ٤٦-٤٨؛ ليلى عبد الجواد، علاقة دولة الروم بمصر، ص ٧٧-٧٨.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٣٠-٣٣١.

فاستولى على بعض الحصون ، ووقع فى يده قدر كبير من الغنائم ، وكثير من الأسرى . ثم أراد العودة إلى حلب نظراً لحلول فصل الشتاء فتوجه جنوباً ، غير أن البيزنطيين بقيادة الدمستق ليو ابن فوقاس حشد جيشه فى منطقة خرشنه ، وأسرعوا إلى جبال طوروس يكمنون لسيف الدولة ، فاستقروا فى درب الجوزات ، بين البستان والحدث ، وضيقوا على سيف الدولة المسالك ، فتخلى عنه عدد من الجند ، وهلك عدد من عساكره ، واسترد البيزنطيون الغنائم والأسرى ونجا سيف الدولة فى عدد يسير من جنده .[1]

وما قام به سيف الدولة من تشييد الاستحكامات وإقامة الأسوار حول المدن التى تقع على الطرق المؤدية إلى حلب ، مثل زعبان ، وتل خالد ، وما حدث من رد هجمات البيزنطيين بقيادة قسطنطين بن فوقاس سنة ٩٥٢م/٣٤١هـ ، دفع البيزنطيون إلى أن يوجهوا هجومهم إلى الجزيرة ، فهاجموا حصن آمد ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم بفضل جهود أميرى ميافارقين وآمد ، ونهض سيف الدولة وفاجأ الدمستق فوقاس وأنزل به هزيمة ساحقة .

وتعتبر الحملة التى قام بها سيف الدولة سنة ٩٥٣م/٣٤٢هـ فى الأملاك البيزنطية من أهم الحملات التى تدل على ما اشتهر به سيف الدولة من الإقدام والبسالة وسرعة البت فى الأمور ، وشدة الذكاء . إذ جعل هدفه هذه المرة ، إقليم ملطية الذى يعتبر مصدر خطر على إقليم الجزيرة ، الذى أغار عليه فى سنة ٩٥٢م/٣٤١هـ الدمستق فوقاس . ولما بلغ حران واطمأن إلى ولاء قبائل الجزيرة ، توجه إلى دلوك حيث كان فى انتظاره سائر قواته وعساكره ، ثم عبر فروع نهر الفرات ونهر سنجه ، وانتهى إلى سفح جبال طوروس ، واتخذ طريقه إلى درب القلة ، لكى يصل إلى زبطرة التى كانت وقتذاك فى يد البيزنطيين ، فنهب أرباض زبطره ، وعرقه وملطية. ثم جرت معركة عنيفة بين قسطنطين فوقاس وسيف الدولة قرب ملطية ، فأنزل سيف الدولة بالبيزنطيين هزيمة ساحقة . ولما علم أن الدمستق أغار على الشام ، قرر أن

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٣٥.

يعـــترض طريق عودته ، فاتخذ طريقه إلى مرعش وعلى الرغم من أنه لم يكن معه إلا ٦٠٠ فـــارس ، فإنـــه أحـــرز انتصاراً باهراً ، وأخذ من البيزنطيين ما كان بيدهم من الغنـــيمة والأســـرى . وأصاب الدمستق فوقاس الجراح فى وجهه ، ومن بين الأسرى الذيـــن وقعـــوا فى يد سيف الدولة قسطنطين بن فوقاس ، الذى جرى حمله إلى حلب ، ولم يلبث أن مات بها . وعلى الرغم من أن سيف الدولة أحسن معاملة قسطنطين ، فقد شـــاع فى القسطنطينية بأنه مات مسموماً ، وترتب على ذلك ما جرى من إساءة معاملة الأسرى المسلمين هناك[1].

وفـــى ســـنة ٩٥٤م/٣٤٣هــ ، وبينما كان سيف الدولة يشرف على ما يجرى تشـــييده مـــن الاســـتحكامات حول حصن الحدث ، واجه جيشاً ضخماً بقيادة الدمستق فوقـــاس ، تـــألف من عناصر عديدة : من الأرمن والترك والروس والبلغار والصقالبة والخـــزر ، فاشتد القتال بين الفريقين ، فهلك من جيش فوقاس ثلاثة آلاف مقاتل ، ووقع عـــدد كبـــير من الأسرى فى يدى سيف الدولة ، واستطاع فوقاس أن ينجو بنفسه ، بأن اخـــتفى ، على حد الرواية العربية فى سقاية بالحدث ، ومن الأسرى جماعة من أقارب الدمستق والبطارقة[2] .

وترتـــب على الهزيمة الساحقة التى حاقت بالبيزنطيين ، أن أرسل الإمبراطور قســـطنطين ســـفارة إلى سيف الدولة سنة ٩٥٥م/٣٤٤هــ تلتمس منه الصلح ، غير أنه رفـــض أن يســـتجيب لرجائه ، وتبددت المحاولة الأخيرة التى قام بها فوقاس لمهاجمة ســـيف الدولة، وعلى الرغم من الصفات الطيبة التى اشتهر بها الجيش البيزنطى ، التى بفضـــلها أحـــدث ثغرات فى أسوار حصن الحدث ، ومنع الاتصال بين السكان وسائر القـــوى الإسلامية فى الخارج ، فإنه كان يفتقر إلى القيادة الرشيدة والتنظيم السليم . وما اشـــتهر به سيف الدولة من البسالة وشدة المراس فى الحرب ، منع بارداس فوقاس من

---

[1] انظر ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية، ص ٣٦٥ – ٣٦٦ .

[2] ابن الأثير ، الكامل ، جــ٦، ص ٣٤٦-٣٤٧.

تحقيق أغراضه، فلم تمتد الحدود البيزنطية إلى غير ما كانت عليه قبل حلول سيف الدولة بحلب[1] .

ولم تعرف تماماً التاريخ الذى قرر فيه الإمبراطور قسطنطين الاستغناء عن خدمة بارداس فوقاس بسبب كبر سنه ، وإحلال ابنه نقفور مكانه فى شئون الحرب والقتال . إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن هذا التغيير حدث فى سنة ٩٥٤ م/٣٤٣هـ. وفى زمن هذا القائد الجديد ، وبفضل مساعدة أخيه ليو ، جرى الجيش البيزنطى على السياسة التى انتهجها كوركواس ، والتى ترمى إلى مد أطراف الدولة البيزنطية فى الشرق على حساب الحمدانيين . جعل له الإمبراطور مطلق الحرية فى تصريف الشئون الحربية ، فاستعان بعدد غير قليل من خيرة القادة العسكريين أمثال : ليوفوقاس، ويوحنا تزيمسكس ، وباسيل ليكابينوس . وفى سنة ٩٥٦ – ٩٥٧م/٣٤٥-٣٤٦هـ حدثت موقعة بحرية ، أحرز فيها باسيل قائد ثيم كيبرايوت البحرى ، الانتصار على أهل طرسوس للمسلمين . وأعقب هذا الانتصار ، أن توجه يوحنا تزيمسكس فى يونيه ٩٥٨م/٣٤٧هـ لقتال أهل الجزيرة ، فانطلق نحو آمد ، وأرزان ، وميافارقين ، واستسلمت للبيزنطيين الحدث فى يونيه سنة ٩٥٧م/٣٤٦هـ ، وفى سنة ٩٥٨م/٣٤٧هـ استولى يوحنا تزيمسكس بعد معركة عنيفة على سميساط فى شمال الجزيرة ، وبلغ من شدة حرص الإمبراطور قسطنطين بإعداد الحملة وتجهيزها واهتمامه بها ، أنه فى سبيل أن يكون حر التصرف ، عقد معاهدات صلح مع الأمم المجاورة للإمبراطورية ، أمثال البلغار والروس والمجريين ، والفرنجة ، بل مع الخليفة المعز الفاطمى أيضاً ، الذى كان يحكم وقتذاك فى شمال أفريقية . وما أحرزه البيزنطيون من الانتصارات فى الشرق ، وما وقع من النزاع بين معز الدولة صاحب بغداد ، والحمدانيين فى الجزيرة والشام ، شجعهم على المضى فى الزحف إلى أن تجاوزوا نهر دجلة . غير أن الانتصارات لم تلبث أن بددها ما لحق الأسطول البيزنطى من هزيمة ساحقة حينما حاول استرداد جزيرة كريت من المسلمين .

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٦ .

والمعروف أنه بفضل ما كان لكريت من موقع ممتاز ، باعتبارها شديدة القرب من شبه جزيرة المورة ، وجزر بحر الأرخبيل ، وما صار لها من سيطرة على ناكوس Naxos التي أصبحت تؤدى لها الجزية ، صار قراصانها يجوبون خلال بحر ايجة ، وأضحى ميناؤها وكراً للقراصنة ، وبفضلها جرى التقارب بين طرسوس وطرابلس الشام ، ومصر وصقلية ، وأفريقية ، ولم يعد للبيزنطيين سلطاناً فى بحر إيجة أو البحر المتوسط[1] .

ومـا أحرزه قسطنطين السابع فى السنوات الأولى من حكمه من الانتصارات على المسلمين فى الجزيرة وفى أرمينية ، شجعه على أن يعمل على أن يأخذ بالثأر لما أصابه من الكوارث ، وأن يعيد إلى جزيرة كريت أسقفها الشرعى ، الذى اتخذ مقره منذ ١٢٥ سنة فى سالونيك .

ففى سنة ٩٤٩م/٣٣٨هـ ، أعد قسطنطين أسطولاً ضخماً يتألف من ١٣٧ سفينة كبيرة ، وشحن بهذا الأسطول زهرة ما تحويه ثيمات أوربا وآسيا البيزنطية من قوات . فبلغ عدد البحارة نحو ٩٧٠٧ منهم ٦٢٩ من الروس ، و ٣٦٨ من التلماخيين Talmachess و ٧٠٠ أسير من مختلف الأجناس و ٣٠٠٠ من المردة بالغرب و ١٥١٢ من ثيم كبيرايوت والمردة بالشرق . أما القوات البرية فاشتملت على ٤٧٤٣ جندى ، منهم خيرة جند الحرس الإمبراطورى ، وجند ثيمى مقدونيا وتراقيا ، وصقالبة الأبسيق ، وأرمن من ثيمى الأناضول والتراقيسيان . وأنفق فيهم نحو ٣٧٠٦ من الأرطال الذهبية. يضاف إلى ذلك مقادير كبيرة من أدوات البحرية والحصار والقتال حسب رواية قسطنطين نفسه فى كتاب عن المراسم[2] .

وأرسل قواتا بحرية أخرى لمراقبة المسلمين فى أسبانيا وأفريقية ، ولمنعهم من النهوض لمساعدة المسلمين فى كريت ولتحقيق ذلك بعثت الحكومة البيزنطية بأسطول

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

[2] Constantine Porph., *De Cer.*, II, pp. 664-678; Tsougarakis, *Byzantine Crete*, pp. 57-60;

انظر ايضاً ، اسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

صغير مكون من ثلاث شلنديات وأربع درومونات تحمل الواحدة منها ٢٢٠ مقاتلاً ، بقيادة البروتوسباثاريوس يوحنا ، لمراقبة سواحل شمال أفريقية . كما أرسلت ثلاث سفن حربية من النوع المعروف باسم أوسيا ، إلى سواحل الأندلس لنفس الغرض . أما مسلمو المشرق فقد اتخذت إجراءات مماثلة حيالهم ، وقامت بهذه المهمة أربع درومونات ، وأوسيا واحدة ، وتولى القيادة العامة على هذه القطع البحرية ستيفانوس ، شقيق هيلين زوجة قسطنطين السابع ، وقد رابطت هذه القوة بالقرب من جزيرة رودس(١) .

وحتى لا يقع أى هجوم إسلامى على القسطنطينية أو غيرها من السواحل البيزنطية أثناء غزو هذه الحملة لكريت ، فقد خصصت أربع وعشرون أوسيا وبامفيلية واحدة لحراسة العاصمة البيزنطية ، كما خصصت سبع أوسيات لحراسة سواحل دراخيوم ، ودالماشيا ، وثلاثة أخريات لحماية ساحل كالابريا الواقعة فى أقصى الطرف الجنوبى من إيطاليا(٢) . وجعل على رأس هذه القوة الحربية الضخمة البطريق قسطنطين جونجيل Constantine Gongylesl من أساطين الحكومة البيزنطية زمن وصاية زوى Zoe . وكان وقتذاك قائداً لثيم ساموس . غير أنه لم يستطع بعد أن نزل فى كريت ، أن يقوم بتحصين معسكره ، أو يتخذ حراساً له أو يبعث برجال الاستطلاع، فانقض المسلمون على البيزنطيين ، وأمعنوا فيهم القتل والذبح واستولوا على المعسكر وكاد قسطنطين أن يقع فى أيدى المسلمين لولا أن حال دون ذلك غلمانه واستطاع أن يفر على ظهر إحدى السفن(٣) . وترتب على هذه الهزيمة الساحقة ، أن تعرضت سواحل الإمبراطورية لغارات القرصنة الكريتيين ، وصار لزاماً على نقفور فوقاس أن يستعيد كريت ، وأن يمضى فى الزحف نحو الشام .

---

(١) اسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٢٦ .

(٢) Constantine VII, *De Cere.*, p. 665.

(٣) *Cedrenus*, II, p. 336.

انظر أيضاً ، اسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٢٧ ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٩ .

وفــى أثــناء هــذا العــداء المريــر الطويــل الأمــد ، بين الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية ، زمن قسطنطين السابع ، لم تعقد بين الدولتين إلا معاهدة أو معاهدتان للصلح .

وعلــى الــرغم مــن ذلك ، اتسمت العلاقات بين بيزنطة والمسلمين فى الشرق بروح العطف والمحبة ، ولعل السر فى ذلك يرجع إلى ما استولى على البيزنطيين من الخــوف والهلــع مــن قرصنة كريت ، والشام ، ومخاطرة ليو الطرابلسى ورفاقه من السـودان . ومــع ذلــك فــإن للمسلمين فى الشرق مكانة خاصة عند البيزنطيين ، لما اشتهروا به من الرقة والمدنية ، ولما أقاموه من حكومة حازمة ، خضع لسلطانها سائر الــناس ، لهــا من صفة السلطان المطلق ما للدولة البيزنطية ، ولذا كان المسلمون فى الشــرق لهم من المكانة عند بيزنطة ما جعلتهم فى مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين فى الغرب[1] .

علــى أن قسطنطين السابع حرص على أن يثير روح الحرب والقتال فى نفوس رعايــاه ، وصــار دائماً يضرب لهم المثل بما يجرى عند المسلمين ، من أنهم يدأبون علــى تجهــيز أنفســهم للجهاد فى سبيل الله ، وأنه يسهمون بأموالهم فى إعداد الفقراء وتجهــيزهم بالســلاح . وأخذ يحض الناس ، بأن أشار بأن من لم يحمل منهم السلاح ، فكــيف يــبادر بالمســير لقتال المسلمين ؟ فينبغى على البيزنطيين أن يزودوا من يقاتل عوضاً عنهم بالسلاح وأسباب المعيشة ، ومن يفتقر من المقاتلين إلى السلاح أو الخيل، أو المــؤن ، أو الزرد ، تحتم على الذين لم يشتركوا فى الحرب أن يمدوهم بكل ذلك . ولــذا غلــب علــى الحروب البيزنطية فى القرن العاشر الطابع الدينى ، إذ صار من واجــب كــل مسيحى أن ينهض لقتال "هؤلاء المسلمين ، أعداء سيدنا المسيح" . فأحاط باســترداد المــنديل المقــدس بالرها من المظاهر الدينية الضخمة ما يضارع أشهر ما أحــرزته بــيزنطة مــن الانتصــارات . وهذه الروح الدينية أثارت القادة والجند على الســواء، فاعتــبرهم المعاصــرون "حمــاة المسيحية وحفاظها" ، إذ أنهم بفضل حماية

---

(1) الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٩ .

المسيح ورعاية العذراء كانوا يقاتلون ، وأنهم على استعداد لأن يخوضوا المعارك ، وقد حملوا راياتهم التى تزينها صور القديسين المقاتلين[1] .

ووقع زمن قسطنطين السابع حوادث خطيرة فى الشرق ، حيث جرى الاستيلاء علـى ملطية سنة ٩٣٤ م/٣٢٣هـ ، وعلى الرها سنة ٩٤٤م/٣٣٣هـ ، وعلى مرعش سنة ٩٤٩ م/٣٣٨هـ، وعلى ديار بكر سنة ٩٥٠ م/٣٣٩هـ ، وعلى آمد سنة ٩٥٧م/ ٣٤٦هـ ، وعلى سميساط سنة ٩٥٨م/٣٤٧هـ . وترتب على كل ذلك أن امتد الحد البيزنطى إلى ما وراء الفرات . وما أصاب باسيل الأول من هزائم جرى استدراكها ، وأضحى الطريق مفتوحاً أمام البيزنطيين إلى طرسوس ، وأنطاكية ، وقبرص ، وبيت المقدس .

أمـا العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين بالأندلس ، فلم تكن تتسم بالعداوة والكراهية . وما تعرضت له الدولة البيزنطية من هجمات المسلمين فى الشرق ومصر ، وما كان من نزاع وتنافس دينى وسياسى بين الأمويين فى الأندلس من جهة، وبين الفاطميين والعباسيين ، أدى إلى التقارب بين بيزنطة والأندلس . ولذا جرت السفارات بين قسطنطين السابع وعبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م/٣٠٠هـ-٣٥٠ هـ) . إذ قدمت سفارة أندلسية إلى القسطنطينية ٩٤٦م ، وأرسل قسطنطين من قبله مبعوثاً إلـى أسبانيا سنة ٩٤٩م/٣٣٨هـ . ولعل السر فى تبادل هذه السفارات يرجع إلـى أن قسطنطين فكر وقتذاك فى إعداد حملته الكبيرة ضد جزيرة كريت ، فأراد بهذه السفارة إما أن يحصل على مساعدة الخليفة الأموى ، أو على الأقل يضمن حياده[2].

كـان بـلاط القسـطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصـاله بهـا ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، فى مقدمة الساعين إلى توثيق

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

[2] محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، جـ٢ ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ٤٥٢-٤٥٦ .

الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففى سنة ٣٣٦هـ /٩٤٨م [1]، وفدت على الناصر رسل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع بورفيروجنتوس ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تلقى ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية فى هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطئ لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقربة من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتيين ياسراً وتماماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولى العهد الحكم ، فى ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفى اليوم الحادى عشر من ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس فى بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الجند بالسلاح فى أكمل شكل ، وزين القصر الخلافى بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السرير الخلافى بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالاً ، ورتب الوزراء فى مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل السفراء البيزنطيين ، فبهرهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التى يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسى أبو داود سليمان بن حسان المعروف "بابن جلجل" الذى عاش فى عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان فى مقدمة هدايا أرمانيوس ملك الروم إلى الناصر سفران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثانى نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيس) مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم، وأقاصيص الملوك السابقين . وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب فى رق ذى لون سماوى باللغة

---

[1] ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٧١؛ المقرى، أحمد بن محمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج١، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٤١؛ ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج٢، بيروت، ١٩٥٠، ص ٣١٩.

اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبه بنفس اللغة ، فيها وصف لهدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبى ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان فى ترجمة عنوان الكتاب فى سطر منه : "قسطنطين ورمانين المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم" ، وفى سطر آخر صيغة التوجيه : إلى "العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه" .[1] وذكر لنا ابن جلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر فى شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن فى قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب فى خطابه إلى "أرمانيوس" فيما بعد ، أن يرسل إليه برجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إلى براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان فى بلاط قرطبة من يجيدها. وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام فى ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجموا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو على القالى وافد العراق وضيف الخليفة – وكان قد وفد على الأندلس فى سنة ٣٣٠هـ /٩٤١م ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة فى نفس المعنى ، فأثار بذلاقته وثبت جنانه ، أيما إعجار ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فاتحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد فى وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

---

[1] المقرى، نفح الطيب، ج١، ص ٣٤٤-٣٤٥.

مقالى كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل

بقلب ذكى ترتمى جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل

فما دحضت رجلى ولا زل مقولى ... ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل

وقد حدقت حولى عيون أخالها ... كمثل سهام أثبتت فى المقاتل

لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو فى العصور الأوائل

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس أو رجاء لنائل

فعش سالماً أقصى حياة مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل

ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل[١]

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة والقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين .[٢]

وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلقى ضوءاً كبيراً على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلاقات الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التى رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن

---

(1) انظر، المقرى، نفح الطيب، ج١، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه السفارة انظر، ابن خلدون، ج٤، ص ١٤٢-١٤٣؛ المقرى، نفح الطيب، ج١، ص ٣٤١-٣٥٠، ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب، ج٢، ص ٣١٩.

ابـن الحكم[1] لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتها المشتركة. وربما كانت تـرمى فـى الوقـت نفسـه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمـية الفتـية ، الـتى بدأت تزعج البيزنطيين فى أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها فى المغرب الأقصى .

علـى أن البيزنطييـن اشتبكوا فى حرب ضد المسلمين الذين إحتلوا فراكسنتوم Fraxinet بجـبال الألـب فى بروفانس . غير أن بيزنطة ، زمن رومانوس ليكابينوس تحالفـت فـى سـنة ٩٤١م/٣٣٠هـ مع ملك إيطاليا هيو البروفانسى Hugues de Provence ، وأمدتـه بأسـطول . وبفضـل هذه المساعدة حلت الهزيمة بالمسلمين ، وتخلـوا عـن فراكسنتوم ، واتخذوا لهم مواضع فى جهات أخرى بجبال الألب.[2] غير أنهـم لـم يلبثوا أن أثاروا بيزنطة بتعرضهم لتجارتها ، فتوجهت إليهم حملة لتأديبهم ؛ وفـى سـنة ٩٥٦م/٣٤٥هـ، تم الصلح بين هؤلاء المسلمين والبيزنطيين وجرى تبادل الهدايـا ، وفـى نفس السنة تم عقد الصلح بين المسلمين فى شمال إفريقية (الفاطميين) وقسطنطين السابع .

أمـا العلاقات بين البيزنطيين والفاطميين ، فإنها انعكست فى صورة القتال الذى دار فـى صقلية وسردينية وجنوب إيطاليا . فالمعروف أن الفاطميين فى صقلية ، كانوا شبه مستقلين عن الفاطميين فى القيروان . ولم يكن أمير صقلية معيناً من قبل الخليفة ، بـل اخـتاره الجـند العربى أو البربر الذين يتألف منهم حامية الجزيرة . وحاول أمير صـقلية أن يحصـل على تقليد من الخليفة العباسى ، ونجح فى ذلك سنة ٩٦٠ م/٣٤٩ هـ، بعد أن فشلت محاولتان فى سنتى ٩١٧م/٣٠٥هـ ، ٩٤٣م/٣٣٢هـ[3] .

---

[1] عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص ٤٥٦.

[2] لويـس، ارشـيبالد ، القـوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة/ أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٣٤ .

[3] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٧١ .

أضحت صقلية من أشد ممتلكات الدولة الفاطمية تعرضا للخطر البيزنطى ، وهى لا تقل فى ذلك عن ثيم لنجوبارديا أو كالابريا التابعين للدولة البيزنطية ، وتعرضهما للخطر الإسلامى .

ولما تعرضت الدولة البيزنطية سنة ٩١٧ م/٣٠٥هـ ، زمن وصاية الإمبراطورة زوى، لخطر سيميون البلغارى وهزيمة الجيش البيزنطى في أنخيالوس، تم الاتفاق بين بيزنطة والفاطميين، الذين استعادوا مركزهم فى صقلية، وبمقتضى هذا الاتفاق تعهدت بيزنطة بأن تدفع للخليفة الفاطمى جزية سنوية قدرها ١٢ ألف نوميزما. وما كاد الفاطميون يوطدون حكمهم فى صقلية سنة ٩١٧ م/٣٠٥هـ، حتى أخذ المسلمون فى صقلية وإفريقية يغيرون على أملاك بيزنطة، بعد أن امتنعت عن دفع الإتاوة ، فتعرضت كالابريا فى سنتى ٩١٨م/٣٠٦هـ، ٩٢٤م/٣١٢هـ للهجوم الإسلامي، الذى تركز على ريو Reggio . وفى سنة ٩٢٥ م/٣١٣هـ، جرى نهب اوريو Orio، وأدرك حاكم كالابريا آخر الأمر، أنه من الخير أن يتعهد من جديد بدفع جزية سنوية قدرها ١١ ألف قطعة ذهبية، حتى يأمن غارات المسلمين . على أن الفاطميين انصرفوا إلى جهات أخرى ؛ ففى سنة ٩٢٨م/٣١٦هـ هاجم أسطولهم البحرى مدينة تارنت ، وأعلنت مدينتا نابولى وسالرنو استعدادهما لدفع الجزية للفاطميين .

على أن ما حدث من ظهور الأسطول البيزنطى فى غرب البحر المتوسط ، أثار الفاطميين ، فأرسلوا سنة ٩٣٥م/٣٢٤هـ أسطولاً ضخماً ، ليعيد سيادتهم على البحر التيرانى ، فأغار على سردينية، وكورسيكا وجنوه، وأشعل الحرائق فى سفن بيزنطية عديدة . ثم حدث من الفتن الداخلية فى صقلية، التى شجعها البيزنطيون ، ومن فشل الحملة الفاطمية على مصر سنة ٩٣٦م/٣٢٥هـ، ما صرف الفاطميين عن مهاجمة البيزنطيين؛ فلم يلتفتوا إليهم إلا سنة ٩٥٠م/٣٣٩هـ. إذ تعرضت كالابريا لهجوم عنيف من جهة البر والبحر، ولم يستطع البيزنطيون أن يصمدوا لقتال الفاطميين، فهلك فى ساحة القتال أحد بطارقتهم وقائد ثيم كالابريا ، ولم يقف القتال سنة ٩٥١ م /٣٤٠هـ ، إلا بعد أن طلب البيزنطيون الهدنة ، وأعلنوا استعدادهم لدفع

الجزية. ولما تبين لأهل نابولى ما حاق بالبيزنطيين من الضعف، أخذوا فى الانصراف عـنهم ، وعملوا على أن يخرجوا على طاعتهم وتبعيتهم ، غير أن البيزنطيين هاجموا المديـنة بـراً وبحراً سنة ٩٥٦م/٣٤٥هـ ، وأعادوها إلى سلطانهم . وفى هذه الأثناء تـرددت السـفارات بين البيزنطيين والأمويين بالأندلس ، الذين يعتبرون من ألد أعداء الفاطميين. وترتب على ذلك نقض الهدنة بين بيزنطة والفاطميين فى صقلية ؛ فتكررت الغـارات مـن كـلا الجانبين على صقلية وكالابريا . ثم تجددت سنة ٩٦١م/٣٥٠هـ الهدنـة بيـن الفريقين ، وظل البيزنطيون ، بمقتضى هذا الصلح ، يدفعون الجزية إلى الفاطميين حتى زمن نقفور فوقاس[1] .

وقـد توفـى الإمبراطور قسطنطين السابع عام ٩٥٩م/٣٤٨هـ ، وتولى الحكم بعـد وفـاة أبيه رومانوس الثانى Romanus II ، الذى لم يتجاوز وقتذاك العشرين من عمـره. وعلـى الـرغم من أن رومانوس اشتهر بأنه شاب وسيم ، ولم يكن خلوا من مواهب فكرية، وقد تلقى قدراً كبيراً من التعليم ، فإنه لم يترك من بعده إلا شهرة سيئة. أحـاط بـه عند توليه الحكم أمه هيلينا، وزوجه ثيوفانو Theophano، وإخوته الخمس، وابـنه باسـيل الثانى Basil II . والمعروف أنه حدث فى سنة ٩٤٥م/٣٣٤هـ أن تم تـتويجه ، وصـار له نصيب فى إدارة الدولة وفقاً للتقاليد الإمبراطورية، ثم أصبح فى يـده كل السلطان ، الذى آل إلى زوجه ثيوفانو. ولم تكن ثيوفانو إلا ابنة صاحب إحدى الحانـات ، ولم تصل إلى العرش إلا بما اشتهرت به من الجمال والشرور. وما اشتهر به زوجها من المجون وصحبة الفساق ، جعلها تقوم بإدارة الحكومة بمساعدة الطواشى برنجاس Bringas، الذى أوصى به قسطنطين، عند وفاته، ابنه خيراً.

لم يكن لهذا العصر أهمية سوى ما أحرزه من انتصارات نقفور فوقاس وأخوه، ففـى دوائـر القصـر أزدادت الأمور سوءاً. إذ أن ثيوفانو أصدرت الأوامر ، بموافقة الإمـبراطور، بطـرد هيلينا وبناتها من القصر. وعلى الرغم من أن هيلينا تلقت الإذن

---

[1] عن الوقائع بين المسلمين والبيزنطيين في صقلية انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٦، ص ٣٢٧-٣٢٨، ٣٣٩؛ لويس، القوى البحرية، ص ٢٣٥- ٢٣٦؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطـية، ص ٣٧٢ -٣٧٣.

بالبقاء في القصر ، فإنها لم تلبث أن ماتت سنة ٩٦١م/٣٥٠هـ ، بيما نزل بناتها الخمس في أديرة متفرقة ، ولعل ما تعرضت له أسرة قسطنطين من الذل ، أدى إلى تدبير مؤامرة لاغتيال رومانوس ، غير أن هذه المؤامرة لم تنجح . ومع ذلك فإن رومانوس لم يعش طويلا ، إذ مات مجنوناً . وخلف من الأبناء والبنات ، باسيل الثاني، وقسطنطين الثامن وثيوفانو ، التي صارت زوجة لأوتو Otto II الثاني إمبراطور ألمانيا ، وآن، التي تزوجت من فلاديمير Vladimir أمير روسيا .

لم يرد في التواريخ إشارة إلى حوادث هامة في الأمور الداخلية بين سنتي ٩٥٩م/٣٤٨هـ ، ٩٦٣ م/٣٥٢هـ . إذ أن حكومة رومانوس وجهت كل اهتمامها إلى ما يجري من الحوادث وراء الحدود . وفي هذه الناحية اشتهرت حكومته بالحذق والقدرة . فما كاد قسطنطين السابع يقضي نحبه ، حتى بادرت ثيوفانو وبرنجاس إلى المضي في توطيد العلاقات مع أمراء الشرق والغرب ، فأرسلا المبعوثين إلى سائر القصور الملكية . وفي أبريل سنة ٩٦٠ م/٣٤٩هـ تم تتويج باسيل الثاني . غير أن ما هو أكثر دلالة على حصافتها السياسية ما أعداه من حملة بقيادة نقفور لمهاجمة المسلمين عام ٩٦١م/٣٥٠هـ.[1]

لقد سبق ذكر ما أصاب الحملة التي توجهت سنة ٩٤٩ م/٣٣٨هـ لمهاجمة كريت من هزيمة ساحقة ، وما ترتب عليها من سيطرة المسلمين على طرق الملاحة والتجارة في بحر الأرخبيل . ولما صارت السلطة إلى برنجاس ، حرص على أن يبذل مجهوداً كبيراً للاستيلاء على كريت، فعين على الحملة التي أعدها لتحقيق هذا الغرض نقفور فوقاس .

---

[1] الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

والمعروف أن نقفور يعتبر من كبار القادة البيزنطيين ، اشتهر فى زمن الإمبراطور السابق (قسطنطين السابع) بما قام به على الجبهة الشرقية فى آسيا الصغرى من حروب طويلة الأمد ، أحرز فيها انتصارات باهرة . فعينه قسطنطين قائداً عاماً على القوات البيزنطية بآسيا . ولما جرى تنصيبه لقيادة الحملة ضد كريت ، لقى هذا التعيين القبول والترحيب فى دوائر القصر الإمبراطورى وعند أهل القسطنطينية لما اشتهر به عندهم من الدفاع عن الإمبراطورية فى الشرق ، فضلا عن تعلق الجند به لما اتصف به من العدل والحرص على أن يهون عليهم ما يتعرضون له من الأخطار والمشاق . وينحدر نقفور من أسرة عريقة فى قبادوقيا ، وهى أسرة فوقاس ، التى اشتهر أفرادها بالجندية وممارسة القتال ضد الفرس والعرب . ففى زمن باسيل الأول ، أحرز جده المعروف باسم نقفور فوقاس أيضاً شهرة كبيرة ، بفضل ما قام به من أعمال حربية جليلة فى إيطاليا وصقلية . ومنذئذ صار كل أفراد الأسرة جنوداً مظفرين . اشتهر والد نقفور وعمه بالبسالة والبطولة ، فأسهم عمه ليو فى الحرب ضد البلغار . وبلغ أبوه بارداس فوقاس أرقى الوظائف العسكرية ، ويعتبر من أشد أعداء المسلمين ، أسهم لمدة طويلة فيما جرى من القتال ضدهم فى آسيا الصغرى.

ولما رأى قسطنطين السابع أنه لم يعد فى وسع بارداس ، لكبر سنه ، أن يواصل القتال ضد المسلمين فى آسيا الصغرى، أعفاه من منصبه، وعين مكانه ابنه نقفور قائداً عاماً على كل القوات المرابطة فى الثيمات الأسيوية. وقد وقع أخوه قسطنطين قائد ثيم سلوقية فى أسر الحمدانيين فى سنة ٩٤٩ م ، بعد أن لحق بالبيزنطيين الهزيمة فى مرعش . أما أخوه الآخر، ليو فوقاس، فإنه تولى قيادة القوات البيزنطية فى آسيا أثناء تغيب نقفور فى كريت.

لقد اجتمع فى نقفور صفة الجندى وصفة الراهب فى آن واحد ، اشتد تعلقه بالجيش وبالجند ، وازداد تمسكه بالصلاة والتدين . والمعروف أنه صلب لا تلين قناته، وشديد فى الحق والعدالة ، وشديد التقوى . وعلى الرغم من عيوبه ، فان ما اشتهر به

مـــن الصــــفات والخـــلال الطيبة أكسبته محبة الناس ، وعميق احترامهم له لاسيما بين العساكر ، وأكثر من هذا ازدادت هيبته ، وخشاه أناس كثيرون ، لاسيما برنجاس ، لما أحرزه من شهرة حربية، ولما اقترن به اسمه من النصر فى حملة كريت[١] .

وتعتبر هذه الحملة الموجهة ضد كريت من أشهر أحداث التاريخ البيزنطى فى الشـــطر الثانى من القرن العاشر الميلادى . إذ أن الدولة البيزنطية لم تشهد منذ قرون عديـــدة مـــثلما شـــهدته وقتئذ ، (ومرة أخرى فى زمن باسيل الأول) ، من حشد جيش ضـــخم وأســـطول كبير . احتشدت القوات فى بيزنطة ذاتها ، وتألفت هذه القوات من عساكر الثيمات .

وكـــثر عـــدد الأرمن فى جيش نقفور ، أما البحارة فجاءوا من الثغور البحرية الآســـيوية ، تراقســـيان ، وســـاموس ، وكبـــيرايوت ، التى اشتملت على سائر المدن الـــتجارية القديمة . وأضاف برنجاس إلى هذه القوات ، عدداً كبيراً من الجند المرتزقة مـــن الـــروس . ونصـــت المعـــاهدات التى جرى عقدها مع أمير الروس على أن يمد الجـــيش البـــيزنطى بأعداد من الروس وقت الحاجة ، وجرت العادة بأنه يتم تنصيرهم عـــند قدومهم . وعلى الرغم من كثرة هذه الفئات التى يتألف منها الجيش ، فإن نقفور أضاف إليها فئة أخرى ، تتمثل فى أولئك الذين وقعوا فى الأسر ، والذين كانوا ينتمون إلـــى أقـــوام متبربرة عديدة . ومن هؤلاء الأسرى ، المغامرون المسترقون ، الذين لم يكونـــوا سوى جند فلاحين استقروا فى أزمنة مختلفة فى جهات مختلفة بالإمبراطورية لاســـيما علـــى شواطئ أنهار مقدونيا وبثينيا . واكتمل هذا الجيش بمن انضم إليهم من التلماخيين Talmaches ومنهم أربعة آلاف من المردة ، وعدد من المرتزقة من البنادقة والأمالفيين .

أمـــا الأســـطول الـــذى جرى إعداده لحمل هذه القوات ، فكان يخضع مباشرة للحاجب ميخائيل ، بينما تولى نقفور ، القائد الأعلى للحملة الإشراف على نزول الجند.

---

[١] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٧٧ – ٣٧٨ ؛ اسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

تـــألف هـــذا الأسطول الضخم من ٢٠٠٠ سفينة حربية ، ٣٦٠ سفينة للمؤن والإمداد . ومـــن الســـفن الحربية ما بلغ من الضخامة أن كان عدد المجدفين بالسفينة يبلغ ٣٥٠ ، وأن كـــان بالسفينة الواحدة أربع طبقات للمجاديف . ومن السفن ما جرى تشييده بحيث يســـهل نـــزول الجند والفرسان منها إلى البر مباشرة . واتخذت البحرية من التدابير ما يكفـــل حماية الحملة ، فأرسلت إلى الشرق بعض القطع الحربية لتمنع كل مساعدة تأتى إلـــى كريت من بلاد الشام ، وتحول دون نهوض الأساطيل الإسلامية فى شرق البحر المتوسط لمساعدتها .

أقلـــع أسطول نقفور من الموانئ البيزنطية فى الأيام الأخيرة من شهر يونيه أو الأيـــام الأولـــى من شهر يوليه سنة ٩٥٦ ، ثم تفرق الأسطول على سائر الأماكن على ســـاحل كريـــت ، فأضـــحى يحاصـــر المنافذ المؤدية إلى الخندق . ويمنع كل محاولة لمســـاعدة المســـلمين بهـــا ، تجـــئ من سواحل الشام وقيليقية ومصر وافريقية ، ومن الأندلـــس . وفـــى أثـــناء اســـتعداد الجيش للزحف ، تولى باستيلاس Pastilas قائد ثيم تراقســـيان ، وهو من أقدر رجال الحملة وأشجعهم ، ومن أبطال الحروب بآسيا ، قيادة قـــوة للاســـتطلاع والاستكشاف فى داخل الجزيرة . غير أن المسلمين بغتوا هذه القوة وأبادوها عن آخرها ، ولقى باستيلاسس مصرعه .

ســـاء نقفور ما حل بجيشه من هزيمة ، فقرر التوجه لحصار الخندق عاصمة جزيـــرة كريـــت ، وهذه المدينة اشتهرت بمناعتها وتعتبر مفتاح الجزيرة . تقدم الجيش البيزنطى فى إقليم اشتهر بالخصوبة ووفرة المحصولات وأشجار الفاكهة ، فانحاز إليه ســـكان الجزيرة من المسيحيين . فأشعلوا الحرائق بالقرى والمحاصيل، وقطعوا أشجار النخـــيل والفاكهـــة ، وبلغ الجيش آخر الأمر الخندق . واحتل الحصن (الخندق) موقعاً خطيراً : فإلى جانب ما حدث من تحصينه من جهة البحر ، ارتكز من جهة أخرى إلى صـــخرة ضخمة ، ارتفع عليها أسوار متينة . والواقع أن المدينة بلغت من المناعة ، ما جعل مهاجمتها أمراً يكاد يكون مستحيلاً .

قــرر نقفــور إلقــاء الحصار على المدينة ، وقطع الأسطول طريق الاتصال بالــبحر ، وأقــام البيزنطيون معسكرهم على مسافة غير بعيدة من المدينة ، وأحاطوه بأســوار ضــخمة . وخرجت السرايا من الجيش البيزنطى ، وأخذت تتوغل فى داخل الجزيرة ، تثير الفزع والرعب فى نفوس السكان ، وتنهب القرى لتوفير المؤن للجيش، واحتلت القوات البحرية جميع الموانىء كيما يصبح الجيش بمأمن من المفاجأة .

واشتد الجوع بالمسلمين المحاصرين ، فأرسل أميرهم عبد العزيز بن عمر بن شــعيب يلتمس المساعدة من الخلفاء الفاطميين بإفريقية ، والأمراء الأمويين بالأندلس . فأرسل عبد الرحمن الثالث من قبله مبعوثين إلى الخندق .

ومن الملاحظ أن السفارات لم تنقطع بين القسطنطينية وبلاط قرطبة فى القرن العاشر الميلادى كما سبق وأشرنا ، ولم يتوقف النشاط البحرى بين سائر المسلمين فى حوض البحر المتوسط ، على الرغم من الصلات المتينة التى تربط بين مسلمى أسبانيا ومسلمى كريت . غير أن ما حل بالمسلمين المحاصرين بالخندق من الشقاء والضيق ، واشتداد ضغط البيزنطيين ، وتضييقهم الخناق على المدينة ، جعل تقديم المساعدة أمراً غير يسير .

اســتمر الحصــــار حــتى ســنة ٩٦١ م/٣٥٠هـ، تخلله اشتباكات عديدة بين الفريقيــن ، وحرص نقفور عل منع وصول الإمداد من افريقية أو آسيا ، وتغلب نقفور علــى كل ما صادفه من العقبات ، وما توافر لديه من الكشافة والجواسيس ، أفاد منهم كثــيراً ، بفضل قوة نظامهم . واستطاع عساكر ثيم تراقسيان أن يردوا أمير طرسوس علــى أعقابه . وحدث بعدئذ أن توجه إلى مهاجمة المعسكر البيزنطى نحو أربعين ألف من الجند المسلمين ، كان الفاطميون بشمال افريقية ، قد أرسلوا جانباً منهم ، بينما كان الجانــب الأكــبر من داخل الجزيرة (كريت) ونهض نقفور للالتقاء بالجيش الإسلامى الــزاحف لنصــرة حامــية الخــندق ، فجرت معركة عنيفة انتصر فيها البيزنطيون ، واستشــهد فــيها عــدد كبــير من القوات الإسلامية . واشترك فى هذه الحملة من قبل البيزنطييــن ، عســاكر من الأرمن ، من ثيم الارمنياق ، ومن الثيمات النائية الصغيرة

أمثال خالديه ، والجزيرة ، وسيواس ، وكولونيا ، وخاربزيق Charpezic ، وليكاندوس، فضلاً عن الجند المرتزقة التى بعث بها الأمراء الأرمن الموالون للإمبراطور البيزنطي والمحالفون له . ولما عاد الدمستق إلى معسكره أمام "الخندق" قدر لهذا الانتصار أهميته . وبلغ من همجية البيزنطيين ووحشيتهم أن صاروا يقذفون إلى داخل المدينة ، بأشلاء الجند المسلمين الذين لقوا مصرعهم . واستطاع نقفور وجنده ، بفضل ما ألقوه من القذائف على أسوار الخندق ، أن يحدثوا ثغرة كبيرة فيها . بينما تقدم النقابون إلى الأسوار وصاروا يحفرون فى أسفلها ، ثم أشعلوا فى هذه الحفائر النيران ، فهوت الأبراج إلى الخندق .. وتدفق العساكر البيزنطيون إلى داخل المدينة ، فأجروا مذبحة مريعة ، هلك فيها عدداً كبيراً من المسلمين ، ووقع فى أيديهم كثير من السبى والأسرى .

على أن ما تعرضت له مدينة الخندق من النهب والسلب تجاوز كل الحدود ، فاستولى الجند البيزنطيون على كل ما ادخره المسلمون فى الجزيرة من الغنائم والثروات . وازداد تعلق الجند بقائدهم ، فلقبوه "بالظافر" الذى صار منذئذ من ألقابه . وأول ما قام به نقفور من أعمال ، أنه أرسل إلى البلاط البيزنطى ينهى إليه بخبر انتصار حملته . وبعد أن نال العساكر حظهم من الراحة ، أمرهم بتدمير أسوار "الخندق" فارغموا أهل المدينة على القيام بهذا العمل . وشيد نقفور على مرتفع يجاور موضع الخندق ، امتاز بحسن موقعه وبتوافر المياه ، قلعة لتحل مكان المدينة التى دمرها . اتخذت هذه القلعة اسم تيمينوس Téménoss ، ورابط بها حامية مؤلفة من عساكر من الأرمن واليونانيين ، وأنشأ لها ميناء تأوى إليه السفن .

وترتب على سقوط الخندق ، أن استطاع نقفور أن يخضع سائر جزيرة كريت، فقدمت الوفود تطلب منه الأمان . فأخذ نقفور يعيد تنظيم الإدارة البيزنطية بها. فتقرر تعيين استراتيجوس على هذا الإقليم بعد أن تم الاستيلاء عليه وصار تحت تصرف هذا القائد قوة كبيرة من الجند ، وذلك لأن ما اشتهرت به كريت من أنها

مخفـر مـن المخافـر الأمامـية فى الإمبراطورية ، ظلت معرضة لغارات الأساطيل الإسلامية من إفريقية والشام[1] .

أدى سـقوط كريـت فـى يد البيزنطيين إلى نتائج بالغة الأهمية ، إذ تم نهائياً الاستيلاء على كريت وساد بحر الأرخبيل الأمن والهدوء ، بعد أن تعرض زمناً طويلاً لغـارات المسـلمين ومـا نشب فى العالم الإسلامى وقتذاك من الاضطراب والقلق ، صرف المسلمين عن استعادة كريت من أيدى البيزنطيين .

واسـتقبلت القسطنطينية بالحماس الكبير ما ورد إليها من أنباء الاستيلاء على كريـت ، بعد أن حاصرها البيزنطيون ما يقرب من ثمانية شهور عانوا فيها كثيراً من الشـدة والقسـوة ، بسـبب الـبرد وشدة مقاومة المسلمين . فلم يحرز البيزنطيون منذ سـنوات عديدة من النصر مثلما أحرزوه وقتذاك . أضحى اسم نقفور مقترناً بالاستيلاء علـى كريت ، فذاع صيته فى كل أرجاء الإمبراطورية البيزنطية . فأرسل الإمبراطور يدعـوه إلـى القدوم إلى العاصمة ليشترك فيما جرى بها من الاحتفال بهذا الانتصار . علـى أن الطواشـى برنجاس خشى أن ما أصابه نقفور من انتصارات ، وما غمره به الجـند من المحبة والولاء ، قد يؤدى إلى أن يفكر فى اغتصاب الملك فلم يحظ هؤلاء القـادة المظفـرون ، الذيـن تعلـق بهـم الجـند ، بالـتقدير اللازم فى دوائر البلاط الإمـبراطورى . ولعـل هذا هو السر فى أن نقفور لم ينل من التكريم ما هو جدير بما أحرزه من انتصارات . فسار فى الموكب بالملعب مترجلا ، لا فى عربة يجرها أربعة من الجياد البيضاء المطهمة ، مثلما حدث عقب انتصاره سنة ٩٦٣ م/٣٥٢هـ.[2]

أمـا فى الشرق فقد سبق الإشارة إلى ما جرى من القتال الذى أنشبه فى آسيا لـيو فوقاس ضد الحمدانيين سنة ٩٥٩م/٣٤٨هـ ، والى أنه أوغل فى تقدمه إلى الشام، وإلـى أن مـا أحرزه من الانتصارات ذاع خبرها فى سائر العالم الإسلامى وظل ليو

---

[1] لويس ، القوى البحرية ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ؛ اسمت غنيم ، كريت الإسلامية ، ص ٢٤٣ – ٢٦٤ .

[2] عـن هـذه الأحـداث انظـر، الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٨٩ – ٣٩٣؛ *Symeon Magister*, pp. 758-760; Malmaut, *L'iles*, pp. 88-89; Tsougarakis, *Byzantine Crete*, pp. 59-73.

يعيث فساداً في أراضي الشام حتى سنة ٩٦٠ م/٣٤٩هـ على أن سيف الدولة الحمداني لم يحفل بكل ذلك ، فما أحرزه قائده نجا من الانتصارات في آسيا الصغرى، ولحرصه على جعل عدوه يرتد عن بلاد الشام ، كل ذلك دعاه إلى أن يعبر بجيش كبير الحدود البيزنطية . وهيأت الحملة البيزنطية على كريت له الفرصة للمضي في طريقه، إذ اشترك فيها خيرة قوات الإمبراطورية، ولم يكن بالثغور البيزنطية في آسيا من القوات إلا من كان في جيش ليو بالشام . ولعل من أسباب خروج سيف الدولة الحمداني بهذا الجيش، النهوض لنصرة الأمير عبد العزيز أمير كريت، وتخفيف الضغط عنه . وكيفما كان الأمر ، زحف سيف الدولة بجيشه من الفرسان وعددهم ٣٠ ألف فارس إلى الأراضي البيزنطية ، دون أن يحفل بما خلفه وراء من جيوش ليو في الشام . وحدث ذلك في أوائل صيف سنة ٩٦٠م/٣٤٩هـ أي حينما أخذت الحملة البيزنطية في النزول إلى كريت ، وفي أثناء السنة الأولى من حكم رومانوس الثاني . ولما لم يكن في استطاعة ليو الصمود لسيف الدولة ومقاومته، رأى أن يتوجه نحو الشمال، فاحتل الدروب الرئيسية بجبال طوروس التي تحتم على سيف الدولة أن يجتازها عند عودته. وأمعن سيف الدولة في نهب بلاد كثيرة ، وأحرق وفتح عدة حصون ، وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئاً كثيراً ، ومضى في طريقه حتى بلغ خرشنه حاضرة الثيم المعروف بهذا الإسم قرب ملطية . وبلغ الجيش الحمداني بعد انتصاره ، سفح جبال طوروس من الجهة الشرقية ، واتخذ طريقه في درب صخرى ، ارتفع من جانبيه حاجزان صخريان ، واشتهر هذا الدرب عند اليونانيين باسم Kylindros . ويعتبر من أهم الدروب السلامية واتخذ الحصن الذي يشرف على الدرب نفس الإسم . والتقى في هذا الموضع ليو بقواته ، وبسائر قادة الثيمات ، ومنهم قائد ثيم قبادوقيا والبطريق قسطنطين مالينوس Maleinos ، اللذان قدما إليه بقوات من الجهات المجاورة ، اشتهرت بممارسة الحرب في الجبال . ورابط ليو بهذه القوات عند هذا الحصن ، حتى إذا تقدم فيه جيوش سيف الدولة بما معهم من الأسرى والغنائم ، انقض عليهم ليو بقواته . وتشير الروايات إلى أن سيف الدولة لم يستمع لنصيحة من معه من أهل طرسوس ، بأن البيزنطيين ملكوا الدرب خلف ظهره، "وطلبوا إليه ألا يسلك هذا

الطريق ، فلم يقبل منهم ، وكان معجباً برأيه يحب أن يستبد، ولا يشاور أحداً لئلا يقال أنـــه أصـــاب برأى غيره" - فانتصر البيزنطيون ، وأخذوا ما حصل عليه سيف الدولة مـــن الغنائم ، ووضعوا السيف فى أصحابه ، فأتوا عليهم قتلاً وأسراً ، ونجا فى ثلثمائة رجل بعد مشقة وجهد .[1]

وفـــى صيف سنة ٩٦١ م/٣٥٠هـــ ، أى عقب أن أحرز ليو فوقاس انتصاره الشـــهير فـــى مغـــارة الكحـــل ، وعاد نقفور مظفرا من كريت ، وتقرر تعيينه دمستقا بالشـــرق ،[2] حيث بقى فى هذا المنصب إلى أن صار إمبراطورا فحل محله فيه أخوه ليو، ارتحل نقفور إلى آسيا الصغرى ، واستأنف الإغارة على الأملاك الإسلامية . وما قـــام بـــه البيزنطيون من حروب ، بدأت فى ديسمبر ٩٦١ م/٣٥٠هـــ واستمرت حتى أوائل سنة ٩٦٣ م/٣٥٢هـــ ، يصح تقسيمها إلى مجموعتين ، الحروب فى قيليقية التى امـــتدت إلى العواصم وإلى الفرات ، ثم الحروب التى جرت فى الشطر الثانى من سنة ٩٦٢ م/٣٥١هـــ وانتهت باستيلاء البيزنطيين على حلب .

جـــرت الاســـتعدادات الحربية فى قيصرية بقبادوقيا ، حيث احتشدت العساكر القادمـــة مـــن القسطنطينية ومن ثيمات آسيا الصغرى وتألف الجيش البيزنطى من نحو ١٦٠ ألـــف جندى ، ومن قطار من أدوات الحصار . ولما هو معروف من أن الجيش إنمـــا يقصـــد الاستيلاء على عين زربة ، لم يستخدم فى ذلك دروب قيليقية ، بل اتخذ الطـــريق المباشر الذى يربط قيصرية بعين زربة ووادى نهر جيحان . وما دعا نقفور إلـــى مهاجمة عين زربة ، إنما يرجع إلى أن حاميتها لم تبلغ من القوة ما بلغته حاميات المواقـــع الأخرى ، فضلا عن صعوبة جلب الإمدادات لنجدتها ، يضاف إلى ذلك أنها تقـــع علـــى الطـــريق المباشر القصير ، الذى يمتد من قيصرية إلى حلب ، حيث رأى

---

[1] ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق/ سامى الدهان، ج١، دمشق، ١٩٥١، ص ١٣٠-١٣١؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٨٩-٣٩٠.

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١٣٢.

الدمستق اتخاذه لمهاجمة الحمدانيين فى عاصمتهم (حلب) ، ولم يشأ نقفور أن يهاجم منذ البداية المراكز الرئيسية لجيوش قيليقية .

ولما أخذ نقفور فى إلقاء الحصار على هذا الموضع ، تعرض للهجوم من قبل جيوش طرسوس ، التى يقودها رشيق النسيمى ، فأنزل بهم هزيمة ساحقة ، فهلك نحو تسعة آلاف من الجند ووقع فى يده عدد كبير من الأسرى واستمر فى حصار عين زربة. والمعروف أن المدينة جرى تشييدها فى موقع منيع ، فى سفح جبل شديد الانحدار ، يحيط بها سور ذو حائط مزدوج ، وإنما تتوقف استدارة هذا السور عند الجهة التى تحتمى بالجبل غير أن كل من يستولى على قمة الجبل ، صار فى استطاعته أن يصل إلى المدينة . وأرسل نقفور من قبله كتيبة لتستولى على القمة ، بينما تعرضت الأسوار لقذائف المجانيق ، فأحدثت بها ثغرة . ولما رأى سكان المدينة ما حدث من احتلال البيزنطيين للجبل ، طلبوا الأمان ، وقبلوا أن يسلموا المدينة ، بشرط الإبقاء على حياتهم . غير أن نقفور ، حينما تبين له أن فى استطاعة جنده الاستيلاء على المدينة فى يسر وسهولة ، نقض عهده ، فأصدر أوامره إلى سكانها بأن يجتمعوا بالجامع . وفى اليوم التالى تعرض للقتل كل من صادفه الجند بشوارع المدينة ودورها . وصرح نقفور لمن اجتمعوا بالجامع بالخروج من المدينة ، غير أن عدداً كبيراً منهم لقى حتفه بسبب شدة الزحام والبرد والجوع . ومن نجا منهم لجأ إلى طرسوس . وتعرضت المدينة للنهب ، وتدمرت الدور والأسوار ، فى فبراير سنة ٩٦٣م/٣٥٢هـ .

وظل نقفور أحد وعشرين يوماً فى هذا الإقليم ، استولى أثناءها على ٥٤ موضعاً. وأظهر نقفور فى هذه الحملة من الشدة والصرامة والقسوة ما اعتقد أنها تلقى الرعب فى نفوس السكان من المسلمين بهذه الجهات الواقعة على الأطراف ، فيحلون عنها ، فلقى السكان من النكال والعذاب والتشريد والقتل ما أدى إلى هلاك عدد كبير منهم ، ومن نجا من القتل من الأطفال جرى عليهم الرق ؛ وامتدت يد التخريب إلى الأشجار والنباتات ، فأمست الجهات المجاورة لعين زربة خراباً ومن القلاع المنيعة التى استولى عليها البيزنطيون قلعة سيس المعروفة قديماً باسم فلافيوبوليس

Flaviopolis . وهذه القلعة تقع على المدخل الشمالى لسهل قيليقية ، وعلى سفح صخرة مرتفعة تستند إلى جبال طوروس ، على مسافة غير بعيدة من عين زربة .[1]

لـم يشـر المؤرخـون إلـى أن نقفور استولى فى هذه الحملة على طرسوس والمصصـية ، ولم تتعرض هاتان المدينتان لحصار البيزنطيين ، والراجح أن ما حدث مـن انهـزام ابـن الـزيات وموته ، قضى على كل مقاومة فى هذه الناحية (ناحية طرسـوس) . علـى انـه لم يكن الاستيلاء على قيليقية عند نقفور يتطلب إلا استعدادا صـغيراً ، إذ أن نقفـور كان يكتفى حتى ذلك الحين بإنزال الهزيمة بأتباع سيف الدولة الحمدانـى ، أمـا الآن فإنـه أدرك أنه لابد أن يواجه بكل قواته عدوه العنيد وخصمه اللدود ، فيخضع أقاليمه الخصيبة ويهاجم عاصمته .

وإذ تقـدم الزمـن ، وصار لزاماً عليه ألا يضيع الوقت سدى . تحتم عليه أن يسـتولى ، قـبل كـل شئ ، على ممرات جبال آمانوس ، وهذا الإجراء سوف يكفل للبيزنطييـن مـن جهـة ، الاستيلاء على قيليقية ، وسوف يسير لهم من جهة أخرى ، الـنفاذ إلـى الشام والمسير إلى حلب . والأمانوس هو شعبة من جبال طوروس تتصل بقيليقـية مـن جهـة الشـرق وتفصلها عن بلاد الشام . وما اشتهر به الأمانوس من الـدروب، إنمـا يـرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها ، فمهما غزا العرب قيليقية وما يلـيها مـن جهـات آسـيا الصغرى ، ولا بد لنقفور أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة الحمدانى فى صميم دولته .

ولمـا أدرك نقفور الصوم ، انصرف على أن يعود عقب عيد القيامة الذى يقع فـى ٣٠ مـارس سنة ٩٦٣م ، وخلف جيشه بقيصرية . والمعروف أن نقفور اشتهر بشدة الورع والتقوى كما سبق القول ، ولعل ذلك هو الذى حدد موعد رحيله . غير أن ثمـة مـن الأسباب ما دعاه إلى العودة إلى الأراضى البيزنطية ، كيما يكون قريباً من العاصمة ، وليكون على اتصال ببعض العناصر بالقسطنطينية ، ولعله فكر وقتذاك فى

---

[1] عن استيلاء البيزنطيون على عين زربة انظر، ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٤٢ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١٣٢.

الوصــول إلــى عرش الإمبراطورية ، لما اشتهر به الإمبراطور رومانوس الثانى من الخفة والطيش ، وما ترتب علي ذلك من سخط الناس .

وما كاد نقفور يرتحل بجنده إلى الأراضى البيزنطية ، حتى نشط سيف الدولة الحمدانــى من جديد ، فتوجه إلى قيليقية ليؤدب ابن الزيات ، صاحب طرسوس ، لأنه قطــع الخطبة لسيف الدولة ، فلما حلت الهزيمة بابن الزيات على يد نقفور ، أعاد أهل طرســوس الخطــبة لسيف الدولة وراسلوه فى ذلك ، وجرى القبض على ابن الزيات ونقلــه إلى حلب . وأعاد سيف الدولة تشييد ما تخرب من عين زربة ، وأنفق فى ذلك ثلاثة ملايين درهما . على أن عين زربة فقدت ما كان لها من أهمية ، لأن البيزنطيين لــم يقدمــوا على الاستيلاء عليها مرة أخرى . وأرسل سيف الدولة جنداً من طرسوس بقــيادة حاجــبه جرجويه ، فأغاروا على الأراضى البيزنطية ، وبعث بغلامه نجا إلى ميافارقيــن ليبــث بيــن أهلهــا الهدوء والسكينة ، وفى أثناء عودته التحم فى قتال مع البيزنطيين عند حصن زياد فى سبتمبر سنة ٩٦٢م/٣٥١هـــ .

ولعــل تجدد نشاط سيف الدولة ثانية ضد البيزنطيين حدا بنقفور فوقاس للعودة إلــى مهاجمــة أملاك الحمدانيين ثانية . فقد بدأ نقفور مسيره فى ديسمبر سنة ٩٦٢ م/ ٣٥١هــــ للاستيلاء على حلب ، فلما اجتاز البيزنطيون دروب جبل الأمانوس ، خرج سيف الدولة من حلب ، فتقدم إلى عزاز ، على مسيرة ١٢ ساعة من حلب ، فى أربعة آلاف فــارس وراجــل . ولما تبين له أنه ليس فى وسعه أن يلقى البيزنطيين لكثرتهم ، رجع إلى حلب ، وأقام معسكره خارج المدينة ، ليجرى القتال بهذا الموضع . ثم جاءه الخــبر أن البيزنطييــن مــالوا نحو العمق ، فأدرك أن العدو إنما يقصد الاستيلاء على حلــب ، وقد حرص على إنقاذها مهما كلفه ذلك ثمناً باهظاً ، فجهز غلامه نجا ، الذى يعتبر أشجع أتباعه وأشدهم إقداماً ، فى ثلاثة آلاف فارس لوقف تقدم البيزنطيين .

وأخــذ البيزنطيون ، يستولون على المدن والحصون بإمارة حلب ، فسقط فى أيــدى نقفــور وقادته من المدن دولوك وعينتاب ، ومنبج ورعبان . والمعروف أن قوة مــن الجــيش البــيزنطى ، بقيادة ثيودور ، ابن أخت الدمستق ، توجهت ، قبل تغلغل

البيزنطيين في الأراضي الشامية ، نحو منبج وفاجأتها بالهجوم . وكان أبو فراس الحمداني ، الذي يلي أمر منبح ، خارج المدينة ، فالتقى به كشافه البيزنطيين وجواسيسهم ، وعلى الرغم من الشجاعة الفائقة التى أبداها فى الدفاع عن نفسه ، أصابته جراح عديدة ، فوقع فى أسر البيزنطيين .

وسرت الحماسة بين البيزنطيين ، واعتقد الجند بأن ما استولوا عليه من البلاد والحصون ، إنما يزيد من تقدمهم نحو الجنوب ، وأنهم إنما يقاتلون ويلقون مصرعهم فى سبيل نصرة المسيح والإمبراطور الذى يمثله على الأرض ، وأنهم بقتالهم المسلمين إنما يبلغون أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وأنهم ينفذون إلى بيت المقدس فيستخلصونها من المسلمين ، بعد أن ظلت فى قبضة أيديهم نحو ٣٢٠ سنة تقريباً .

وتقدم نقفور على رأس جميع قواته ، بعد أن أحرق ودمر كل ما يقع فى طريقه ، وأراد أن يباغت سيف الدولة ، واستطاعت كشافته أن تجتاز نهر القويق ، برغم حرص المسلمين على حراسة مخاضاته ، وذلك بفضل يوحنا تزيمسكس (الشمشقيق) الذى يعتبر من أمهر قادة نقفور، وهو الذى يليه فى قيادة الجيش . ولم يلبث سيف الدولة أن وقف على خبر تقدم البيزنطيين ، فاستعد لملاقاتهم ، وأعد العدة للدفاع عن حلب . على أن سيف الدولة أنفذ غلامه نجا فى خيرة الجند لمنع تقدم البيزنطيين ، ريثما ينتهى من إعداد جيش ضخم ، يخوض به معركة فاصلة تحت أسوار حلب . على أنه حدث أن تقدمت القوات البيزنطية من جهة الشمال الغربى ، على حين أن نجا أتخذ طريقه أول الأمر نحو الغرب ، إلى الأثارب ، ثم انحرف نحو الشمال ، كيما ينقض بكل جيشه على مؤخرة الجيش البيزنطى . غير أن نقفور غير خطته ، بعد أن أبلغته كشافته وجواسيسه أخبار جيش نجا ، فسار بكل قواته صوب الشمال الشرقى ليتجنب الصدام مع نجا ، ثم أندفع نحو الجنوب ، حتى بلغ تبل ، وهى قرية تقع إلى الشمال من حلب ، ومن ثم توجه إلى قلعة عزاز ، فأضحى الطريق إلى حلب مفتوحاً أمام البيزنطيين ، على أن سيف الدولة لم يتريث ، بل سار بنفسه لقتال البيزنطيين ، ونادى فى الناس : من لحق بالأمير فله دينار ، فلما سار فرسخاً ، لقيه بعض العرب فاخبره أن البيزنطيين لم يبرحوا جبرين ، وأنهم سوف يصبحون فى

حلب . فرد سيف الدولة إلى حلب ، ونزل على نهر قويق ، ثم تحول من الغد فنزل على باب اليهود (من أبواب حلب) ، وبذل خزائن السلاح للرعية ، وأقبل البيزنطيون في ثلاثين ألف من الفرسان ، فوقع القتال في مواضع متفرقة ، ثم قدمت مؤخرة الجيش البيزنطي في أربعين ألف راجل بالرماح وفيهم تزيمسكس ، واتخذ الجيش مواقعه على النهر ، وأحاطوا بسيف الدولة ، فحمل عليهم ، غير أنه لم يلبث أن ارتد ، وقصد ناحية بالس ، فاشتد القتال ، وهلك عدد كبير من جند سيف الدولة ، ولقي جماعة من الأعيان ومن أسرته مصرعهم .

واستولى نقفور على دار سيف الدولة التي تقع خارج حلب ، "فوجد فيها لسيف الدولة ثلثمائة بدرة من الدراهم ، وأخذ له ألفا وأربعمائة بغل . ومن خزائن السلاح مالاً يحصى ، فأخذ الجميع وخرب الدار ، وملك الربض" . ثم حصر المدينة ، فقاتله أهلها ، وأحدث البيزنطيون في السور ثلمة فقاتلهم أهل حلب عليها ، فلقي كثير من البيزنطيين مصرعهم ، وارتد سائرهم عن الثلمة ، ولم يلبث أهل حلب أن أصلحوا ما أفسده البيزنطيون في السور ، وتراجع البيزنطيون إلى جبل جوشن . على أن رجالة الشرطة بحلب عمدت إلى نهب المنازل وحانات التجار ، فتخلى الناس عن مواضعهم على الأسوار ، ومضوا إلى دورهم ليدافعوا عنها . ولما أدرك البيزنطيون ما وقع من الاضطراب والفتنة في داخل البلد ، اقتحموا المدينة ، فوضعوا السيف في الناس ، فقتلوا كل من لقيهم ، وكان في البلد من أسرى البيزنطيين ألف ومائتا رجل ، فأطلقوا سراحهم . وحملوا السلاح على المسلمين ، وكان سيف الدولة قد أعد من البيزنطيين سبعمائة رجل ليفادي بهم ، فأخذهم نقفور ، وسبى من المسلمين والمسلمات بضعة عشر ألف صبي وصبية ، وأخذ من خزائن سيف الدولة ولأمتعة التجار مالا يوصف كثرة . فلما لم يكن معه من الدواب ما يكفي لحمل هذه الأمتعة ، أحرق ما تبقى منها بالنار ، وعمد إلى المستودعات التي يحفظ بها الزيت فصب فيها الماء ، حتى فاض الزيت على سطح الأرض ، وخرب المساجد وأقام بالمدينة تسعة أيام .

على أن انتصار البيزنطيين لم يكن شاملاً ، فحينما توغل البيزنطيون في داخل المدينة ، وجدوا أنه قد لجأ إلى القلعة عدد من المقاتلة لاسيما من الديالمة ، ومن

رجـال الحكومـة ومـن لهم أموال ، فضلاً عن كثير من العلوية وبنى هاشم . وعلى الـرغم مـن سوء الأحوال التى تعانيها القلعة ، وما تعرض له اللائذون بها من الشدة بسبب قلة المؤونة ، فإن حاميتها تعتبر مصدر خطر على الغزاة . إذ صاروا ينقضون، من حين إلى آخر ، على البيزنطيين الذين انصرفوا إلى النهب والسلب .

ولما تحرج الموقف ، كان لزاماً على نقفور بعد أن مضى بالمدينة تسعة أيام، أن يهـاجم القلعـة . غير أنه بدلاً من أن يقوم بذلك ، قرر الارتداد عن المدينة ، ولعل ذلك القرار يرجع إلى أنه اكتفى بإنزال الهزيمة بسيف الدولة الحمدانى ، وأنه خشى أن يقـوم سـيف الدولة بهجوم مفاجئ ، لاسيما بعد أن شاع انحياز نجا إليه فى قنسرين ، ولعلـه رأى أيضـاً ما أصاب عسكره من الإرهاق والتعب الذى نجم عن هذه الحروب العنيفة . يضاف إلى ذلك ما شاع أيضاً من قدوم إمدادات من دمشق لإنقاذ حلب ، وما حـدث من مصرع ابن اخته ثيودورا ، وما شاع فى سائر العالم الإسلامى من الدعوة إلـى الجهاد ، بعد أن هزته وأثارته كارثة الاستيلاء على حلب ، وما يترتب على هذه الدعـوة من نهوض المسلمين لقتال العدو المشترك . ومن أسباب ارتداد نقفور أيضاً ، أن تنظيم الجيش البيزنطى ، ولاسيما بعد المجهود الشاق الذى بذله فى هذه الحروب ، لـم يتهـيأ لممارسـة حروب طويلة الأمد ، والراجح أيضاً أن نقفور اكتفى بما أنزله بالحمدانييـن من هزيمة ، وبما خربه من بلادهم ، وبما دمره من حصونهم وباستباحة عاصـمتهم . ورأى أن يهـتم بما يجرى فى القسطنطينية من الأمور ، لا سيما أنه لم يصـل إليه ، منذ زمن طويل ، من الأنباء عما يدبر بالبلاط . وما شاع من الأنباء التى تشـير إلـى سـوء صحة الإمبراطور البيزنطى جعل قادة القوات البيزنطية فى آسيا يتطلعون إلى القسطنطينية.[1]

وكـيفما كان الأمر ، كل هذه الأسباب مجتمعة ، حملت نقفور ، على أن يأمر جنده بالارتداد عن حلب ، بعد أن احتلها ثمانى أيام . على أن ما ترتب على حملة سنة

---

[1] عن هذه أحداث استيلاء البيزنطيين على حلب انظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٢-٣، ٥ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ،القاهرة، ١٩١٤، ج٢ ، ص ١٩٢-١٩٤ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ١٣٣-١٤١؛ الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٣٩٦ – ٣٩٩ .

٩٦٢م/٣٥١هـــ من نـتائج ، تعتبر فى حد ذاتها نتائج طيبة للبيزنطيين . إذ تم لهم استرداد قيليقية، وجرى احتلال جميع دروب الآمانوس ، ومعظم الحصون الضخمة الواقعة بالإقليم الممتد بين نهر الفرات وبين جبل (أمانوس) ، وأنزل نقفور بعدوه هزيمة ساحقة ، ونهب عاصمته ، وغنم أمواله . وعلى الرغم من أنه غضب لجلائه عن حلب، بعد أن فشل فى الاستيلاء عليها ، فإن ما من أحد من الجند البيزنطى الذى أثار حماسه ، ما أصابه نقفور من ظفر ، يشك فى أن عودة قريبة إلى هذه الجهات سوف تؤدى إلى الاستيلاء على المدينة .

ومن الدليل على عزم نقفور على العودة إلى هذه الجهات ، أنه حينما غادر بقواته حلب ، فى ٣١ ديسمبر سنة ٩٦٢م/٣٥١هـ ، لم يسمح لجنده بنهب وتخريب حدائق ومزارع حلب ، لحرصه على أن يتخذ منها فى السنة التالية قاعدة ، لما سوف يقوم به من أعمال حربية أخرى ، وهذا هو السر فيما أورده جميع المؤرخين عن حديثه لأهل البلد "هذا البلد قد صار لنا ، فلا تقصروا فى العمارة ، فإنا بعد قليل نعود إليكم" . واجتاز الجند البيزنطى جبال أمانوس من جديد ، عند عودتهم ، وعبروا سهول قيليقية وجبال طوروس ، وما كادوا يصلون ، فى أواخر مارس سنة ٩٦٣م ، سيماندوا Simandoa (Tzamandos) بثيم قيليقية ، حتى وردت الأنباء بوفاة الإمبراطور رومانوس الثانى .

ترتب على وفاة رومانوس الثانى ٩٦٣م/٣٥٢هـ ، أن أصبح عرش بيزنطة من حق باسيل الثانى ذو السنوات الخمس ، ولأخوه قسطنطين الثامن ذو العامين فقط ، فتولت الوصاية عليهما أمهما الإمبراطورة ثيوفانو Theophano التى تزوجت من القائد نقفور فوقاس ، الذى صار إمبراطوراً لبيزنطة بفضل هذه الزيجة .

ما كادت الجيوش البيزنطية ترتد عن حلب منذ يناير سنة ٩٦٣م/٣٥٢هـ ، حتى دخل سيف الدولة حلب ، وانصرف إلى العمل على إزالة ما تخرب منها ، ودأب على أن يعيد إليها ما تفرق من سكانها ، وعلى الرغم من كل ذلك فإنها لا زالت مهجورة ، فنقل إليها من استطاع جمعه من سكان مدينة قنسرين المجاورة ، والتى

تعرضــت أيضاً للحرائق على يد البيزنطيين . وأعاد سيف الدولة عمارة أسوار حلب ، وشيد من جديد ميناء أنطاكية .

وحــدث فى الشطر الأكبر من سنة ٩٦٣م /٣٥٢هــ ، من الأعمال الحربية ما يتطلــب شيئاً من التفصيل . ذلك أنه اجتمع مع رجاله الأرمن جماعة كبيرة ، وقصدوا الــرها ، فأغاروا عليها ، فحصلوا على غنائم وفيرة . أثار ما حدث من سقوط حلب ، نفــوس المســلمين ، فى الموصل ، فأغلق أهلها الأسواق ، واجتمعوا بالمسجد الجامع لذلك ، والتقوا بالأمير ناصر الدولة الذى وعدهم بالمضى إلى الجهاد.[١]

وفــى الخريف بذل سيف الدولة جهداً كبيراً ، فتوجه إلى الأراضى البيزنطية ثلاثــة جــيوش ، اتخذت ثلاثة دروب مختلفة ، إذ أن عسكر طرسوس أوغلوا فى عدة وافــرة حــتى وصلوا قونية ، فأوقعوا بالبيزنطيين ، وانتصروا عليهم ، وعادوا بغنائم كثيرة ، فلما ارتدوا إلى الدرب (درب قيليقية) . التقوا على الدرب بقسطنطين مالينوس Constantine Maleinos المعــروف عــند المؤرخيــن المسلمين بابن الملاينى ، فاشتد القــتال بيــن الجانبين وأحرز المسلمون النصر ، أما نجا غلام سيف الدولة فتوجه إلى ناحــية ملطــية ، ثم عاد إلى ميافارقين ، فالتقى بغزاة من خراسان ، تبلغ عدتهم نحو خمســة آلاف رجــل ، ويقصــدون حلب ، فلم يمض معهم إلى سيف الدولة . وعلى الرغم من المرض الذى ألم بسيف الدولة ، فإنه توغل بعساكره فى الأراضى البيزنطية وحصــل مــن السبى على أكثر من ألفين ، ومن المواشى مائة ألف ، وفرح المسلمون بالنصر على العدو.[٢]

وحــدث فــى الفترة السابقة على هذه الغارات من الفتن الداخلية ما تطلبت من سيف الدولة أن يوجه غلامه نجا إلى حران ، فى طلب هبة الله ابن أخرى سيف الدولة الــذى أعلن الثورة بالجزيرة ، فنزل نجا على حران ، فخرج أهلها إليه ، فأمر بالقبض

---

[١] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٤٠٠-٤٠١، ٤١١-٤١٢.

[٢] انظر ابن الأثير الكامل ، ج٧ ، ص ٧ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢٠١ .

عليهم ، وفرض عليهم غرامة قدرها ألف درهم ، واشتد فى تحصيل هذا المبلغ الضخم منهم ، حتى أدوه له[1].

وفــى نهايــة السنة ، أخذ البيزنطيون يغيرون من جديد على قيليقية ، وتولى قــيادتهم فى هذه المرة ، يوحنا تزيمسكس، الذى صار دمستقاً للشرق . ففي الشتاء من شــهر ديســمبر ســنة ٩٦٣ - يــناير سنة ٩٦٤م نزل الدمستق فى جيش ضخم على المصيصــة . فأقام عليها سبعة أيام ، ونقب في سورها ما يزيد على ستين نقبا ، غير أنــه لــم يستطع الاستيلاء عليها ، ودفعه أهلها عنها ، فلم يسعه إلا الانصراف بجيشه عــنها ، بعــد أن تعرض عساكره للهلاك لقلة الأقوات وارتفاع الأسعار ، وبعد أن أقام الدمســتق بهذه الجهات خمسة عشر يوماً . وفى أثناء هذا الحصار حدثت معركة تعتبر مــن أعنف المعارك ؛ ذلك أن جيشاً من طرسوس ، تبلغ عدته خمسة عشر ألف فارس وراجــل ، بقيادة أمير طرسوس ، نهض لمساعدة المسلمين فى المصيصة ، فالتقى بهم يوحــنا تزيمســكس فــى أرباض أذنه ، فأحرز المسلمون أول الأمر انتصاراً باهراً ، وأخــذوا يطــاردونهم ، غير أن كميناً للبيزنطيين استطاع أن يحصر نحو أربعة آلاف راجــل ، فلقــوا مصــرعهم ومن تبقى من العساكر انحازوا إلى تل بعد أن تخلوا عن دوابهــم ، وقاتلوا البيزنطيين يومين . وفى اليوم الثالث ، تقدم يوحنا تزيمسكس صفوف جيشــه ، فارتقى التل ، والتحم الفريقان فى معركة استحر فيها القتال ، برغم قلة عدد المســلمين . فهلك معظم الجنود الإسلامية ، واشتهر هذا الموضع باسم تل الدم . وذاع خبر هذه الكارثة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وأمسى اسم يوحنا تزيمسكس رمزاً للرعب والخوف .[2]

علــى أن مــا ترتب على غارات النهب والتخريب ، من قلة المؤن ، وازدياد الأحــوال الاقتصادية شدة فى شتاء سنة ٩٦٣ م/٣٥٢هـــ ، أدى إلى أن تنسحب جيوش الفريقيــن مــن قيليقية . فبعد أن أحرق الدمستق أرباض المصيصة وطرسوس وأذنة ،

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٦-٧.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٩، ١١، ١٣-١٤

شــرع فــى الــرجوع ، بعد أن ترك حاميات فى بعض الحصون والمواقع . وتراجع المســلمون إلــى ما وراء الأمانوس . وعلى الرغم من قدوم الخراسانيين لنجدة سيف الدولــة ، ونهوضه معهم إلى المصيصة ، فإن ما جرى من انصراف البيزنطيين ، وما حــدث مــن شــدة الغــلاء وقلة الأقوات جعلهم يتفرقون فى الثغور وعاد سيف الدولة بجماعة منهم إلى حلب ، ورجع أكثرهم إلى بغداد .

وما استولى عليه تزيمسكس من المواضع والحصون ، لم تلبث بعد عودته أن عــادت إلــى يد المسلمين ، برغم ما أشار إليه تزيمسكس عند انصرافه عن المصيصة وأذنــه وطرســوس ، مــن أن انصرافه لم يكن "لعجز ، ولكن لضيق العلوفة ، وشدة الغلاء ، وأنا عايد إليكم ، فمن انتقل منكم ، فقد نجا ، ومن وجدته بعد عودتى قتلته".[1]

إلا أن نقفــور ، قرر أن يقود بنفسه الجيش لمواصلة القتال ضد سيف الدولة . فخــرج فــى ربــيع سنة ٩٦٤ م/٣٥٣هــ من القسطنطينية على رأس جيش ضخم ، اشــترك فــيه أجــناس عديــدة ، من أبرزها الأرمن والكرج ، وجماعات من البنادقة والأمالفيين .

توجــه الجــيش أول الأمــر لمهاجمة عين زربة ، ثم أذنه ، فاستولى عليهما وعلــى مــا يجاورهمــا من القلاع التى بلغ عددها عشرين حصناً . وإذ اجتاز نقفور الأمــانوس دون مقاومــة ، أضــحى مستعداً للمضى فى غزو بلاد الشام ، بما استولى علــيه من الحصون القريبة من الدروب المؤدية إلى الشام . غير أنه حدث ما أدى إلى أن يــتوقف الجيش البيزنطى فجأة ، وجرى الاعتقاد بأن السبب يرجع فيما يبدو إلى أن الجــيش إنما يستعد للزحف على المصيصة وطرسوس ، حتى إذا قضى نهائياً على ما يــتعرض له من هذين الحصنين المنيعين من مقاومة عنيفة ، وساد الأمان الأرض التى تقــع مــن وراء جيوشــه ، انطلق لمهاجمة حلب . غير أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، والراجح أن السر فى تراجع نقفور عن عزمه ، هو أنه أدرك أن الشتاء صار وشيكاً ، فــلا يســتطيع المضى فى حصار حصنين منيعين مدة طويلة . ولذا رأى أن يتريث ،

---

[1] انظر، مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢٠١-٢٠٣ .

فعبر بجيشه الجبال من جديد ، وتوجه ليقضى فصل الشتاء عند أطراف قبادوقيا ، حيث لحق بالإمبراطورة والأميرين الصغيرين فى قلعة Drizibion (حاضرة قيصرية)، وأبقى نقفور حاميات بالمدن التى استولى عليها فى قيليقية ، وتفوقت الجيوش إلى مواطنها .

ثم عاد نقفور للقتال سنة ٩٦٥م /٣٥٤هـ للاستيلاء على المصيصة وطرسوس ، لاسيما بعد أن وقف على ما أصاب البلدين من الضعف ، وأنه لا ناصر لأهلهم ، وأنه لم تبق عندهم أقوات ، حتى لجأ أهل طرسوس إلى أكل الكلاب فنقض ما سبق أن وعد به أهل البلدين ، بأن يقبل منهم إتاوة يؤدونها إليه ، على أن ينفذ إليهم صاحباً له ليقين فيهم . فعزم على أن يرسل جيشاً إلى الشام ، وجيشاً إلى الثغور (قيليقية) وجيشاً إلى ميافارقين حيث كان سيف الدولة الحمدانى يقضى على فتنة قام بها غلامه نجا . ثم إن نقفور أنفذ إلى المصيصة قائداً من قبله ليحارب أهلها ، ولم يلبث أن قدم بنفسه فأقام عليها ، وفتحها عنوة بالسيف ، ووضع السيف بأهلها ، فأجرى مقتلة مريعة ، ثم أمر أن يساق من بقى فى المدينة من الرجال والنساء والصبيان إلى القسطنطينية ، وكانوا نحو مائتى ألف شخص على حد تعبير المؤرخين المسلمين .

أما طرسوس ، فإن ما ساد بها من المجاعة ، وما كان من تعذر قدوم مساعدة من قبل سيف الدولة ، الذى انصرف إلى تدبير أمور الجزيرة وأرمينية ، كل ذلك جعل أهلها يعلنون التسليم ، وبذلك حصلوا على شروط لم يحصل على مثلها أهل المصيصة. إذ أنه بعد أن دخل نقفور المدينة ، دعا الرؤساء بها إلى طعامه ، فأكلوا معه ، وأمرهم بالانتقال عنها ، وأن يحمل كل واحد من ماله وسلاحه ما أطاق حمله ، ويترك ما تبقى ، ففعلوا ؛ وسير معهم من يحميهم حتى وصلوا إلى أنطاكية ، وجرى حمل بعضهم فى سفن بيزنطية إلى حيث أرادوا . جعل نقفور من طرسوس مدينة مسيحية ، فاتخذ المسجد اصطبلاً لدوابه ، وأحرق المنبر ، ونقل ما كان فيه من قناديل إلى بلده ، وعين عليها حاكماً من قبله ، وولى على المصيصة حاكماً آخر . ثم قام بعمارة طرسوس وتحصينها ، وجلب إليها المؤن من كل جهة ، فرخص بها السعر فتراجع إليها أهلها ، ودخلوا فى طاعة الملك ، وتنصر بعضهم وعمل الملك على أن

يجعلهـا حصناً ومعقلاً له لمناعتها ولقربها من البلاد الإسلامية وفى نفس السنة استولى الأسطول البيزنطى على جزيرة قبرص ، فتدعمت بذلك القوة البحرية البيزنطية[١] .

وتجـدر الإشـارة إلى أن العالم الإسلامى لم يحرك ساكناً تجاه هذه الأحداث الجسـام ، اللهـم كـافور الأخشيدى ، الذى أرسل أسطولاً محملاً بالقمح والمؤن لأهل طرسـوس إلا أن البيزنطييـن أعاقوا وصوله إلى الشاطئ ، فانصرف عائداً مرة ثانية إلـى مصـر ، بعد أن هاجمته السفن البيزنطية[٢] . ولم ترد الإشارة إلى نهوض سيف الدولـة وتنذاك لمواجهة البيزنطيين ، وذلك يرجع إلى انصرافه إلى القضاء على الفتن الـتي نشـبت فـى الجزيرة وأرمينية وأنطاكية ، وإلى نزوعه إلى مهادنة البيزنطيين وإجراء تبادل الأسرى[٣] ، بعد أن أضحت المدن الكبيرة فى قيليقية فى يد نقفور .

وجـرى الاتفـاق على أن يخرج بدل أبى الفوارس محمد بن ناصر الدولة ، ومـن معـه مـن بنى عمه ، جماعة من أعيان البيزنطيين ، وأن يفادى بغلمان سيف الدولة ، طائفة من البيزنطيين ، وتم الفداء على مرحلتين ، فى المرحلة الأولى ، جرى فداء المشهورين من الجانبين فى حصن الهتاج ، وفى المرحلة الثانية ، حدث تبادل من تبقى من الأسرى وذلك سنة ٩٦٦ م /٣٥٥هـ، عند مقيلة على نهر الفرات ، التى تقع قريباً من سميساط ؛ ولم يحدث الفداء على نهر اللامس ، كما جرت العادة بذلك ، لأنه أصـبح فـى داخل الأملاك البيزنطية . وتقرر أن يبتاع ما تبقى من الأسرى فى البلاد البيزنطـية ، كل واحد بثمانين ديناراً . وبلغ مقدار ما هو مطلوب من الأموال ، لافتداء الأسـرى المسلمين ، نحو ٢٠٠ ألف دينار بيزنطى . والواقع أن أبا الفوارس قام بدور كبـير فى تقرير الفداء والهدنة . وتجدر الإشارة إلى أن أبى فراس الحمدانى افتدى في هذا الفداء[٤].

---

[١] مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢١١ - ٢١٣ .

[٢] مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢١٣ ، هـ١ .

[٣] مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢٢٠ .

[٤] ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٢٠؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ص ١٤٦-١٤٧ .

وتشير بعض الروايات إلى أنه تقرر عقد هدنة بين الجانبين ، وأن البيزنطيين انتهكوا هذه الهدنة ، فسار نقفور بجيوشه إلى بلاد الشام ، فعاث وأفسد بالبلاد ، وعندئذ أرسل سيف الدولة يستنجد أخاه ناصر الدولة (الموصل) ، وينهى إليه أن الإمبراطور عسكر بالدرب ، ومنع رسوله الذى وجهه إليه لإتمام الصلح ، من أن يكتب إليه ، وأعلن نقفور بأنه سوف لا يجيبه إلا من أنطاكية ، وينبغى أن يرحل (سيف الدولة) من الشام ويمضى إلى بلده ؛ ويهادن عنه ، إذ أن أهل أنطاكية بذلوا الطاعة لنقفور ، وقرروا أن يحملوا إليه مالا . ورأى الإمبراطور أنه لابد من المسير إلى بيت المقدس . بعد أن تعرض المسيحيون فيه إلى اعتداء السكان ، ولم ينهض كافور لإعادة حقوق كنيسة القيامة.[1]

وبينما كان سيف الدولة يقوم بتنظيم الدفاع عن حلب ، أغارت القوات البيزنطية على إقليم الجزيرة ، فقصدوا مدينة آمد ، ونزلوا عليها وحصروها ، غير أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، فانصرفوا إلى دارا ، واقتربوا من نصيبين ، فالتقوا بقافلة قادمة من ميافارقين ، فأخذوها ، وهرب الناس خوفاً منهم . وفى الشام ، استولى البيزنطيون على باليس ، ثم نزلوا على منبج ، فأحرقوا الربض . غير أن نقفور لم ينزل الأذى بمدينة منبج ، فسار إلى وادى بطنان متجهاً نحو حلب . فراسل سيف الدولة نقفور فى أمر الصلح ، على أن يؤدى له مالا ، غير أنه رفض ، وأصر على أن يتنازل له سيف الدولة عن نصف الشام . ومن الطبيعى ألا يستجيب لنقفور ، وبعد أن أفسد البيزنطيون بأعمال حلب ، وجرت بينهم وبين العربان اشتباكات ، توجهوا إلى أنطاكية ، فحصروها ثمانية أيام ليلاً ونهاراً ، وبذل نقفور الأمان لأهلها فأبوا ، وحاربوه أشد حرب ، وكان عسكره يفتقر إلى العلوفة والمؤن ، فقرر نقفور الانسحاب إلى الأراضى البيزنطية[2] .

---

[1] مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، هـ ١ .

[2] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٤١٧-٤١٨ .

وبعـد أن انسـحب الإمـبراطور ، أواخر سنة ٩٦٦م/٣٥٦هت . دخل سيف الدولـة حلب ، ومعه قوم من الخراسانية ، غير أن نشاطهم لم يجر إلا بعد وفاة سيف الدولـة فى فبراير سنة ٩٦٧م/٣٥٧هـ . أما نقفور فإنه لم يرجع لمواصلة حروبه فى الشرق إلا سنـة ٩٦٨م/٣٥٨هـ ، لانصرافه إلى قتال البلغار فى شبه جزيرة البلقان.

وما تلى وفاة سيف الدولة من حروب بين المسلمين والبيزنطيين ، إنما تتصف بأنها حروب بين الدولة البيزنطية والشرق الإسلامى ، لا الحمدانيين فحسب ، فالأمراء الحمدانـيون أضحوا ، بعد وفاة سيف الدولة ، من الضعف ما جعلهم يتعرضون لضغط وخطـر البويهييـن ، الذيـن تطلعوا إلى الإستيلاء على الموصل ، كما تعرضوا أيضاً لخطـر الفاطمييـن الذين أرادوا أن يستولوا على حلب ، يضاف إلى ذلك ما وقع بين أفـراد الأسـرة من الحروب الداخلية . ولم يكن عسيراً على الدولة البيزنطية أن توطد سلطانها فى هذه الجهات ، لولا انصرافها إلى الحروب فى أوربا والغرب وبلاد الشام. ولـم يكن للأمراء الحمدانيين من الصفات ما تحلى بها سيف الدولة ، فصاروا يعهدون بقـيادة الجـيوش إلـى قادتهم ، بعد أن كان يتولاها سيف الدولة بنفسه . كما أن روح الجهـاد الديـنى أخـذت تخبو عند خلفاء سيف الدولة ، الذين لم يجدوا غضاضة فى الالتجاء إلى بيزنطة ، إذا اقتضت مصالحهم ذلك .

أمـا الدولـة البيزنطـية فاتخذت خطة الهجوم والتوسع ، ورأى الأباطرة أن يسـتردوا مافقدوه من ممتلكات ، بما فى ذلك فلسطين والأراضى المقدسة ، وسرى فى القسطنطينية وقتذاك روح الحرب الصليبية .

حيـث قـدم نقفور مرة أخرى سنة ٩٦٨م /٣٥٧هـ إلى الشام ، ونزل معرة مصـرين فأخذها ، ثم نزل على معرة النعمان فأحرق جامعها ، وكان الناس قد هربوا فـى كـل الجهـات إلى الحصون والبرارى والجبال المنيعة . ثم سار إلى كفر طاب وشـيرز ثم إلى حماه وحمص ، فدخلها وصلى بكنيستها وأحرق جامعها ، ثم سار إلى عـرقة فافتتحها ثم سار إلى طرابلس فأخذ ربضها ، ثم رجع إلى أنطاكية فأرضاه أهلها بمـبلغ كبير من المال . غير أن نفاد المؤن والقوت ، وصعوبة المسير بالطرق بسبب

الأمطـــار أرغمــه على الارتداد . إلا أنه جدد حصن بغراس ، وجعل به حامية تحت قيادة ميخائيل بورتزس (البرجى) Michel Bourtzes . وظل الإمبراطور فى بلاد الشام شــهرين ، يحــرق الجوامــع ، ويخــرب القــرى ، ووقــع فى أسره جمع كبير من المسلمين.[1]

ومـــا اتخذه نقفور من إجراءات إنما قصد بها الاستيلاء على انطاكية . وجعل علــى القــيادة العلــيا . بطــريقاً آخر اشتهر بمعاناته للحروب ضد المسلمين ، وهذا الــبطريق هو ابن ليو أخى نقفور ، وهو بطرس فوقاس المعروف فى المصادر العربية باسم الطربازى .

وكـــان يخضـــع لأوامـــر بطـــرس فوقاس كل الحاميات المرابطة فى القلاع والمواقـــع الحصينة المتناثرة بجبال طوروس ، والمرابطة فى الحصون الواقعة بأعالى الشـــام . وأصـــدر الإمـــبراطور الأوامر بحشد عدد كبير من العساكر ، فصار تحت بطـــرس مـــن العساكر ما يضارع فى العدد قوات ميخائيل بورتزس (البرجى) . وعهد إلـــيه بأن يحمى من غارات العساكر الحلبية ، ما عزم البيزنطيون الاستيلاء عليه ، من هضـــبة أعـــالى الشام والساحل الفينيقى . يضاف إلى ذلك أنه طلب إليه أن يغير على الأماكـــن والجهات التى يحل بها العدو فلا يجعلهم يخلدون إلى الراحة . وما جرى من الأحـــداث الداخلية أدى إلى ضعف قوة الدفاع عن المدينة ، وبفضل مساعدة المسيحيين بأنطاكـــية، والمســـيحيين مـــن حصـــن بوقا ، استطاع ميخائيل البرجى (بورتزس) أن يســـتولى علـــى جانـــب من سور أنطاكية ، بعد أن أهمل أمره المسلمون ، وغفلوا عن حراسته ، ولم يلبث أن استولى عليها (أنطاكية) بأجمعها بالاشتراك مع بطرس فوقاس، وذلـــك فـــى أكتوبر سنة ٩٦٩م /ذى الحجة ٣٥٨هـــ ، فوضع البيزنطيون السيف فى أهلهـــا ، وأخذوا الشباب من الرجال والنساء ، والصبيان والصبايا ، فحملوهم سبياً إلى بلادهـــم ، وكـــانوا يزيدون على عشرين ألف شخص[2]. والواقع أن أنطاكية وقتذاك لم

---

[1] ابن العديم، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٥٩ ، ابن الأثير الكامل ، ج٧، ص ٣٤ .

[2] ابـــن الأثير، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٦-٣٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٦٢ . انظر أيضاً ، الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ٤٢٠ .

تخضـــع تمامـــاً لسلطان الحمدانيين ، بل غلب على أمرها أحد الأكراد ، ثم رجل أسود مـــن الـــرجال الذيـــن كـــانوا يرابطون فى طرسوس من قبل مصر ، وهو المعروف بالرعيلى ، الذى انضم إليه جماعة ، غير أنه لم يقاوم البيزنطيين ، الذين استولوا على إنطاكية فى ليلة واحدة ، فهرب من جهة البحر ومعه خمسة آلاف إنسان[١] .

أمـــا حلـــب فاغتصب الحكم بها الحاجب قرغوية ، وذلك ٩٦٨م /٣٥٨هـــ ، غـــير أن أبا المعالى بن سيف الدولة حصره بها ، على أن قرغوية استطاع أن يجذب إلى جانبه أهل حلب ، بعد أن أوقفهم على ما تتعرض له مدينتهم من الخطر البيزنطى، وبمـــا قـــام بـــه من عمارة القلعة وتحصينها ، وعمارة أسوار المدينة وتقويتها . وقطع قـــرغوية الدعاء لأبى المعالى سعد الدولة ، وأمر غلامه بكجور ، وشاركه فى الحكم ، وجـــرى الدعـــاء لهمـــا على المنابر ، وكتب اسم بكجور على السكة ، وكان يخاطب قرغوية بالحاجب ، وغلامه بكجور بالأمير.[٢]

وتهـــيأت الفرصـــة للبيزنطييـــن أن يمدوا فتوحاتهم ، ذلك أنه ما كادت تسقط أنطاكـــية فى أيديهم حتى هرع بطرس فوقاس (الطربازى) إلى حلب لمساعدة قرغوية ضـــد أبـــى المعـــالى سعد الدولة ؛ ولما علم أبو المعالى بقدوم البيزنطيين انسحب إلى معـــرة النعمان . والواقع أن البيزنطيين لم يقدموا فحسب لمساعدة قرغوية ، إنما جاءوا طمعاً فى الاستيلاء عليها ، فحاصروها ، واشتد قرغوية فى مقاومتهم ، وظل الحصار البـــيزنطى ما يقرب من شهر ، وتحصن أهل البلد بالقلعة ، وهاجم البيزنطيون المدينة مـــن جهـــة الشمال ، فملكوها ، ثم حصروا قلعتها بعد أن لجأ إليها قرغوية وعسكره . على أن المفاوضات لم تلبث أن جرت بين قرغوية وبين بطرس فوقاس ، وانتهت بعقد

---

[١] ابـــن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، د.ت، ج٤ ، ص ٢٦ – ٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص ٣٧.

[٢] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٦٠ – ١٦١؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب من تاريخ حلب، دمشق، ١٩٨٤، ص ٢٠٩-٢١٠.

معـــاهدة ، وذلك فى صفر ٣٥٩هـــ /ديسمبر ٩٦٩م - يناير سنة ٩٧٠م، وهذه المعاهدة أوردها بالتفصيل المؤرخ كمال الدين بن العديم.[١]

وبمقتضى هذه المعاهدة تقرر عقد هدنة دائمة ، مقابل ما يأتى :

- "أن يحمـــل قـــرغويه الجـــزية ، إلى (ملك الروم فى كل سنة) ، عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التى وقعت الهدنة ، عليها دينار ، قيمته ستة عشر درهما إسلامياً .
- أن يحمـــل إلـــيهم (إلى البيزنطيين) ، فى كل سنة ، عن البلاد التى وقعت الهدنة ، سبعمائة ألف درهم . وهذه البلاد والبلاد التى جرت الإشارة إليها هـــى ، حمص ، وجوسيه ، وسلمية ، وحماة ، وشيرز ، وأفامية ، ومعرة الـــنعمان ، وحلـــب ، وجـــبل الســـماق ، ومعرة مصرين ، وقنسرين ، والأثـــارب إلـــى طـــرف البلاد ، الذى يلى الأثارب وهو الرصيف ، إلى أرحـــاب ، إلـــى ماسوفان ،. إلى كيمار ، إلى برصايا ، إلى المرج الذى الذى هو قريب عزاز ، ويمين الحد كله لحلب ، والباقى للروم .
- ومـــن بَرِصـــايا يميل (الحد) إلى الشرق ، ويتصل بوادى أبى سليمان إلى فـــج سُـــنياب، إلـــى نافوذا ، إلى أوانا ، إلى تل حامد ، إلى يمين (نهر) الساجُور ، إلى مسيل الماء إلى أن يمضى ويختلط بالفرات .
- وشـــرطوا أن الأمـــير علـــى المسلمين قرغوية ، والأمر بعده لبكْجور ، وبعدهمـــا ينصـــب ملـــك الروم أميراً ، يختاره من سكان حلب ، وليس للمسلمين أن ينصبوا أحداً .
- لا يؤخـــذ من نصرانى جزية فى هذه الأعمال ، إلا إذا كان له بها مسكن أو ضيعة.

---

[١]ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٦٣ – ١٦٨ .

- وإن ورد عسكر إسلامى ، يريد غزو الروم (البيزنطيين) ، منعه قرغوية، وقال له "امض من غير بلادنا ولا تدخل بلد الهدنة" . فإنه لم يسمع ذلك أمير الجيش قاتله ، ومنعه وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازى لينفذ إليه من يدفعه .

- ومتى وقف المسلمون على حال عسكر كبير ، كتبوا إلى الملك ، وإلى رئيس العسكر ، وأعلموها به ، لينظروا فى أمرها .

- وإن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاة إلى بلد الإسلام ، تلقاه بكْجور إلى المكان الذى يؤمر بتلقيه إليه ، وأن يشيعه فى أعمال الهدنة ؛ ولا يهرب من فى الضياع ليبتاع العسكر الرومى ما يحتاجون إليه ، سوى التبن ، فإنه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شئ .

- ويتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية إلى الحد ، فإذا خرجت من الحد ، عاد الأمير إلى عمله .

- وإن غزا الروم غير ملة الإسلام ، سار إليه الأمير بعسكره ، وغزوا معه كما يأمر .

- وأى مسلم دخل فى دين النصرانية ، فلا سبيل للمسلمين عليه ، ومن دخل من النصارى فى ملة الإسلام ، فلا سبيل للروم عليه .

- ومتى هرب عبد مسلم أو نصرانى ، ذكراً كان أو أنثى ، من غير الأعمال المذكورة إليها ، لا يستره المسلمون ويظهرونه ، ويعطى صاحبه ثمنه ، عن الرجل ستة وثلاثون ديناراً ، وعن المرأة عشرون ديناراً رومية ، وعن الصبى والصبية خمسة عشر ديناراً . فإن لم يكن له ما يشتريه أخذ الأمير فى مولاه ثلاثة دنانير ، وسلمه إليه . فإن كان الهارب معمداً ، فليس للمسلمين أن يمسكوه ، بل يأخذ الأمير حقه من مولاه ويسلمه إليه .

- وإن سرق سارق من بلاد الروم ، واختفى هارباً أنفذه الأمير إلى رئيس العسكر الرومى ليؤدبه .

- وإن دخل رومى إلى بلد الإسلام فلا يمنع من حاجته .

- وإن دخل من بلد الإسلام جاسوس إلى بلد الروم أخذ وحبس .

- ولا يخرب المسلمون حصنا ، ولا يحدثوا حصنا ، فإن خرب شئ أعادوه.

- ولا يقبل المسلمون أميراً مسلماً ، ولا يكاتبوا أحداً ، غير الحاجب وبكْجور ، فإن توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميراً من بلاد الإسلام . ولا يلتمسوا من المسلمين معونة ، بل يُنْصب لهم من يختاره من بلاد الهدنة . وينصب لهم الملك بعد وفاة الحاجب (قرغوية) وبكْجور ، قاضياً منهم ، يجرى أحكامهم على رسمهم .

- وللروم أن يعمروا الكنائس الخربة فى هذه الأعمال ، ويسافر البطارقة والأساقفة إليها ، ويكرمهم المسلمون .

- وإن العشر الذى يؤخذ من بلد الروم ، يجلس عشار الملوك مع عشار قرغوية وبكجور . فمهما كان من التجارة من الذهب ، والفضة ، والديباج الرومى ، والقز غير معمول ، والأحجار ، والجوهر ، واللؤلؤ ، والسندس ، عشرة عشار الملك . والثياب والكتان المزيون ، والبهائم ، وغير ذلك من التجارات ، يعشرة عشار الحاجب وبكْجور بعده ، وبعدهما يعشر ذلك كله عشار الملك

- ومتى جاءت قافلة من الروم ، تقصد حلب ، يكتب الزوار ، المقيم فى الطرف إلى الأمير ، ويخبره بذلك لينفذ من يتسلمها ، ويوصلها إلى حلب وإن قطع الطريق عليها بعد ذلك . فعلى الأمير أن يعطيهم ما ذهب .

وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير ، فعلى الأمير غرامة ذلك" .

وحلف على هذه المعاهدة جماعة من شيوخ حلب مع قرغويه وبكجور ، اللذين بعثا بالرهائن ضماناً لتنفيذ المعاهدة . وما انطوت عليه هذه المعاهدة من حقوق لبيزنطة ، جعلتها أشبه ما تكون بمعاهدة حماية . فإذ وثق الإمبراطور من إخلاص قرغوية وبكجور ، حرص على أن يكون له الحق فى أن ينصب من بعدهما أميراً يثق فى ولائه لبيزنطة ، ولعله كان يرمى من وراء ذلك إلى أن تنضم حلب بالتدريج إلى ممتلكاته . إذ صار أمير حلب مرتبطاً بالإمبراطور بالتزامات حربية وسياسية بالغة الشدة . ومن الملحوظ أيضاً أن هذه المعاهدة حرصت على ألا يعود الحمدانيون مرة أخرى إلى حكم حلب ، ومنعت أهلها من أن يقبلوا أميراً من بلاد الإسلام .

على أن ما هو أهم من ذلك ، أن دخل فى حوزة الإمبراطورية البيزنطية ما يقع إلى غرب حلب وشمالها من إقليم العواصم وجبل النصرية . فصارت حدود بيزنطة تتاخم حدود بلاد الشام الوسطى ومصر .

غير أن ما انطوت عليه هذه المعاهدة من نصوص تتعلق بالممتلكات ، لم يلبث أن جرى إغفال جانب منها ، ذلك أن أبا المعالى سعد الدولة الحمدانى ، الذى أقام بحمص ، مد سلطانه حتى معرة النعمان ، وطلب إليه الحاجب (قرغويه) وبكجور أن يؤدى إلى البيزنطيين قسطاً من مال الهدنة ، فلم يستجيب لهما . كما أن البيزنطيين لم يحتلوا كل المنطقة التى أصبحت فى أيديهم .

والمعروف أن هذه المعاهدة تم إبرامها قبيل اغتيال الإمبراطور نقفور فوقاس، الذى حدث فى ١١ ديسمبر سنة ٩٦٩ م/٣٥٩هـ ، على أثر المؤامرة التى دبرتها زوجته ثيوفانو مع عشيقها يوحنا تزيمسكس ، الذى خلفه فى حكم الإمبراطورية بعد أن تزوج الإمبراطورة[1] .

---

[1] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

والواقع أن ما حدث بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية والمنازعات ، هيأ للبيزنطيين الفرصة للاستيلاء على ما استولوا عليه من البلاد ، وليس أدل على ذلك من إشارة ابن الأثير[1] حينما استولى البيزنطيون على ملاذ كرد سنة ٩٦٩م/٣٥٩هـ "بأنه عظمت شوكتهم ، وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد ، وصارت كلها سائبة ، لا تمتنع عليهم ، يقصدون أيها شاءوا" . ويشير أيضاً إلى أطماع نقفور "جعل همته قصد بلاد الإسلام والاستيلاء عليها ، وتم له ما أراد ، باشتغال الحكام المسلمين بعضهم ببعض، فدوخ البلاد . وكان قد بنى أمره على أن يقصد سواد البلاد فينهبه ويخربه ، فيضعف البلاد فيملكها . وغلب على الثغور الجزيرة والشامية ، وسبا وأسر ما يخرج عن الحصر ، وهابه المسلمون هيبة عظيمة ، ولم يشكوا فى أنه يملك جميع الشام ومصر والجزيرة وديار بكر ، "لخلو الجميع من مانع"[2] . ويذكر المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى[3] : أن المسلمين أيقنوا أن نقفور سوف يستولى على كل بلاد الشام وسائر الأقاليم، إذ أن غارات نقفور أضحت متعة لعساكره ، إذا لم يتعرضوا لأى هجوم ولم يعترضهم أحد . يسير أينما شاء ، ويدمر ويخرب ما يريد ويشتهى ، دون أن يلتقى بأحد من المسلمين ، أو بمن يحول دونه أو يمنعه من أن يعمل ما يريد . فليس فى استطاعة أحد أن يرده أو يقاومه . أما المؤرخ اليونانى ، الذى عاصر تلك الأحداث، وهو ليو الشماس فإنه أشار إلى أنه "لو لم يلق نقفور مصرعه ، لاستطاع أن يمد أطراف دولتهم (البيزنطيين) إلى الهند شرقاً والى تخوم الأرض غرباً ".

الحروب ضد المسلمين فى صقلية :

أما عن العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين فى جنوب إيطاليا وصقلية فقد سبق الإشارة إلى ما حدث سنة ٩٦١ م/٣٥٠هـ من تجديد الهدنة بين الفاطميين والبيزنطيين فى صقلية ، والى أن البيزنطيين ظلوا يدفعون للفاطميين ما هو مقدر

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧، ص ٣٧ .

(٢) الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٣٢٦.

(٣) يحيى الأنطاكى ، تاريخ سعيد بن يحيى الأنطاكى ، نشرة كراتشكوفسكى وفازيلييف ، *PO* ، ج٨، مارس ، ١٩٢٤ ، ص ٨٢٥ – ٨٢٦.

علـيهم مـن الجـزية ، حـتى زمـن نقفـور فوقاس ، ومقدارها ١١ ألف نوميزما .
والمعـروف أن الحسن بن على الكلبى كان يحكم صقلية من قبل الفاطميين . ولما مات الخليفة المنصور الفاطمى ٣٤١هـ /٩٥٠م سار عنها إلى أفريقية ، واتصل بالمعز بن المنصور ، واستخلف على صقلية ابنه أبا الحسين أحمد .

وعـندما تولـى نقفـور عرش الإمبراطورية البيزنطية سنة ٩٥٣م ، بعد أن تبدلـت أحـوال بـيزنطة ، بما حازه نقفور من انتصارات فى الشرق وبعد أن استعاد كريـت وردهـا إلـى الدولة البيزنطية ، وأعاد تنظيم الجيش ، رأى من العار أن يدفع الجـزية للمسلمين بصقلية ، فمنع إرسال الأموال المقررة جزية إلى بلرم . والواقع أن نقفـور قـدر أنـه يسـتطيع أن يهـزم المسلمين فى صقلية بالاعتماد على سكانها من المسـيحيين ، والإفادة من كراهيتهم للمسلمين ، فسير المسلمون فى سنة ٩٦٢م /٣٥١هـ جيشاً بقيادة أحمد بن الحسن ، إلى قلعة طبرمين (تاورمينا) Taormina بصقلية ، وكانـت بـيد البيزنطيين ، فحصروها وهى من أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فامتـنع أهلها . ودام الحصار عليهم ، فلما رأى المسلمون ذلك ، عمدوا إلى الماء الذى بداخلهـا . فقطعوه عنها ، وأجروه إلى مكان آخر ؛ فاشتد الأمر عليهم وطلبوا الأمان . علـى أن يؤمـنوا علـى دمائهم ، ويكونوا رقيقاً للمسلمين ، وأن تكون أموالهم فيئاً ، فأجيـبوا إلى ذلك ، وأخرجوا من البلد ، فامتلكه المسلمون فى ذى القعدة ٣٥١هـ (٢٤ ديسـمبر سنة ٩٦٢م) . وكانت مدة الحصار سبعة أشهر ونصفاً ، وسكن القلعة نفر من المسـلمين ، وصـارت تعـرف بالمعزية نسبة إلى المقر العلوى ، صاحب إفريقية ، والذى تم للفاطميين فتح مصر فى عهده .[1]

وبسـقوط طبرمين ، أضحى بيد المسلمين صقلية بأكملها ما عدا مدينة صغيرة تقـع بالجانـب الشرقى منها ، وهى المعروفة بمدينة رمطة Rametta . فهذا المعقل لم يكـن مـن السـهل الوصول إليه ، لاختفائه بالجبال الواقعة فى أقصى الطرف الشمال الشرقى من الجزيرة ، غير بعيد من مسينا ، ويعتبر آخر معاقل البيزنطيين فى صقلية،

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ٥.

غير أنه لم يلبث أن سقط في يد المسلمين ، بعد أن عجزت بيزنطة عن إنقاذه . ذلك أن المسلمين بعد استيلائهم على طبرمين ، قرروا أن يستولوا على رمطة ، وأن يقضوا على ما تبقى من المقاومة فى هذا الجزء الشرقى من الجزيرة ، فسار جيش إلى رمطة مع الحسن ابن عمار فحصروها وضيقوا عليها ، وذلك فى ٢٣ أغسطس سنة ٩٦٣م/٣٥٢هـ ، أى بعد سبعة أيام من تتويج نقفور فوقاس إمبراطوراً .

وإذ اشتد تأثر نقفور بما حل بطبرمين من الكوارث ، ولما أدركه من الخطر الذى تتعرض له الحامية البيزنطية فى رمطة ، قرر أن يبادر بإرسال النجدات لمنع سقوطها فى يد المسلمين ، ولا شك أن ما تعرض له هذان الموقعان من هجمات ، وما أحس به نقفور من المهانة بدفع الجزية للمسلمين فى الغرب ، على الرغم من انتصاره عليهم فى الشرق ، كل ذلك دفعه إلى أن يرسل حملة ضخمة لإنقاذ صقلية وما منعه عن قيادة هذه الحملة بنفسه ، سوى انصرافه إلى الحروب بالشام . وعلى الرغم من النشاط الوافر الذى بذله فى الإعداد لهذه الحملة ، فإن الأسطول البيزنطى لم يتحرك إلا أثناء سنة ٩٦٤ م/٣٥٣هـ ، لإنقاذ رمطة .

وقد جعل نقفور قيادة هذه الحملة ، على الأقل عند إنزال الفرسان إلى البر لوفرة عددهم ، إلى ابن عمه البطريق مانويل ، ابن الدمستق ليو فوقاس ، وبرغم ما اشتهر به مانويل من النشاط والشجاعة ، فإنه ، على حد قول بعض المؤرخين ، لم يكن كفءً ليتحمل مسئولية هذه الحملة الضخمة لصغر سنه ، وشدة عناده ، وتجرده من الرزانة والتعقل . أما قيادة الأسطول ، وتوجيه العمليات الحربية ، فصارت فى يد الطواشى نيقتاس Nicetas ، شقيق ميخائيل حاجب الإمبراطور . ولم يكن نقفور موفقاً فى هذا الاختيار ، ولعل انصرافه إلى الحرب فى الشام ، أخفى عنه عيوبه . فعلى الرغم من شهرة نيقتاس بالتقوى الشديدة ، والثقافة الواسعة فى أمور الدين ، لم يكن فى وسعه أن يتولى القيادة العسكرية أياً كانت صفتها ، ويعتبر هذا التعيين من قبل نقفور من الأخطاء الخطيرة التى ارتكبها . أما الشخص الثالث الذى صحب الحملة ، باعتباره مستشاراً ، والمشهود بالبر والتقوى ، والحاكم المقبل للثيمات الإيطالية بعد إعادة عمارتها ونظمها ، فهو نقفور الشيخ ، الذى اشتهر فيما بعد بأنه أسقف ميليه

Milet وحاكم إيطاليا البيزنطية . وهذا الرجل الصالح تعلق منذ زمن قديم بالحياة الكيسية ، ولذا أقام بالقسطنطينية ، بين جماعة رجال الدين بالبلاط ؛ وارتقى فى سلك الوظائف فى سرعة . وفى الوقت الذى نتحدث عنه ، أوشك أن يصل إلى أرقى المناصب الأسقفية اشتهر باتزانه وحكمته ، وروحه الهادئة . وجعل الإمبراطور منه مساعداً للبطريق مانويل فوقاس فيما يتعلق بالشئون الدينية ومستشاراً له . واهتم الإمبراطور فى الوقت ذاته بما بلغته الأحوال من السوء فى الأقاليم الإيطالية التابعة لبيزنطة ، وحرص على أن ينقذها مما تعانيه من محنة .

أدرك الإمبراطور أنه ليس فى وسعه إلا أن يجعل فى أيد أمينة طاهرة ، هذه الرسالة الضخمة العسيرة ، التى تتعلق بإعادة النظام والسلام إلى هذه البلاد التى تعرضت منذ زمن طويل لكوارث عنيفة . والواقع أن هذه كانت مهمة نقفور ، إذ أنه من الناحية الرسمية التحق بالحملة البحرية على أنه رئيس رجال الدين بها ، مهمته أن يدعو الله أن يهيئ للجيوش البيزنطية النصر والتوفيق . ثم يلى حكم جنوب إيطاليا ، بعد أن يحل الهدوء والسلام ، باسم الإمبراطور . على أن الإمبراطور لم يوفق إلا فى اختيار نقفور ، وذلك لما اتصف به القائدان الآخران من العيوب والمساوىء .

أقلعت الحملة فى أواخر صيف سنة ٩٦٤م/٣٥٣هـ قاصدة صقلية ، لاستعادتها من يد المسلمين . واشتد اهتمام بيزنطة بإعداد هذه الحملة ، فاشترك فيها عدد كبير من السفن الحربية . وبلغت عدة الجند نحو أربعين ألفاً ، يعتبرون من خيرة عساكر الإمبراطورية ، منهم عدد كبير من الأرمن ، وعدد من الروس المشهورين بقوة مراسهم وشدتهم فى الحروب ، ومنهم بيالصة من آسيا ، عرف المسلمون عنهم شدة البأس والضراوة فى الحروب ؛ وحملت السفن البيزنطية عتاداً كبيراً من أدوات الحرب . وفى خريف سنة ٩٦٤م/٣٥٣هـ أضحت القوات البيزنطية على مقربة من صقلية . والمعروف أن حصار رمطة لا زال مضروباً عليها منذ شهور ، إذ بدأ المسلمون حصارها فى يوم الجمعة ٢٤ أغسطس سنة ٩٦٣ م/٣٥٢هـ.

ولم يكن استعداد المسلمين للحرب بأقل شأناً من استعداد البيزنطيين ، إذ أن أمير صقلية أرسل إلى الخليفة المعز بإفريقية ينهى إليه بما نمى إليه من خبر إيفاد بيزنطة حملة كبيرة إلى صقلية ، وطلب إلى المعز أن يبادر بإرسال العساكر ، بينما شرع هو فى إصلاح الأسطول والعمل على زيادة سفنه ، وجمع الرجال المقاتلة فى البر والبحر ، فأخذ المعز فى جمع الرجال ، وفرق فيهم الأموال الجليلة ، وسيرهم مع الحسن بن على ، والد أحمد أمير صقلية ، فوصلوا إلى صقلية ، فى رمضان سنة ٣٥٣ هـ /أكتوبر سنة ٩٦٤م، فسار بعضهم إلى الذين يحاصرون رمطة ، فكانوا معهم على حصارها . أما البيزنطيون فإنهم وصلوا إلى صقلية ، ونزلوا عند مدينة مسينى فى ١٣ أكتوبر ، ومنها خرجت الجيوش إلى شمال الجزيرة ووسطها ، تهاجم السواحل ، على حين أن مانويل فوقاس Manuel Phocas نهض بفرسانه لمساعدة رمطة . فلما سمع ذلك ، الحسن بن عمار مقدم الجيش الذى يحصر رمطة ، جعل عليها طائفة من جنوده يمنعون من يخرج منها ، وبرز بالعساكر للقاء البيزنطيين ؛ وقدم البيزنطيون فأحاطوا بالمسلمين ، ونزل أهل رمطة إلى من يليهم ، ليقاتلوا المسلمين من وراء ظهورهم ، غير أنه لم يتيسر لهم ذلك ، فتقدموا للقتال ، وقد أصابهم الغرور ، بكثرتهم وبما معهم من العدد . وجرى واشتد الأمر بالمسلمين ، ودفعهم العدو إلى خيامهم ، وأيقن البيزنطيون بالظفر . فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم ، اختاروا الموت ، ورأوا أنه أسلم لهم . فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم ، وحمى الوطيس حينئذ ، وحرضهم على قتال البيزنطيين ؛ وكذلك فعل بطارقة البيزنطيين ، حملوا وحرضوا جنودهم . وحمل مانويل قائد البيزنطيين فأمعن فى قتال المسلمين ، فطعنه المسلمون ، فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من الزرد ؛ فرمى بعضهم فرسه فقتله ، واشتد القتال بين الفريقين ، فلقى مصرعه . وعندئذ حلت الهزيمة بالبيزنطيين ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وظلت الحرب دائرة من الصباح حتى العصر ، وبات المسلمون يقاتلونهم فى كل ناحية ، وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال ، مالا يحصى ، وإذ هلك ما لايقل عن عشرة آلاف من البيزنطيين ، لم يحفل المسلمون بأن يأخذوا كل الأسرى ، وكل ما احتفظوا به منهم هو جماعة من

بطارقـتهم ، ليحصـلوا على فديتهم . وأرسل القائد الإسلامى إلى المعز ، مع الأسرى والروس ، سيفاً هندياً ، وزنه مائة وسبعون مثقالاً جرى استخدامه من قبل فى غزوات النـبى ، علـى حد قول ابن الأثير ، وسار من سلم من البيزنطيين إلى ريو . أما أهل رمطـة فقد ضعفت نفوسهم ، وقلت الأقوات عندهم ، فأخرجوا من فيها من الضعفاء ، وبقى المقاتلة . فزحف إليهم المسلمون ، وضيقوا الخناق عليها ، وظلوا يقاتلونها ليلاً ، فـتقدموا بالسلام فملكوها عنوة ، وقتلوا من فيها ، وسبوا الحرم والصغار ، وغنموا ما فـيها وكان شيئاً عظيماً . على أن الأسطول البيزنطى لم يجرؤ على الخروج من مياه ريـو ، الـتى اجـتمع بها حاميات المدن التى استولى عليها المسلمون . وحينما تقرر الرحـيل إلـى القسطنطينية، ركب الأمير أحمد فى قواته وأصحابه فى المراكب أيضاً، وزحـف إلـيهم فـى المـاء ، وقاتلهم فاشتد القتال بينهم ، وألقى جماعة من المسلمين بأنفسـهم فـى المـاء وخسـفوا كثـيراً من السفن البيزنطية ، فغرقت فكثر القتل فى البيزنطيين ، واكـتمل للمسـلمين النصـر ؛ وتعـرف هذه الموقعة الأخيرة بموقعة المجـاز.[1] وقـد حصـل المسلمون على غنائم وفيرة ، ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى ، فجرى إرسالهم إلى بالرم . ومن هؤلاء الأسرى ، قائد الأسطول البيزنطى ، نيقـياس Nicetas الـذى ظل فى الأسر بالمهدية سنتين ، عكف فى أثنائهما على نسخ عظـات القديـس باسـيل ، ومؤلفـات القديس جريجورى النازيانزى والقديس يوحنا خريوسـتوموس Chrysostome ؛ وهـذا المصـنف لازال محفوظـاً بالمكتبة الأهلية بباريس، وأتم تأليفه فى شهر سبتمبر سنة ٩٦٧ م .

وبعد أن تم للأمير أحمد النصر البحرى الكامل ، صار يهاجم المدن البيزنطية الواقعـة على ساحل كالابريا (قلورية) ، فلما رأى أهلها ما حل بها من التخريب ، وما جـرى مـن تعطل تجارتهم ، وأنه لم يكن لديهم من القوة ما يردون بها للمسلمين ، لم يسعهم إلا أن يلتمسوا منه الهدنة على أموال يحملونها له ، فتقررت الهدنة سنة ٩٦٧م. علـى أن هذه الهدنة انتهت بعد مفاوضات استمرت شهرين إلى صلح نهائى سنة ٩٦٧

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١١-١٢؛ عزيز أحمد، صقلية الإسلامية، ص ٤١؛ منى محمود، العلاقات، ٧٩-٨٤.

م، جـرت فـيه مـراعاة مصـالح الجانبيـن ، على أن الأسباب التى دعت المسلمين والبيزنطيـين إلـى عقد صلح دائم ، وإلى أن تحل المودة بين بلاط القسطنطينية ودار الخلافة الفاطمية فى القيروان ، لابد أنها كانت من القوة والخطورة ما جعل نقفور يقبل مـا ترتـب على الهزيمة من المهانة والذلة دون أن يثأر لها ، ودفعت الخليفة الفاطمى بالقيروان إلى أن يوقع معاهدة معهم ، وهذه الأسباب يصح تلخيصها فى حقيقة واحدة ، تتمثل فيما حدث من زحف الإمبراطور الألمانى أوتو الأول على إيطاليا وتوغله فيها . فما كان من البيزنطيين والفاطميين من امتلاك جنوب إيطاليا ، وجعلهم يتوجسون خيفة مـن تقدم الإمبراطور فى إيطاليا . إذ أعلن هذا الإمبراطور فى كبرياء ، أنه إنما يعمل على إعادة إمبراطورية شارلمان ؛ ولذا استولى على شمال إيطاليا ووسطها . وصارت رومـا والـبابا فى قبضة يده . ولأخذ الأمراء اللومبارديون فى كابوا وبنفنتو وسالرنو ، يستنجدون به ضد نقفور الذى يعتبر سيدهم الشرعى .[1]

سـاد الهدوء والسلام فى مستهل حكم تزيمسكس الذى اغتال نقفور فوقاس عام ٩٦٩م/٣٥٩هـــ ، وتزوج من الإمبراطورة ثيوفانو ، كما سبق القول إذ ظل المسلمون فـى صـقلية وافريقـية ، يحافظون على ما انعقد من الهدنات . والواقع أن الفاطميين انصـرفوا وقـتذاك عن الاهتمام بأمر إيطاليا. ففى فبراير سنة ٩٦٩م/٣٥٩هـ ، توجه جوهر الصقلى بجيشه لغزو مصر باسم الخليفة المعز. وفى أغسطس سنة ٩٧٣م/٣٦٣ هـ ، سار المعز إلى مصر، فدخل الفسطاط بعد شهور من رحيله ، يونية سنة ٩٧٣م/ ٣٦٣هـــ ، أى حوالـى الوقت الذى مات فيه أوتو الأول ، وأنشأ المعز القاهرة التى اتخذهـا عاصمة لدولته . وعهد المعز بإدارة ممتلكاته فى إفريقية إلى يوسف بلكين بن زيرى ، وولى أمر صقلية أبا القاسم بن الحسن بن على .[2]

---

[1] عن سياسة اوتو الأول وأطماعه في ايطاليا، انظر، منى محمود، العلاقات، ص ٨٧-١٠٣؛ رأفت عبد الحميد، الفكر السياسى الأوربى في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٣١-١٣٩.

[2] عـن دخـول الفاطميين إلى مصر وتأسيس الخلافة الفاطمية بها انظر، عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافـة الفاطمية وسقوطها في مصر، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٨٣-١٠٦؛ محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٦١-٧٨.

لـم تجـر حـوادث هامـة فى أملاك بيزنطة بجنوب إيطاليا حتى نهاية حكم تزيمسـكس . ومـا حـدث من الصلح بين البيزنطيين والألمان ، بما جرى من زواج ثـيوفانو من أوتو الصغير ، يعتبر من الأسباب التى قضت على ما كان من تحالف أو هدنة بين البيزنطيين والفاطميين . أما السبب الآخر ، فيرجع إلى أن ما كان يفصل بين حـدود الدولتيـن البيزنطية والفاطمية ، فى آسيا من مسافة ، لم تلبث أن اختفت ، بما حـدث من توسع تزيمسكس فى الشام وامتداد حروبه إلى فلسطين ، وبما أحرزه أيضاً الخلـيفة المعـز مـن انتصارات على القرامطة فى الشام ، فأضحى كل من الحاكمين يواجـه أحدهمـا الآخر فى الشام ، بعد أن فصلت بينها فى الغرب مساحات شاسعة ، باسـتثناء مـا كـان من اشتراكهما فى الحدود عن شواطئ إيطاليا . فوقعت بينهما فى إيطالـيا أحياناً بعض اشتباكات وجرت بينهما أحياناً أخرى محاولات للتقارب بينهما ، مـثال ذلك ما حدث زمن نقفور فوقاس ، من إنقاذ رسول ، نيقولا ، إلى الخليفة المعز الفاطمى ، فى المهدية .

وتعرضـت شواطئ إيطاليا سنة ٩٧٤م /٣٦٥هـ للغارة من قبل أمير صقلية أبـى القاسـم ، الـذى أقامه المعز فى إدارة حكومة صقلية ، إذ أنه توجه فى عساكر المسـلمين ، ومعه جماعة من الصالحين والعلماء ، فنزل مسينيا ، فهرب العدو عنها ، وعـبر المسلمون كسنته فحصروها أياماً ، فسأل أهلها الأمان فأجابهم إليه ، وأخذ منهم مـالاً . ورحل إلى قلعة جلوا ، ففعل بها وبغيرها ما فعله بالمدن والمواقع السابقة . ثم أمـر أخـاه القاسـم أن يذهـب بالأسطول إلى ناحية بريوله ، وبيت السرايا فى جميع قلوريـه (كالابـريا) ففعل ذلك ، فغنم غنائم كثيرة ؛ وقتل وسبى ثم عاد هو وأخوه إلى المديـنة . ولم يهبط الأمير بنفسه إلى الأراضى الإيطالية ، للقيام بعمليات حربية هامة إلا فـيما بعـد ، وذلـك سنة ٩٧٥م /٣٦٩هـ ، حين أمر أبو القاسم بعمارة رمطة ، وكانت قد خربت قبل ذلك ، وعاود الغزو ، وحشد الجيوش ، وسار فنازل قلعة اغاثه، فطلـب أهلهـا الأمـان فأمنهم . وسلموا إليه القلعة بجميع ما فيها ، ورحل إلى مدينة طارنـت ، فهـرب أهلها من وجهه ، فأمر الأمير بهدمها ، فهدمت وأحرقت ، وبعث

بالسرايا فبلغت أذرنت وغيرها ، ونزل أبو القاسم على مدينة عريلية ، فقاتلها ، فبذل أهلها له مالا صالحهم عليه وعاد إلى المدينة .

وحدث فى مايو سنة ٩٧٤م/٣٦٥هـ ، أن أخذت سالرنو تنسلخ عن السيادة البيزنطية ، لما تعرضت له من تدخل باندولف أمير كابوا وبنفنتو ، الذى يمثل الإمبراطور الألمانى فى جنوب إيطاليا ، فلجأ أميرها إلى القسطنطينية يطلب مساعدة تزيمسكس أما نابولى فظل أميرها على ولائه وإخلاصه للإمبراطور البيزنطى ، وحرص على المحافظة على تحالفه معه حتى وفاته سنة ٩٧٧م[1] .

يوحنا تزيمسكس ومسلمو الشرق :

وإذ أمن تزيمسكس جانب الروس والبلغار، بعد انتصاره على سفياتوسلاف ، أمير الروس في عام ٩٧١-٩٧٢م، بعد حروب بين الطرفين استمرت عدة سنوات،[2] ساد الهدوء والسلام إيطاليا بما حدث من زواج ثيوفانو من أوتو الثانى ، وسكنت الأحوال فى داخل البلاد ، بعد القضاء على فتنة بارداس فوقاس ، وحاز من محبة الناس فى بيزنطة ما لم يحظ به غيره من الأباطرة ، بسبب انتصاراته الباهرة على نهر الدانوب، وبفضل ما اتخذه من تدابير سليمة وصالحة ، أمضى فصل الشتاء من ٩٧٢-٩٧٣م فى القسطنطينية، وصار يفكر في مواصلة الحرب فى الشرق الإسلامى، الذى يعتبر مصدر خطر دائم على الإمبراطورية ، وفى شمال الشام ، وفى قيليقية ، التى انتزعها نقفور من المسلمين .

فما حدث من استيلاء البيزنطيين على حلب ، آخر سنة ٩٦٩م/٣٥٩هـ ، وأوائل سنة ٩٧٠م/٣٦٠هـ ، وما ترتب على ذلك من عقد معاهدة ، جرى الاعتراف فيها بالسيادة البيزنطية على إمارة الحمدانيين ، وما تلى ذلك من الاستيلاء على معاقل

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٧١ .

[2] عن العلاقات بين البيزنطيين والروس في عهد يوحنا تزيمسكس والأمير سفياتوسلاف انظر، طارق منصور، الروس، ص ٥٢-٨٧؛ علية عبد السميع الجنزورى، العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية، القاهرة، ١٩٨٩، ص ٩٦-١١٠.

وحصـــون عديدة ، لاسيما أنطاكية ، التى تعتبر حاضرة الجنوب ، كل ذلك أثار نفوس المسلمين ، وجعلهم يتطلعون إلى الانتقام .

يشـــير بعـــض المؤرخين البيزنطيين إلى أنه حدث أوائل عهد تزيمسكس ، أن تـــألف حلـــف قـــوى مـــن المسلمين ، لاسترداد حلب وأنطاكية من أيدى المسيحيين ، واحتشــد لحصار أنطاكية. الواقع أن هذه الرواية البيزنطية ليست إلا صدى لحادث من أهم الأحداث التى وقعت فى الشام ، حين توجه إلى الشام ، قائد جوهر الصقلى ، عقب الاستيلاء على مصر . إذ أن جوهر أرسل إلى الشام جعفر بن فلاح ، فى سنة ٩٧٣م، فاســتولى علـــى أهم مدن الشام ، فدخل دمشق فى محرم سنة ٣٥٩هـــ /ديسمبر سنة ٩٦٩م ، غير أنه حدث في السنة التالية ، أى فى ذى القعدة سنة ٣٦٠هـــ /٩٧١م ، أن أنـــزل بـــه هـــزيمة ساحقة ، تحت أسوار دمشق ، القرامطة وحلفاءهم من الإخشيديين والعباسيين ، ثم قتلوه .

يشـــير يحـــيى بن سعيد الأنطاكى إلى أن جعفر بن فلاح ، أرسل أثناء الفترة الوجـــيزة التى حكم فيها الشام باسم المعز لدين الله الفاطمى ، جيشاً ضخماً ، سيره من دمشـــق تحـــت قيادة غلامه فتوح لمهاجمة انطاكية ، وذلك فى سنة ٣٦٠هـــ /٩٧٠م، فحاصـــر المدينة غير أنه لم يستطع الاستيلاء عليها . وكان تزيمسكس وقتذاك منصرفاً إلـــى قتال البلغار . فلما قدم القرامطة إلى الشام ، بزعامة الحسن بن أحمد القرمطى ، اســـتدعى جعفر بن فلاح غلامه فتوحاً ومن معه من العساكر ، لقتال القرامطة ، وبذلك ارتفع الحصار عن أنطاكية ، غير أنها لم تلبث أن تعرضت لزلزال ، دمر جانباً كبيراً مـــن أســـوارها . فأرســـل تزيمســـكس قائده ميخائيل البرجى المعروف بالطربازى ، وبصحبته أثنى عشر ألف عامل وبناء ، فأصلحوا ما تهدم من أسوارها ، فأعادوها إلى ما كانت عليه .[1]

ومـــن روايـــة يحـــيى بـــن سعيد ، يتبين أن ما منع جنود المعز من مهاجمة أنطاكـــية، سوى إغارة القرامطة على الشام ، أما تزيمسكس فإنه حينما علم بما وقع من

---

[1] ابنة الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢١٠-٢١١.

مهاجمة أنطاكية ، بادر إلى استدعاء قائد ثيم الجزيرة ، الذى يعتبر ، فيما يبدو ، أقرب القادة إلى مسرح الحوادث ، وطلب إليه أن ينهض بقواته لمساعدة أنطاكية ضد المغيرين . وفى نفس الوقت أرسل من قبله قوات حربية بقيادة أقرب الطواشية إليه ، والقائد المعروف البطريق نيقولاوس Nikolaos ، ولعله هو نفس الرسول الذى أوفده من قبل الإمبراطور البيزنطى إلى الخليفة المعز لدين الله وعهد إليه تزيمسكس بقيادة القوات البيزنطية . فلما اجتمعت عنده قوات ثيم الجزيرة أيضاً ، توجه إلى أنطاكية . ولم يورد تفاصيل الحصار من المؤرخين العرب إلا يحيى بن سعيد ، وهو الذى أشار إلى أن ميخائيل البرجى هو الذى تولى حكم أنطاكية بعد هذا الحادث . والمعروف أن ميخائيل البرجى اشترك فى اغتيال نقفور فوقاس ، ولعل ما ناله من حظوة عند تزيمسكس ، إنما كان على سبيل المكافأة مقابل اشتراكه فى هذه الجريمة . والراجح أنه حدث أيضاً فى سنة ٩٧٠ م/٣٦٠هـ ، أن هاجمت القوات البيزنطية ، مواضع عديدة على أطراف أرمينية وإقليم الفرات ، لاسيما حمص .

وفى الشهور الأولى من سنة ٩٧٢م/٣٦٢هـ ، كان تزيمسكس منصرفاً إلى قتال الروس فى البلقان ، وفى السنة التالية ، تجهز لإرسال حملته الأولى على الشام ، التى أنفذها فى سنة ٩٧٤م/٣٦٤هـ . على أن المصادر العربية تشير إلى أنه حدث فى سنة ٩٧٢م /٣٦٢هـ أن أغار البيزنطيون على الرها وضواحيها وعلى أعالى الفرات حتى بلغوا نصيبين ، فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد ، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ، ولم ينهض لردهم أبو تغلب بن حمدان صاحب ديار بكر ، فسار جماعة من أهل تلك البلاد مستنفرين ، وقاموا فى الجوامع ، وذكروا ما فعله البيزنطيون من النهب والقتل والأسر والسبى ؛ وخوفهم أهل الجزيرة ، من الخطر الذى يتهددهم إذا انفتح الطريق أمام البيزنطيين نحو بغداد ، فلما تجمع خلق من أهل بغداد توجهوا إلى دار المطيع لله العباسى ، وحاولوا الهجوم عليها ، فأغلقت الأبواب دونهم ، فأسمعوه ما كره . ولحق آخرون من أهل بغداد ببختيار وهو بنواحى الكوفة يستغيثونه من الروم ،

فوعدهـم بالجهـاد ، وأرسـل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهيز للغزو وأن يستنفر العامة . ثم تقرر أن يعد أبو تغلب من الزاد والعلوفة ما يسعه وجنده في الطريق[1] .

ثـم حـدث فـي سـنة ٩٧٣م/٣٦٣هـ ، أن أغار قائد القوات البيزنطية فى الشـرق، واسمه مليح الأرمنى Mleh، على أعالى الفرات ، وتوغل فى إقليم الجزيرة ، وذلـك لمـا تبين له من أن أحداً لن يمنعه عن مراده ، بعد أن نهب فى السنة الماضية ديـار ربـيعة وديار بكر ، وعزم على أن يستولى على آمد فتوجه إليها ، وبها هزار مـرد، غـلام أبى الهيجاء بن حمدان ، فكتب إلى أبى تغلب (فى آمد) يستنجده ، فسير إلـيه أخـاه أبا القاسم هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق . وجرت الموقعـة علـى نهر دجلة قريباً من ميافارقين ، وذلك فى يوليه سنة ٩٧٣ م / رمضان سـنة ٣٦٢هـ . وكـان الدمستق فى كثرة من العساكر غير أن المعركة وقعت فى مضيق لا تجول فيه الخيل ، فضلاً عن أن البيزنطيين لم يتموا استعدادهم ، ولم يتخذوا أهبـتهم لهـذا اللقـاء ، فانهـزموا ، ووقع مليح أسيراً ، ولقى عدد كبير من العساكر مصـرعهم ، وأرسـل ملـيح ومن وقع فى الأسر من القادة ؛ وكلهم من ذوى الرتب العالـية فى الجيش ، وعدتهم نحو أربعين ، إلى آمد مكبلين بالأغلال . ولقى الدمستق وأصـحابه معاملة طيبة من أبى تغلب ، ثم تقرر إرسالهم إلى بغداد . ولم يزل الدمستق فى الحبس إلى أن مرض سنة ٣٦٣هـ ، فبالغ أبو تغلب فى علاجه ، غير أنه لم يلبث أن قضى نحبه[2] .

ترتب على هزيمة الدمستق ، أن استرد المسلمون كل ما فتحه البيزنطيون من الـبلاد ، وأصـر تزيمسـكس علـى أن ينـتقم لقائده . فعلى الرغم من امتداد الحدود البيزنطـية إلى قيليقية وانطاكية والثغور الشامية ، ومن أن حلب أضحت تدين بالولاء لبـيزنطة ، فلا زال المسلمون خصماً عنيداً ، قوى المراس ، ويدأب على الإغارة على امـتداد الحـدود . فمهما ساءت الأحوال الداخلية فى بغداد ، ومهما جرى من الانقسام

---

(1) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج٤ ، ص ٢٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٤٤ .

(2) ابـن الأثـير ، الكامل ، ج٧، ص ٤٩ ؛ مسكويه ، تجارب الأمم ، ج٢، ص ٣١٢-٣١٣ ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج٤ ، ص ٢٩٦ .

والفتــن الداخلــية ، فــإن ذلك لم يمنع إثارة القلق والاضطراب على الحدود . وتنظيم حمــلات تلقى الرعب فى نفوس سكان الثيمات البيزنطية ، بل تنزل الهزيمة بالجيوش البيزنطــية . ومــن الدلــيل على ذلك ما حل بجيش الدمستق مليح من هزيمة ساحقة . يضاف إلى ذلك ما حدث من ظهور قوة بالغة الخطورة . استقرت فى مصر ، وتتمثل هــذه القوة فى الفاطميين ، الذين هزموا القرامطة ، وساروا إلى الشام لاسترداد الجزء الشــمالى مــنها بعــد أن دان لهــم الجــنوب ، فاصــبحوا بذلــك مصدر خطر على الإمــبراطورية البيزنطــية . فكــان لزاماً على الإمبراطور البيزنطى ، أن يعمل على المحافظة على إمبراطوريته من هذه الأخطار.[1]

حــرص تزيمسكس على أن يغتنم هذه الفرصة ، لإتمام العمل الذى شرع فيه نقفــور فوقاس وقادته ، وذلك بأن يحطم نهائياً الخلافة العباسية ، ويضيف أملاكها إلى إمبراطوريــته ، أو علــى الأقــل ، يجعلهــا تعــترف بزعامته وسيادته . والواقع أن تزيمســكس لم يخطر على باله وقتذاك الفكرة الدينية ، التى تهبه القوة والحماس . على أن مــا اشتهرت به بيت المقدس ، من أنها مدينة مقدسة ، يقصدها الملايين من الحجاج المســيحيين ، وتطلع إليها المسيحيون من سائر أنحاء البلاد ، وفى الوقت ذاته تخضع لســكان الفاطميــن ، كل ذلك يرجح أن الإمبراطور البيزنطى ، الذى اشتهر بالتقوى ، نهــض لتخلــيص هــذه المديــنة ، علــى حد قول المؤرخين المسيحيين ، وردها إلى المسيحيين .

هــذه كانت المشروعات التى دارت فى خاطر الأمير البيزنطى ، ولم تكن هذه الأفكــار جديــدة ، بل تشبع بها من قبل الإمبراطور نقفور فوقاس . فصار حتماً على تزيمسكس أن ينتزع بيت المقدس من أيدى المسلمين ؛ وأن يستولى على ما بأيديهم من أمــلاك فى الشام والجزيرة . وهذه الخطة التى فكر فيها وقتذاك هذا الإمبراطور سبقت مــا فكــر فيه الصليبيون بعد مائة سنة . فما كان للإمبراطور قديماً من حقوق ، وليس الدوافع الدينية فحسب ، هى التى بررت مشروعه الإمبراطور .

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٧٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن الحملة الضخمة التى جرى إعدادها عقب انتهاء الحرب الروسية البيزنطية ، التى كلفت تزيمسكس مالاً وفيراً وتضحيات كبيرة من الرجال ، استغرق تجهيزها أواخر سنة ٩٧٢م ، وطوال سنة ٩٧٣م ، وهى حملة مليح الدمستق التى سبق الإشارة إليها ، والتى انتهت بهزيمة ساحقة ، تعتبر مقدمة ، لهذا المشروع الكبير ، الذى أعده الإمبراطور تزيمسكس . ومن الطبيعى ألا تخفى هذه الاستعدادات على المسلمين ، ومن الدليل على ذلك ، ما أعلنه الناس من السخط على الخليفة المطيع واتهامه بالضعف والعجز ، كما أن هذه الاستعدادات لم يجهل أمرها الغرب ، إذ عمل على تأييدها وتشجيعها ، البنادقة الموالون للإمبراطور البيزنطى . فعلى الرغم من أنه لم يمارس التجارة مع الشرق ، من دول أوربا ، إلا البنادقة والبيازنة والأمالفيون ؛ فإنهم قرروا فى سنة ٩٧١م ، بناء على أمر الدوج بطرس الرابع كانديانو Candiano ، منع كل تاجر من تجار بلادهم من أن يحمل إلى المسلمين، من الحديد والأخشاب ما يلزم لبناء السفن وتسليحها ، كالأخشاب الواردة من غابات دالماشيا ، وفريول Frioul ، واستريا ، أما الأسلحة فكانت على اختلاف أنواعها من الدروع ، والتروس ، والسيوف والرماح ، وسائر الأسلحة الهجومية أو الدفاعية كالتى ترد من مصانع ستريا Styria وكارنثيا ، وبالجملة كل ما يجرى استخدامه ضد المسيحيين . هذا الحظر تقرر تجديده بعد أن تعرض باستمرار للإغفال نتيجة الطمع والنهم . على أن الأباطرة المقدونيين المشهورين بشن الحروب ، استشاطوا غضباً ، لأن قادة السفن البندقية لم يتوانوا عن نقل ذخائر الحرب إلى المسلمين ، الذين يحاربونهم على امتداد السواحل الأسيوية[1] .

وثمة وثيقة أخرى تشير أيضاً إلى هذا الإجراء . وتشير هذه الوثيقة إلى أنه جرى تجديدها فى ريالتو (البندقية) فى السنة الثانية من حكم حنا تزيمسكس. وأنه قدم رسل من قبل حنا تزيمسكس ، وباسيل وقسطنطين ، يحتجون على تجارة الأسلحة

---

(1) هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة / أحمد محمد رضا ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ج١ ، ص ١٢٨ .

والخشب ، التى كانت تمارسها سفن البنادقة مع المسلمين ، "وأنهم هددوهم ، باسم الإمبراطور ، بأنه إذا لم تتوقف هذه المتاجر غير المشروعة ، فسوف تتعرض للتدمير بالحريق ، هذه السفن بحمولتها وشحنها . وهذا هو السر فى أن الدوج بطرس ، اجتمع بابنه البطريرك فيتالى Vitali وبماران Marin ، أسقف أوليفولو Olivolo، وسائر رجال الدين بالبندقية . وشهد الاجتماع عدد كبير من أهالى البندقية ، معظمهم من الأعيان ، وأخذوا يتناقشون فى الوسيلة التى يستطيعون بمقتضاها أن يلطفوا من غضب الإمبراطور ، وأن يعالجوا هذه الحالة . وبعد نقاش طويل ، وصلوا إلى قرار ، تعهد فيه تجار البندقية ، أمام الدوج بأنهم لن يمارسوا مع المسلمين شيئاً من التجارة الممنوعة . وهذه الوثيقة عظيمة الأهمية ، إذ دلت على أن الأمراء المسلمين حصلوا من أوربا على الأسلحة اللازمة لعساكرهم ، فالمعروف أن دمشق اشتهرت وقتذاك بصناعة أسلحة بالغة الإتقان غير أن أثمانها بلغت من الارتفاع ما يجعل من العسير تزويد كل الجيش بها . أما الأخشاب اللازمة لصناعة السفن ، فإن ما ينتج من البلاد الخاضعة للمسلمين ، لم يكف لإنشاء السفن الإسلامية ، ويدل هذا الاتفاق على ما اشتهر به تجار البنادقة من روح استقلالية شديدة ، والأخذ بمبادئ تعتبر غريبة على ذلك العصر أو الزمن . على أن هؤلاء التجار لم يترددوا فى أن يبيعوا للمسلمين الأسلحة والسفن ، مفضلين مصلحتهم الخاصة على مصلحة الإمبراطور البيزنطى .

ونتبين أيضاً من هذا القرار ، المؤرخ فى يوليه سنة ٩٧١م ، ما كان للإمبراطورية البيزنطية وقتذاك من سلطات ، ووضع البندقية إزاءها . ويكفى أن يبعث الإمبراطور البيزنطى من قبله سفارة إلى جمهورية البندقية الناشئة ، تحتج على ما تتعرض له مصالح الإمبراطورية من أضرار ، بما تقوم به من أعمال غير مشروعة ، فيجتمع الدوج بمجلس المدينة ، ويبادرون إلى اتخاذ قرار لترضية الإمبراطور[1] .

---

[1] هايد ، تاريخ التجارة ، ص ١٢٨ – ١٣٠ .

وللدلالـــة علـــى حسن النية ، جرى تطبيق التدابير الصارمة الواردة فى قرار يولـــيه ســـنة ٩٧١م ، علـــى ثلاث سفن ، أقلعت إلى الموانىء الإسلامية ، منها اثنتان توجهـــتا إلـــى المديـــة ، عاصـــمة المعز قديماً ، والقيروان ؛ أما الثالثة فإنها قصدت طـــرابلس . ونظراً لما يعانيه أرباب السفن من الفقر ، تقرر السماح لهم هذه المرة بأن يحملـــوا إلى هذه الموانىء شحنات الخشب . وينبغى ألا نستخلص من هذه الحقيقة أن شـــمال افريقية هى المنفذ الأساسى لتجارة الأخشاب والحديد لم يكترث تزيمسكس أيضاً بوقف هذه التجارة ، ما لم تقم البندقية بنقلها إلى المسلمين فى مصر والشام[1] .

حملة تزيمسكس على بلاد الجزيرة عام ٩٧٤م :

كانت هزيمة البيزنطيين فى عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م فى إقليم الجزيرة وموت مليح الأرمـــنى الدافع الأول لتجريد تزيمسكس حملة للانتقام من المسلمين . أما الأوضاع فى الشام وفى سائر المشرق الإسلامى ، التى تعرضت أراضيه وقتذاك لغزو تزيمسكس ، فتتمـــثل فـــى الإمارتين التى يتولى حكمها من الحمدانيين أبو تغلب (الموصل) ، وسعد (حلـــب) . والمعـــروف أن جانباً كبيراً من أملاك حلب قد جرى انتزاعه من الإمارة ، وأن العاصـــمة تولى أمرها حكام موالون للبيزنطيين . وفى بغداد تولى الخلافة المطيع العباســـى المعروف بالضعف الشديد ، ويخضع لسلطان أمير الأمراء التركى بختيار . وخضـــع جـــنوب الشـــام وفلسطين لسلطة الخلفاء الفاطميين . والراجح أن تزيمسكس استهدف من حملته فى سنة ٩٧٤م/٣٦٤هـ ، تدمير الخلافة العباسية فى بغداد .

لـــم يـــتخذ تزيمســـكس وقواتـــه إلى البلاد الإسلامية الطريق المألوف للقوات البيزنطـــية عبر آسيا الصغرى ، وهو الطريق الذى يجتاز جبال طوروس فى قيليقية ، إنما اتخذ الطريق الذى يقع إلى الشرق ، والذى يخترق وادى الفرات ودجلة ؛ على أن تزيمســـكس ، قـــبل أن يهبط إلى إقليم الجزيرة ، عبر الفرات وتوغل فى إقليم دارون Daron الأرمـــنى ، الذى يتاخم الشاطئ الغربى لبحيرة فان Wan ، أقام معسكره أمام حصـــن Aitziatsperd . والمعـــروف أن آشوط الثالث (٩٥٢ – ٩٧٧م) ، الذى يحكم

---

(١) الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٧٦ – ٤٧٨ .

أرمينـية وقـتذاك لتخـذ سياسـة المسالمة والمهادنة ، فاستطاع أن يحوز ثقة الخليفة العباسـى بـبغداد بعد أن أنزل الهزيمة بأحد الثائرين ، الذى عاث فساداً فى أذربيجان والجزيـرة . وعلـى الرغم من المنازعات بين آشوط الثالث وسائر الأمراء الأرمن ، فـإنهم خـرجوا للقاء تزيمسكس ، بثمانين ألف من العساكر الأشداء ، ليرقبوا حركات الإمـبراطور البـيزنطى الذى حرص على أن يطمئن إلى سلامة موقف ارمينية ، قبل مسيره إلى بغداد .

ولـم تلبث المفاوضات أن دارت بين يوحنا تزيمسكس ، وهو أرمنى الأصل ، وبيـن آشوط الثالث وسائر الأمراء ، فانتهت إلى عقد معاهدة تتضمن تعهد آشوط بأن يمد العساكر البيزنطية بما تحتاجه من الزاد والعلف ، وأن يلحق بالجيش البيزنطى قوة مـن العساكر الأرمن ، للاشتراك فى الحملة الموجهة ضد المسلمين . والراجح أن ما دفـع تزيمسـكس إلـى أن يتحول عن طريقه نحو الشرق ، إلى جهة الجنوب ، سوى حرصـه علـى أن يحصل على قوة من العساكر الأرمن ، من ذوى الخبرة الحربية ، وإن يؤمن ظهر قواته .

ومـا كاد الإمبراطور ينتهى من عقد المعاهدة ، حتى سار جنوباً ، فأغار على الجزيرة وذلك فى خريف سنة ٩٧٤ م/٣٦٤هـ، إذ عبر الفرات بناحية ملطية ، واتخذ طريقه نحو الجنوب الغربى ، قاصداً آمد على نهر دجلة ، التى استردها المسلمون بعد هـزيمة مليح ، فاستولى عليها دون عناء ، وافتدى أهلها أنفسهم ، بما دفعوه من أموال وفـيرة ، وفـى أثـناء الطـريق هـاجم البيزنطيون ميافارقين ، فنهبوها وأشعلوا بها الحـرائق، وحازوا غنائم وفيرة . ثم توجه البيزنطيون نحو نصيبين ، فاستباحوها بعد أن هجـرها سـكانها ، وأقام تزيمسكس بهذه المدينة إلى أن تقرر الحال بينه وبين أبى تغلـب بـن حمدان ، على هدنة ومال ، يتعهد بدفعه إليه كل سنة ، على أن يدفع جانباً منه عاجلاً، على حد تعبير يحيى بن سعيد الأنطاكى .

ولمـا تحقـق لتزيمسـكس ، مـا كان يتطلع إليه من سبقه من الأباطرة ، من الاسـتيلاء على أعالى الجزيرة ، عزم على المسير إلى بغداد . وأدرك أن ما اشتهرت

بـه حكومة الخليفة المطيع العباسى من الضعف ، كفيل بتحقيق هدفه . على أنه لم يرد فـى المصـادر مـن التفاصـيل ، مـا يشرح للوسائل التى اتخذها تزيمسكس لتحقيق مشـروعه . والواقع أنه لم يفصل بينه وبين بغداد مسافة طويلة ، إذ أن فى وسع قوات بيزنطة ، كما يزعم المؤرخون البيزنطيون ، أن يهبطوا من آمد على امتداد نهر دجلة، إلـى بغـداد . ومـع ذلـك لم يتحقق هذا الغرض ، لأسباب لا زالت مجهولة . وارتد تزيمسكس بعساكره نحو الشمال ، بينما جرى فى بغداد من الأحداث ، ما أدى إلى خلع الخليفة المطيع ، وتولية ابنه الطائع ، وذلك لاتهامه بالعجز والضعف إزاء البيزنطيين، ولما وقع من المنازعات بين الشيعة والسنيين ، وثورات عساكر الترك فى بغداد[1] .

وفى صيف هذا العام ٩٧٤م/٣٦٤هـ ، قدم تزيمسكس إلى القسطنطينية بعد أن ترك جيوشه فى مراكزها الأمامية قبالة المسلمين فى طرسوس وأنطاكية .

وفى مستهل الربيع من سنة ٩٧٥م/٣٦٥هـ ، عاد تزيمسكس بجيوشه ، قاصداً مهاجمـة الشام وفلسطين ، والمعروف أن الخليفة الفاطمى ، هو الذى تتعرض أراضيه لهـذا الهجوم ؛ إذ أن الفاطميين باستيلائهم على كل ما كان يخضع للإخشيديين من بلاد الشـام، لتأمين مصر، كان عليهم طرد الحاميات البيزنطية ، التى تحتل أنطاكية وسائر المواضـع الحصينة فى أعالى بلاد الشام وإقليم الساحل ، وإخراجهم إلى ما وراء جبال طـوروس . وينـبغى أيضـاً إلزام أمراء حلب بالاعتراف بالسيادة الفاطمية ، وبذلك يخضع لحكم الفاطميين الجهات الممتدة من وادى النيل إلى قيليقية .

وتجـدر الإشارة إلى استيلاء الفاطميين على دمشق سنة ٩٧٤م /٣٦٤هـ، أى بيـنما كان تزيمسكس بالجزيرة . على أن أبا محمود إبراهيم بن جعفر لم يحسن السيرة فـى دمشـق هـو وجنده من المغاربة ، فتقرر عزله ، وتولى مكانه ريان الخادم والى طـرابلس ، التى استردها من البيزنطيين . والراجح أن القوات الفاطمية من المغاربة ،

---

[1] عن هذه الأحداث انظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٥٢-٥٣ .

انتزعت من يد البيزنطيين كل المواضع الحصينة التى استولوا عليها منذ زمن نقفور فوقاس[1] .

علـى أن ريان لم يمكث بدمشق طويلاً ، إذ طرده الفتكين قائد القوات التركية فى بغداد عام ٣٦٤هـ فأعاد الخطبة باسم الخليفة الطائع فى دمشق ؛ وحسنت سيرته، فقمع الفتن ، وأصلح كثيراً من أمور الناس ، وأظهر من الشجاعة وحسن التدبير ما ثبت أقدامه ، وأظهر الناس الطاعة له[2] .

ومنذ أواخر سنة ٩٧٤م ، وأوائل سنة ٩٧٥م ، واصل الجند المغاربة المسير ، ولم يتوقفوا إلا بعد أن فشل جعفر بن فلاح فى الاستيلاء على أنطاكية بسبب انصرافه إلى قتال القرامطة الذين هاجموا الشام وقتذاك . على أن نصر الخادم ، الذى خلف ريان فى قيادة الجند ، طرد الحامية البيزنطية من بيروت ، ثم أنزل الهزيمة بالقوات البيزنطية فى موضع قريب من طرابلس ، وهذا الخطر الجديد ليس إلا تمهيداً لزحف الفاطميين نحو أنطاكية .

وترتب على الفوضى الناشبة فى بغداد أن تقرر اتخاذ ساسية إيجابية لمواجهة الأخطار الخارجية ، كما أن ما اشتهرت به أنطاكية من المناعة لم يجنبها ، ما ترتب على قيام الدولة الفاطمية وامتداد سلطانها إلى الشام من الأخطار .

والواقع أن نهوض تزيمسكس فى ربيع سنة ٩٧٥م لغزو بلاد الشام ، إنما يرجع أساساً إلى تحقيق سياسة الإمبراطور نقفور فوقاس ، التى ترمى إلى استعادة بلاد الشام وفلسطين والاستيلاء على بيت المقدس[3] .

ارتحل تزيمسكس من القسطنطينية فى مستهل ربيع سنة ٩٧٥م ، واتخذ طريقه إلى أنطاكية ، حيث أمضى عساكره الشتاء ، بعد الحملة التى توجه بها فى السنة الماضية إلى الجزيرة . ومن أنطاكية ، سار جنوباً ، فى أبريل ، لقتال المسلمين ،

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(2) انظر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧، ص ٦٢-٦٤.

(3) الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٤٨٢.

فاتخذ طريق وادى نهر العاص ، حتى وصل إلى حمص ، وبعد أن أنزل بها الهزيمة، وقبل أهلها دفع الجزية ، توجه إلى بعلبك ، فحاصرها ، ثم استولى عليها وخربها وأخذ جماعة من أهلها . وعبر جيش تزيمسكس جبال لبنان ، وتوجه قاصداً دمشق ، فقاطع أهلها على ستين ألف دينار يحملونها إليه فى كل عام . وتشير رسالة تزيمسكس إلى آشوط الثالث فى سنة ٩٧٥م ، إلى المواضع التى هاجمها واستولى عليها . إذ استولى على بانياس ، وواصل المسير إلى طبرية ، فعين عليها حاكماً بيزنطياً ، ثم توجه إلى عكا ، ولم تلق جيوش تزيمسكس مقاومة من قبل القوات الفاطمية حتى وصل إلى قيصرية[1] .

على أن القوات الفاطمية التى تراجعت أمام تزيمسكس ، لجأت إلى المواضع الحصينة الواقعة على الساحل الفينيقى ، حيث جاءت الإمدادات الوفيرة من جهة البحر، ولذا حرص تزيمسكس على أن يدمر هذه القوات ، قبل المسير إلى بيت المقدس ، حتى لا تتعرض مؤخرة جيشه للهجوم من قبلهم ، وكيما يؤمن طريق مواصلاته . وتحتم على القوات البيزنطية أن تنصرف عن مواصلة السير إلى بيت المقدس ، وأن تتوجه صوب الشمال ، عن طريق الساحل ، لإعادة الأمن والسلام ، قبل المضى إلى بيت المقدس .

استولى تزيمسكس على بيروت ، وأسر أميرها نصر الخادم ، وبعث به إلى بيزنطة ، ثم نزل على طرابلس وقاتلها غير أنه لم يستولى عليها ، ومع ذلك أخذ جنوده يعيثون فساداً فى أراضيها ، وانتصروا على قوة فاطمية صغيرة . ثم واصل السير شمالاً بإزاء الساحل ، فاستولى على جبله ، فخضع له بذلك الساحل الفينيقى والسورى ، من الرملة حتى أطراف إمارة أنطاكية .

ويبدو أنه كان من الضرورى أن يستولى تزيمسكس على بعض الحصون الداخلية فى الشمال ، ولذا بادر بمهاجمتها ، فاستولى على حصن صهيون ، وحصن

---

[1] انظر نص هذه الرسالة فى عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى ، الإسكندرية، ١٩٦٦، ملحق ١ ، ص ١٦٥-١٧١ .

بـــرزويه . وعـــاد تزيمسكس إلى أنطاكية فى سبتمبر سنة ٩٧٥م . ولم يرد فى رسالة تزيمســـكس إلـــى الملك الأرمنى إشارة إلى مسيره من أنطاكية إلى بيزنطة ، وفى ذلك مـــن الدلـــيل علـــى أن هـــذه الرسالة تحررت إما فى أنطاكية ، وإما أثناء مسيره إلى بـــيزنطة. فلـــم يقتصـــر تزيمســـكس علـــى تثبيـــت فتوح نقفور بل عمل على نموها وتوسيعها[1] .

وما أحرزه تزيمسكس من شهرة وصيت ، إنما يرجع إلى انتصاراته الباهرة . ومـــا كاد يعود إلى القسطنطينية من حملته الثانية بآسيا حتى قضى نحبه فى ١٠ يناير ســـنة ٩٧٦م/٣٦٦هـــ . وتضـــاربت الأقوال حول وفاته المفاجئة ، فهل كانت وفاته ناجمـــة عن تسمم أو عن مرض ؟ الواقع أنه لم ترد نصوص تؤكد أحد الأمرين . على أن المـــؤرخ شـــلمبرجيه يرجح أنه مات نتيجة وقوعه فريسة لمرض التيفوس ، ودلل على ذلك بما بذله الإمبراطور من مجهود حربى شاق فى آسيا ، أثناء فصل الصيف ، فـــتعرض لحـــرارة بالغة الشدة ، ولجتاز بلاداً لم تخل من الوخامة ، يضاف إلى ذلك وعورة الطرق التى سلكها ، وقلة المؤن والزاد .

وبوفـــاة تزيمسكس انتهى عهد القادة العظام الذين تولوا العرش البيزنطى فترة مـــن الزمـــن ، ومـــنذئذ عادت السلطة إلى البيت المقدونى الذى ظل يحكم حتى ظهور أسرة كومنين .

توفـــى تزيمســـكس عـــام ٩٧٦م/٣٦٦هـــ ، وتولـــى العرش البيزنطى بعده الإمـــبراطور باسيل الثانى ، الملقب بسفاح البلغار . وفى عهده حدث أن سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى تمكن من العودة إلى إمارة حلب ، بعد أن ظل زمناً طويلاً يتنقل من مدينة إلى أخرى ، منذ طرده من حلب .

---

[1] عن حملة تزيمسكس على البلاد الإسلامية عام ٩٧٥ م انظر، يحيى الأنطاكى، ص ١٤٥-١٤٦ ؛ وانظـــر أيضـــاً ، الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٤٨١ - ٤٨٤ ؛ عمر كمـــال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى، ص ١٤١-١٦٠ .

وتفصيل ذلك ، أن الأمر بحلب صار في أيدي قرغويه وبكجور ، فأحب بكجور أن ينفرد بالحكم دون مولاه ، فألقى القبض على قرغويه سنة ٩٧٥م /٣٦٤ هـ، واستولى على حلب ، واستقر بها[١] . والمعروف أن قرغويه وبكجور ، اعترافاً بالسيادة البيزنطية على حلب ، بعد طرد سعد الدولة الحمداني منها ، فلجأ إلى حمص. وظل يتحين الفرص ، ويتخذ من الوسائل ما يكفل له استرداد إمارته[٢] .

وبفضل ما بذله سعد الدولة من الاقطاعات بحمص لبدو بني كلاب ، واضطراب الأمور بحلب عقب النزاع بين قرغويه وبكجور ، وحرص أهل حلب على مساندة سعد الدولة ، وانصراف الدولة البيزنطية عن تأييد قرغويه نظراً لما ساد من الفتن الداخلية في بيزنطة ، بعد وفاة تزيمسكس سنة ٩٧٦م ، استطاع سعد الدولة أن يسترد حلب وقلعتها سنة ٩٧٧م بعد حصار استمر زمناً طويلاً[٣] . واستقرت له الأمور بحلب حتى سنة ٩٨١م ، لما اشتهر به من المهارة في تجنب خطر كل من البيزنطيين والفاطميين ، إذ أن سعد الدولة اعترف سنة ٩٧٧ بسيادة الفاطميين ، لالتماس رضى الخليفة العزيز الفاطمي من جهة ، ولكسب تأييد الحزب الشيعي القوى بحلب من جهة أخرى . وجدد الحلبيون عمارة المسجد الجامع بحلب ، وزادوا في عمارة الأسوار التي تعرضت للتدمير بسبب ما توالى عليها من الحصارات[٤] . وعلى الرغم من أن سعد الدولة اعترف سنة ٩٧٧م ، بسيادة الفاطميين ، فإن ذلك لم يمنعه ، في الوقت ذاته ، من إظهار الولاء لعضد الدولة بن بويه ، والخليفة العباسي الطائع لله، فوصلته الخلع منهما ، وأقيمت لهما أيضاً الدعوة بحلب ، وحاول سعد الدولة أن يتخلص من التبعية البيزنطية ، فاغتنم فرصة ما وقع من اضطراب في بيزنطة عقب وفاة تزيمسكس ، وحداثة سن الإمبراطورين الصغيرين ، باسيل وقنسطنطين ، فامتنع

---

[١] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٠ ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت، ١٩٠٨، ص ٢٧ .

[٢] يحيى الأنطاكي، ص ١٥٧.

[٣] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٢ ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٧ .

[٤] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٨ .

عـن دفع الجزية التى التزم الحلبيون بدفعها لبيزنطة وفقاً للمعاهدة المبرمة فى ٩٦٩ م / ٣٥٩هـ ، وذلك لأنه رأى أنه لا يلتزم بمعاهدة لم يوقعها ، فضلاً عن تعارضها مع مصلحته .

غير أن المتاعب لم تلبث أن أحاطت من جديد بسعد الدولة ، إذ أنكرت بيزنطة ما لجأ إليه سعد الدولة ، من الامتناع عن دفع الجزية المقررة على حلب . والراجح أيضاً أن سعد الدولة أظهر العطف على الثائر سكليروس ، فزاد سخط الحكومة البيزنطية عليه .

أما الخليفة الفاطمى العزيز ، الذى أصبحت له السيطرة على جنوب الشام ووسطه ، والذى أوشك أن يستخلص دمشق ، بعد أن حلت الهزيمة سنة ٩٧٧م بألفتكين الذى يليها من قبل الخليفة العباسى ، فإنه ساءه ، فيما يبدو انتظام العلاقات بين سعد الدولة والخلافة العباسية ، وتطلع إلى الاستيلاء على إمارة حلب والواقع أن كلا من البيزنطيين والفاطميين ، أخذوا يتحينون الفرص للتدخل فى أمور حلب[1] .

وأول ما تعرضت له حلب من صدمة ، إنما جاءت من قبل البيزنطيين ، إذ أن الدمستق ، بارداس فوقاس Bardas Phocas ، الذى طرد سكليروس من آسيا الصغرى ، فأعاد إليها الهدوء والسكينة ، حرص على توطيد سلطة بيزنطة فى الأطراف الجنوبية. فقدم فى جيش كثيف إلى حلب ، فى نوفمبر سنة ٩٨١م / ٣٧١هـ ، لإلزام أمير حلب بالمضى فى دفع الجزية التى سبق تقريرها على حلب . ولم يستمر القتال طويلا بين البيزنطيين والحلبيين ، إنما دارت المفاوضات بين سعد الدولة ، وبين بارداس فوقاس. وقبل أمير حلب أن يؤدى إلى البيزنطيين كل سنة ، أربعمائة ألف درهم فضة (أى عشرين ألف دينار) . على أن بارداس فوقاس عاد لمهاجمة حلب فى سنتى ٩٨٣م ، ٩٨٥م ، للاطمئنان على أن سعد الدولة لا زال موالياً لبيزنطة ، لاسيما بعد أن حشد الفاطميون قواتهم بدمشق لاستخلاص حلب ، وبعد أن امتنع سعد الدولة عن دفع الجزية ، وأرسل قوة هاجمت دير سمعان الحلبى ، على الحدود بين حلب وأنطاكية ،

---

[1] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٢ – ١٧٣؛ يحيى الأنطاكى، ص ١٥٧.

فلقـــى جماعة من الرهبان مصرعهم ، ووقع فى الأسر كثير من الرهبان ، وكذا التجار الذيـــن لجـــأوا إلـــيه ، يضاف إلى ذلك ما حدث من مسير القوات المحتشدة فى دمشق لمهاجمـــة مـــا بـــيد البيزنطييـــن من المدن الساحلية ، والاستيلاء على حصن بليناس (المعروف حالياً باسم بانياس على البحر المتوسط) . ولم يستطع سعد الدولة أن يصمد طويلا فى القتال ، فطلب من بارداس فوقاس الأمان له ولرعاياه . وتقرر سنة ٩٨٦م / ٣٧٦هـــ عقـــد هدنة بين الجانبين . واستقر الحال بينهما على أن يحمل الحلبيون إلى الإمـــبراطور باســـيل فى كل سنة ما هو مقرر عليهم من المال ، وقدره عشرون ألف دينار ، وأن يؤدوا ما تأخر عليهم من الأموال التى التزموا بها من قبل . والملحوظ أن هذه المعاهدة تم توقيعها فى نفس السنة التى نشبت فيها الحرب البلغارية .

وتوجـــه دوق أنطاكية ليو ميليسينوس لاسترداد حصن بليناس من يد الفاطميين ســـنة ٩٨٥م/٣٧٥هـــ ، غير أنه أعلن عصيانه ، وارتحل بعساكره عن بليناس فاشتد غضـــب الإمـــبراطور . ويـــبدو أنه كانت هناك مؤامرة ضد الإمبراطور باسيل الثانى تجمـــع كـــلاً مـــن لـــيو ميليســـينوس وبـــرداس فوقاس والبراكيموس باسيل . إلا أن الإمبراطور اكتشف خيوط هذه المؤامرة[1] .

وما حدث من إقصاء البراكيموس باسيل عن الحكم سنة ٩٨٦م/٣٧٦هـــ ، دفع الإمـــبراطور إلى أن يترفق فى معاملة الذين اشتركوا معه فى التآمر ضده . فطلب إلى ميليســـينوس العـــودة إلـــى حصـــار بانـــياس واســـتردادها . فأذعن ميليسينوس لأمر الإمـــبراطور ، وألقى الحصار على المدينة ، ودمر أحد أبراجها ، فالتمس من كان فيها من المغاربة (القوات الفاطمية) الأمان ، وانصرفوا إلى دمشق . ثم جدد ميليسينوس ما تخـــرب وعمـــر الأسوار ، وأنزل بالمدينة حامية بيزنطية ، ثم عاد إلى أنطاكية . أما بـــارداس فوقـــاس ، فـــتقرر عزلـــه من وظيفة الدمستق ، والاكتفاء بجعله والياً على أنطاكية[2] .

---

[1] عن أسباب هذا التمرد انظر ، يحيى الأنطاكى، ص ١٦٥.

[2] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٨ .

وحدث في نفس السنة ، ٩٨٦م / ٣٧٦هـ ، أن اعترف سعد الدولة مرة أخرى بسيادة الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، وأمر بذكر اسمه في الخطبة بحلب ، ووصلته خلع العزيز فلبسها . ولعل هذا التقارب بين الأمير الحمداني سعد الدولة ، وبين الخليفة الفاطمي ، إنما حدث بعد أن حلت الهزيمة الساحقة بالجيوش البيزنطية في البلقان ، على يد البلغار سنة ٩٨٦م ، وتردد صداها في سائر أنحاء الشرق[1] .

ثورة برداس سكليروس بين الدعم الإسلامي والمقاومة البيزنطية :

لم يكن عزل البراكيموس باسيل عن منصب الوزارة ، آخر ما صادف باسيل الثاني من سوء الحظ إذ لم يكن الإمبراطور باسيل يتخلص من سيطرة البراكيموس وجبروته ، حتى تحتم عليه أن يواجه أخطاراً جديدة . ففي خريف سنة ٩٨٦م ، عاد الإمبراطور إلى القسطنطينية ، بعد أن حاقت به هزيمة ساحقة ، على يد البلغار في ١٧ أغسطس ، بسبب فتور حماس قادته وتراخيهم . ويشير المؤرخون إلى أن من أسباب ثورة القادة العسكريين على الإمبراطور البيزنطي ، أن بارداس فوقاس ، دمستق الشرق الذي قهر سكليروس ، لم يلبث أن اشتدت ثائرته هو وأصحابه على الإمبراطور ، لأنه لم يلتمس منهم النصيحة حين قرر مهاجمة البلغار ، ولم يلجأ إلى مساعدتهم عند إعداد الحملة وتجهيزها . وبلغ التوتر في بيزنطة أقصاه في الشتاء سنة ٩٨٦م - ٩٨٧م ، بعد أن ترددت الأنباء عن ثورة بارداس فوقاس وقادة الجيش في آسيا وازداد الموقف سوءاً ، بما ورد من أخبار هروب بارداس سكليروس وصحبه من حبس الخليفة العباسي ، بعد أن سمع بما حل بالإمبراطور البيزنطي ، من كارثة في بلاد البلغار ، فظهر من جديد في الأراضي البيزنطية ، وأعلن نفسه إمبراطوراً ، وذلك في مستهل سنة ٩٨٧م .

لم يكد سكليروس يعلم بهزيمة الإمبراطور البيزنطي ، حتى راسل أمير الأمراء في بغداد ، صمصام الدولة ، فسأله إطلاق سراحه ، والتمس منه أن يمده بالمال والرجال ، لمواصلة القتال ضد الإمبراطور باسيل ، مقابل الوفاء بما كان

---

[1] الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٥١٦ .

شـــرطه لوالـــده عضـــد الدولة ، وكاد الاتفاق يتم بينهما ، لو لم يجر بالقسطنطينية من الفتن ما حال دون ذلك[1] .

وتـــم الاتفاق بين صمصام الدولة وسكليروس ، على أنه إذا نجح سكليروس فى حملـــته ضـــد البيزنطيين ، أطلق الأسرى المسلمين الذين بأيدى البيزنطيين ، وأن يسلم إلـــيه ســـبعة حصـــون بيزنطية ، بما يتبعها من الأراضى ، وألا يشن هو ولا أحد من أصـــحابه ، الحـــرب على البلاد الإسلامية[2] . وفى ديسمبر سنة ٩٨٦م / شعبان سنة ٣٧٦هـــ ، أبرم صمصام الدولة معاهدة تحالف مع سكليروس ، فأطلق سراحه وأفرج عـــن أخيه قسطنطين ، وعن ابنه رومانوس ، وعن سائر أصحابه وكانوا زهاء ثلثمائة رجل ، بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالوفاء بذلك[3] . وأطلق لهم دواباً وسلاحاً، مما كان أخذه منهم ، وأمدهم بما يحتاجون له من المال[4] . وبناء على أوامر صمصام الدولـــة ، تولـــى رؤســـاء بنى عقيل وبنى نمير ، الذين يضبطون الطريق الذى يجتاز الجزيـــرة ، اصطحاب سكليروس ومن معه ، فسلكوا بهم الصحارى التى تفصل بغداد عـــن نهـــر الفرات وعن الأطراف المسيحية ، وحرص سكليروس أن يجعل أمره سراً مكـــتوماً ، فاســـتحث مرافقـــيه على الإسراع فى السير ، حتى بلغ ملطية الواقعة على الحدود ، وذلك فى مستهل مارس سنة ٩٨٧م / شوال سنة ٣٧٦هـــ[5] .

وكـــان يلـــى ملطـــية وقـــتذاك من قبل الإمبراطور البيزنطى ، كليب البطريق المعـــروف بالنصرانى ، الذى جعله تزيمسكس من قبل بطريقاً على أنطاكية ، لأنه سلم له حصن برزويه ، الذى كان يليه من قبل سيده ياركوتاج الحمدانى[6] .

---

(١) يحيى الأنطاكى، ص ١٦٦.

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٢٦ ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، جـــ٤ ، ص ٣٠٠ ؛ أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، تحقيق/هـــ .ف. آمدروز، القاهرة، ١٩١٦، ج٣، ص ١١٢ .

(٣) يحيى الأنطاكى، ص ١٦٦.

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، جـــ٧ ، ص ١٢٦ .

(٥) يحيى الأنطاكى، ص ١٦٧.

(٦) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، ص ٢٢٩.

أصدر سكليروس سنة ٩٨٧م/٣٧٧هـ ، الأمر بإلقاء القبض على كليب النصرانى حاكم ملطية ، ومصادرة كل ما عنده من المال والخيل والكسوة ، والاستيلاء على معدات الحامية العسكرية فى ملطية . ثم دعا سكليروس لنفسه بالملك، مثلما فعل منذ سبع سنوات ، واستأنف من جديد النضال والقتال . وتفاقم أمره ، فاجتمع إليه من العرب العقيليين والنميريين الواردين معه عدد كبير ، فضلاً عن كثير من الأرمن ، والمغامرين ، وقطاع الطرق بجبال طوروس[1] .

واستنجد سكليروس بالأمراء المسلمين المجاورين ، ومنهم باذ الكردى ، أمير آمد (ديار بكر) ، الذى عقد معه معاهدة تحالف ، وبمقتضاها أنفذ إليه أخاه أبا على فى عسكر قوى . على أن خبر إطلاق سكليروس من بغداد إنما نقله إلى القسطنطينية نقفور أورانوس Nicephor Uranos ، الذى سبق أن بعث به الإمبراطور باسيل إلى عضد الدولة فى بغداد للتحدث إليه فى أمر تسليم سكليروس . فلما وصل سكليروس إلى ملطية ، ساد الاضطراب والذعر فى العاصمة البيزنطية ، وفى سائر أنحاء الإمبراطورية ، لما اشتهر به سكليروس من الصلابة وشدة البأس ، وقوة الجنان ، والصبر على المضى فى القتال . وأول ما ترتب على ذلك من نتائج ، شيوع الاضطراب والقلق ، وازدياد ميل القادة العسكريين بآسيا ، والساخطين على الإمبراطور ، إلى الثورة والتمرد . وبلغ من شدة الخوف بالقسطنطينية ، أن تحتم على الإمبراطور باسيل أن يعيد بارداس فوقاس ، دمستقاً على الشرق ، فى أبريل سنة ٩٨٧م / ذى القعدة سنة ٣٧٦هـ ، وسير إليه الجيوش ، وطب إليه أن يمضى إلى قتال سكليروس ، وأن يطرده من الأراضى البيزنطية . وحرص الإمبراطور على أن يستوثق من إخلاص بارداس فوقاس ، لأنه سبق أن اشترك فى المؤامرة التى دبرها فى السنة السابقة البراكيموس باسيل ، فأرسل إليه من استحلفه بجميع الآثار المقدسة ، وأخذ عليه العهود والمواثيق بمناصحته وموالاته ، والمحافظة على طاعته . والواقع أن ما اتخذه الإمبراطور البيزنطى من التدبير والاحتياط ، لم يكن إلا من قبيل الأمور

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٧.

الشكلية ؛ إذ أن بارداس فوقاس نفسه لم يلبث أن خرج على طاعة الإمبراطور ، فكتب إلـى سكليروس ، يطلـب منه أن ينفذ إليه أخاه قنسطنطين ، هو زوج أخت بارداس فوقاس ، فبعث به إليه[1] .

ولا شك أن ما أصاب الإمبراطور البيزنطى من هزيمة فى بلاد البلغار ، شجع الارسـتقراطية البيزنطـية على الثورة ، فتجهز سكليروس لغزو آسيا البيزنطية ، ولا زال يدعـى لنفسـه الملك . ولم يكن بارداس فوقاس بأقل طموحاً من سكليروس ، ولم يـنس مـا أنزل به الإمبراطور فى السنوات القليلة الماضية من الإذلال والمهانة ، بأن عزلـه عن دمستقية الشرق ، الذى يتولى صاحبها القيادة العامة للجيوش البيزنطية فى الشـرق . يضـاف إلـى ذلـك أن بـارداس فوقاس اتخذ مثله الأعلى عمه الأكبر ، الإمـبراطور نقفـور فوقاس . على أنه لم يعلن نفسه إمبراطوراً فى ١٥ أغسطس سنة ٩٨٧م/٣٧٧هـــ ، إلا بعـد أن انعقـد فى خرشنة مجلس حضره كبار قادة الجيش ، وكبار أفراد الطبقة الارستقراطية من ملاك الأراضى بآسيا الصغرى ، فأعلنوا تأييدهم المطلـق لـبارداس فوقاس ، نظراً لما اشتهر به الإمبراطور باسيل من الحرص على فرض إرادته على القادة العسكريين ، ومناوأة أطماع الطبقة الأرستقراطية . وبذا صار يتـنازع الحكـم إمـبراطوران فـى آسـيا ، بـارداس سكليروس وبارداس فوقاس ، وإمـبراطوران بالقسـطنطينية . وخشى سكليروس وبارداس فوقاس ، أنهما إذا تشاحنا علـى المسلك ، أفاد من ذلك الإمبراطوران بالقسطنطينية ، فحاولا أن يصلا إلى اتفاق ضد العدو المشترك ، كما يجوزا ملكه ، فيقتسمانه بينهما[2] .

سـبق الإشـارة إلـى أن بـارداس فوقاس هو الذى بدأ بالاتصال بسكليروس والراجح أن هذا جرى بعد المناداة به فى خرشنة إمبراطوراً ، لاسيما أنه لم يفصل بين خرشـنة وبيـن ملطية (مقر سكليروس) ، مسافة طويلة . وتم الاتفاق بينهما ، على أنه إذا أحـرزا النصر ، اقتسما الإمبراطورية ، فيصير لبارداس فوقاس الشطر الأوربى ،

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٧.

[2] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٧.

بمـا فـى ذلـك القسطنطينية ، بينما يحوز سكليروس الشطر الآسيوى[1] . وتقرر أن يـتوجه الجيشان لمهاجمة القسطنطينية ، غير أن رومانوس بن سكليروس ساوره الشك فـى نوايـا بارداس فوقاس ، ولما لم يستمع أبوه لتحذيره ، بأن بارداس إنما يمكر به ، تخلـى عـنه وانطلـق إلى القسطنطينية ، فأنهى إلى الإمبراطور باسيل بما حدث من الاتفاق بين أبيه وبين بارداس فوقاس.[2]

وتحققـت شـكوك رومـانوس ومخاوفه ، فبعد أن اجتمع سكليروس وبارداس فوقـاس مرتين لتدبير أمورهما ، انقض رجال بارداس فوقاس على سكليروس ، فألقوا القـبض علـيه ، وجـردوه مـن شـارات الملـك ، وحملـوه إلى حصن تيروبايون Tyropaeon ، الـذى يعتـبر مـن أهم معاقل أسرة فوقاس ، وتقيم به زوجة بارداس فوقـاس . وصرح بارداس فوقاس أنه سوف يطلق أسيره ، متى تم له ما أراد واستولى علـى الملـك ، فـيوفى له بمـا اتفقا عليه ، وأنه لن يغدر به.[3] ويصف لنا المؤرخ العـربى أبـو شـجاع الحالة العامة لبيزنطة فى تلك الآونة بصورة بليغة فى عباراته التالـية : ".. وانصـرف ورديـس (أى بِرداس فوقاس) فنزل بإزاء قسطنطينية منازلاً لباسـيل وقسـطنطين ملكى الروم . وقد اجتمعت الكلمة عليه وانضوى العساكر وأهل البلاد إليه ، وبقى الملكان فى قل من الناس متحصنين بالمدينة وبحصينها".[4]

وقعت هذه الخيانة فى ١٤ سبتمبر سنة ٩٨٧م / جمادى الأولى سنة ٣٧٧هـ ، أى بعـد أن مضى شهر على تتويج بارداس فوقاس فى خرشنة ، وأعلانه إمبراطوراً . فانحـاز إلـى بارداس فوقاس عدد كبير من أنصار سكليروس ، وتفرق كثير منهم فى سائر البلاد .

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، جـ٧ ، ص ١٢٧ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ١٦٧.

[2] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٨.

[3] أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ،ج٣، ص ١١٤ – ١١٥ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ١٦٨؛ انظر أيضا، طارق منصور ، الروس ، ص ٩٥ .

[4] أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ،ج٣، ص ١١٥ – ١١٦ .

توجـــه بارداس فوقاس بكل قواته صوب الغرب ، إلى القسطنطينية ، فدانت له كـــل الثـــيمات الأسيوية ، وامتد سلطانه إلى دوريليوم ، وبلغت عساكره خريسوبوليس Chrysopolis ، تجـــاه القســـطنطينية ، وذلـــك فى مستهل سنة ٩٨٨م[١] . والواقع أنه جعـــل جيشـــه قسمين ، القسم الأول وهو أكثرهما عدداً ، وأشدهم بأساً ، والمؤلف من الفرســـان والـــرجالة ، تولـــى قـــيادته أخوه البطريق نقفور فوقاس والبطريق كالوسير ديلفيـــناس Kalocyr Delphinas ، توجـــه لاحتلال المرتفعات التى تشرف على خريو بولـــيس والســـاحل الأســـيوى للبوسفور ، واقتصر عمل هذه القوة على إثارة الرعب والخوف فى نفوس أهل العاصمة[٢] .

أمـــا القســـم الثانى من الجيش ، فتولى قيادته ليو ميلسينوس ، وحاصر ابيدوس علـــى الشـــاطئ الأسيوى للدردنيل . وتلقى ليو الأمر بأن يستولى على هذا الموضع ، مهما كلفه ذلك من تضحية ، نظراً لتحكم هذا الموضع فى المضايق ، فيؤدى الاستيلاء عليه إلى منع السفن التى تحمل المؤن ، من الوصول إلى القسطنطينية ، وبذلك تستسلم العاصمة دون إراقة الدماء.[٣]

وبيـــنما ارتفـــع شأن بارداس فوقاس بما توافر له من القوة ، وبما لأسرته من مجـــد ، وبما لقيه من تأييد من الطبقة الأرستقراطية ، تحرج مركز الأسرة المقدونية . إذ صـــارت القسطنطينية مهددة بالجوع ، واستولى البلغار على جانب كبير من الثيمات البيزنطـــية الأوروبـــية ، وأحرزوا انتصارات باهرة على الجيوش البيزنطية . ولم يكن بالقســـطنطينية من القوات ما يكفى للدفاع عنها ، وما يصح الحصول عليه من الثيمات الأوربـــية مـــن القـــوات ، اتخـــذت مواضـــعها على الحدود البلغارية لحراسة المواقع الحصـــينة ودروب الجـــبال . ولم يتبق لدى الإمبراطور إلا حرسه الخاص المؤلف من قوة صغيرة ، والأسطول الراسى فى خريسوكيروس Chrysokeros[٤].

---

[١] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٨. Ostrogorsky, *Byzantine State*, p. 269

[٢] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٣٢ .

[٣] يحيى الأنطاكى، ص ١٦٨.

[٤] Ostrogorsky, *Byzantine State*, p. 269.

ويشـــير يحيى بن سعيد الأنطاكى إلى أن الإمبراطور باسيل جزع من بارداس فوقـــاس "لقـــوة جيوشه ، واستظهاره عليه ، فنفدت أمواله" ، وعندئذ أدرك أنه لن ينقذه مـــن الدمـــار إلا مســـاعدة خارجية . وحرص باسيل على أن يلجأ إلى ما درجت عليه بـــيزنطة من سياسة تقليدية، بأن يجلب من الجند المرتزقة ما يكفل له مهاجمة بارداس فوقـــاس فـــى خريســـوبوليس.فاستدعى إلى القسطنطينية خيرة عساكر الأمير الروسى فلاديمير ، ابن سفياتوسلاف، وما أرسله الروس من نجدة إلى الإمبراطورية البيزنطى، هـــيأ الفرصـــة لوقوع حدث يعتبر من أهم الأحداث التاريخية ، إذ ترتب على ذلك عقد معـــاهدة ، بمقتضـــاها اعتنق المسيحية الأمير الروسى وشعبه ، فضلا عن زواج هذا الأمير ، فلاديمير من الأميرة آن بورفيروجنيتا، أخت باسيل وقسطنطين .[1]

وفـــى ربـــيع ســـنة ٩٨٨م/٣٧٨هـــــ ، هبطـــت إلى الأراضى البيزنطية قوة عســـكرية، مؤلفـــة مـــن ستة آلاف جندى من الروس ، وهى المعروفة باسم الورنك فاستطاعت أن تنقذ الموقف فى الساعة الحرجة .

وفى الفترة من ٩٩١ ، ٩٩٥م ، بينما كان الإمبراطور باسيل يركز كل نشاطه الحـــربى والسياســـى فى إقليم البلقان لمواجهة البلغار ، جاءه من الأنباء الخطيرة ، ما

---

[1] أرســـل الإمبراطور باسيل الثانى سفارة إلى كييف في بداية عام ٩٨٨م لطلب النجدة العسكرية من الأمير الروسى فلاديمير، طبقا للمعاهدات المبرمة بين الطرفين من قبل في أعوام ٩٤٤م، ٩٧٢م. وقد اقـــترح فلاديمير مقابل إرساله للنجدة العسكرية الاقتران بآنا بورفيروجنيتا. ونظرا لأنه لم يكن هناك مفر لأمام باسيل سوى القبول، فقد وافقا على طلب فلاديمير، إلا أن العروس اشترطت تنصير فلاديمير قـــبل الزواج بها. وبالفعل قبل فلاديمير شرط العروس، التى زفت إليه في خرسون، في عام ٩٨٩م. وفـــى المقـــابل أرســـل فلاديمير قوة روسية مؤلفة من ستة آلاف مقاتل من الفارانجيين والروس إلى القســـطنطينية. لمزيد من التفاصيل انظر، أبو شجاع، ذيل تجارب الأمم،ج٣، ص ١١٦؛ ابن الأثير، الكـــامل، ج٧، ص ١٢٧؛ الدمشـــقى، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره/ ا. ميهرن، ليبزج، ١٩٢٣، ص ٢٦٢؛ طـــارق منصـــور، الـــروس، ص ٩٦-١٠٣. *Cedrenus*, II, pp. 444; Obolensky, D., "Cherson and the Conversion of Rus' : an anti revisionist view", *BMGS*, 13(1989), 244-256.

ألــزمه بالمبادرة إلى المسير إلى الطرف الشرقى ، لإمبراطوريته الشاسعة والارتحال إلى أنطاكية ، وشن الحملات على شمال الشام .

المعـــروف أن الفـــترة الواقعة بين سنة ٩٨٦م ، حتى نهاية سنة ٩٨٩م ، وهى السـنة الـتى تم فيها القضاء على فتنة بارداس سكليروس ، اختلطت فيها أحداث فتنتى سـكليروس وبـارداس فوقاس ؛ ولذا تعتبر سنة ٩٨٩م/٣٧٩هـ بداية للأحداث الهامة التى تطلبت تدخل بيزنطة .

وتـبدو آنـذاك أن سياسـة الدولـة الفاطمية فى الشام كانت ترمى إلى امتداد سـلطانها إلـى تلك الجهات ، وما يتبع ذلك من نشر المذهب الفاطمى الشيعى ، وكان لـزاماً أن تصطدم بالقوى المختلفة التى تتنازع الحكم فى بلاد الشام ، ومن هذه القوى إمـارة حلـب التى لازالت تخضع لسلطان الحمدانيين ، والدولة البيزنطية التى تسيطر علـى أنطاكـية وترتبط بحلب بمعاهدة تجيز لها التدخل فى شئونها ، والدولة العباسية الـتى حرصـت علـى مناوءة الفاطميين فى الشام يضاف إلى كل هذه القوى الأمراء المغامـرون الذيـن أرادوا أن يفيدوا من تنازع القوى المختلفة ، من أجل إقامة إمارات مستقلة ، ثم العشائر العربية فى شمال الشام وجنوبه[١] .

سـبق الإشـارة إلـى أن سعد الدولة استعاد ملكه بحلب ، بعد أن تخلص من بكجور وقرغويه ، وإلى أن بكجور دخل فى خدمة الخليفة العزيز الفاطمى ، فولى أمر دمشـق سنة ٩٨٣م ، غير أنه أساء السيرة ، فجمع الأموال لنفسه ، واستند فى ذلك إلى مسـاعدة حلفائـه من البدو . ولم يلبث الوزير يعقوب بن كلس ، الذى يكن له الكراهية أن وشـى بـه عـند الخليفة العزيز بالله ، فأمر بعزله ، وبعث بجيش لطرده من الشام بقيادة منير الخادم ، فلم يجد بكجور بداً من تسليم دمشق إلى قائد الخليفة ، منير الخادم

---

[١] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٧٨ .

الصقلبى سنة ٩٨٩م ، ثم توجه إلى الرقة على نهر الفرات ، فانتزعها من يد أحد غلمان سعد الدولة الحمدانى أمير حلب[١] .

وحاول بكجور من مقره بالرقه ، أن يوطد سلطانه فى تلك الجهات وأن يسترد حلب ، وأن يفيد من القوى المتنازعة ، غير أنه لم يحفل به بهاء الدولة بن بويه ، أو باذ الكردى أمير ديار بكر ، وعندئذ أقام الدعوة للفاطميين ، وراسل جماعة من مماليك سعد الدولة الساخطين عليه ، ينهى إليهم بخبر عزمه على قصد حلب . وأرسل إلى الخليفة الفاطمى ، العزيز بالله ، يطمعه فى حلب ، ويقول له "... إنها دهليز العراق ، ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها.." ، ويطلب إليه إمداده بالعساكر ، فأجابه العزيز إلى ذلك . وطلب إلى والى طرابلس وسائر ولاته بالشام ، أن ينهضوا لمساعدة بكجور فى قتال سعد الدولة أمير حلب . على أن عيسى بن نسطورس الذى خلف يعقوب بن كلس على الوزارة الفاطمية ، لم يكن أقل من سلفه كراهية وبغضاً لبكجور ، فحرض جيوش العزيز بالشام على الانصراف عن مساعدة بكجور[٢] .

حرص أمير حلب ، سعد الدولة الحمدانى ، أول الأمر على أن يدعو بكجور إلى الموادعة "ورعاية حق الرق والعبودية" ، وعرض عليه أن يقطعه من الرقة إلى حمص ، فلم يقبل منه ذلك ، اعتماداً على مساعدة الفاطميين والبدو ، وعلى الحزب المناهض للحمدانيين بحلب . وعندئذ كتب سعد الدولة إلى الإمبراطور البيزنطى ، باسيل ، يخبر ثورة بكجور وعصيانه ، ومحاولته الاستيلاء على حلب ، وطلب إليه أن يصدر أوامره إلى ميخائيل البرجى ؛ دوق أنطاكية البيزنطى ، وإلى سائر ولاة الأقاليم البيزنطية المجاورة بالنهوض إلى مساعدته . وكاتب سعد الدولة أيضاً من مع بكجور من العرب ، يرغبهم فى الإقطاع والعطاء الوفير ، والصفح عنهم لانحيازهم إلى بكجور ، فمالوا إليه .

---

[١] انظر ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٣٥ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ١٧٢.

[٢] ابن الأثير ، الكامل، ج٧، ص ١٥١ .

ومـن المحتمل أن بكجور علم بأمر المراسلات بين سعد الدولة والبيزنطيين ، وما جرى من انصراف العرب عنه ، فبادر بالمسير إلى الناعورة ، على مسافة ثماني أمـيال من حلب ، فتوجه لقتاله سعد الدولة بعساكره ، وبمن انحاز إليه من فرسان بني كـلاب ، الذين يبلغ عددهم نحو خمسمائة فارس ، وفئة من العساكر البيزنطية بعث بها ميخائـيل الـبرجي دوق أنطاكية ، فوقع الصدام عند الناعورة في أبريل سنة ٩٩١م / محـرم سنة ٣٨١هـ ، وأحرز سعد الدولة نصراً حاسماً ، بسبب مهارته في قيادة هذه العناصر المختلفة ، والإحسان إلى الجند بالعطاء والخلع ، يضاف إلى ذلك أنه نجح في استمالة العـرب الذيـن مع بكجور فأمنهم ووعدهم ورغبهم ، فانصرفوا عن بكجور فـدارت عليه الدائرة ولم يلبث أن لقي مصرعه على يد سعد الدولة ، بعد إلقاء القبض عليه أثناء فراره.[1]

وتوجـه سعد الدولة إلى الرقة ، فاستولى عليها وحاز أموال بكجور ، وصادر نوابـه ، وأمـر بالقـبض على أفراد أسرته ، وحملهم إلى حلب ، ولم يعبأ سعد الدولة بـتهديد الخلـيفة الفـاطمي العزيز بالله ، الذي كتب إليه أولاد بكجور يسألونه الشفاعة فـيهم، فطلـب إلـى سعد الدولة أن يسيرهم إليه ، بل إن سعد الدولة أعلن أنه سوف يزحف على مصر ، فسير مقدمة جيشه فعلاً إلى حمص ، ثم نهض للتوجه إلى دمشق، غـير أنـه منعه عن ذلك إصابته بالفالج (الشلل) ، ثم وفاته في ديسمبر سنة ٩٩١م / رمضان سنة ٣٨١هـ.[2]

ولي حكم حلب ، بعد وفاة سعد الدولة ، ابنه أبو الفضائل سعيد الدولة ، وتولى الوصـاية علـيه ، وعلى سائر أهله ، لؤلؤ الكبير ، الذي حرص على توطيد سلطانه ، فزوج ابنته من سعيد الدولة ، ورفع المظالم عن الرعية ، فرد إلى الحلبيين ما سبق أن اغتصـبه الأمراء الحمدانيون ، بأن أعاد الخراج إلى ما كان عليه ، فاستهل بذلك عهداً جديـداً مـن الرخاء . وعلى الرغم من أن العساكر أعلنوا طاعتهم للأمير الجديد ، فإن

---

[1] انظر، ابن الأثير ، الكامل، ج٧، ص ١٥١ – ١٥٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٧٩.

[2] ابن الأثير ، الكامل، ج٧، ص ١٥١ – ١٥٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٨٠ – ١٨١.

جماعـة مـنهم لجـأت إلى الخليفة الفاطمى ، فأحسن استقبالهم ، وعين بعضهم على البلاد. ولجأ إلى مصر أيضاً بعد وفاة بكجور ، وزيره أبو الحسن المغربى ، فعظم أمر حلـب عـند الخليفة الفاطمى ، وصار يشيد بكثرة أموالها ، وهون عليه أمر الاستيلاء علـيها ، فصـادف ذلك هوى عند العزيز بالله ، لاسيما أنه أراد أن ينتقم للإهانة التى وجهها سعد الدولة إلى رسوله .

حـرص الخليفة العزيز بالله على أن يضم حلب إلى ممتلكاته ، فأعد لذلك حملة كبيرة تبلغ عدتها ثلاثين ألفاً ، وجعل عليها القائد التركى بنجوتكين (منجوتكين) ، ولقبه أمـير الجـيوش المنصورة ، وضم إليه أبا الحسن المغربى ، لما له من الخبرة السابقة بـأمور الشـام ، فعهد إليه بأمر تدبير الجيش . وخرجت الحملة من مصر فى نوفمبر سـنة ٩٩١م ، وبلغـت حلـب فى يناير سنة ٩٩٣م ، فارتاع الأمير الحمدانى ووصيه وتحصـنا بالمدينة ، التى حصرها بنجوتكين . فبذل له أبو الفضائل أموالاً كثيرة ، على أن يـرحل عـنه ، وعلى أن يكون أبو الفضائل فى الطاعة ، ويقيم الدعوة الفاطمية ، ويضـرب السـكة باسـم العزيـز بالله ، ويكتب اسمه على البنود فى سائر أعماله ، وبالجملة قبل أمير حلب أن يكون تابعاً للخليفة الفاطمى ، غير أن بنجوتكين رفض ذلك العرض.[1]

وعلـى الرغم مما يقاسيه لؤلؤ من العناء والضيق ، لم يضع الوقت سدى ، فلم يـتخل عـن السياسة التى انتهجها الأمراء الحمدانيون للمحافظة على استقلال إماراتهم الصـغيرة إزاء الدولتيـن القويتيـن المجاورتيـن لها ، وهما الدولة الفاطمية والدولة البيزنطـية ، فلمـا تعرضـت حلـب لخطر الفاطميين ، التمس أميرها المساعدة من الإمـبراطور البـيزنطى باسيل الثانى ، نظراً لما يربط حلب ببيزنطة من معاهدات ، أفادت منها كلما دهمها خطر من الأخطار.[2]

---

[1] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٨٥ – ١٨٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤، ص ١١٨ .

[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٥٤ .

تعرضــت حلب فى الفترة الواقعة بين نوفمبر سنة ٩٩١م/٣٨١هـ ، وسبتمبر سـنة ٩٩٤م/٣٨٤هـ، لأشـد ما وجهه إليها الفاطميون من هجمات ، إذ أن جيوش بنجوتكين فرضت عليها الحصار ، أثناء تلك الفترة ثلاث مرات ، فى يوليه سنة ٩٩٢م وفبراير سنة ٩٩٣م/٣٨٣هـ ، ومارس سنة ٩٩٤م/٣٨٤هـ . واستطاع بنجوتكين أن يستولى علـى البلاد التابعة لإمارة حلب ، وبعض الحصون الواقعة على الحدود بين حلب وأنطاكية وضيق بنجوتكين الخناق على حلب وأصر على إخضاعها ، فشيد إزاء حلب ، مدينة أقام بها الحمامات والخانات والأسواق والمساجد ، واستمر الحصار ثلاثة عشر شهراً ، فأوشكت حلب على الاستسلام والإذعان[1] .

حـدث فـى أثـناء تعـرض حلب للخطر الفاطمى ، أن انصرف باسيل لقتال الـبلغار، والمعـروف أيضـاً أن المعـاهدة التى وقعها كل من الإمبراطور البيزنطى والخلـيفة الفـاطمى فـى ديسمبر سنة ٩٨٧م/٣٧٧هـ ، والتى تقضى بالسلام والهدنة بيـنهما لمـدة سـبع سنوات لم ينته أجلها . على أن الإمبراطور باسيل كتب إلى دوق أنطاكـية ميخائـيل الـبرجى ، يأمره بالمسير إلى حلب ، وفك الحصار عنها ، وعلى الـرغم مـن أن بنجوتكين أرسل إلى البرجى ، يخطره بأنه إنما يقصد حلب ، وأنه لا يتطرق إلى شئ من البلاد البيزنطية ، وأنه لن يجيز لأحد من رجاله أن يفسد فى البلاد البيزنطـية فإنـه لم يحفل بكل ذلك ، بل أمر باعتقال رسول بنجوتكين . وخرج بجيش ضـخم يـزيد فـى عدته على جيوش الفاطميين ، إلا أن منجوتكين عمل على ملاقاة القـوات البيزنطـية منفردة قبل التحامها مع قوات أبى الفضائل ، عند نهر العاصى ، فوقعـت فيهم هزيمة عظيمة ، عادوا على أثرها إلى أنطاكية على أن ما حدث من قدوم الأمـداد والمـؤن من مصر بحراً إلى طرابلس ، وانبعاث الفتن فى بعض المدن التى خضـعت لأنطاكـية مثل اللاذقية ، وما أحرزه بنجوتكين من الانتصار الحاسم ، عند مخاضـة بـنهر العاصى سنة ٩٩٤م/٣٨٤هـ ، على قوات البرجى ومليسينوس ، زاد الموقـف سوءاً فى حلب ، لاسيما أن الأقوات أخذت تنفد ، وارتفعت أسعار الحنطة ،

---

[1] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ١١٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٥٤.

ولــم تجد نفعاً تدابير لؤلؤ[1] . وعندئذ كتب إلى الإمبراطور باسيل ، وأنفذ إليه رسوله ملكونـــا ، وأشـــار لؤلؤ فى كتابه إلى باسيل إلى "أنه متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب ، ومتى أخذت أنطاكية ، أخذت القسطنطينية "[2] .

الــراجح أن الإمبراطور باسيل ، تلقى فى وقت واحد ، أخبار الكارثة المريعة التى حاقت بعساكره فى مخاضة نهر العاصى ، وأنباء الشدة التى عانتها حلب بحصار القوات الفاطمية لها من جميع الجهات ، وخروج بدو الشام والجزيرة للنهب والغنيمة ، وســوء الأحــوال الإقتصادية . ولا شك أن الحزب العسكرى بالقسطنطينية ازداد تعلقا بالمحافظــة على حلب ومنع سقوطها فى يد الفاطميين ، وأدرك ما تتعرض له أنطاكية من خطر إذا سقطت حلب فى يد الفاطميين .

أدرك باســيل خطورة الموقف ، فعلى الرغم من أهمية بقائه فى بلاد البلغار ، ومــن ســوء الأحــوال المناخية ، التى جعلت انتقال العساكر أمراً عسيراً ، عزم على المضى بعساكره إلى حلب ، لمساعدتها ضد الفاطميين . خرج باسيل من بلاد البلغار ، قاصــداً القســطنطينية ، ثم توجه منها فى جيش ضخم ، ازداد قوة بمن انحاز إليه من عســاكر الثيمات فى آسيا الصغرى ، فوصل إلى أنطاكية فى ابريل سنة ٩٩٥م / ربيع الأول سنة ٣٨٥٩هــ .

ثــم خرج باسيل من أنطاكية ، وصحبه بالعساكر ميخائيل البرجى ومليسينوس فقصــدوا حلــب . فلمــا اقترب من حلب ، أرسل إلى أميرها يخطره بقدومه ، وعندئذ أرســل لؤلؤ إلى بنجوتكين يقول "إن الإسلام جامع بينى وبينك ، وأنا ناصح لكم ، وقد وافــاكم ملك الروم بجنوده ، فخذوا لأنفسكم " . ثم جاءته الجواسيس بهذه الأخبار . ولم يســع بنجوتكيــن إلا أن يــرفع الحصار عن حلب ، وأن يحرق الحصن الذى عمره ،

---

[1] ابــن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ١٢٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٩٠

[2] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ١٢٠ ؛ أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، ج٣ ، ص ٢٢٠ .

وجمـيع ما معه من الخيام والعدد ، ودمر الأسواق والخزائن والأبنية التى استحدثها . ثم توجه بجيشه إلى دمشق فى مايو سنة ٩٩٥م . أما الإمبراطور باسيل فاكتفى بتجديد معاهدة التحالف بين بيزنطة وحلب ، وضمنها شروطاً فى صالح المسيحيين المقيمين بحلـب ، لاسـيما أولـئك الذين يمارسون التجارة . ولم يحرص باسيل على أن يضم المدينة إلى ممتلكاته ، بناء على نصيحة أخيه وقادته ، لإدراكه ما يؤدى ذلك إلى اتحاد كلمـة المسـلمين ، ونبذ المنازعات بينهم . على أن باسيل استولى على بعض المواقع الـتى بـأيدى الفاطميين بشمال الشام ، فوقع فى يده شيزر وحمص ، غير أن طرابلس امتنعـت علـيه ، لحصـانتها ، ولمـا اشـتهر بـه سكانها من شدة المراس فى قتال البيزنطييـن. ثـم اسـتولى باسـيل على حصن أنطرطوس وعمره ، وشحنه بالأرمن المقاتلة ، وتوجه بعدئذ إلى أنطاكية[١] .

وبعـد أن توطـد نفـوذ بيزنطة فى تلك الجهات بشمال الشام وعلى الساحل ، باسـتثناء طرابلس ، ارتحل باسيل إلى القسطنطينية ، غير أنه اجتمع قبيل رحليه بنوابه فـى تلـك الجهـات ، لاتخاذ التدابير اللازمة لتأمين حلب ، وحماية الحصون الواقعة بالأطـراف . وأقام أيضاً فترة وجيزة بأنطاكية للنظر فى أحوالها ، فولى عليها دوقا ، يسـمى البطريق داميانوس دالاسينوس Damien Dalassenos ، فجعل له ولاية الشرق ، أمـا ميخائـيل الـبرجي فإنه نظراً لما حل به من الهزيمة الساحقة فى السنة السابقة ، جـرى عزلـه وتقرر أن يلتزم داره[٢] ، فصار من واجب دالاسينوس ملاحظة الخطر الـناجم عـن ضـغط القـوات المصرية وهجماتها ، والاهتمام بحماية حلب ، بعد أن أصبحت تحرس أطراف الإمبراطورية البيزنطية من كل ما تتعرض له من اعتداء[٣] .

---

[١] انظـر ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٥٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ١٢٠ – ١٢١؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٩١ ، ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٣-٤٤ .

[٢] يحيى الأنطاكي، ص ١٧٦-١٧٧.

[٣] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٥٨٥ .

علـــى أن الخطر لازال شديداً ، إذ أدرك كل من أمير حلب ، والخليفة الفاطمي مـــا ترتب على النزاع بينهما ، من تعرض البلاد الإسلامية للخطر البيزنطي . فتوسط فـــي الصـــلح بينهما ، سنة ٩٩٥م/٣٨٥هـــ بدر الحمداني ، وتضمنت المعاهدة بينهما اعـــتراف لؤلـــؤ بخلافة العزيز الفاطمي . وترتب على هذه المعاهدة ، أن دعا العزيز بـــالله الفاطمي إلى الجهاد ، وأعد جيشاً ضخماً للقاء البيزنطيين . ولحرصه على توفير المـــؤن للعســـاكر بعـــد بلوغهم الشام ، طلب إلى وزيره عيسى بن نسطورس ، إنشاء أســـطول يسير إلى طرابلس ، عند مسيره براً[١] . أمر ابن نسطورس بجمع الأخشاب مـــن سائر النواحي وإنشاء أسطولاً في دار الصناعة بمصر ، وحمل إليه جميع الآلات والســـلاح والعـــدد ، وعزم على تسييره ، بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخـــر ســـنة ٣٨٦هـــــ / ٩ مايو سنة ٩٩٦م ، فوقع فيه نار في ذلك اليوم أحرق منه ســـتة عشـــر مركـــباً ؛ فـــاتهم السكان بحريقه التجار اليونانين والامالفيين ، الواردين بالبضـــائع والنازليـــن في دار مانك ، التي لا تقع بعيداً عن دار الصناعة بالمكس[٢] ، وهـــؤلاء الأمالفيون الذين اشتهروا بنشاطهم التجاري في مصر ، تكاثر عددهم منذ ذلك الحيـــن ، وفـــي ذلـــك دليل على قوة الحكومة الفاطمية ، ويقظتها في ضبط الأمور ، وأهمية التجار الأمالفيين بالقاهرة ونمو أعمالهم التجارية واهتمام الخليفة بهم.[٣]

وبناء على أمر الخليفة الفاطمي ، العزيز بالله ، شرع عيسى بن نسطورس في إنشاء أسطول جديد ، فتقرر جمع الأخشاب من كل الجهات ، واشتدت الهمة في إنجاز الأسطول فاكتمل في فترة لا تزيد على ثلاثة شهور إنشاء أربعة وعشرين مركباً ، وتم شحنه بالرجال ، وتقرر تسييره إلى أنطرطوس بعد أن تجددت الاضطرابات في الشام. وتولـــى قـــيادة هذا الأسطول رشيق العزيزي ، وتقرر أن يجتمع في ميناء أنطرطوس بالقـــائد بنجوتكيـــن لاســـتردادها مـــن يـــد البيزنطيين ، وسبق الإشارة إلى أن حامية

---

[١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ١٢١ ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٤٤؛ يحيى الأنطاكي، ص ١٧٨..

[٢] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج٢ ، ص ١٩٥-١٩٦ .

[٣] انظر ، هايد ، تاريخ التجارة ، ص ١١٥ .

أنطرطوس تلقت أمداداً جديدة أثناء اجتياز الإمبراطور باسيل بها . ولم يلبث أن ارتحل مـن أنطاكية دالاسينوس ، لمساعدة أنطرطوس ، التى تعرضت براً لخطر بنجوتكين ، وبحـراً لخطـر الإسطول المصرى . على أن ما حدث من اشتداد العواصف ، وأثرها فـى تحطـيم الأسطول ، أدى إلى ارتداد بنجوتكين عن انطرطوس ، وإلى أن يقع عدد كبير من البحارة أسرى فى يد سكان أنطرطوس[1] .

وفى تلك الأثناء وقع حادث بالغ الأهمية فى تغيير مجرى الأمور ، لا فى بلاد الشـام وحدها ، بل فى أنحاء العالم الإسلامى . ذلك أن الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، نهض بنفسه لقتال البيزنطيين ، فلما بلغ بلبيس ازدادت حالته الصحية سوءاً ، ولم يلبث أن قضـى نحـبه فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ / ١٤ أكتوبر سنة ٩٩٦م ؛ وتم دفنه بالقاهـرة . والواقع أن وفاة الخليفة العزيز ، أنقذت الإمبراطورية البيزنطية من حرب بالغة الخطورة[2] .

تولى الخلافة الفاطمية ، بعد العزيز بالله ، ابنه أبو على المنصور ، الذى تلقب بالحـاكم بأمـر الله ، ولـم يتجاوز عمره أحدى عشرة سنة . صارت الغلبة والسيطرة للمغاربـة الذين تزعمهم ، أحد شيوخ كتامة ، وهو الحسن بن عمار ، فعهد إليه الحاكم بتدبـير الأمور ، وبسط يده فى الإطلاق والعطاء ، والصلات بالأموال والثياب والهدايا . أمـا الـترك الذين ارتفع شأنهم زمن العزيز بالله ، فإنهم فقدوا ما كان لهم من نفوذ . وأبطـل ابن عمار ما استحدثه ابن نسطورس أثناء وزارته ، من رسوم جائرة ومكوس زائـدة ولـم يلبث أن تقرر اعتقال ابن نسطورس ، ثم اغتياله فى فبراير سنة ٩٩٧م / صـفر سـنة ٣٨٧هـ . وبذلـك استولى المغاربة على كل الوظائف التى كان يليها المشارقة (الترك) .

وقـد تـردد صـدى هذه الأحداث فى الشام . فالمعروف أن بنجوتكين التركى اسـتقر والياً على دمشق بعد حملة باسيل على الشام ، فأضحى لا يطمئن على وظيفته

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ١٧٩؛ انظر أيضاً ، لويس، القوى البحرية، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

[2] الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ٥٨٧ .

وحـيـاته ، بعد أن تعرض المشارقة للمهانة والإذلال على أيدى المغاربة ؛ فاضطربت أحوالـه بـبلاد الشـام ، فالتمس المساعدة من الإمبراطور البيزنطى باسيل ، غير أنه انصـرف عنه ، خشية أن يغضب الخليفة الفاطمى وأمير حلب . خرج من دمشق بعد أن انحـاز إلـيه جماعـات البدو العديدة ، لاستخلاص مصر من يد المغاربة فهزمته القـوات الفاطمـية فـى الشام ، ثم سعى برجوان عند الخليفة الفاطمى ، فعفا عنه فقدم بنجوتكين إلى مصر ، وبذلك استمال الحاكم للمشارقة .

وتعرضـت بـلاد الشام فى سنتى ٩٩٧م/٣٨٧هـ ، ٩٩٨م/٣٨٨هـ لكثير من الاضـطرابات والثورات والفتن الداخلية ، وذلك بسبب التنافس بين كل من الإمبراطور البـيزنطى باسيل ، والخليفة الفاطمى ، على امتلاك هذه البلاد الوفيرة الثروة ، واغتنم البيزنطيون ما وقع من الفتن والاضطرابات ، فأخذوا يظاهرون كل من يعصى الخليفة الفـاطمى ، فمن ذلك ما حدث فى صور سنة ٩٩٧م / ٣٨٧هـ ، من حركة ترمى إلى تدمـير سـلطة الخلـيفة الفـاطمى ، إذ اختار أهل صور لهم أميراً من البحارة اسمه العلاقـة، فاسـتنجد بالإمبراطور باسيل بوساطة دوق أنطاكية ، فسير إليه قوة بحرية . غـير أن الوقـت الذى اختاره باسيل لم يكن مناسباً . إذ استقرت الأمور للخليفة الحاكم فـى الشـام ، ثـم وجـه الجيوش لقمع فتنة صور ، وفى الوقت ذاته ، قدم إلى صور أسـطول مصرى مؤلف من عشرين سفينة مشحونة بالعساكر ، وصدرت الأوامر إلى أمـير طـرابلس بالمسير بأسطوله إلى صور أيضاً ، وتوجه إليها أيضاً والى صيدا ، وولاة الجهـات المجـاورة . فاجـتمع على باب صور فى يونيه سنة ٩٩٨م / جمادى الأخـرة سـنة ٣٨٨هـ عـدد كبـير من المقاتلين ، فاشتد القتال فى البحر ، وأثبت الأسـطول الفاطمى تفوقه على البحرية البيزنطية بما أنزله من خسائر فادحة بالأسطول البـيزنطى ، والاسـتيلاء علـى عدد كبير من الأسرى البيزنطيين ، فخمدت الفتنة فى صور ولقى أميرها مصرعه ، وتولى مكانه الحسين بن ناصر الدولة الحمدانى ، فعمل على توطيد سلطة الفاطميين[1] .

---

[1] ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٥٠-٥١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٧٨ .

وحدث أيضاً فى نفس السنة ٩٩٨م ، أن تعرضت أفامية لهجوم عنيف من قبل دوق أنطاكـية ، دالاسينوس ، فنهض لمساعد أفامية عساكر بيروت وصور ودمشق ، وكلهـا خاضـعة لسلطة الفاطميين . فلقى الدوق مصرعه ، وهلك كثير من عساكره ، ووقـع فـى أسـر العساكر الفاطمية أبناء الدوق وجماعة من رؤساء العسكر ، فتقرر حملهـم إلـى مصـر ، حيـث أقاموا بها عشر سنين ، حتى تم افتداؤهم وإعادتهم إلى بلادهم[1] .

ويـبدو أن باسيل استاء مما حل بالبيزنطيين من كارثة شديدة فى أفامية ، وكان وقـتذاك يقاتل البلغار ، والراجح أنه حرص على مسالمة الخليفة الفاطمى . فأرسل فى خريف سنة ٩٩٨ م/٣٨٩هـ أو فى مستهل الشتاء ، سفارة إلى القاهرة ، تعرض على حكومـة الخلـيفة الحـاكم عقد الهدنة ثم إجراء الصلح . ومن المحقق أن الإمبراطور البـيزنطى لم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن ترامى إليه الأنباء المزعجة عن انتصار الجـيش المصـرى فى صور ، بقمع الفتنة التى نشبت بها بتأييد بيزنطة ، وما ترتب على ذلك من مصرع عدد كبير من العساكر البيزنطية ووالى صور . يضاف إلى ذلك مـا حاق بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة فى أفامية ومصرع دوق أنطاكية دالاسينوس . وحـرص الإمـبراطور باسـيل على أن يستتب الأمن والسلام فى الشام ، كيما يتفرغ لأمور بلغاريا إذ كان يخشى أن تغير القوات المصرية فى الشام على البلاد البيزنطية.

ولا شـك أن ما أحرزته العساكر المصرية بالشام من الانتصارات ، هو الذى دفع الخليفة الحاكم إلى أن يبعث إلى الإمبراطور البيزنطى بإجابة غير مرضية ، ومن الدليل على ذلك أن الإمبراطور باسيل عزم على أن يتوجه إلى بلاد الشام مرة أخرى، بعد أن جعل القيادة فى بلغاريا لنقفور أورانوس[2] .

الواقـع أن باسيل لم يقصد من حملته الثانية على الشام سنة ٩٩٩م إلا أن يرد إلـى الجيوش البيزنطية ما فقدته من هيبة ، بعد الهزيمة الساحقة إلى لحقت دالاسينوس

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

[2] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٥٨٩ .

فـــى أفامـــية . وصـــل باسيل بقواته إلى الجسر الجديد الذى يقع على نهر العاصى فى سـبتمبر سـنة ٩٩٩م / ٣٨٩هـ ، والذى لا يبعد كثيراً عن أنطاكية . ثم اجتاز سهل أفامــية ، الــتى دارت بها المعركة العنيفة والتى هلك فيها دوق أنطاكية ، فأمر بتشييد كنيســة بهــذا الموضع ، ثم توجه باسيل إلى شيزر فحاصرها ، والمعروف أن القوات المصــرية اســتردتها بعد مغادرة باسيل للشام بعد الحملة الأولى . وضيق الإمبراطور الخــناق على أمير شيزر ، ابن كراديس ، فلم يسعه إلا التسليم ، بعد أن فقد الأمل فى قــدوم إمــداد لرد العدو عن المدينة . على أنه اشترط على الإمبراطور ، ألا يعترض أحــد مــن العســاكر البيزنطــية ، سبيل رجاله الذين يرغبون فى الخروج معه ، وألا يــتعرض للضــرر والأذى أهــل المدينة وأملاكهم ، وألا يركع أمام باسيل ، لإظهار الــولاء والخضــوع له ، فأجابه إلى ذلك . فخرج من شيزر حاكمها ، ابن كراديس ، بعساكره وصحبه عدد كبير من سكانها ، وتوجهوا إلى حماة وبعلبك ، بينما عمد باسيل إلــى شحن شيزر بالأرمن . ولجأ باسيل وعساكره إلى استخدام أساليب العنف والشدة والتدمــير ، عند استيلائهم على الحصون الواقعة بشمال الشام . فلم تسلم حصون أبى قبــيس ومصياف ورفنيه من التخريب والتدمير بعد الاستيلاء عليها . وحينما لجأ أهل حمــص إلى كنيسة مار قسطنطين ، هاجم من كان بصحبة باسيل من العساكر الروس فأحرقوا الكنيسة وجردوا مبانيها من النحاس والرصاص[1] .

ونســتخلص من ذلك ، ما اقترنت به غارات البيزنطيين فى البلاد الإسلامية ، من النهب ، والإجهاز على الأسرى ، حتى لا يتوافر للأراضى من الرجال من يفلحها ويــزرعها ، وكــيما يتــناقص عدد من يؤدون الخدمة العسكرية ، فضلاً عن تدمير ما صــادفوه مــن الزراعة ، فخلت بذلك ، بعض البلاد من السكان ، وانتشرت المجاعات وهلك عدد كبير من السكان .

علــى أن باســيل اتخذ طريقه إلى الساحل بعد أن حشد أمير دمشق ، جيش بن صمصــامة ، كل ما لديه من العساكر ، وانحاز إليه بقواتهم سائر ولاة الشام ، فاجتمع

---

(١) انظر، ابن العديم ، زبدة الحلب، ج١، ص ١٩٢؛ يحيى الأنطاكى، ص ١٨٣.

بدمشــق مــن العســاكر ما لم يجتمع فيها على حد قول يحيى بن سعيد الأنطاكى زمن المســلمين مــن قــبل للدفاع عن المدينة . أما باسيل وعساكره ، فلم يتخلوا عن سياسة التخريــب والتدمير ، إذ هاجموا حصن عرقه ، فأحرقوه ودمروا قلعته . ثم نزل باسيل فــى ديسمبر سنة ٩٩٩ م / ذى الحجة ٣٨٩هـ على طرابلس ، وزحف عسكره على الحصــن . والمعروف أن هذا الموضع تعرض مرات عديدة لهجوم القوات البيزنطية ، غــير أنهــا لم تستطع الاستيلاء عليه . ولذا حرص باسيل على إحكام حصاره ، فأمر بحفــر خــندق حــول عسكره ، ثم قطع عن الحصن قناة الماء وحمل إليه مركبان من أســطوله مــا يكفــى لدوابه من المؤن والعلف ، ثم شن هجوماً عنيفاً على الحصن فلم يحــرز نجاحاً يذكر . وفى تلك الأثناء بعث باسيل بالسرايا لمهاجمة الحاميات المصرية المــرابطة فــى جبــيل وبــيروت وجــبله ، فوقع فى أيدى البيزنطيين كثر من السبى والأســرى ، فــتقرر حملهــم فــى الســفن إلى حيث تم بيعهم رقيقاً فى أسواق أزمير وسالونيك والقسطنطينية .

علــى أن البيزنطييــن تعرضوا لهزيمة ساحقة فى ديسمبر سنة ٩٩٩م / محرم ســنة ٣٩٠هـ حين هاجموا حصن طرابلس ، وتحتم على باسيل أن يرفع الحصار عن طرابلس ، والرحيل إلى أنطاكية[1] .

مكث باسيل نحو شهر فى أنطاكية ، يناير سنة ١٠٠٠م/٣٩١هـ ، فعين عليها نقفور أورانوس بدلاً من دالاسينوس الذى لقى مصرعه فى أفاميه . وفى عام ١٠٠٠م، أن توجهــت إلــى بــيزنطة سفارة من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، برئاسة أوريســتس Orestss بطريــرك بيــت المقدس لعقد الهدنة ، ولعل ما أحرزه باسيل من انتصــارات فــى الشام ، وما حدث من سخط الحاكم على مؤدبه برجوان ، كان له أثر فــى إجــراء هذا الصلح . غير أن هذه الهدنة لم يتم عقدها إلا أوائل الصيف من سنة ١٠٠١م/٣٩٢هــــ ، ولمدة عشر سنوات . ويعتبر هذا الصلح بداية عصر جديد للسلام بيــن الدولتين الفاطمية والبيزنطية فى أملاكهما بالشام وآسيا الصغرى ، بعد أن عانت

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ١٨٣-١٨٤.

هــذه الــبلاد الــبؤس الشديد والاضطرابات والمعارك الدامية ، سنوات عديدة . وبذلك تهــيأت الفرصـــة لباسيل لمواصلة القتال فى بلغاريا ، إذ ظل أربع سنوات ١٠٠٢ م - ١٠٠٥م فى نضال عنيف مع البلغار فأحرز انتصارات باهرة ، واستولى على حصون عديدة ، وكاد يقع أسيراً فى يده ملك البلغار[1] .

ومـــا وقع من الأحداث فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر الميلادى ، بشمال الشام كانت بالغة الأهمية فى تطور العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية ، ذلك أن أبا الفضائل سعيد الدولة أمير حلب ، قضى نحبه فى أول يناير سنة ١٠٠٢م / ١٥ صفر سنة ٣٩٢هـــ ، فتولى الحكم ولداه ، أبو الحسن على ، وأبو المعالى شريف، فاســتبد لؤلؤ بالأمر دونهما ، ولم يلبث أن سيرهما إلى مصر سنة ٣٩٤هـــ / ١٠٠٣-١٠٠٤م كـــى يـــنفرد بـــالحكم ، وأشـــرك معه ابنه مرتضى الدولة ، واعترف بسيادة الخلـــيفة الحاكم الفاطمى . والراجح أن ما التزمت به حلب من دفع الجزية لبيزنطة لا زال جاريا . ومع ذلك فإن لؤلؤ صار يساوره الشك والقلق من جهة البيزنطيين ، فأخذ يجير خصومهم وأعداءهم[2] .

فمـــا قـــام بـــه الأصفر التغلبى ١٠٠٥م / سنة ٣٩٥هـــ من الدعوة إلى الجهاد الديـــنى وقـــتال البيزنطيـــن ، لقيـــت قبولاً عند البدو وسكان القرى ، أثناء قدومه من الجزيـــرة إلـــى أعالى الشام ، فكثر أنصاره ووجه هجومه إلى المدن التى سقطت فى أيـــدى باسيل ، مثل شيزر وارتاح ، والجهات القريبة من أنطاكية ، وكفر عزوز ، فى الجنوب الغربى من الرها . ونهض لمساعدته عرب بنى نمير وبنى كلاب بقيادة وثاب بن جعفر النميرى ، صاحب سروج ، الذى يعتبر أقوى زعماء الجزيرة . على أن هذه الحـــركة لم تجد من أمير حلب والخليفة الفاطمى من التأييد المادى ما يكفل لها النجاح فاشـــتد دوق أنطاكية ، نقفور أورانوس ، فى مطاردة الأصفر ، وتخلى عنه وثاب ، بل إنـــه سلمه إلى لؤلؤ ، فاعتقله بقلعة حلب فى مايو سنة ١٠٠٧م /شعبان سنة ٣٩٧هـــ ،

---

(1) أبو شجاع ، ذيل تجارب الأمم ، ج٣ ، ص ٢٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ١٨٠ .

(2) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٩٢ ، ١٩٥ - ١٩٦ .

فكان حركة الأصفر استمرت نحو سنتين ، وظل معتقلاً بحلب ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن سقطت في يد قوات الخليفة الفاطمى فى ٢ يونية سنة ١٠١٦ م / ٤٠٦هـ . على أن لؤلؤ لم يسئ معاملة الأصفر فى حبسه ، حتى لا يثير سخط أنصاره وأتباعه الذين يقيمون قرب حلب ، وكى يتخذه أداة يهدد بها البيزنطيين بأن يلوح بإطلاق سراحه ، إذا تعرض لؤلؤ للخطر من قبلهم[١] .

على أن حلب تعرضت للفتن والقلاقل بعد وفاة لؤلؤ فى سبتمبر سنة ١٠٠٨م ، إذ أن ابنه منصور اشتد فى التضييق على ابنى أبى الفضائل ، فلجأ إلى الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله ، والتجأ أبو الهيجاء بن سعد الدولة إلى الإمبراطور باسيل[٢] . ونظراً لما اشتهر به منصور من الاستبداد والظلم ، كرهه سكان حلب ، ولم يطمئن إليه بنو كلاب فجرى الاتفاق على إعادة حلب للحمدانيين ، ووقع الاختيار على أبى الهيجاء الذى لجأ إلى الإمبراطور باسيل . غير أن منصور بن لؤلؤ استمال إليه بنى كلاب ، فوعدهم بالإقطاعات الوافرة ، واستنجد أيضاً بالمغاربة (الفاطميين) ، ووعدهم بأن يسلم إليهم قلعة حلب . وترتب على ذلك أن توجه قاضى طرابلس ، الذى يتولى النظر فى طرابلس وسائر الحصون ، فى جيش كبير لإنقاذ حلب ، ثم نشبت المعركة بالقرب من حلب ، فانسحب بنو كلاب من صفوف جيش أبى الهيجاء . فحلت الهزيمة به ، ووقع النهب فى خيامه ، ولجأ آخر الأمر إلى باسيل بالقسطنطينية ، حيث بقى بها إلى أن مات[٣] .

ولم يلجأ إلى باسيل الحمدانيون فحسب ، بل سعى إلى الالتجاء إليه أولاد الحسن بن جوهر الصقلى ، وهم جعفر وأبو جعفر وجوهر ، بعد أن لقى أبوهم مصرعه بالقاهرة ، بتدبير الحاكم بأمر الله ، وذلك فى يناير سنة ١٠١١م / جمادى الآخرة سنة ٤٠١هـ وتوسط لهم عند باسيل ، دوق أنطاكية وميخائيل البطريق المعروف بالقطانيوس Kitonite ، الذى ولى حكمها ، بعد أن توجه نقفور أورانوس

---

[١] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٩٦ .

[٢] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ١٩٦ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢١٠.

[٣]يحيى الأنطاكى، ص ٢١٠-٢١١.

للقتال فى بلغاريا . ولما أحسوا بمطاردة الحاكم لهم ، عزموا على التوجه إلى العراق، غير أنهم وقعوا فى قبضة والى دمشق فأمر بقتلهم فى نوفمبر سنة ١٠١٢م / ٤٠٣هـ.[١]

والواقع أن بلاد الشام تنازعها وتتذاك قوى مختلفة ؛ إذ حرص منصور بن لؤلؤ الذى استبد بحكم حلب ، من دون الحمدانيين ، على الاحتفاظ باستقلاله ، واستعان من أجل ذلك بالقوى المتنازعة ، من البيزنطيين والفاطميين والبدو (بنى كلاب) . ولما لم يف بما بذله من الوعود لهذه القوى ، انصرفوا عن تأييده ، وتخلوا عن مساعدته فتعرض للهزيمة على يد صالح بن مرداس ، ووقع فى يده أسيراً ولم يطلق سراحه فى أغسطس سنة ١٠١٤م / ٤٠٥هـ إلا بعد أن دفع له خمسين ألف دينار ، ومائة وعشرين رطل فضة ، وخمسمائة قطعة ثياب من أصناف مختلفة ، وأطلق سراح الأسرى من بنى كلاب ، ومنحهم نصف بلاد حلب اقطاعاً . كما أن الإمبراطور البيزنطى تخلى عن منصور ، وصار يظهر العطف على صالح بن مرداس[٢] .

وما حدث فى شمال الشام من محاولة بنى كلاب فرض سلطانهم على حلب والبلاد المجاورة ، وقع مثله فى جنوب الشام ، إذ سيطر المفرج بن دغفل الطائى على تلك الجهات ، نحو سنتين وخمسة أشهر ، ولم يسير إليه أثناءها الحاكم بأمر الله عسكراً ، فقويت شوكته ، فأوقع بياروخ التركى الذى جعله الحاكم بأمر الله والياً على الشام ؛ فأمر بقتله ، ونهب الرملة ، واستولى على ما كان بها من أمتعة وأموال ، وأقام الدعوة لأمير مكة ، وأسماه أمير المؤمنين . واستحوذت العرب على الشام من الفرما إلى طبرية وحصروا حصون السواحل مدة طويلة[٣] . فوجه إليه الحاكم بأمر الله ، فى سنة ١٠١٣م / ٤٠٤هـ جيشاً كبيراً بقيادة على بن فلاح ، جمع فيه معظم رجال دولته ، وطلب إلى جيوش دمشق والسواحل أن تنهض لقتاله ، فتعرض للهجوم

---

[١] ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٩ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٠٠.

[٢] انظر ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٢٦٠ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢١٢-٢١٣.

[٣] يحيى الأنطاكى، ص ٢٠١.

مــن جهتين ، غير أنه مات وقتذاك في سنة ١٠١٣م / ٤٠٤هـ . ولما عرف أولاده خــبر مسير القوات المصرية هربوا إلى الصحراء ، وغادروا الرملة وسائر البلاد التي دانت لهم.[١]

ولــم يستطع منصور بن لؤلؤ أن يمضي طويلا في سياسته القائمة على الإفادة مــن الفئات المتنازعة على السلطة في الشام ، إذ أن الفتنة لم تلبث أن أندلعت في قلعة حلب ذاتها ، وأشعلها قائد القلعة نفسه ، وهو فتح القلعي وذلك في يناير سنة ١٠١٦م / ٤٠٦هــ . فهرب من حلب منصور ، ومعه أخواه وأولاده ، ومن تبعه من الغلمان ، ولجأوا إلى أنطاكية الخاضعة للحكم البيزنطي . والواضح أن هذا التدبير لقي تأييداً من الخلـيفة الفـاطمي الحاكم بأمر الله وصالح بن مرداس زعيم عرب بني كلاب ، ومن الدلـيل علـى ذلك أن الحاكم بأمر الله أمر واليه على أفاميه ، وهو علي ابن أحمد بن الضـيف ، أن ينهض برجاله لمساندة فتح القلعي ، وأنه تقرر أيضاً ، بموافقة فتح وابن الضـيف ، أن يتسلم صالح بن مرداس جميع الأعمال والضياع ، التي سبق أن أقر ابن لؤلـؤ بالتنازل عنها ؛ يضاف إلى ذلك ما لقيه فتح من التكريم والتشريف من الحاكم ، إذ لقـبه مـبارك الدولة وسعيدها ، وقلده ولاية حلب ، وجعل له خراج صور وصيدا وبـيروت ، ثـم كتـب الحاكم بأمر الله الفاطمي لأهل حلب ، توقيعاً بإطلاق المكوس والمظالم والتخلي عما هو مقرر عليهم من الخراج[٢] .

ولمـا علم الإمبراطور باسيل بالتجاء منصور بن لؤلؤ إلى أنطاكية ، كتب إلى دوقهـا البطريق ميخائيل ، يطلب إليه أن يحسن قبول منصور بن لؤلؤ وإجلاله ، وألا ينقص مما كان له من الهيبة والكرامة أثناء إمارته بحلب ؛ فأطلق له ولأقاربه جرايات واسـعة . ورسـم باسـيل لقطـبان أنطاكية "أن يثبت له جميع ما يرد إليه من غلمانه وأصـحابه وغـيره مـن جند المسلمين مستأمناً ، ويكونوا في جملته ويرسم خدمته" ، فأثبـت له سـبعمائة خـيالة ورجالة ، وأطلق له الأرزاق والجرايات مشاهرة من مال

---

[١] يحيى الأنطاكي، ص ٢٠٧.

[٢] ابـن العديـم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٠٩-٢١٠ ، ٢١٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٢٦١ .

باسـيل ، وأمر بأن يتخذ لقب ماجستير . وحرص باسيل على أن يجعل لمنصور شيئاً مـن مظاهر الإمرة ، فأقطعه عقاراً يستغله بأنطاكية ، وأقطعه فى ظاهرها ضيعة شيح لـيلون ، بيـن حلب وأنطاكية ، وعمر حصنتها ، فانتقل إليها منصور ، وتيسر له بذلك أن يقـف علـى أمـور حلب . لم يكتف باسيل بذلك ، بل استدعى من تفرق من أفراد أسرة منصور ، وأخويه وولديه ، فبعث بهم إليه بعد أن منحهم التشاريف والألقاب[1] .

هكـذا أصـبح منصـور بـن لؤلؤ ، وأسرته ، فى قبضة الإمبراطور باسيل يسـتخدمهم سلاحاً لتهديد حكومة حلب الجديدة . ولجأ باسيل أيضاً فى تلك الأثناء إلى أن يوجـه ضربة شديدة للقضاء على رخاء الشام ، بأن منع السفر والمتاجرة من جميع بـلاده ، إلى الشام ومصر . على أننا نجهل الأسباب التى دعت الإمبراطور باسيل إلى اتخاذ هذه الإجراءات الصارمة التى تضر بصالح رعايا الخليفة الفاطمى ، على الرغم من المعاهدات التى لازالت قائمة بينهما . على أن ما اتخذه باسيل من إجراءات لم يكن القصد من ورائها الانتقام فحسب لما اتخذه الخليفة الحاكم بأمر الله من أساليب عنيفة ضد المسـيحيين فـى سـنوات ١٠١٢م ، ١٠١٤م ، ١٠١٥م / ٤٠٤-٤٠٥هـ ، أدت إلى جماعة من النصارى لم يطب لهم المقام ببلاده ، فأخذوا يتسللون إلى البلاد البيزنطية ، وصاروا يبذلون لأرباب المراكز والطرقات مالا حتى يطلقوهم ، فأذن الحاكم لفئة منهم بالرحـيل بـأهلهم وأموالهـم وما تحويه أيديهم ، وأجاز له أن يتصرفوا كيفما شاءوا ، وكتـب بذلك إلى سائر عماله ، فانتقل من الشام ومصر وغيرهما ، من النصارى خلق كثـير ، بعد أن باعوا أملاكهم وأمتعتهم ، فتوجهوا إلى أنطاكية واللاذقية وغيرهما من البلاد البيزنطية[2] .

ومـا أصـدره الإمـبراطور باسـيل من قرار يمنع التجارة مع رعايا الخليفة الفـاطمى ، أثـار اضطراباً وقلقاً بالغ الشدة فى سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية ، لاسـيما بين سكان الأقاليم المتاخمة لأعالى الشام ، حيث نشطت التجارة بين المسلمين

---

[1] انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢١٠ يحيى الأنطاكى، ص٢١٤-٢١٥.

[2] انظر، يحيى الأنطاكى، ص ٢٠٧.

والبيزنطيين . على أن الإمبراطور باسيل استثنى حلب من هذه القيود ، استجابة لطلب صالح بن مرداس ، كما يفيد منه فى سياسة بيزنطة بالشام ، وليتجنب هجمات الأمراء بأعالى الشام ، والمحافظة على أنطاكية ، فضلاً عن أهمية حلب فى تجارة بيزنطة مع العالم الإسلامى.[1]

أمـا التحالف الذى تألف من فتح ، قائد قلعة حلب ، وعلى بن أحمد الضيف ، الـذى يحكـم أفامـية من قبل الخليفة الفاطمى ، الحاكم بأمر الله ، وصالح بن مرداس زعيم عرب بنى كلاب ، فلم يلبث أن تفكك بعد طرد منصور بن لؤلؤ من حلب . ذلك أن على ابن الضيف ، بعد أن استولى على حلب ، ولحقت به بعض القوات الفاطمية ، وحصـل من فتح ، متولى القلعة من المال ما أنفقه فيهم ، لم يشأ أن يتخلى عن حكومة حلب إلى صالح بن مرداس وعرب بنى كلاب ، ولقى التأييد من سكان المدينة ، الذين كـرهوا أن يحكمهم البدو ، وطلب الضيف من الحاكم أن يمده بالعساكر فجاءته الأمداد مـن سائر ولاة الشام وزعماء العشائر ؛ أما فتح فانتقل إلى ولاية صور بعد أن استماله الحاكم بأمر الله.[2]

وقـد تولى حكم حلب بعد خروج فتح عنها ، عزيز الدولة فاتك ، وهو أرمنى مـن مماليك بنجوتكين ، ولقبه الخليفة الحاكم بأمر الله ، أمير الأمراء ، فدخل إلى حلب فـى أول فبراير سنة ١٠١٧م / أول رمضان سنة ٤٠٧هـ . واستقامت الأحوال بينه ، وبيـن سـائر الأمـراء المجاوريـن ، فـتوطدت العلاقات الودية بينه وبين صالح بن مـرداس، وراسـل الإمبراطور باسيل ، يبذل له الولاء وطلب إعادة العلاقات التجارية بينه وبين البلاد البيزنطية المجاورة له ، وأخذ يولى على أعمال حلب الرجال الموالين لـه . ولـم يلبث عزيز الدولة أن خرج على طاعة الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ،

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ٢١٤؛ لويس ، القوى البحرية ، ص ٣٣٤ ؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ٥٩٧ .

[2] انظر ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢١٥ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢١٥-٢١٦.

فضرب الدينار والدرهم باسمه بحلب ، ودعا لنفسه على المنبر ، فأمر الخليفة الفاطمى بإعداد الجيوش وإنفاذها لقتال عزيز الدولة ، وذلك سنة ١٠٢٠م / ٤١١هـ[١] .

ولعل ما حدث وقتذاك بمصر والشام من الفتن التى نجمت عن سياسة الحاكم وشدته فى معاملة السكان ، هيأت لأمير حلب الفرصة للاستقلال .

فما دعا إليه محمد بن اسماعيل الدرزى من تأليه الحاكم ؛ وما اتبعه من الأساليب فى نشر هذه الدعوة بمصر والشام ببذل الأموال ، وإباحة شرب الخمر وارتكاب المنكرات[٢] ، أدى سنة ١٠٢٠م / ٤١٠هـ إلى سخط الناس على الحاكم بالله؛ وتعرض الحاكم للإهانة والشتائم ، التى انطوت عليها أشعار نظمت لهذا الغرض. فأمر بتوزيع السلاح على عساكره من السودانيين وأوعز إليهم بطرح النار فى أطراف مصر ، وأجاز لهم نهب الدكاكين والبيوت ؛ على أن دمشق أعلنت أيضاً العصيان والتمرد .

على أن ما حدث وقتذاك فى الشام ومصر ، من الأمور المتعلقة بالعلاقات بين الدولة البيزنطية والمسلمين أن الحاكم بأمر الله أعرض عن سماع ما أذاعه الوشاة من أنه لم ينكر ما رفعه إليه جماعة من المسلمين ، من اجتماع المسيحيين فى دورهم لتأدية الصلاة وإقامة القداس ، واشتراك طائفة من الذين أسلموا منهم فى القربان معهم، واستقبل الحاكم أنبا سلمون رئيس دير طور سيناء ، وتوسل إليه فى إطلاق الأوقاف المقبوضة برسم هذا الدير فأجابه إلى ذلك ، وأعاد جميعها إليه ، كما أن سلمون حصل أيضاً فى يوليه سنة ١٠٢٠م / ربيع الثانى سنة ٤١١هـ على الأموال المتحصلة من الأوقاف المحبوسة على دير القصير بطره ، للإنفاق منها على الرهبان والدير ، فكتب له الحاكم سجلاً بذلك . وفى سنة ١٠٢٠م / شوال سنة ٤١١هـ سلم محمد بن خليد النهرانى إلى البيزنطيين ، الحصن المعروف بالخوابى ، فى جبل نهران ، ومدينة مرقية على ساحل البحر ، وكانت خراباً ، فأحسن إليه الإمبراطور باسيل وأنعم عليه

---

[١] انظر ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢١٦-٢١٨ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢١٦.

[٢] ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ١٨٤ .

بالتشـــاريف. وجرى أيضاً أن ولى ، فى تلك السنة (١٠٢٠م) بطريركية ببيت المقدس نجار رومى ، اسمه نقفور ، كان يخدم فى قصر الخليفة بالقاهرة.[١]

ترتب على وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمى فى فبراير سنة ١٠٢١م / شوال سنة ٤١١هـــ ، بتدبـــير أخته ست الملك ، أن تعرض ولى العهد وأسرته للاضطهاد ، بعد أن تـــم تعيين الظاهر خليفة ، وصارت السلطة فى أيدى ست الملك ، فاستمالت أمراء الشـــام والقادة والجند ، وتخلصت من ولى العهد ، بأن مات مسموماً ، ولجأ ابنه الكبير عبد العزيز وابن أخيه إلى الإمبراطور باسيل فأحسن استقبالهما.[٢]

كـــان من نتائج الحكومة الفاطمية الجديدة على أن صلح ما فسد من الأمور فى العصـــر السابق فتوقف اضطهاد المسيحيين ، وساد التسامح ، فعاد من البلاد البيزنطية مـــن لجأ إليها من المسيحيين والذين تعرضوا لاضطهاد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، بل صـــار للمســـيحيين مـــن النفوذ والسلطان فى قصر الخلافة ، ما جعلهم موضع عطف الخلـــيفة وعمـــته ست الملك ، فأطلق لهم عمارة الكنائس ، ورد ما لم يطلقه الحاكم من الأوقاف المحبوسة على الأديرة.[٣]

أمـــا عن الأوضاع فى بلاد الشام فقد سبق الإشارة إلى أن حلب صارت أواخر حكـــم الحاكم بأمر الله فى حوزة الفاطميين . فتولى أمرها عزيز الدولة فاتك فى فبراير ســـنة ١٠١٧م/ ســـنة ٤٠٧هـــ . غير أنه لم يلبث أن خرج على طاعة الخليفة الحاكم بأمـــر الله ســـنة ١٠١٨م/٤٠٩هـــــ ، فأعلن استقلاله بالمدينة وضرب النقود باسمه ، وجـــرى ذكـــر اسمه على المنبر ، ولما تعرض لهجوم القوات المصرية سنة ١٠٢٠ - ١٠٢١م / ٤١١هـــــ، اســـتنجد بالإمبراطور باسيل ، الذى نهض لمساعدته ، ولما بلغ باســـيل مرج الديباج قرب حلب ، وعلم عزيز الدولة بوفاة الحاكم (فبراير سنة ١٠٢١ م)، أرســـل إلى الإمبراطور البيزنطى يخطره بأنه انتقض ما بينهما من شروط . ولما

---

[١]يحيى الأنطاكى، ص ٢٢٥-٢٢٨.

[٢] انظر، يحيى الأنطاكى، ص ٢٣٦؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٠٤-٣٠٥ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

[٣]يحيى الأنطاكى، ص ٢٣٩؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ٦٠٠ .

أصـــر باسيل على المضي إلى حلب هدده أميرها ، بأنه سوف يقاومه بكل ما عنده من العساكر وعرب بني كلاب ؛ وعندئذ اتخذ طريقه شرقاً إلى ملاذ كرد[١] .

لـم تستمر محاولة عزيز الدولة للاستقلال بحلب زمناً طويلاً ، إذ لقى مصرعه بتدبـير عمـة الخلـيفة الظاهر ، في سنة ١٠٢٣م / ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ ، حيث اسـتعاد الفاطمـيون ملكهـم بحلب ، وجعلوا بها حامية من المغاربة وتولى على حلب وعلـى قلعتها ولاة من قبل الخليفة الظاهر الفاطمي . فوليها في سنة ١٠٢٥م / جمادى الأولـى سنة ٤١٥هـ سديد الدولة ثعبان بن محمد الكتامي ، بينما ولى القلعة موصوف الخـادم الصـقلبي ، فظـلا يسيران الأمور بحلب ، إلى أن خرج على طاعة الخليفة الظاهـر زعمـاء العـرب بالشام . وذلك أن أمراء عرب الشام وهم يومئذ حسان بن المفـرج ابـن الجراح أمير الطائيين ، وصالح بن مرداس أمير الكلابيين ، وسنان بن علـيان أمـير الكلبيين ، اجتمعوا وجددوا ما كان قائماً بينهم من التحالف ، أواخر زمن الحـاكم بأمـر الله ، وفي أول أيام الظاهر . ويقضي هذا الحلف ، بأن يجرى الاتفاق بيـنهم على اقتسام جميع أعمال الشام وحلب ، فتكون فلسطين وما يرسمها لحساب ابن الجـراح ، وتصـير دمشق وما يتبعها لسنان بن عليان وعشيرته ، أما حلب وتوابعها فـتكون مـن نصـيب صالح بن مرداس وبني كلاب ، وحاولوا الاتصال بالإمبراطور باسـيل الـثاني ، كي يساندهم بقوات بيزنطية ، فلم يستجب لهم ، وعندئذ اهتم الخليفة الظاهـر باستمالتهم غير أن حساناً استوحش منه ، فتجددت المحالفة بينهم . وتنفيذاً لهذا الاتفـاق سـار حسـان بن الجراح إلى الرملة ؛ وبها أنوشتكين الدزبري ، الذي أنفذه الخلـيفة الظاهـر الفـاطمي والـياً على فلسطين . فتعرضت الرملة للحريق والنهب والسـلب، ووقـع كثـير من الأسرى في يد حسان ، بينما انهزم أنوشتيكين ولجأ إلى عسقلان ، وذلك سنة ١٠٢٥ م / رجب سنة ٤١٥هـ[٢] .

---

[١] ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٢١٩.

[٢] ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص ٢٢١-٢٢٤؛ يحيى الأنطاكي، ص ٢٤٤-٢٤٥.

وفى نفس الوقت تغلب كاتب صالح بن مرداس ، وهو سليمان بن طوق ، على معرة مصرين ، من أعمال حلب ، ثم توجه فى جماعة من العرب إلى حلب ١٠٢٥م / رجب سنة ٤١٥هـ ودارت الحرب بينه وبين واليها ، وهو يومئذ ، ثعبان بن محمد الكتامى ، والوالى على القلعة موصوف الصقلبى ، ثم لم يلبث صالح بن مرداس أن جاء من فلسطين فى شهر نوفمبر سنة ١٠٢١م) بعد مساندته لحسان بن الجراح ، واستمرت الحرب بين الفريقين ما يربو على خمسين يوماً . على أنه لا زال للحمدانيين بحلب حزب قوى ، ويأملون فى استرداد ملكهم من الفاطميين ، وتولى زعامة هذا الحزب سالم بن مستفاد ، غلام سيف الدولة الحمدانى ، ومن كبار القادة بحلب ، فوجه إليه موصوف والى قلعة حلب ، التهمة بأنه خرج على سلطان الخليفة ، ومالأ أعداءه ، ودبر مؤامرة لاغتياله ، فالتف حوله الحمدانية وأهل البلد ، وأعدوا أنفسهم للدفاع عنه ، والخروج معه للقتال ، فلم يلبث أن فتح أحد أبواب حلب ، واجتمع صالح بن مرداس وأخذ الأمان لنفسه ولأهل المدينة ، فى يناير سنة ١٠٢٥م / ذى القعدة سنة ٤١٥هـ واعتصم سديد الملك بن ثعبان بالقصر الملاصق للقلعة ، على أن المهاجمين نصبوا المنجنيقات على سديد الملك وعلى القلعة ، ثم عهد صالح بن مرداس إلى سالم بن المستفاد ، والى كاتبه سليمان بن طوق بقتال من التجأ إلى القصر والقلعة بحلب ، وتوجه إلى فلسطين لمساعدة حسان بن المفرج على الدزبرى[1] .

وأرسل صالح إلى قطبان أنطاكية البيزنطى ، قنسطنطين دالاسيموس ، يطلب منه أن يمده برجال يستعين بهم على الذين اعتصموا بالقلعة ، فأعد إلى ثلثمائة رجل ، فرتبهم على ناحية من سور المدينة ، ولما علم الإمبراطور البيزنطى بذلك أنكره عليه، وطلب إليه سحب قواته ، فانفذهم صالح إليه . والواضح أن باسيل رأى أنه من الخير أن يطول أمد النضال بين الحزبين المتنازعين على السلطة فى حلب ، فيدب الضعف فيهما[2] .

---

[1] انظر، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٤٦-٢٤٧.

[2] يحيى الأنطاكى، ص ٢٤٧.

ترتب على ذلك أن عرض ، على سالم بن المستفاد ، وسليمان بن طوق ، إجراء الصلح والتسليم لهما ، فلم يستجيبا لهم وعندئذ نصبوا الصلبان على أسوار المدينة ثلاثة أيام . ودعوا للإمبراطور البيزنطى ولعنوا الخليفة الظاهر الفاطمى ولعل سكان القلعة اعتقدوا أنهم بهذا الإجراء يحصلون من الغزاة على شروط معتدلة للتسليم وأن هذه المظاهرة سوف يبلغ خبرها إلى من كان بخارج حلب ؛ أو إلى الإمبراطور البيزنطى ؛ أو على أقل تقدير إلى دوق أنطاكية ، وبذلك يرتد المهاجمون على أعقابهم.[1]

ورأى حكام حلب الذين عينهم صالح بن مرداس أنه لابد من وضع حداً لهذا الاضطراب . فتقرر يوم الجمعة يونية ١٠٢٥م / ١٢ ربيع الآخر سنة ٤١٦هـ أن يحتشد كل قادر على حمل السلاح ؛ وأن يتجهوا إلى القلعة لمهاجمتها . فحملوا المصاحف على أطراف الرماح فى الأسواق . وأعلنوا الجهاد وزحفوا على القامة ؛ وأخذ اليأس يتسرب إلى نفوس المقيمين بالقلعة من المغاربة فاستأمن من منهم جماعة، فخلع عليهم ، وجرى الطواف بهم فى المدينة ؛ وبذل من ثياب الديباج والأموال لمن ينزل من القلعة مستأمناً ويكف عن المقاومة . ودارت بعدئذ مراسلة بين موصوف والى القلعة ، وبين ابن المستفاد الحمدانى وسليمان بن طوق كاتب صالح ، فاستقر الحال بينهم على شروط ، كتبت بينهم ، وأنفذ موصوف قوماً من المغاربة ، واستحلفوا ابن المستفاد وسليمان بن طوق على الوفاء بما تقرر " وذلك فى ٢٤ يونيه سنة ١٠٢٥م.[2]

على أن ما حدث من الشجار بين المغاربة فى قلعة حلب ، أدى إلى استنجاد فريق منهم بأهل المدينة ، وفتحوا لهم باب القلعة ، فدخلوها فى ٣٠ يونية ١٠٢٥ م مستهل جمادى الأولى سنة ٤١٦هـ ، فجرى القبض على موصوف الصقلى متولى القلعة ، وسديد الملك ثعبان والى المدينة وعلى غيرهم من رجال الحكومة القائمة

---

[1] ابن العديم، زبدة الحلب، ج١ ، ص٢٢٩ .

[2] ابن العديم، زبدة الحلب، ج١ ، ص ٢٢٩ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٤٧.

بحلـــب ، وتقرر اعتقالهم لمدة ثلاثة أشهر . كما تم طرد المغاربة من حلب ، فتخطف العرب أكثر ما كان معهم عند خروجهم من حلب .

وعـــاد صالح بن مرداس من فلسطين ، فدخل حلب ، وأحضر موصوفا الخادم وأخـــذ يؤنبه على أفعاله ، ثم أمر بقتله . وأطلق سراح سديد الملك ثعبان ، بعد أن أخذ منه مالاً قرره عليه ، وأطلق سائر الزعماء المصريين ، واستولى صالح فى هذه السنة علـــى حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار بناحية طرابلس ، بالإضافة إلى ما كان بـيده مـــن البلاد الرحبة ، ومنبج وبالس ورفنية . أما سنان بن عليان فحاصر دمشق ، ووقعـــت بيـــنه وبيـــن أهلها حروب عنيفة ، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على المدينة لصـــبر أهلهـــا علـــى الدفاع عنها . وبقى صالح بحلب حتى سنة ٤٢٠هـــ فأنفذ كاتبه سليمان بن طوق إلى الخليفة الظاهر ، فعاد إليه بخلع جليله وهدايا قيمة له ولأولاده[١].

وفـــى تلـــك الأثـــناء توفى الإمبراطور باسيل الثانى عام ١٠٢٥م وهو فى سن الثامـــنة والســـتين ، بعد حكم طويل حافل بالأعمال الجليلة فى الداخل والخارج ، جعل بيزنطة من خلالها دولة عظمى فى عالم العصور الوسطى ؛ ويكفيه أنه خلص بيزنطة مـــن الخطر البلغارى فى البلقان ، وجعل من نفسه سلطة مهيمنة على الأمراء المسلمين فـــى بلاد الشام والجزيرة . وقد تولى الحكم بعده أخوه قسطنطين الثامن Constantine VIII ١٠٢٥-١٠٢٨م[٢] .

وفـــى مستهل عهده حدث أن هاجم البيزنطيون جزيرة صقلية عام ٤١٦هـــ فى جمـــع كثـــير علـــى حـــد قول ابن الأثير واستولوا على ما كان للمسلمين فى قلورية ، وأقاموا هناك لحين وصول الإمدادات البحرية من القسطنطينية . وعندما علم المعز بن بـــاديس بأمر هذه الإغارة جهز أسطولاً من أربعمائة سفينة محملة بالقوات والعتاد . إلا

---

[١] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٣٠ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٤٨.

[٢] جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية، ١٩٨٤، ص ١٨٣.

أن هــذا الأسطول تحطم معظمه بالقرب من جزيرة قوصرة القريبة من ساحل أفريقية بسبب رياح شديدة وقوة عظيمة[1] .

وفــى عهــده أيضــاً تعرضت جزر بحر الأرخبيل سنة ١٠٢٦ م / ٤١٧هــ لهجمات أسطول إسلامى ضخم ، خرج من موانى تونس ، فأنزل بهذه الجزر الخراب، وتحــدى الحامــيات البيزنطــية المرابطة بها ، غير أن قادة ثيمات جزيرة ساموس ، وجزيــرة خــيوس وجزائر بحر الأرخبيل ، لم يلبثوا أن ردوا هذا الهجوم ، واستولوا على ١٢ سفينة عربية بكل معداتها[2] .

أما العلاقات بين مصر والدولة البيزنطية ، زمن الإمبراطور قنسطنطين ، فإن مــن الدلــيل على تحسنها ، ماورد فى المقريزى فى حوادث سنة ٤١٨هــ /١٠٢٧م ، مــن خــبر عقد معاهدة بين الإمبراطور قنسطنطين والخليفة الظاهر الفاطمى ، وتقرر فيها ذكر اسم الظاهر فى الخطبة بجميع المساجد الواقعة فى أنحاء إمبراطوريته . على أن هــذا الحادث ليس غريباً ، فالمعروف أن الإمبراطور البيزنطى أمر بتجديد عمارة الجــامع بالقســطنطينية وعين له مؤذناً . وبمقتضى هذه الاتفاقية وافق الخليفة الظاهر على إعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وهى التى أمر بتدميرها سنة ١٠٠٩م، الخلــيفة الحــاكم بأمــر الله الفاطمى ، وأذن لمن أظهر الإسلام من النصارى فى أيام الحاكم ، أن يعود إلى النصرانية ، فرجع إليها كثير منهم.[3]

ومــن المحتمل أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن هدف من وراء عقد هــذه المعاهدة مع الخليفة الفاطمى الظاهر الحد م الإمدادات الفاطمية العسكرية لمسلمى صــقلية وجنوب إيطاليا ، حتى يتمكن البيزنطيون من إحراز نصر يرفع هامات قواتهم فى القسطنطينية .

---

[1] ابن الاثير، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٢٣ .

[2] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٦٢٩.

[3] المقريــزى، تقى الدين احمد بن على ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق/ جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٢٧٥.

ومن المعروف أن حملات نقفور فوقاس وحنا تزيمسكس ، أمدت أطراف الإمبراطورية البيزنطية إلى ما بعد دمشق جنوباً ، ونظراً لانصراف باسيل الثانى إلى قتال البلغار ، لم يقم إلا بحملة خاطفة على تلك الجهات النائية . على أن المسلمين ، دأبوا منذ زمن قنسطنطين الثامن ، على مهاجمة المدن الواقعة على الأطراف الشرقية، فقصدوا سنة ١٠٢٩م /٤٢٠هـ ديار بكر ونهبوها ، واحتلوا بعض المواقع الأمامية البيزنطية ، وتجددت غارات أمير حلب على أنطاكية[١] .

ونازع الفاطميون فى الشام ، أمراء العرب ، إذ تم التحالف بين حسان بن المفرج بن الجراح أمير بنى طى ، وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب ، وسنان بن عليان أمير الكلبيين ، وذلك أواخر أيام الحاكم بأمر الله ، وأوائل زمن الظاهر ، بأن يضعوا أيديهم على جميع أعمال الشام وحلب ، ويقتسموا البلاد بينهم ، فيكون من حلب إلى عانه لصالح ، ومن الرملة (فلسطين) إلى مصر لحسان ، ودمشق وتوابعها لسنان. فاستولى حسان على مدينة الرملة سنة ١٠٢٤م / ٤١٥هـ ، بينما سقطت حلب فى يد صالح بن مرداس فى تلك السنة أيضاً . وملك صالح أيضاً حمص وبعلبك وصيدا وحصن ابن عكار فى ناحية طرابلس ، فضلاً عن الرحبة ومنبج وبالس ورفنيه ، وأقام صالح بحلب ست سنوات . وإذ اشتد فساد ابن الجراح فى الشام ، وأفاد من النزاع الذى ساد فى الخلافة الفاطمية ، عقب وفاة الخليفة الحاكم ، تقرر ، بعد استقرار الأمر للخليفة الظاهر ، انفاذ حملة إلى الشام بقيادة انوشتكين الدزبرى سنة ١٠٢٩م/٤٢٠هـ لقتال ابن الجراح ، الذى استنجد بحليفه صالح بن مرداس أمير حلب ، فدارت المعركة بين الفريقين عند الأقحوانة بالقرب من طبرية ، على نهر الأردن ، فلقى صالح مصرعه ؛ وهرب حسن بن الجراح ولجأ إلى الأراضى البيزنطية ، واسترد الفاطميون بعض المواضع ، مثل بعلبك ، وحمص ، وصيدا ، ورفنيه وحصن ابن عكار[٢] .

---

(١) الباز العرينى، الدولة البيزنطية ، ص ٦٧٩.

(٢) ابن الأثير، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٣٣-٣٣٤؛ ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٧٣ ؛ الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٦٧٩-٦٨٠ ؛ يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٣.

وفـــى تلـــك الأثناء توفى الإمبراطور قسطنطين الثامن عام ١٠٢٨م/٤١٩هـ، بعـــد أن تمتع بحكم الإمبراطورية متعة قليلة للغاية. وقد كان آخر أفراد البيت المقدونى من الذكور، حيث لم يترك ورثة له سوى بناته المسنات غير المتزوجات، وكانت زوى Zoe ابنته الكبرى قد جاوزت الأربعين من العمر، لكن والدها زوجها وهو على فراش المـــوت من أحد النبلاء ويسمى رومانوس أرجيروس Romanos Argeros الذى صار إمبراطورا بين عشية وضحاها، عقب موت حميه قسطنطين الثامن.[1]

واغتـــنم الفرصـــة قطـــبان أنطاكـــية البـــيزنطى ، وهـــو ميخائيل المعروف بالاســـقنديلس، وعـــزم على الخروج لقتال أمير حلب ، نصر وثمال ، ولدى صالح ابن مرداس ، دون أن يتلقى أمراً من الإمبراطور رومانوس الثالث ، فهاجم حصن قبار ، مـــن أعمـــال حلب، غير أنه تعرض فى أكتوبر سنة ١٠٢٩م /٤٢٠هـــ ، إلى هزيمة ســاحقة وعلـــى الـــرغم مـــن انعقـــاد الصـــلح بين أمير حلب وقطبان أنطاكية ، فإن الإمـــبراطور البيزنطى قرر القيام بحملة لمهاجمة حلب سنة ١٠٣٠م /٤٢١هـــ لاسيما بعـــد أن اشـــتدت الغارات على أملاك الإمبراطورية البيزنطية ، منذ أن استولى أمير طـــرابلس وأنوشـــتكين على قلعة المنيقة ، الواقعة على الطريق الممتد من أنطاكية إلى حلب .

أعد رومانوس حملة ضخمة ، وقرر أن يتولى بنفسه توجيه العمليات الحربية . وأول مـــا فعلـــه رومانوس ، أنه عزل سيونديل ، دوق أنطاكية عن ولايته . وأعد سنة ١٠٣٠م/٤٢١هــــ ، بأنطاكـــية ، حملـــة جهزها بما يحتاج إليه حصار الحصون من الآلات والأدوات، وجعل عليها البطريق قسطنطين كارانثينوس Karanthenos ، زوج أخـــته، الـــذى صار دوقاً لأنطاكية ، ووجه لقتال أمير حلب ، حتى يلحق به ، وأوصاه بـــألا يشـــتبك معـــه فـــى معركة حاسمة ، إنما يتولى حراسة الدروب ، ويمنع غارات المسلمين على أملاك الدولة البيزنطية[2] .

---

(1) أومان، شارل، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣، ص ١٩٢.

(2) يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٤.

لـم يـتخذ رومـانوس طريقه إلا بعد شهور ، وأورد ميخائيل بسيللوس وصفاً مسهباً لهذه المغامرة ، التى لم يكن لها سبب جوهرى ، سوى حرص الإمبراطور على ذيـوع صـيته ، بإحراز النصر فى الشرق ، مثلما زاع اسم نقفور فوقاس وتزيمسكس وباسـيل الـثانى ولذا حشد لهذه الحملة من العساكر ما لم يحشد فى الحملات السابقة ، وجعلهـم ابن الأثير ثلاثمائة ألف مقاتل[1] ، منهم عدد كبير ، لا خبرة لهم بالحروب ، ولا درايـة لهـم بالقـتال ، اتخذهم التماسا للكثرة واشترك فى هذه الحملة عساكر من الـروس والأرمـن والـبلغار والبشناق والكرج والخزر . وحاول كبار القادة أن يثنوا الإمـبراطور عن عزمه ، لتخوفهم من نتائج الهجوم ، غير أن جماعة من أجل عسكره "قـربوا إلـيه أخذه لحلب ، وصعروا فى نفسه حال العرب ، فاغتر بكلامهم ، وصدق مقـالهم ، لموافقـته لهواه ، وصرف سمعه عن سماع مشورة المتنصحين له بخلافه ، وأغفـل مـا اقتضته السياسة من التحفظ والتيقظ والاستظهار فى كل باب بما يقتضيه الصواب"[2] .

أبـدى المسـلمون بحلب اهتماماً كبيراً بالحرب . وأول شئ فعلوه ، أنهم بعثوا إلـى الإمبراطور يخطرونه أنهم ليسوا راغبين فى القتال ، ولا زالوا متمسكين بشروط الهدنة التى انعقدت ، واعترف أمير حلب ، نصر ، بالمعاهدة المعقودة بين أمراء حلب وأباطـرة الدولة البيزنطية ، وعرض أن يحمل "من القطيعة ما كان يحمله أولاد سيف الدولة إلى باسيل"[3] على أنهم حينما أدركوا عزم الإمبراطور على المضى فى القتال ، وظـنوا أنفسهم على مواجهة الإمبراطور وحربه . ولم يحفل الإمبراطور بسفارة أمير حلـب ، وأصر على السير فى مغامرته[4] . ثم غادر رومانوس أنطاكية قاصداً حلب ، وقـد اسـتولى علـى عسكره المرض ، لشدة الحر ، ونزل بجيوشه على تبل من بلاد

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٤٩ .

[2] يحـيى الأنطـاكى، ص٢٥٤؛ *Fourteen Byzantine Rulers, The Chronographia of Michael Psellus*, Eng. trans. E. R. Sewter, Penguin Books, 1966, p.66ff.

[3] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٣٩ .

[4] *Psellus*, p 67.

أعـــزاز . فـــي الشمال الشرقي من حلب ، في موضع قريب من الجبل ، لا ماء فيه . وضـــرب حـــول عســـكره خـــندقاً عظيماً ، تولى حراسته الرجالة ، بينما نزل العرب مواضع تغزر بها المياه[1] .

حـــرص الإمـــبراطور رومـــانوس علـــى أن يشن هجوماً كبيراً على مواضع المســـلمين ، فأرسل قوة حربية بقيادة ليو خيروسفاكتس Chirosphaktes ، إلى حصن أعـــزاز لمشـــاهدته وكشف مواقع المسلمين ، الذين كانوا يترقبون قدوم قوات العدو ، الـــتى تعرضت لحرارة الشمس الشديدة ، فضلت الطريق ، وفاجأهم بالهجوم عدد كبير مـــن المســـلمين ، فانهارت بذلك الخطط الحربية ، واضطرب الجند البيزنطى ، وهلك مـــنهم عدداً كبيراً قبل أن يبادروا للحرب ، ووقع قائدهم أسيراً فى يد الحلبيين . واندفع المســـلمون فـــى جرأة وبسالة ، يحاولون تطويق معسكر الإمبراطور ، ويقطعون عنه المـــاء والمـــؤن ، حتى يهلكوا جوعاً ، ولم ينجح البطريق قنسطنطين دالاسينوس ، فى رد هـــؤلاء المغيريـــن ، بـــل استبد الرعب بالبيزنطيين ، وتحطمت روحهم المعنوية ، وولـــوا الأدبـــار ، وأســـر المسلمون عدداً كبيراً من البيزنطيين ، أغسطس ١٠٣٠م / شـــعبان ٤٢١هـــ ، ومن هرب منهم طاردوهم ، "فداروا بالعسكر ، وضعفت نفوس من فـــيه ، باســـتظهار العـــرب عليهم ، وبهزيمة أصحابهم . وضيق العرب على من يريد الخـــروج من العسكر ، وناوشوا من فى أطرافه من الرجالة وحملوا عليهم ، واجتازوا الخـــندق ، وهجمـــوا علـــى السوق الذى بالمعسكر ونهبوه . وتخاذل الروم عن دفعهم وحـــربهم ، فتأكد طمع العرب فيهم ، يضاف إلى ذلك استضرارهم بقلة الماء . وتحقق الملـــك (رومـــانوس) حينـــئذ أن الوقت غير مناسب للغزاة فعول على الرحيل"[2] ولم يـــتوقف الفرســـان الحلبـــيون عـــن مهاجمة مؤخرة الجيش البيزنطى عند ارتداده إلى أنطاكية ، وتحول هذا الارتداد إلى هزيمة شاملة ، ووقع فى أيدى العرب غنائم وفيرة، من الأسلحة والأموال والثياب فضلاً عن سرادق الإمبراطور المصنوع من الحرير.[3]

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٥.

[2] يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٥-٢٥٦؛ *Psellus*, p.67.

[3] *Psellus*, p. 67f.

ويضـيف ابـن الأثـير أن المسلمين استولوا على جميع ما كان فى حوزة الإمبراطور البيزنطى.[1]

أمـا الإمـبراطور فإنه هام على وجهه ، حتى رآه بعض رجاله الذين تصادف اجتـيازهم بـه أثـناء فرارهم ، فعرفوه من لون خفه ، فالتفوا حوله . وذاع الخبر بأن الإمبراطور لا زال حياً ، فالتف حوله عدد كبير من رجاله . وأهم من ذلك كله أن أحد العسـاكر حمـل إلى الإمبراطور ايقونه أم الإله ، التى درج الأباطرة على أن يحملوها معهـم أثـناء حملاتهـم ، واتخذوها هادياً ودليلاً للجيش ، ولم تقع هذه الأيقونة فى يد المسـلمين . واسـترد الإمبراطور شجاعته ، بفضل هذه الأيقونة التى أنقذته من هلاك محقـق فـيما يزعمون ، فدعا الجند الهاربين إلى القدوم عليه ، واجتمع بقادته ، وتقرر الرجوع إلى بيزنطة[2] .

تجـدر الإشـارة إلـى أن ابـن الأثـير أفصح عن أسباب هزيمة الإمبراطور البـيزنطى رومانوس الثالث على أيدى المسلمين آنذاك ، حيث يذكر أن أحد كبار قادته ابـن الدوق ، كان يكرهه ويريد هلاكه ، فألح عليه بالمسير بالقوات صيفاً فى شدة من الحـر ونقـص المياه ، أما عن السبب الثانى لتلك الهزيمة فهو تآمر ابن الدوق مع ابن لؤلؤ وانفضا لهما عن جيش الإمبراطور فى عشرة آلاف من جنودهما . ثالثاً تآمر ابن الـدوق علـى الإمـبراطور حتى يتخلص منه ، إلا أن الإمبراطور علم بأمر المؤامرة فقبض عليه ، مما أوقع الاضطراب بين القوات البيزنطية.[3]

علـى أية حال ، يشير ابن الأثير أيضاً إلى أن جماعة من العرب انقضوا على البقـية الباقية بصحبة الإمبراطور وهم فى طريق العودة ، فظن البيزنطيون أنها غارة

---

(1) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٥٠ .

(2) *Psellus*, pp. 68-69.

(3) ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٤٩ .

عليهم ، "فلم يدروا ماذا يفعلون" حتى أن رومانوس الثالث اضطر إلى التخلى عن خفه الأحمر ولبس خفاً أسود اللون حتى لا يستطيع العرب تمييزه.[١]

ولما غادر الإمبراطور البيزنطى بلاد الشام ، خلف على قيادة الجيش الدمستق الطواشــى ســيمون ، وطلــب إليه وإلى نيقتاس Nicetas قطبان أنطاكية ، أن يستردا حصــن قلعة المنيقة ، فحاصراها فى أوائل خريف سنة ١٠٣٠م ، غير أنه حلت بهما هزيمة ساحقة عجلت بعودتها إلى أنطاكية.[٢]

وقــد حــرص الإمــبراطور البيزنطى على أن يؤلب أمراء الشام على الخلافة الفاطمــية ، فشــجع أمير طرابلس على الخروج على طاعة الخليفة الفاطمى الظاهر ، نظــراً لأهمية طرابلس ، لأنها تفتح لبيزنطة الموانىء الشامية . وتجددت المعاهدة مع أمير طرابلس ، فتعاهد بأن يدفع جزية سنوية للإمبراطور البيزنطى ، وبفضل مساعى أمــير طــرابلس تم افتداء قائد القوات البيزنطية Choirosphakte ، الذى وقع فى أسر القوات الحلبية عند أعزاز.[٣]

أنوشتكين الدزبرى قائد الجيوش الفاطمية فى الشام ، أحرز انتصاراً باهراً على جمــوع العــرب الكلبيين والطائيين ، سنة ١٠٣٠م/٤٢٢هـــ ، عند بصرى ، "فاحتوى المغاربــة (الفاطمــيون) على ما كان لحسان بن مفرج الطائى من الإقطاع والأعمال ، وجعلوهــا لعــرب آخرين ، تقووا بهم على حربه" . أرسل الإمبراطور البيزنطى إلى زعــيمى طــى وكلب ، من آل جراح ، وآل رافع ، يطلب الانتقال والنزول بالأراضى البيزنطــية من عمل أنطاكية . واستدعى إلى القسطنطينية علاقا بن حسان ، فدخل إليه فــى جماعــة مــن أصحابه ، فأحسن إليهم ، وأنعم عليهم إنعاماً جزيلاً ، وجعل علاقا بطريقاً وأعاده إلى أبيه.[٤]

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٤٩ – ٣٥٠ .

[٢] يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٧، ٢٥٩.

[٣] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٦٨٤ .

[٤] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦١-٢٦٢.

وحـــاول أنوشتكين مهاجمة آل جراح وآل رافع فى مواضعهم الجديدة ، بعد أن توقـــع أن يســـانده أمـــراء حلب من الكلابيين ، غير أنه فشل فى ذلك ، لأن نصر بن صـــالح أمـــير حلب ، استصلح آل جراح وآل رافع ، حذرا من مكيدة يدبرها الدزبرى للاســـتيلاء علـــى حلـــب ، ولـــوح بالاســـتعانة بالبيزنطيين إذا تعرض لهجوم من قبل الدزبـــرى ، فلم يسع أنوشتكين الدزبرى ، إلا الرجوع إلى دمشق سنة ١٠٣١م / ٤٢٣ هـــ[١] .

وبعـــد أن تم لبيزنطة الاستيلاء على حصن المنيقة وقلعة أرجيروس بين حلب وأنطاكـــية ، لنيقـــتاس قطبان أنطاكية فى تسوية النزاع بين نصر بن صالح أمير حلب والإمبراطور البيزنطى ، بعد أن أقر نصر "ما كان أبوه عليه ، وغيره ممن ملك حلب، مـــع مـــن تقدمـــه مـــن أسلافه ، الملكين باسيل وقنسطنطين" . وتعاهد ببذل الخدمة له والاشـــتراك بقواتـــه فـــى كل حملة ينفذها إلى بلاد الشام ، واعترف بالتبعية له ، وأنه يســـير "تحت طاعته وإجابته فيما يعول عليه فيه من خدمة"[٢] . فتقرر عقد هدنة دائمة وإجـــراء صـــلح ، وبمقتضاه يتكفل نصر بن صالح أن يحمل إلى الإمبراطور فى كل ســـنة "خمسمائة ألف درهم ، صرف ستين درهماً بمثقال ذهب ، حسب صرف الوقت بحلـــب ، ويحمـــل المـــال فى نجمين من السنة"[٣] . وأرسل رومانوس إلى حلب سنة ١٠٣١م / ٤٣٢هـــ البروتوسباثاريوس ثيوفيلاكت Theophylact ، فتبادل مع أمير حلـــب التوقيع على المعاهدة ، وبعث أمير حلب بمال الهدايا إلى الإمبراطور ، فضلاً عـــن الهدنـــة والتحف ، ومنها شعر القديس مار يوحنا المعمدان ، فحسن وقع ذلك عند الإمبراطور.[٤]

علـــى أن الحرب لم تتوقف على أطراف بلاد الشام ، إذ حدث قبل نهاية سنة ١٠٣١م ذو القعدة ٤٢٢هـــ أن جورج مانياكس ، الذى صار حاكماً على المدن الواقعة

---

[١] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٧-٢٦٨.

[٢] يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٧.

[٣] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج١ ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

[٤] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٩.

علـــى أطراف نهر الفرات ، واتخذ سميساط مقراً له ، قرر أن يوجه الهجوم إلى أقرب المـــدن الإســـلامية إليه ، وأكثرها ثروة ، وهى مدينة الرها . فما حدث من النزاع بين أمـــيرى الرها شبل من قبيلة كلاب الذى يدين بالولاء إلى ناصر الدولة بن مروان أمير ميافارقيـــن وديار بكر ، وبين الأمير عطير من زعماء بنى نمير ، وما ترتب عليه من المتـــيال عطير ، واشتداد الخصومة بين العرب (نمير) والكرد (بميافارقين) ، أدى ذلك أن يســـتعين بمانياكس القائد سليمان بن الكرجي ، الذى وجهه أمير ميافارقين للاستيلاء على الرها . وعرض على مانياكس أن يسلم له الرها ، مقابل أن يحصل على لقب من قـــبل الإمبراطور ، وحكومة إقليم من الأقاليم البيزنطية ، فوعده مانياكس بذلك . وسار ســـليمان إلـــى رومانوس بالقسطنطينية، واستصحب معه الكتاب الوارد من أبجر ملك الـــرها إلى السيد المسيح والرد عليه . ونهض لمساعدة الرها أمراء وعساكر من سائر البلاد الإسلامية ، من حران ، وحلب ، ودمشق ، وحمص ومنبج والموصل ، وبغداد، والجزيـــرة والعراق . ومع ذلك احتفظ مانياكس بالرها ، بفضل ما قدم إليه من إمدادات من سميساط ، ودأب على الإغارة على حران وسروج وشمال الشام[1]. وقبل شيب بن وثـــاب النميرى تسوية النزاع مع الإمبراطورية البيزنطية على أن يدفع الجزية لبيزنطة وذلك سنة ١٠٣٢م / ٤٢٣هـــ.[2]

وتـــردد بيـــن أنوشـــتكين الدزبرى ، قائد الجيوش الفاطمية بالشام ، الذى اتخذ دمشق مقراً له ، وبين نيقتاس قطبان أنطاكية ، مكاتبات ومراسلات فى عقد الهدنة بين الظاهـــر الخليفة الفاطمي ، وبين رومانوس الإمبراطور البيزنطي ، حتى ينصرف إلى تسوية الأمور فى الشام ، بعد أن ساد به من الاضطراب ما زعزع سلطة الفاطميين به ورحبت بيزنطة بالدعوة إلى الهدنة ، بعد أن تعرضت أراضيها لهجمات المسلمين ولما أصـــاب الإمبراطورية وقتذاك من التداعى . وتم الاتفاق على أن يجتمع ممثلو الجانبين بانطرطوس على الحدود الفاطمية - البيزنطية.[3]

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٣-٢٦٥؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٧ ، ص ٣٥٣ .

[2] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٩-٢٧٠.

[3] يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٨-٢٦٩.

علـــى أن مـــا حدث من استيلاء القطبان نيقتاس على قلعة أفامية سنة ١٠٣١ - ١٠٣٢م / ٤٢٣هـــ ، فى إقليم جبال الأنصارية دفع الخليفة إلى الجهاد ضد البيزنطيين فـــنودى فـــى الـــناس بمصر ، وفى سائر بلاد الشام "بالنفير إلى الغزو ، بسجلات من الظاهـــر الفـــاطمى ، قرأت فى جميع بلاده ، وكوتب جميع من فى ديار مصر وديار بكـــر، وديار ربيعة ، بالحض على الجهاد ، امتعاضاً لما جرى من استيلاء البيزنطيين على الرها ، وسبهم رفنية ، وما أتوه على غيرها ، لتتفق الكلمة على قصده"[1]. وأبدى القـــائد البـــيزنطى الاستعداد للمفاوضة من أجل السلام ، إذا أراد القائد الفاطمى ذلك . فـــإن رغـــب فـــى ذلـــك ، يـــتقدم فى تسيير الرسولين الواردين من الظاهر إلى الملك (رومـــانوس) ، لـــيطلعوا الإمبراطور على شروط الصلح . فاشترط الإمبراطور لعقد الصلح[2] أن يقبل الفاطميون ثلاثة شروط أساسية .

الأول - أن يعمـــر الملك (الإمبراطور) كنيسة القيامة ببيت المقدس ، ويجددها مـــن ماله . وأن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التى فى بلاد الخليفة الظاهر ، وأن تتولى الحكومة البيزنطية اختيار بطريرك بيت المقدس .

الـــثانى - أن لا يـــتعرض الظاهـــر لحلب ، ولا يقوم هو ، ولا أحد من ذوى طاعـــته، بقتالها ، ولا التعرض لها بمكروه ، وأن يتركها تؤدى للإمبراطور البيزنطى، ما هو مقرر عليها من جزية سنوية .

الثالـــث - تـــتعاهد الحكومة الفاطمية بألا تمد يد المساعدة لأمير صقلية ، أثناء نشـــوب القـــتال بينه وبين البيزنطيين ، فلا ينجده ولا يقويه ، حتى يستمر السلام بينهم فى المستقبل .

ويعـــتقد أ.د. السيد الباز العرينى أن هذا الشرط الأخير كشف عن غارة بحرية قام بها المسلمون من صقلية وتونس سنة ١٠٢٧م / ٤١٨هـــ هاجمت جزائر الأرخبيل

---

[1] انظر، ابن الأثير ، الكامل ، ج٧، ص ٣٥٦.

[2] انظر، يحيى الأنطاكى، ص ٢٦٩-٢٧٠.

ونهبتها . فأراد الإمبراطور البيزنطى ، أن يتهيأ له من القوة ما ينتقم بها من مسلمى صقلية دون أن يعترضه الأسطول الفاطمى[1] .

وتعاهد الإمبراطور رومانوس الثالث ، مقابل ذلك إطلاق الأسرى ، المسلمين المأخوذين فى أيامه بحكم الحرب ، عوض بناء كنيسة القيامة . وطلب أيضاً إلى الظاهر أن يعيد حسان بن الجراح إلى ملكه وإقطاعاته ، على نحو ما كانت عليه زمن الحاكم بأمر الله ، "ويشرط عليه حسن الطاعة ، ولزوم الطرائق الحميدة" .

وعرض الإمبراطور أيضاً على الظاهر الفاطمى ، أن يدفع إليه حصن شيزر ، إذ هو بين أملاك المسلمين وأراضيهم ، ويعطيه الظاهر حصن أفامية ، عوضاً عنه ، إذ هو قريب من بلاد الروم ومجاور لحصونهم ، إذا رغب فى ذلك .

فقبل الظاهر ما شرطه الإمبراطور من بناء كنيسة القيامة ، ومن اختيار البطريرك ، ومن تجديد النصارى بقية الكنائس ، سوى ما صار منها مسجداً ، وذلك مقابل إطلاق سراح الأسرى المأخوذين زمن رومانوس . وأقر أيضاً ما اشترطه الإمبراطور البيزنطى من الامتناع عن بذل المساعدة لصاحب صقلية ، ولغيره ممن يحارب الدولة البيزنطية ، ويعيث فى بلادها ، إذا وافق رومانوس على أن يفعل معه مثله .

ولم يجب الظاهر إلى الشرط المتعلق بحلب ، وأعلن أنها من ثغور المسلمين ، ولا ينبغى أن تكون فى حوزة البيزنطيين ، وطلب إغفال ذكرها فيما تعقد عليه الهدنة، ولم ير قبول حسان بن الجراح ، ولم يرغب فى أخذ شيزر ، والتعويض عنها بأفامية .

ولم يذعن رومانوس إلى الرجوع عما اشترطه فى أمر حلب ، وأصر على ألا تعقد إلا على هذا الشرط . وترددت المكاتبة بين الجهتين فى هذا المعنى فى أيام رومانوس ، وزمن ميخائيل ، بعد ثلاث سنوات ونصف ، حتى استقر الأمر أخيراً[2] . ففى مستهل حكم ميخائيل البافلاجونى سنة ١٠٣٣م ، جرى استئناف المفاوضات .

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٤ .

[2] يحيى الأنطاكى، ص ٢٧١.

وللضغط علي البلاط البيزنطى ، لجأ الظاهر الفاطمى سنة ١٠٣٣ - ١٠٣٤م ، إلى أن يستخدم ما انتزعه من الكنائس من المواد ، فى عمارة سور أقامه حول بيت المقدس[١]. يضاف إلى ذلك ما حدث سنة ١٠٣٣م من استيلاء الجيش الفاطمى على طرابلس ، وعجز قطبان أنطاكية عن بذل المساعدة لها ، وما جرى من فشل الحملة البحرية التى وجهها الإمبراطور بقيادة البروتوسباثاريوس تكنياس Tekneas ، لمهاجمة الإسكندرية وإنزال الخراب بالدلتا . والراجح أيضاً أن أمير حلب ، طرد سنة ١٠٣٥م/ ٤٢٦هـ ، مندوب الإمبراطور البيزنطى فى حلب ، وأنزل الهزيمة بالقوات التى بعث بها دوق أنطاكية ، قنسطنطين ، لتوطيد النفوذ البيزنطى بها[٢] .

ثم حدث سنة ١٠٣٨م / ٤٢٩هـ، زمن الخليفة المستنصر ، أن تم إبرام الهدنة، والراجح أن البيزنطيين تخلوا عن الشرط المتعلق بحلب . ومع ذلك فإن القوات الفاطمية شنت فى تلك السنة هجوماً عنيفاً على حلب[٣]. وفى مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف من أسرى المسلمين ، جاز للإمبراطور أن يقوم بعمارة كنيسة القيامة ، فأرسل من قبله المهندسين إلى بيت المقدس ، وأنفق فى عمارة الكنيسة أموالاً طائلة . وهذه الكنيسة وصفها بعد مضى عشر سنوات ، أى سنة ١٠٤٨م ، الرحالة الفارسى ناصرى خسرو[٤] .

وترتب على المفاوضات ، أن توقفت العداوات فترة من الزمن ، وبذلك تهيأت الفرصة للدزبرى ، أن يستولى على مدينة حلب سنة ١٠٣٨م / ٤٢٩هـ وبفضل هذا القائد الحازم النشيط ، استرد الفاطميون كل بلاد الشام .

وتقرر أيضاً سنة ١٠٣٥م ، زمن الإمبراطور ميخائيل البافلاجونى Michael Paphlagonian ، نقل مانياكس من الرها إلى فاسبوراكان ، وحل مكانه ليو

---

[١] يحيى الأنطاكى، ص ٢٧٢.

[٢] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٨٩ .

[٣] ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٧٤ – ٧٥ .

[٤] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٨٩ .

ليبيندريــنوس Lependrinos ، الــذى كان يحكم أعالى ميديا وفاسبوراكان . ولم يكن لهــذا القــرار مــن سبب ، سوى مناوءة مانياكس، الذى أخذ نجمه فى الارتفاع ، على الرغم من أن السلاجقة بدأوا يتوغلون فى تلك الجهات ، وتكرر هجومهم على أطراف الدولة البيزنطية .

ولمــا علم وثاب النميرى صاحب حران ، وابن عطير من زعماء النميريين ، بخــروج مانــياكس مــن الرها ، عزما على مهاجمة الرها بكل ما لديهما من قوات ، واســتمدا ناصــر الدولة بن مروان ، أمير ميافارقين وديار بكر ، وتوجهوا جميعاً إلى الــرها ، فحصــروها وقطعــوا المؤن عنها ، ثم اقتحموها ، وغنموا ما فيها ، وأكثروا القــتل، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى . ولم تجد نفعاً محاولة بيزنطة استنفاذ الرها بما وجهته من حملة مؤلفة من بيزنطيين وعرب بقيادة حسان بن الجراح[1] .

علــى أنــه حــدث ســنة ١٠٣٨م /٤٢٩هــ ، أن تقرر الصلح بين ابن وثاب النمــيرى صــاحب حران وبين البيزنطيين ، وسلم إليهم ربض الرها ، الذى سبق أن اســتولى علــيه فأعاد البيزنطيون عمارة الرها وتحصينها . ولعل ما جرى من هجوم الســلاجقة على أرمينية ، وإمعانهم فى التنكيل بالعرب والكرد ، وتحولهم إلى مهاجمة ابــن وثــاب فى حران ، كل ذلك دفع ابن وثاب إلى التنازل عن الرها إلى البيزنطيين كيما يأمن جانبهم.

وما حدث من النزاع بين أبى الهيجاء حاكم أوقسطلان قلعة بركوى ، المتاخمة للأرمــن ، وبين خاله ، الذى التمس المساعدة من البيزنطيين ، بعد أن وعدهم بالتنازل عــن بركوى مقابل الحصول على لقب بطريق وبعض التشاريف ، أدى سنة ١٠٣٣م / ٤٢٥هـــ إلى استيلاء القائد البيزنطى البطريق خريسيليوس Chryselios على القلعة ، وفشــلت جهــود المسلمين ، بعد تسوية النزاع بين أبى الهيجاء وخاله بمساعى الخليفة بــبغداد ، فى استرداد بركوى ، بل أن الإمبراطور البيزنطى أرسل من الإمداد ما يكفى لتوطيد سلطانه بها ، ورد العرب عنها ، ولقى أبو الهيجاء مصرعه فى القتال .

---

[3] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٦٨٩-٦٩٠.

ولم يقتصر النزاع بين البيزنطيين والمسلمين على الأطراف الشرقية ، بل امتد إلـى حـوض الـبحر المتوسط ، والواضح أن حراسة البحار ، لم تعد قوية بعد وفاة الإمـبراطور باسيل الثانى ١٠٢٥م/٤١٦هـ ، فأخذت الأساطيل الإسلامية ؛ منذ زمن رومـانوس ارجـيروس ، تهاجم شواطئ الإمبراطورية البيزنطية وإيطاليا وايلليريا ، وجزائـر بحـر الأرخبـيل ، فتثـير الرعـب فى نفوس الأهلين ، وتقوم بنهب البلاد وتخريبها.

ففـى بدايـة عهـد الإمبراطور ميخائيل الرابع Michael IV ، أضحى بحر الأرخبـيل ، فيما يبدو ، مسرحاً للنشاط البحرى الإسلامى ، وعجز الأسطول البيزنطى المـرابط بجـزر الدوديكانـيز ، عن مقاومة البحرية الإسلامية . ومن أشهر ما قام به الأسـطول الإسـلامى من أعمال ما حدث سنة ١٠٣٤م / ٤٢٦هـ من الإغارة على المديـنة السـاحلية مـيرا Myra، المعـروفة قديمـاً باسـم Lycia ، والواقعة بثيـم كـبيرايوت. [١]

والمعـروف أن ميرا لم تستمد فحسب شهرتها من موقعها البحرى ، بل أيضاً مـن كنيسـة القديس نيقولا ، التى تضم رفاة هذا القديس ، والتى سرقها فيما بعد تجار البندقـية ونقلوهـا إلى بارى ، وتردد على هذا الموضع المرضى والمؤمنون والحجاج التماساً لبركات القديس نيقولا ، وزخرت هذه الكنيسة بما أغدقه عليها الأتقياء منذ زمن بعـيد ، من المنح العطايا ، فأضحت ثروتها من الشهرة ما جذب إليها الفرسان وجعلها هدفاً لهجماتهم ، فاستولى عليها سنة ١٠٣٤م الأسطول الإسلامى[٢] .

وحـدث أيضاً سنة ١٠٣٥م ، أن عاد قراصنة إفريقية (تونس) وصقلية ، لنهب شواطئ جزر الأرخبيل ، وشواطئ ثيم التراقيسيان ، وثيمى ساموس وكبيرايوت ، أى كـل الساحل الممتد من إفيسوس إلى ميرا . غير أن المغيرين تعرضوا لهزيمة ساحقة

---

[١] انظر، الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٦٩٠-٦٩١.

[٢] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٩١ .

ووقـــع منهم فى الاسر خمسمائة ، تقرر إرسالهم إلى القسطنطينية ، فجرى بيع جماعة منهم ، ولقى آخرون العذاب والنكال .

ودار ، عقــب هذا الحادث ، معركة بحرية جديدة ، نشبت بين هؤلاء المغيرين مـــن صقلية وأفريقية ، وبين قاد كبيرايوت ، قنسطنطين ، فأحرز البيزنطيون النصر ، وارتـــبط بهذا الحادث الإشارة إلى هارولد هاردرادا الاسكندنافى ، الذى سبق أن التحق بخدمـــة الإمبراطورة زوى ، ثم تقرر تعيينه قائداً للحرس الإمبراطورى من الورنك ، وتوجه للقتال فى بحر الارخبيل.(١)

إيطاليا بين البيزنطيين والمسلمين:

فقـــد البيزنطـــيون ، فـــى جنوب إيطاليا ، ما كان لهم من سيطرة على الأمراء اللومبارديـــين ، لمـــا صادفهم من متاعب ، وما حدث من فوضى واضطراب ، أثارها الســـكان الأصليون (الوطنيون) . فالمعروف أن القطبان بويانس ، جرى استدعاؤه إلى القســـطنطينية ، بعــد عودته مباشرة من حملة مسينى سنة ١٠٢٧م . وكان لزاماً على

---

(١) الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٦٩٢. فى عام ١٠٤٤/١٠٤٥م تزوج ملك النرويج هارولد هـــاردرادا Harold Hardraada مـــن الأمـــيرة اليزابيث الكييفية. وتعود العلاقات بين ياروسلاف وهـــارولد هاردرادا إلى ما قبل عام ١٠٤٤م ، عندما عاش فى بلاط ياروسلاف فترة من الوقت عام ١٠٣١م ، ومـــن المحتمل انه اشترك مع ياروسلاف فى حملته على بولندا فى عام ١٠٣١م، ثم غادر الـــبلاد مـــتجهاً إلى القسطنطينية بصحبة رفاقه، والتى وصلها فى عام ١٠٣٤م فى عهد الإمبراطور ميخائـــيل الـــرابـــع (١٠٣٤-١٠٤١م) للعمـــل فـــى خدمـــته ضـــمن الحرس الفارنجى الموجود بالقسطنطينية . وقد ظل يعمل فى خدمة بيزنطة إلى أن قرر العودة إلى بلاده، ويبدو أنه ورفاقه قضوا شتاء ١٠٤٤/١٠٤٥م مع ياروسلاف، أمير روسيا، فى نوفجورود حيث تزوج الأميرة اليزابيث هناك أثناء ذلك الشتاء. انظر، طارق منصور، الروس، ص ١٢٦، *Cecaument Strategicon,* ed. B. Wassiliewsky and V. Jemstelt, Amesterdam, 1965, p. 97. Cf. also Shepard, J., " A note on Harold Hardraada: the date of his Arrival at Byzantium", *JOB*, 22(1973), pp. 145-150; Hendy, M., "Michael IV and Harold Hardrada", *Nusmatic Chronicle*, Ser. 7, 10. (London, 1970), pp. 187-197.

يوحـــنا أرجــيروس ، الـــذى خلفه فى منصب القطبانية ، أن يناهض الحزب المعادى للبيزنطيين ، الذى ازداد قوة ، واشتد نشاطه ، بعد استدعاء بويانس .

يضـــاف إلـــى ذلك ما حدث من تجدد غارات المسلمين من صقلية على جنوب إيطالـــيا ســـنة ١٠٣٢م / ٤٢٤هـــ ، إذ تقرر فى تلك السنة إنفاذ البروتوسباثاريوس ، ميخائـــيل ، على رأس جيش كثيف ، مستمد من الثيمات الأوربية والأسيوية ، لمساعدة القطـــبان والطواشى اورستس ، قائد حملة صقلية المنكودة الحظ ، والتى استولت على مســـينى ، فأنـــزل المسلمون الهزيمة بالقطبان بونوس أرجيروس ، الذى لقى مصرعه أثـــناء القـــتال فـــى مسينى . أما بارى عاصمة الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا ، فإنها شهدت مظاهرة عنيفة ، قام بها الحزب المعارض للسياسة البيزنطية ، وذلك بتحريض بيزانطيوس رئيس أساقفة بارى .

وقدم القطبان الجديد ، البروتوسباثاريوس قنسطنطين اوبوس Opos ، بأسطول يقـــوده الطواشى حنا ، فدخل إلى بارى ، وأعاد السلطة البيزنطية ، وعين سنة ١٠٣٥م رئيســـاً جديـــداً لأساقفة بارى ، اختاره من الأساقفة المشايعين لبيزنطة ، بعد أن توفى وقتذاك بيزانطيوس[1] .

على أن كبار الموظفين البيزنطيين بإيطاليا ، وجهوا اهتمامهم وقتذاك ، بما يقع مـــن الأحـــداث فـــى جزيرة صقلية ، وأخذوا يفكرون فى الاستيلاء على تلك الجزيرة بقـــوات بـــيزنطة ، فلجأوا إلى اتخاذ سياسة الإيقاع بين الأمراء اللومبارديين ، دون أن يشتركوا فعلاً فيما ينشب بينهم من قتال ، وأمعنوا فى ابتزاز الأموال .

ومـــن الطبيعى أن تنتهز الفرص حكومة الطواشى حنا ، زمن ميخائيل الرابع ، للاســـتيلاء على جزيرة صقلية ، وحانت الفرصة سنة ١٠٣٥م ، إذ اندلع فى الجزيرة مـــن الحـــروب الداخلية ، ما جعل الأحزاب المتنازعة ، تطلب من بيزنطة التدخل فى أمـــور صقلية ، على أن أسباب هذه الحروب الداخلية فى صقلية ليست معروفة ، غير أنـــه يصح أن يعتبر من أسباب هذه الحروب الداخلية ، ما تأصل من العداء ، منذ زمن

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ٧٠٠ .

بعـيد، بين أهل صقلية وأهل إفريقية ، أى بين السكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، بعـد فـتح المسلمين للجزيرة ، وسلالة الأسرات العربية التى استقرت فى صقلية منذ سنوات عديدة، وحازت أملاكاً كثيرة ، وبين المهاجرين من البربر ، الذين قدموا حديثاً فى أعداد كبيرة إلى الجزيرة ، من شمال إفريقية ، ولم يمتزجوا بسائر السكان .

كان يحكم الجزيرة وقتذاك الأمير أبو جعفر الأكحل ، الذى ولى الحكم منذ سنة ١٠١٩م/٤١٠هـ ، بعد ثورة دامية قام بها أهل بلرم ، الذين أرغموا أخاه جعفر على التـنازل عـن الحكـم ، ومغادرة البلاد . فواصل الأكحل إنفاذ الحملات للإغارة على المـدن البيزنطية فى لانجوبارديا وكالابريا . ولم تفلح محاولة الإمبراطور البيزنطى ، سـنة ١٠٢٥م/٤١٦هـ لرد هذه الهجمات ، وتحرج مركز بيزنطة فى هذه الجهات ، ولاسـيما أن الحـزب الوطـنى بجـنوب إيطاليا أعلن وقتذاك العصيان والتمرد على بيزنطة.

علـى أن الأمـير الأكحل كان يبغض العنصر الأفريقى ، كلما نشب ضده سنة ١٠٣٥ م/٤٢٧هـ ثورة قام بها أهل صقلية ، بزعامة أخيه أبى حفص ، لم يسعه إلا أن يلـتمس مسـاعدة البيزنطيـين والتحالف معهم . ففى ربيع تلك السنة (١٠٣٥م) ، أرسـل إليه الطواشى حنا مبعوثاً ليعقد معه أول الأمر هدنة ، ثم أنفذ إليه رسولاً بارعاً فـى الدبلوماسية ، اسمه جورج بروباتاس Probatas ، فلقى عند وصوله إلى بلرم فى مايو سنة ١٠٣٥م/٤٢٧هـ ، استقبالاً حافلاً ، ونجح فى سفارته . فتقرر أن يصطحب معـه ابـن الأكحـل ليكون رهينة بالقسطنطينية ، وضماناً لصداقة الأكحل وحسن نيته إزاء البيزنطيين ، وحصل الأكحل على لقب ماجستير ، ووعدت بيزنطة بأن تبعث إليه بقوات عسكرية لتشترك فى قتال أخيه ، الذى تزعم الثائرين فى صقلية.[1]

وحـرص أبو حفص زعيم الثوار ، على أن يسعى لمصلحته ، فالتجأ إلى جهة أخـرى ، يلـتمس منها العون والمساعدة ، ولم تكن هذه الجهة سوى تونس والقيروان

---

[1] الـباز العريـنى ، الدولـة البيزنطية ، ص ٧٠١، Amari, M., *Storia dei Muslmani di Sicilia*, Catania, 1935. Vol. II, pp. 444-446.

حيث كان يحكم وقتذاك ، المعز بن باديس ، من الزيريين ، وقد استقل بشمال أفريقية ونزع السيادة الفاطمية . فقدم إلى المعز فى نهاية سنة ١٠٣٥م/٤٢٧هـ ، مبعوثون من صقلية من قبل أبى حفص ، فقالوا "نريد أن نكون لك رعية ، فإذا لم تقبل ، صرنا رعية للروم والمسيحيين" . أحرزت هذه السفارة نجاحاً كبيراً ، إذ احتفل المعز باستقبالهم ، ودعا إلى الجهاد فى سائر بلاده ، فأرسل إلى الأمير أبى حفص ستة آلاف مقاتل ، نصفهم من الرجاله ، ونصفهم من الفرسان ، وجهزهم بما احتاجوا إليه من الأسلحة ، وولى ابنه عبد الله قيادتهم[1] .

اشترط المعز بن باديس أن يكون أمير صقلية من أتباعه . ولما تعرض الأكحل للهزيمة على يد هؤلاء العساكر القادمين من أفريقية ، اجتاز مضيق مسينى ، ولجأ إلى القطبان البيزنطى ، قنسطنطين أوبوس ، الذى تولى رياسة الثيمات البيزنطية بايطاليا ، منذ مايو سنة ١٠٣٤م/٤٢٦هـ . فلم يسع القطبان قنسطنطين إلا أن يحشد سنة ١٠٣٧م، ما لديه من العساكر البيزنطية ، ويجتاز بهم صقلية . وعلى الرغم من إشارة المصادر البيزنطية ، إلى ما أنزله القطبان من الهزيمة بالعساكر الأفريقية ، بقيادة عبد الله بن المعز بن باديس ، فإن القطبان قنسطنطين لم يستطع المضى فى عملياته الحربية ، لما صادفه من مقاومة شديدة مستمرة ، بسبب تفوق القوات الأفريقية فى العدد . والراجح أن الاتفاق بين الجانبين تم فى صقلية ، فغادر القطبان الجزيرة إلى إيطاليا ، وكل ما ترتب على هذه الحملة من نتائج ، هو أن البيزنطيين حملوا معهم إلى إيطاليا نحو ١٥ ألف من الأسرى المسيحيين الذين كانوا فى حوزة المسلمين بصقلية ، فضلاً عن أن كثيراً من المسيحيين من سكان صقلية ، انتقلوا إلى إيطاليا . يضاف إلى ذلك أن السيادة فى صقلية صارت إلى عبد الله بن المعز بن باديس وأتباعه وأنصاره ، بينما لقى الأكحل مصرعه على يد شيعته فى بلرم[2] .

---

[1] الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٤٧٠٢ Amari, *Muslmani di Sicilia*, III, p. 368

[2] Amari, *Muslmani di Sicilia*, II, pp. 444-484.

ولـم يحفـل الطواشـى حنا المتحكم فى حكومة الدولة البيزنطية بما بذله من العهود للأكحل ، وعزم على أن يفيد من المنازعات المحتدمة بين المسلمين فى صقلية، فجهـز حملـة ضـخمة لمهاجمـة صـقلية وإخضاعها لبيزنطة . وبذل الطواشى حنا والإمـبراطور ميخائـيل الـرابع كل الجهود فى تجهيز هذه الحملة وإعدادها ، فجعلا قـيادتها لأكفأ قائد بيزنطى ، وهو جورج مانياكس ، الذى اشتهر بحروبه ضد المسلمين فى الشرق.

وتألفـت الحملـة مـن خيرة العساكر إذ كان بها فرق من ثيم الارمنياق بقيادة كاتاكـالون كيكاومينوس Katakalon Cecaumeons ، وفرق من الروس الورنك بقيادة هارولد هاردرادا ، ابن شقيق ملك النرويج أولاف الثانى .

وكـان يسـاند الجـيش البيزنطى ، الذى يقوده مانياكس ، أسطول قوى بقيادة الـبطريق سـتيفانوس ، صهر الإمبراطور ميخائيل ، ولم يكن قائداً كفئاً . وانضم إلى هـؤلاء ، البطريق ميخائيل دوقانوس (الأسفنديلس) Michael Docanus دوق وقطبان الثـيمات البيزنطية بإيطاليا ، وهو الذى سبق أن كان دوقاً لأنطاكية[1]. واتخذ ميخائيل دوقـانوس مـن أسـاليب العـنف والشدة ما يكفل له حشد قوات كبيرة ، وجمع أموالاً ضـخمة، برسم الحملة الموجهة إلى صقلية ، فاشتد تذمر السكان فى أبوليا وكالابريا ، وتحرج مركز البيزنطيين بها .

وتلقـى هـذا القـائد أيضاً مساعدة كبيرة من النورمان ، إذ أن جوايمار أمير سـالرنو أرسـل إليه ، بناء على طلب الإمبراطور البيزنطى ، كتيبة مؤلفة من ثلثمائة مقـاتل ، مـن أشـهر رجالها ، ولدا تانكرد هوتفيل ، وليم المعروف باسم ذى الذراع الحديـد ، ودروجون ، اللذان قدما حديثاً (١٠٣٦م/٤٢٨هـ) من نورمنديا . واستجاب جوايمار لطلب القطبان ، لأن ما حدث من القلق والاضطراب بين النورمان ، ولاسيما أولـئك الذين لم يظفروا بمثل ما ناله راينولف ، أمير افيرسا ، من الإقطاعات ، سبب لأمـير سـالرنو ، جوايمـار ، القلـق والكدر ، يضاف إلى ذلك أن جوايمار ، ارتاح

---

[1] يحيى الأنطاكى، ص ٢٥٤.

لانحـــياز هـــؤلاء النورمان إلى مانياكس ، لما اشتهر به من خبرة فى قتال المسلمين ، فوعدهـــم بـــأن يـــبذل لهم عطاء وافراً إذا اشتركوا فى الحملة البيزنطية الموجهة ضد صـــقلية ، وعندئذ ساروا بقيادة ولدى تانكرد هوتفيل إلى ريو ، حيث انضموا إلى قوات مانياكس.

وانضـــم إلى هؤلاء المحاربين النورمان أيضاً ، قائد لومباردى الأصل ، اسمه أردويـــن Ardouin ، كـــان مـــن أتـــباع رئيس أساقفة ميلان ، ونظراً لدرايته وخبرته بطرق البلاد ومسالكها ، اتخذوه دليلاً لهم أثناء المسير إلى صقلية ؛ إذ كان حاكماً على ناحـــية مـــيلفى Melfi ، ولما ساء مركز البيزنطيين فى أبوليا ، واشتد تذمر الناس لما لجأت إليه بيزنطة من استخدام العنف فى جمع الأموال والرجال ، واغتنم اللومبارديون هـــذه الفرصـــة فخرجوا على طاعة بيزنطة ، لم يسع أردوين إلا أن ينحاز إلى قوات راينولف النورمانى[١] .

اكتمل فى منتصف سنة ١٠٣٨ ، إعداد هذه الحملة الضخمة ، بعد أن استغرق تجهـــيزها سنتين ، وتولى قيادة هذه الحملة مانياكس ، فغادرت ريو ، واجتازت مضيق فـــارو ، ونزلـــت بصقلية ، ثم زحفت على مسينى . واستطاع مانياكس بفضل مساعدة النورمان والسكان الوطنيين ، أن يستولى على مسينى . وواصل البيزنطيون الزحف ، فأخضـــع مانـــياكس فى نهاية سنة ١٠٣٨ م/٤٣٠هـــ ، ثلاث عشر مدينة . على امتداد الساحل الشرقى للجزيرة ، الذى يعتبر من أخصب الجهات وأكثرها سكاناً[٢].

وفى مستهل سنة ١٠٤٠م/٤٣٢هـــ ، بلغ مانياكس وجنوده سيراكوزا ، فشرع فـــى حصارها ، واشتد القتال بين المسلمين والبيزنطيين . وتجلت بطولة المسلمين فى الدفـــاع عن المدينة ، فنسوا ما كان بينهم من منازعات ، واستبسلوا فى القتال ، وأفادوا مـــن مـــناعة أسوار المدينة فى شدة المقاومة . فطال أمد الحصار . واغتنم الأمير عبد الله ابـــن المعز بن باديس هذه الفرصة ، فحشد من أقليم الجزيرة ، ومن أفريقية ، جيشاً

---

[١] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٧٠٤.

[٢] Gay, *L'Italie méridionale*, pp. 436 – 437.

ضـــخماً يزيد على ستين ألف مقاتل ، وهاجم مؤخرة الجيش البيزنطى ، وأرغمه على رفــع الحصـــار عن سيراكوزا. وتحول مانياكس لقتال عبد الله ، بالقرب من إتنا Etna واشــتد الحـــرب بيـــن الجيوش الإسلامية ، وبين الجيوش البيزنطية ؛ التى تألفت من يونانييــن ، وروس وفارانجيين ، ونورمان من إيطاليا ، وعساكر من الثيمات البيزنطية بإيطالــيا . على أن ما حدث من استدعاء الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس لمانياكس للقدوم إلى القسطنطينية، للتخوف من أطماعه، [1] فضلاً عن شدة المسلمين فى القتال ، هــيأ للمسلمين بصقلية ، الفرصة لاسترداد ما استولى عليه البيزنطيون من البلاد . فلم يــبق بـــأيديهم سوى مسينيا[2] ، التى تولى الدفاع عنها قائد ثيم الأرمنياق ، غير أنه لم يلبــث أن أذعـــن فاستسلم للأمير صمصام الدولة ، أخرى الأكحل ، فعادت باستسلامه ١٠٤١م/٤٣٣هـــ ؛ الجزيرة بأكملها إلى حوزة المسلمين .

ومـــا كـــاد يعود النورمان والبيزنطيون إلى الأراضى الإيطالية ، حتى أخذت قواعد بيزنطة بها ، مثل كالابريا ولانجوبارديا ، تتداعى الواحدة تلو الأخرى . ذلك أن اللومبارديـيـــن ، اغتـــنموا تناقص القوات البيزنطية بهذه الجهات ، لأن جانباً كبيراً منها اشـــترك فـــى الحملـــة الموجهة إلى صقلية ، فامضوا فى إثارة الفتن ، وتزايد اغتيال الموظفيـــن البيزنطييـــن، وحـــرض أرجـــيروس ، ابـــن ميلو ، قومه على الثورة ضد بيزنطة.[3] وبفضل مساعدة النورمان ، أحرز الثائرون اللومبارديون انتصارات عديدة على القوات البيزنطية سنة ١٠٤١م/٤٣٣هـــ[4] .

---

[1] تجـــدر الإشارة إلى أن مانياكس قاد ثورة ضد الإمبراطور البيزنطى قسطنطين مونوماخوس عام ١٠٤٣م، لشعوره بمؤامرات تحاك ضده في القسطنطينية على أثر الإنجازات العسكرية التى أحرزها ضـــد المسلمين في الشرق والغرب. وقاد ثورته وزحف على القسطنطينية، وكاد يدخلها ويعلن نفسه إمبراطورا، لولا مصرعه بسهم طائش. لمزيد من التفاصيل عن ثورة مانياكس، انظر،
Psellus, pp. 192-198, 385-386; *Cedrenus*, II, pp. 545-549 ; Attaliotae, M., *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, (Bonnae, 1853), pp. 12-19.

[2] Vasiliev, *Byzantine Empire*, p. 329.

[3] الباز العرينى، الدولة البيزنطية، ص ٧٠٥.

[4] Gay, *L'Iatie méridionale*, pp. 456 – 457.

علـــى هذا النحو مضت العلاقات بين الدولة البيزنطية والمسلمين خلال عصر الأســـرة المقدونية، التى شهدت أواخر أيامها هبوط معدل الضغط العسكرى البيزنطى على الشرق الإسلامي، ووصوله على أدنى درجاته مقارنة بأباطرة تلك الأسرة العظام أمـــثال باســيل الأول، ونقفــور فوقاس ويوحنا تزيمسكس وباسيل الثانى، الذين شكلوا ضـــغطا مســـتمرا على الأراضى الإسلامية دون كلل أو ملل، مستغلين ضعف الخلافة العباســـية وتهتك العالم الإسلامى سياسياً. ولعل هناك العديد من الأسباب التى أدت إلى تـــراجع مؤشـــر القـــوة العســـكرية البيزنطية في نهايات الأسرة المقدونية والتى يمكن تلخيصــــها فـــي أنهـــا كانت رد فعل طبيعى لحكم النساء في بيزنطة، واندفاع أعضاء الـــبلاط البـــيزنطى وراء شهواتهم من النساء والمال والسلطان. وقد ازدادت الأوضاع ســـوءاً بما وقع من شقاق بين الكنيستين العظمتين في عام١٠٥٤م، كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية، والذى يعرف باسم قطيعة كريولاريوس.

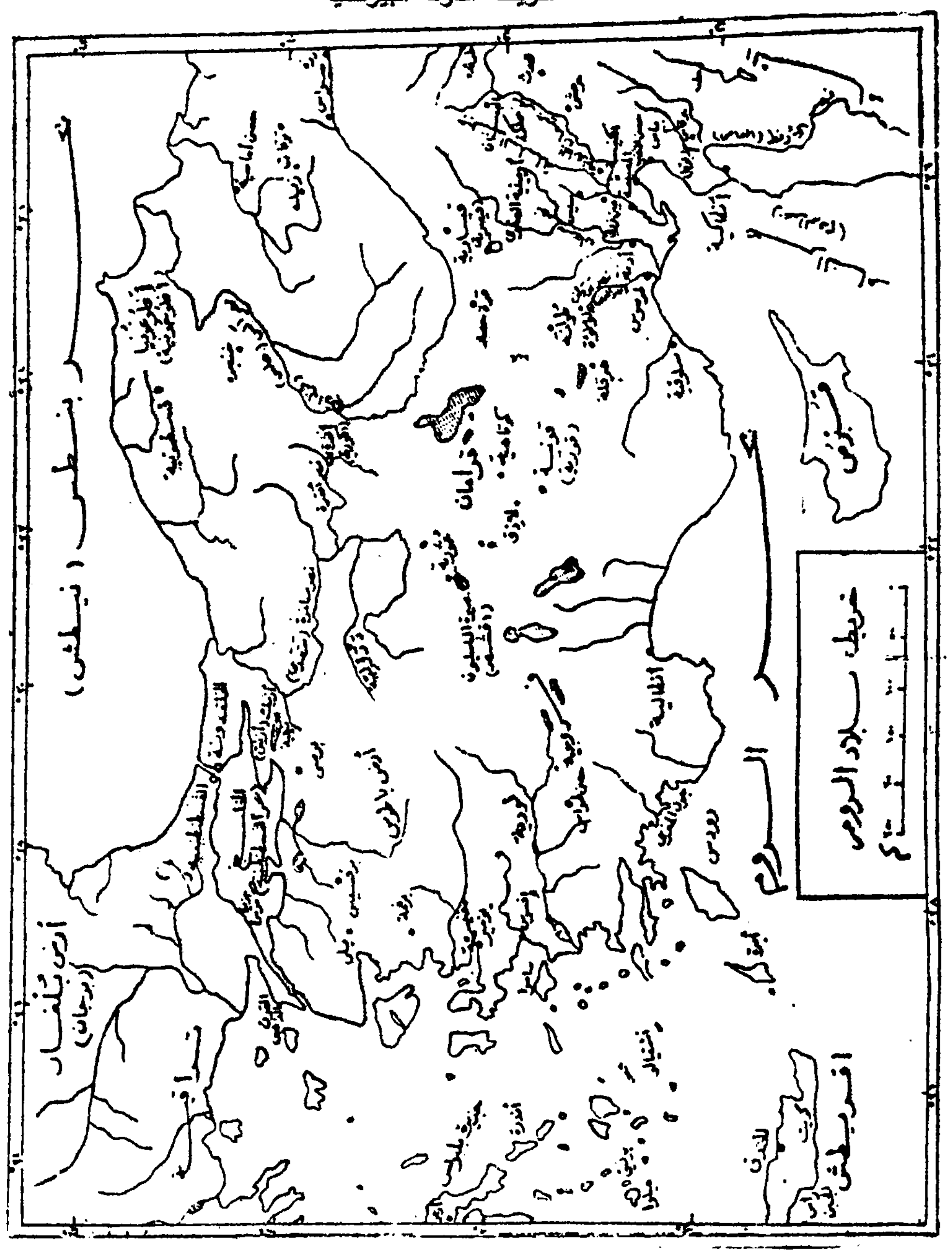
وبهـــذا تنتهى فترة التحدى والاستجابة في تاريخ الدولة البيزنطية، والتى بدأت مـــع بزوغ شمس القرن السابع الميلادى/الأول الهجرى، الذى انقلبت فيه موازين القوى الدولـــية فـــي العصور الوسطى رأسا على عقب مع اختفاء الفرس من الساحة الدولية وظهـــور المسلمين كقوة مناوأة للبيزنطيين بدءاً من ذلك القرن وحتى نهاية عهد الأسرة المقدونـــية، منتصـــف القرن الحادى عشر الميلادى/ منتصف القرن الخامس الهجرى تقريـــباً. ومـــع اضـــطلاع الأسرة الكومنينية بحكم بيزنطة ١٠٨١م-١١٨٥م تبدأ فترة جديـــدة الملامح في ميزان القوى العالمية، حيث تدخل أطراف جديدة إلى حلبة الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ممثلة في القوى الصليبية، التى خرجت إلى الشرق في نهاية القـــرن الحـــادى عشر الميلادى؛ كما يزداد العنصر العربى تراجعاً إلى الخلف إلى حد مـــا، لـــيحل محلـــه العنصـــر التركى، أو الأتراك السلاجقة ليحملوا راية الجهاد ضد البيزنطيين والصليبيين معاً. وهذه الفترة الواقعة من نهاية القرن الحادى عشر الميلادى وحتى سقوط القسطنطينية في أيدى اللاتين عام ١٢٠٤م، يمكن أن نطلق عليها "الشرق بين البقاء والفناء، البيزنطيون والعالم الصليبى"، والشرق هنا نعنى به الشرق البيزنطى والإسلامي معاً، وهو ما سنعالجه إن شاء الله في الجزء الثالث من موسوعتنا التاريخية "بيزنطة والعالم الخارجى".

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثانى إن شاء الله

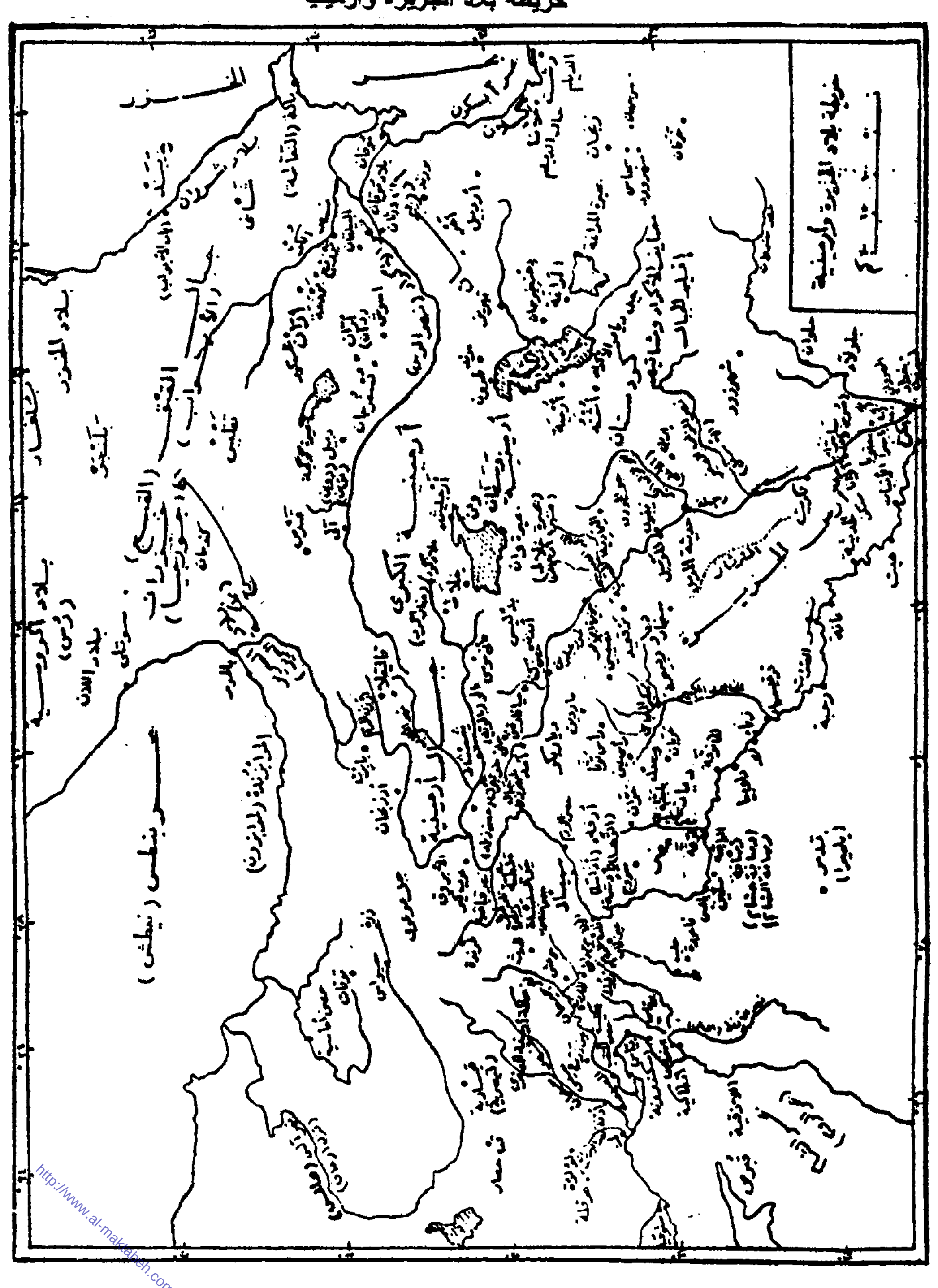
الخرائط*

* هذه الخرائط نقلاً عن عبد المنعم ماجدو على البنا، الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠.

الخريطة الأولى
خريطة الدولة البيزنطية

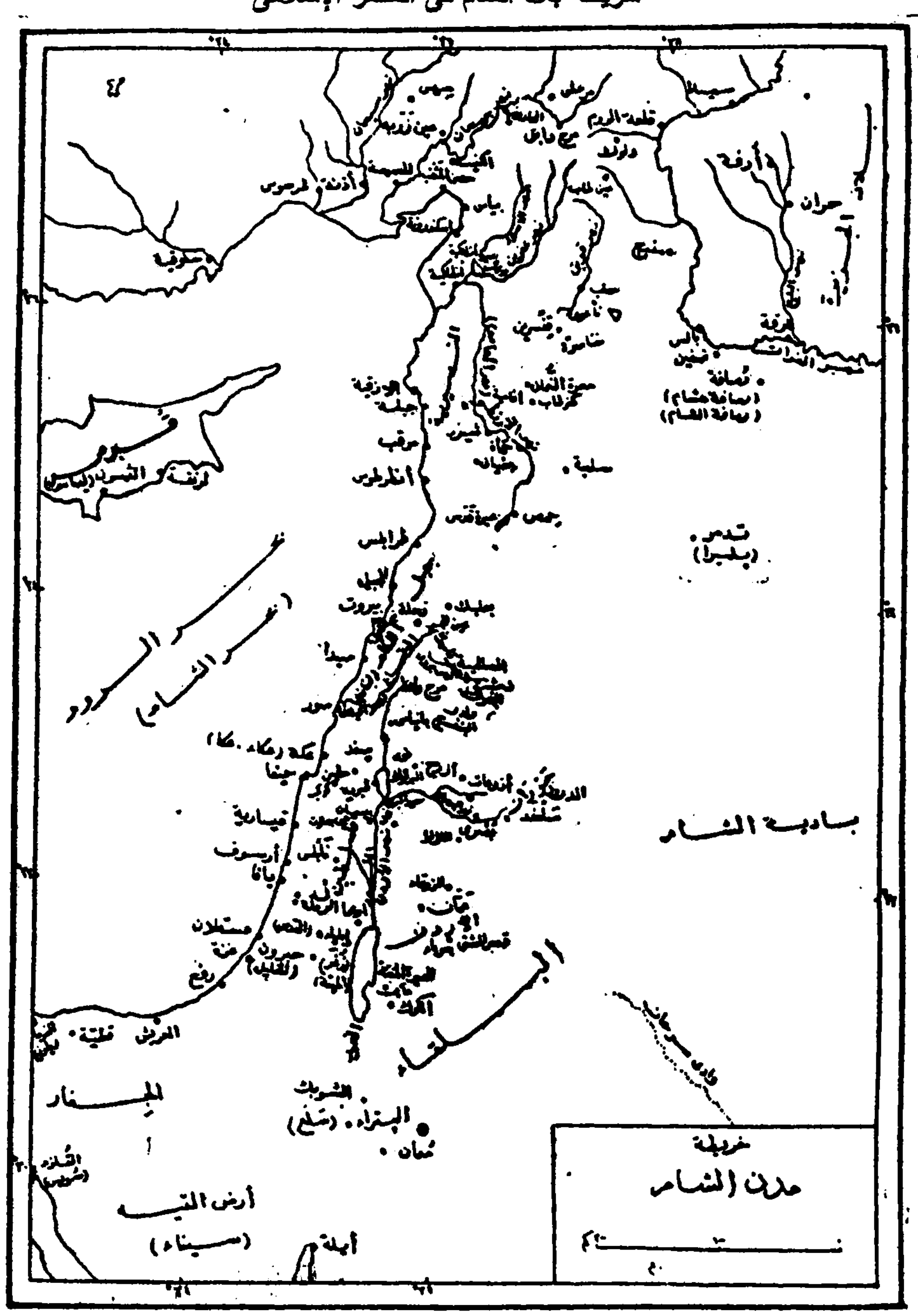


الخريطة الثانية
خريطة بلاد الجزيرة وأرمينية



الخريطة الثالثة

خريطة بلاد الشام فى العصر الإسلامى





قائمة المصادر والمراجع


http://www.al-maktabeh.com

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر العربية والمعربة:

- أبو تمام الطائي ، ديوان أبي تمام، بيروت، ١٨٨٩.
- أبو شجاع ، الوزير محمد أبو الحسن (٣٦٩-٣٨٩هـ) ذيل تجارب الأمم، تحقيق/هـ .ف. آمدروز، القاهرة، ١٩١٦.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، جـ٦ – جـ٧، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
- ابن الشحنة، أبو الفضل محمد (ت ٨٩٠هـ)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دمشق، ١٩٨٤.
- ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم (ت ٦٦٠هـ)، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، جـ١، دمشق، ١٩٥١.
- ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت، ١٩٠٨.
- ابن تغري بردي، (ت ٨٧٤هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٣-٤، القاهرة، ١٩٣٣. طبعة دار الكتب المصرية.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله (ت ٣٠٠هـ تقريباً) المسالك والممالك، القاهرة، د. ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٤، بيروت، ١٩٩٢.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن (١٨٧-٢٥٧هـ) فتوح مصر وأخبارها، تحقيق/ محمد صبيح، القاهرة، ١٩٧٤.
- ابن عذاري المراكشي (ت أواخر القرن ٧هـ) البيان المغرب في أخبار المغرب، ج٢، بيروت، ١٩٥٠.
- ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق/محمد عبد العزيز النجار، القاهرة، ١٩٩١، ٧ أجزاء.

- ابـــن هشـــام، أبـــو محمد عبد الملك (ت٢١٣هــ)، مختصر سيرة ابن هشام، القاهرة، ١٩٩٧، جزءان.
- اينهارد، حياة شارلمان، ترجمة/ عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٩.
- الـــبلاذرى، أبـــو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هــ)، فتوح البلدان، تحقيق/ عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع، بيروت، ١٩٨٧.
- الدمشـــقى، شـــمس الديـــن أبـــى عبد الله محمد (ت ٧٢٧هــ) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره/ ا. ميهرن، ليبزج، ١٩٢٣.
- الذهبـــي، شمس الدين بن محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هــ)، دول الإسلام، تحقيق/ حسن إسماعيل مروة، جــ١، بيروت، ١٩٩٩.
- الذهبـــي، شـــمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هــ)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، جزءان، القاهرة، ١٣٦٧هــ.
- الطـــبرى، أبـــو جعفـــر بـــن محمـــد بن جرير (ت ٣١٠هــ)، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، بيروت، د. ت.
- قدامـــة بـــن جعفـــر (ت ٣٢١هــ) ، نبذ من كتاب الخراج، ملحق على كتاب المسالك والممالك، القاهرة، د. ت.
- القرآن الكريم.
- قســـطنطين بورفيروجنيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨١.
- القلانسي،(ت ٥٥٥هــ) أبو يعلي حمزة، نيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨.
- القلقشـــندى، أبـــو العـــباس أحمـــد بن على (ت ٨٢١هــ)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة، د. ت.، ج١.
- المســـعودى، أبـــو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هــ)، التنبيه والإشراف، تحقيق لجنة تحقيق التراث، بيروت، ١٩٩٣.
- المســـعودى، أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هــ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق/ مفيد محمد قميحه، بيروت، ١٩٨٦، ج٣.

- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ)، كتاب تجارب الأمم، القاهرة، ١٩١٤ –١٩١٥ ، جزءان.
- المقري، أبو العباس أحمد بن محمد (ت١١٠٤ هـ)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، جـ١، القاهرة، ١٩٤٩.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء تحقيق/ جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٤٨.
- المقريزى، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) ، كتاب الاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، بيروت، د. ت.
- الواقدى، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، ج١، القاهرة، ١٣٦٨ هـ.
- الواقدى، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)، كتاب المغازى، تحقيق/ مارسدن جونسون، ج٣، بيروت، ١٩٨٤.
- يحيى الأنطاكى ، تاريخ سعيد بن يحيى الأنطاكى ، نشرة كراتشكوفسكى وفازيلييف ، *PO* ، ج١٨، مارس ، ١٩٢٤.
- يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، الكتاب الثالث، ترجمة/صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠.

ثانيا المصادر الأجنبية:

- Amari, M., *Storia dei Muslmani di Sicilia*, Vols. I-III, Catania, 1935-1937.
- Nicephoros Patriarch of Constantinople, *Short History*, ed. and Eng. trans. C. Mango, *CFHB*, 13(Washington, D.C. 1990).
- Procopius of Caesarea, *History of Wars*, Eng. trans. H. B. Dewing, Cambridge, Mass., 1941-1940), 7 Vols.
- *Taktikon Uspenski*,(842-843 AD.), dans *Les listes de préséance byzantines des IXe-Xe sicèles*, ed. N. Oikonomides, Paris, 1972.
- Constantine Porphyrognétè, *Le livre des cérémonies*, I, trad. A. Vogt, Paris, 1935.
- Attaliotae, M., *Historia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1853.

- *Cecaumeni Strategicon*, ed. B. Wassiliewsky and V. Jernstelt, Amesterdam, 1965.
- Cedrenus, G., *Epitome Historiarum*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1838.
- Constantine Porphrogenitus, *De Ceremoniis Aulae Byzantinae*, ed. I. Reiskii, *CSHB*, Bonnae, 1840, 2 tomes.
- Constantine Porpherogenitus, *De Administrando Imperio*, Ed. G. Moravcsik, Eng. trans. R. H. Jenkins, Budapest, 1949.
- *Fourteen Byzantine Rulers, The Chronographia of Michael Psellus*, Eng. trans. E. R. Sewter, Penguin Books, 1966.
- *Symeon Magister ac Logothetae Chronographia*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1838.
- *The Russian Primary Chronicle*, Laurentian text, Eng. trans.& ed. by S. H Cross & O. P. Sherbawitz - Wetzor, Cambridge, Mass., 1953 .
- Zonaras, I., *Epitomae Historiarum*, tomé III, éd. T. Bütter-Wobst, *CSHB*, Bonnae, 1897.
- Constantine Porphyrognetus, *De thematibus*, ed. I. Bekker, *CSHB*, Bonnae, 1840.
- Constantine Porphyrognetus, *De thematibus*, ed. and com. A. Pertusi, Vaticano, 1952.
- Leo VI, *Tactica*, ed. J. P. Migne, *PG*, Turnholti, 1978.
- Traité de Philothée (899 AD.), dans *Les listes de préséance byzantines des IX^{e}-X^{e} sicèles*, éd. N. Oikonomides, Paris, 1972.
- Leo VI, *Les novelles de Leon VI le sage*, trad. P. Noailles et A. Dain, Paris, 1944.
- Dain, A., *L'extraite tactique tire de Leon VI le sage*, Paris, 1942.
- Theophanes, *The Chronicle of Theophanes Confessor*, ed. and Eng. trans. R. Scott and C. Mango, Oxford, 1997.
- *Chronicon Paschale 284-628 AD.*, Eng. trans. M. and M. Whitby, *Translated Texts for Historians*, Vol. 7, Liverpool, 1989.
- Procopius of Caesarea, *De Aedificiis*, Eng. trans H. B. Dewing, London, 1940.
- Sébèos, *Histoire d' Heraclius*, éd. et trad. F. Macler, Paris, 1904.

ثالثا المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٦٣.
- إبراهيم العدوى، التاريخ الإسلامى أفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، القاهرة، ١٩٧٦.
- إبراهيم العدوى، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، ١٩٥٨.
- إبراهيم على طرخان، الحركة اللأيقونية، القاهرة، ١٩٥٨.
- أحمد فؤاد سيد، تاريخ الدعوة الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤.
- أحمد الشريف، مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول، القاهرة، ١٩٦٥.
- أحمد عتمان، تاريخ قبرص، القاهرة، ١٩٩٧.
- أسد رستم، الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ١٩٥٥، جزءان.
- أسد رستم، حرب في الكنائس، بيروت، ١٩٥٨.
- أومـــان، شارل، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة/ مصطفي طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣.
- احمـــد شـــلبى، موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر العباسى الأول، القاهرة، ١٩٧٠.
- اسمت غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، الإسكندرية، ١٩٨٣.
- بتلر، ا.، فتح العرب لمصر، ترجمة/ محمد فريد ابو حديد، القاهرة، ١٩٣٣.
- جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، الإسكندرية ، ١٩٨٤.
- حامد زيان، الأسرى المسلمون في بلاد الروم، القاهرة، ١٩٨٩.
- حســن إبراهــيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، القاهرة، ١٩٩٦، ٤ أجزاء.
- حسنين ربيع، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٦.
- ديفز، كارلس، شارلمان، ترجمة/ السيد الباز العرينى، القاهرة، ١٩٥٩.

- رأفت عبد الحميد و طارق منصور، مصر فى العصر البيزنطى، القاهرة، ٢٠٠٢.
- رأفت عبد الحميد، الفكر السياسى الأوربى في العصور الوسطى، القاهرة، ٢٠٠١.
- رأفت عبد الحميد، بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، القاهرة، ١٩٩٧.
- رنسمان، س.ن الحضارة البيزنطية، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦٢.
- السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٦٠.
- صلاح حسن العاوور، "المحاولات العربية لفتح القسطنطينية فى العصر الأموى"، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٨(٢٠٠٠).
- طارق منصور، الروس والمجتمع الدولي ٩٤٥ – ١٠٥٤، القاهرة، ٢٠٠١.
- طارق منصور، الجيش فى الإمبراطورية البيزنطية، رسالة ماجستير لم تنشر بعد، كلية آداب بنها، جامعة الزقازيق، ١٩٩٣.
- طارق منصور، ظاهرة هروب المصريين من الأرض فى القرنين السابع والثامن الميلاديين فى ضوء البرديات اليونانية والقبطية، مجلة الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، عدد ٤(١٩٩٩–٢٠٠٠).
- طارق منصور، قطوف الفكر البيزنطى، ج١، الأدب، القاهرة، ٢٠٠٢.
- عبد الرحمن أحمد سالم، المسلمون والروم فى عصر النبوة، القاهرة، ١٩٩٧.
- عبد العزيز بن إبراهيم العمرى، "خطط الراشدين فى البحر المتوسط"، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٨(٢٠٠٠).
- عبد المنعم ماجد، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، القاهرة، ١٩٩٤.
- عبد المنعم ماجد وعلى البنا، الأطلس التاريخى للعالم الاسلامى فى العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠.

- عبد الوهاب حسن محمد ، قبرص والصراع البيزنطى الاسلامى فى الفترة من ٢١-٣٥٤هـ/٦٤١-٩٦٦٥م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات، جامعة عين شمس، ١٩٩٦.
- عزيز حسن، تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة/ أمين توفيق الطيبي، طرابلس، ١٩٨٠.
- على إبراهيم حسن، التاريخ الإسلامى، القاهرة، د. ت.
- علية عبد السميع الجنزورى، العلاقات البيزنطية الروسية في عهد الأسرة المقدونية، القاهرة، ١٩٨٩.
- عليه عبد السميع الجنزورى، هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٥.
- عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبى ، الإسكندرية، ١٩٦٦.
- عمر كمال توفيق، مقدمات العدوان الصليبي، الإمبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية، الإسكندرية، ١٩٦٦.
- فازيليف، أ.، العرب والروم، ترجمة/ محمد عبد الهادى شعيره، القاهرة، د.ت.
- كارين أرمسترونج، محمد، ترجمة/ فاطمة نصر و محمد عنان، القاهرة، ١٩٩٨.
- كوثر على سرحان، "فتح المسلمين لأرواد "كيزيكوس" ورودس"، ندوة المراكز الثقافية والعلمية فى العالم العربى عبر العصور، حصاد ٩، القاهرة، ٢٠٠١.
- لومبار، الأسس النقدية للسيادة الاقتصادية، ترجمه/ توفيق اسكندر، منشور فى كتاب بحوث فى التاريخ الاقتصادى القاهرة ، ١٩٦١.
- لويس، أرشيبالد، القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة/ أحمد محمد عيسي، القاهرة، ١٩٦٠.

- ليلى عبد الجواد إسماعيل، " دور البلغار فى مواجهة حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية"، مجلة المؤرخ المصرى، عدد ٦(١٩٩١).
- ليلى عبد الجواد إسماعيل، الدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥.
- ليلى عبد الجواد إسماعيل، علاقة دولة الروم بمصر عصرى الطولونيين والاخشيديين، القاهرة، ١٩٨٨.
- محمد أحمد زيود، "النشاط الفاطمى المغربى فى صقلية وجنوب إيطاليا"، مجلة المؤرخ العربى، عدد ٩(٢٠٠١).
- محمد جمال الدين سرور، الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، ١٩٦٦.
- محمد حسين هيكل، حياة محمد، القاهرة، ٢٠٠١.
- محمد حمدى المناوى، مصر فى ظل الإسلام، الإسكندرية، ١٩٧٠.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، ٢٠٠١، ٣ أجزاء.
- محمد فتحى الشاعر، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى القرن السادس الميلادى، عصر جستنيان، القاهرة، ١٩٨٩.
- محمد مختار، التوفيقات الإلهامية، القاهرة، ١٣١١ هـ.
- منى محمود السيد، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين في صقلية وجنوب إيطاليا زمن الأسرة المقدونية، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٩٦.
- موس ، هـ.، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة/ عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، ١٩٦٧.
- هارتمان وباراكلاف، الدولة والإمبراطورية فى العصور الوسطى، ترجمة/ جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية، ١٩٨٤.
- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة / أحمد محمد رضا ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ج١.

- وديع فتحى عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩٠.
- وســلم عبد العزيز فرج، "السادة والاتباع: دراسة في ظاهرة التبعية الشخصية فــي العصر البيزنطى الأوسط"، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، عدد ٣٢(١٩٨٥)، ص ٢٣٥-٢٨٦.
- وســلم عبد العزيز فرج، الزواج الرابع للإمبراطور ليو السادس، الإسكندرية، ١٩٩١.
- وسلم عبد العزيز فرج، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى، الإسكندرية، ١٩٨١.
- وسلم عبد العزيز فرج، دراسات فى تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٥.

رابعا المراجع الأجنبية:

- Ahrweiler, H., " Asie mineure et les invasions arabe dans VII^e-IX^e siècles", *RH*, 127(1962).
- Ahrweiler, H., "Recherches sur l' administration de l'empire byzantine aux [1]IX^e-XI^e sicèles, *BCH*, 84(1960).
- Ahrweiler, H., *Byzance et La mer*, Paris, 1966.
- Anastos, A., "Iconoclasm and the Imperial Rule 717-842", *CMH*, Vol. IV, Pt. II, Cambridge, 1966.
- Antoniadis-Bibicou, H., *Etudes d'histoire maritime de Byzance*, Paris, 1966.
- Backer, G., *The Walls of Constantinople*, New York, without date.
- Bréhier, L., *La querelle des images VIII^e-IX^e siècles*, Paris, 1904.
- Bréhier, L., *Les institutions de l'empire byzantin*, Paris, 1943.
- Bréhier, L., *Les Institutions de l'empire byzantin*, Paris, 1943.
- Browning, R., *Byzantium and Bulgaria*, London, 1975.
- Bury, J. B., "Mautasim's March through Cappadocia in 838 AD.", *JHS*, 29(1897), pp. 120-129.

- Bury, J. B., *The Imperial Administrative System in the Ninth Century*, London, 1911.
- Canard, M., "Les expéditions des arabes contre Constantinople", *JA*, 108(1926), pp. 61-121.
- Christides, V., "Once again Cameniates' "Capture of Thesslaoniki", *BZ*, 74(1981), pp. 7-10.
- Darkó, E., "L'influences touraniennes sur l'évolution de l'art militaire des grées, des romains et des byzantins", *B*, 12(1937).
- Dieh, Ch.et Marçais, G., *Histoire du moyen âge*, Paris, 1936.
- Diehl, Ch., *Byzantium: Greatness and Decline*, Eng. trans. N. Walford, New York, 1957 .
- Diehl, Ch., "L'origine du regime des thèmes dans l'empire byzantin," dans *Etudes Byzantines*, Paris, 1905.
- Ensslin, W., "The Emperor and the Imperial Administration", in: *Byzantium*, (١)ed. N. Bayns and H. Moss, Oxford, 1948.
- Ensslin, W., "The Government and Administration of the Byzantine Empire", (١)*CMH*, Vol. IV, Pt. II, Cambridge, 1967.
- Farag, W., "Some Remarks on Leo Tripoli's Attack on Thessalonikii", *BZ*, 82(1989), pp. 133-139.
- Fine, J., *The Early Medieval Balkans*, Michigan, 1993.
- Gay, J., *L'Italie méridionale et l'empire byzantin depius l'avenèment de Basil Ier jusque à la prise de Bari par les Normands 867-1071*, Paris, 1904.
- Guilland, R., "L'expédition de Maslama contre Constantinople", *Al-Mashreq*, Beirut, 1955, pp. 89-112.
- Guillou, A., *L' civilization byzantin*, Arthaud, 1974.
- Haldon, J., "A Possible Solution to the Greek Fire", *BZ*, 70(1977), pp. 91-99.
- Hanton," Lexique explicatif du recueil des inscriptions gréque-chrétiennes d'Asie mineure", *B*, (1928-1929) .
- Hendy, M., "Michael IV and Harold Hardrada", *Nusmatic Chronicle*, Ser. 7, 10. (London, 1970), pp. 187-197.
- Jenkins, R., *Byzantium The Imperial Centuries 610-1071 AD.*, London, 1966.
- Johnson, A., and West, L., *Byzantine Egypt: Economic Studies*, Princeton, 1949.

- Karlin-Hayter, P., "La prehistoire de la démiere volonté de Léon VI", *B*, 33(1963), pp. 251-252.
- Każhdan, A., "Some questions addressed to the Scholars who believed in the Authenticity of Kameniates' ", *BZ*, 71(1978), pp. 301-314.
- Lemerle, P., *Philippes et la Macédonie oriental a l' époque chrétienne et byzantine*, Paris, 1945.
- Lemerle,P., *Histoire de Byzance*,Paris, 1975.
- Livadas, A., "Some Questions of Medieval Nautical Technology in Kameniates' "Sack of Thessloniki" (904 AD.)", *Graeco-Arabica*, 6(1995), pp. 145-151.
- Lot, F., *L'art* [1] *militaire et les armées*, Paris, 1946.
- Malamut, E., *Les iles de l'empire byzantin*, Vol. I, Paris, 1988.
- Mitard,M., " Etudes sur le règne de Leon VI", *BZ*, 12(1903).
- Nicolle, D., *Yarmuk 636AD. The Muslim Conquest of Syria*, London, 1994.
- Obolensky, D., "Cherson and the Conversion of Rus' : an anti revisionist view", *BMGS*, 13(1989), 244-256.
- Oinkonomidès, N., "La démiere volonté de Léon VI au sujet de la tétragamie", *BZ*, 56(1963), pp. 46-52.
- Oman, Ch., *History of the Art of War in the Middle Ages*, London, 1924, Vol. I .
- Ostrogorsky, G., *History of the Byzantine State*,Eng. Trans. J. Hussy, New Jersey, 1957.
- Ostrogorsky,G., "sur la date de la composition du Livre des thèmes",*B*, 22(1952).
- Runciman, *S., The Emperor Romanus Lecapenus and his Reign*, Cambridge, 1963.
- Runciman, S., *A History of the First Bulgarian Empire*, London, 1930.
- Shahid, I., *Byzantium and the Arabs in the Fifth Century*, Washington D.C., 1989.
- Shahid, I., *Byzantium and the Arabs in the Fourth Century*,Washingtron D.C., 1984.
- Shahid, I.," Heraclius and the Theme System", *B*, 57(1987).

- Shepard, J., " A note on Harold Hardraada: the date of his Arrival at Byzantium", *JOB*, 22(1973), pp. 145-150.
- Shlosser, F., *The Reign of the Emperor Maurikios*, Athens, 1994.
- Stratos, A. N., *Byzantium in the Seventh Century*, Vol. I, Eng. trans. M. Ogilvie-Grant, Amsterdam, 1968.
- Tarek M. Mohammed, The Expedition of Nicetas on Egypt 609-610 AD.How, Why and When?, *AESGRS*, 4(1999-2000), pp.97-112.
- Tsougarakis, D., *Byzantine Crete from the 5th Century to the Ventian Conquest*, Athens, 1988.
- Ure,P., *Justinian and his Age*, London, 1951.
- Van Millingen, A., *Byzantine Constantinople, the Walls of the City and Adjoining Historical Sites*, London, 1899.
- Vasiliev, A., *History of the Byzantine Empire 324-1453AD.*,Madison, 1958.
- Vasiliev, A., *The Russian Attack on Constantinople in 860 AD.*, Cambridge, Mass., 1947.
- Whitby, M., "The Long walls of Constantinople", *B*, 55(1985), pp. 560-583.
- Zenghelis, C., "Le feu gregeois et les armes à feu des byzantines", *B*, 7(1932), pp. 265-286.

دار الحريرى للطباعة ت: ٣٢٠١٢٨٥



تصويب الأخطاء المطبعية الواردة بالكتاب
الطبعة الأولى

رقم الصفحة	رقم السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٢٠	من	ملئ
٣٢	١٨	بن هشام	ابن هشام
٣٦	١٧	إلى الإسلام	في الإسلام
٤١	٧	اكيدر ابن	أكيدر بن
٤٣	٨	دل على	دل على شيء
٤٤	٥	عمرو	عمرو بن
٤٥	١٢	الجراح	بن الجراح
٥٨	١٥	فيعزى إليه سفيان	سفيان فيعزى إليه
٦٠	٤	وفاحتوت	واحتوت
٦٧	٦-٧	٦٥٥م/٣٤هـ/٦٥٤م	٦٥٤-٦٥٥م/٣٤هـ
٦٩	١٨، ١٩	بن	ابن
٧٣	٣	ما أنه مع	ومع
٨٣	٧	٣	(٢)
٩١	٣	١	(١)
٩٧	١٢	حد	على حد
١٠٠	٣	معامل	معاقل
١٠٥	٤	ابن	بن
١٠٩	١	الأ،اضول	الأناضول
١٢٠	٢٢	ابن	بن
١٢٣	١٨	لجا	لجأ
١٢٤	١٠	ثلاثة	ثلاث
١٣٧	٥	٢	(٢)
١٤١	١٩	للسرى	للأسرى
١٤٢	١٢	ينجح	ينج
١٤٣	٣	دازيمان	دازيمون
١٤٣	٨	فحصره	فحاصره
١٤٣	١٢	ثلاثة	ثلاث
١٤٤	١٣	الرمني	الأرمني
١٥٠	١	على أن	على
١٥٠	٣	أمارة	إمارة
١٥٣	٨	أرمينيا	أرمينية
١٥٨	٢٢	L'iles	Les îles
١٥٩	٢٤	L'iles	Les îles
١٦٢	٢٠	٢٠٦	٢١٦
١٧٣	١١	ثلاثة	ثلاث
١٧٣	١٣	Gongylesl	Gongyles
١٧٣	٢٣	Cere.	*Cer.*
١٨٨	٢٤	L'iles	Les îles
٢٢٤	١٩	١	(١)
٣٠٢	١٨، ٢٠	Porphyrognitus	Porphyrogenitus
٣٠٢	٢٧	tire	tiré
٣٠٧	٢٤	سطر مكرر	يحذف
٣٠٧	١٦	(١)	يحذف
٣٠٨	١٥	(١)	يحذف
٣٠٨	١٧	(١)	يحذف
٣٠٩	١٢	(١)	يحذف